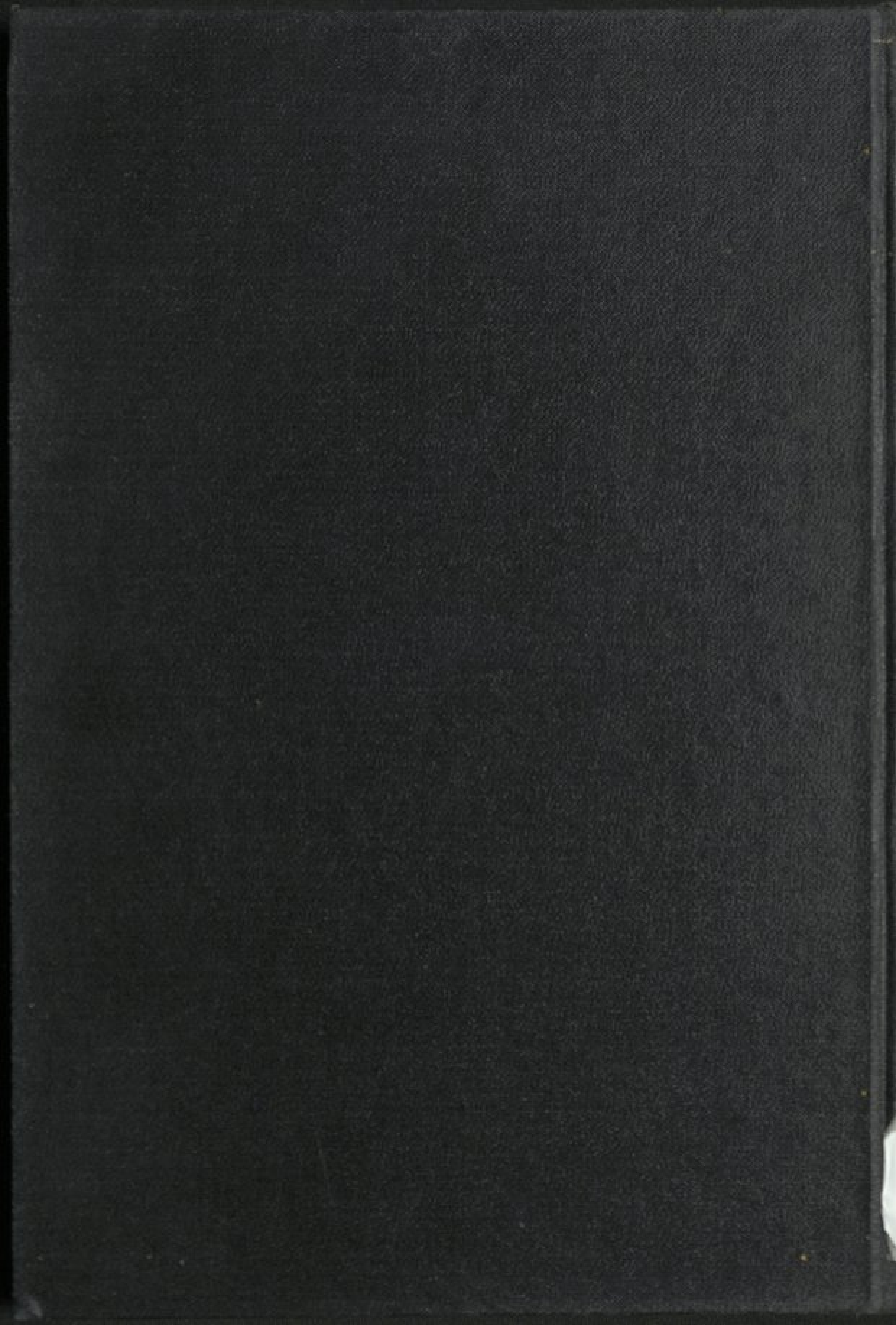
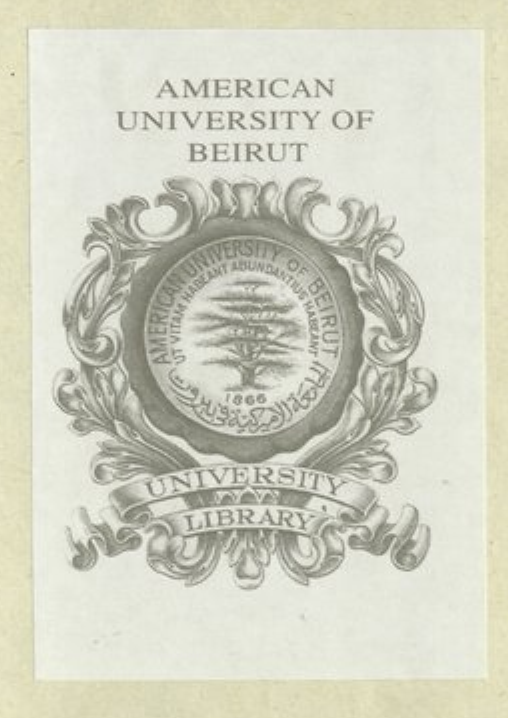
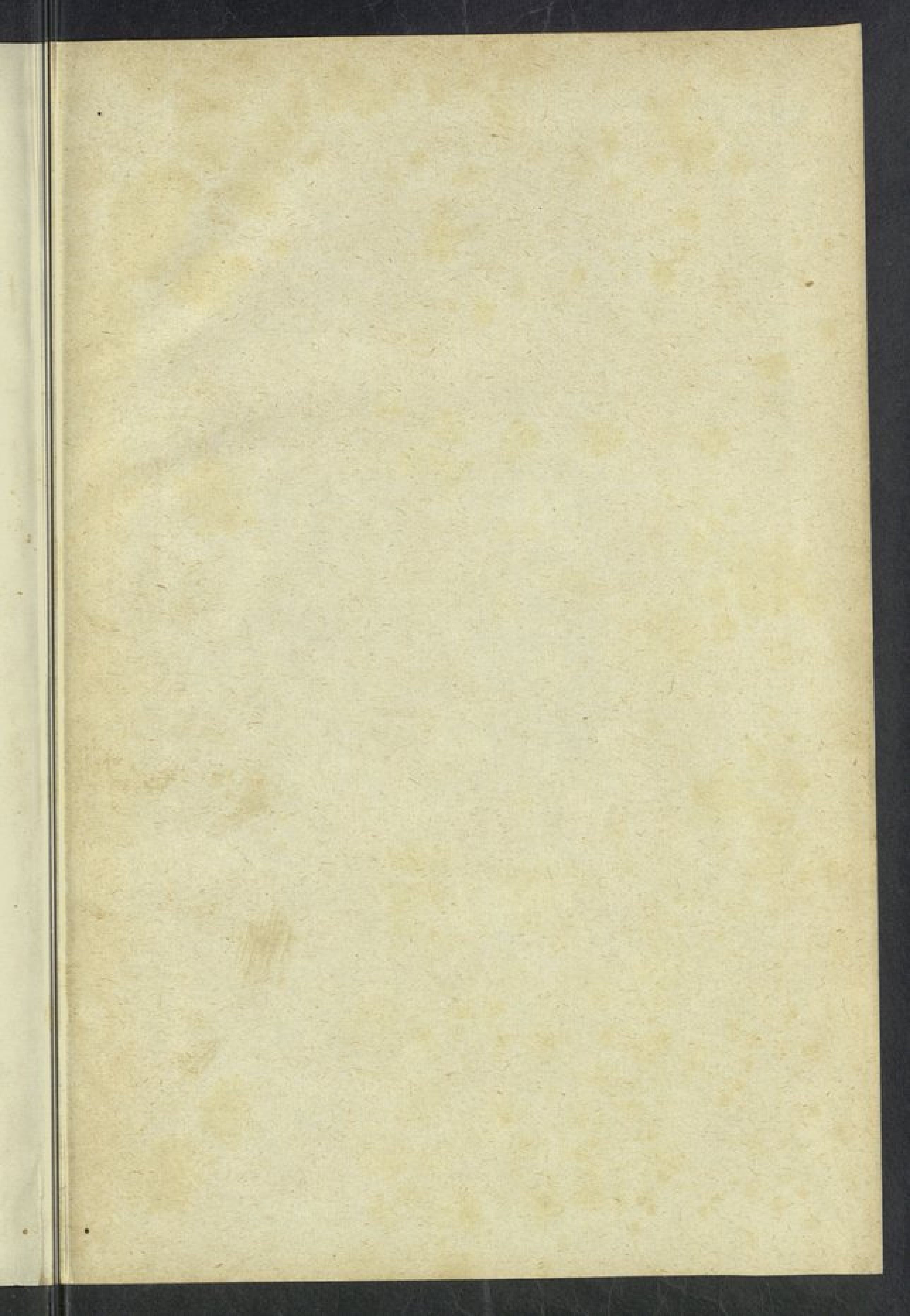
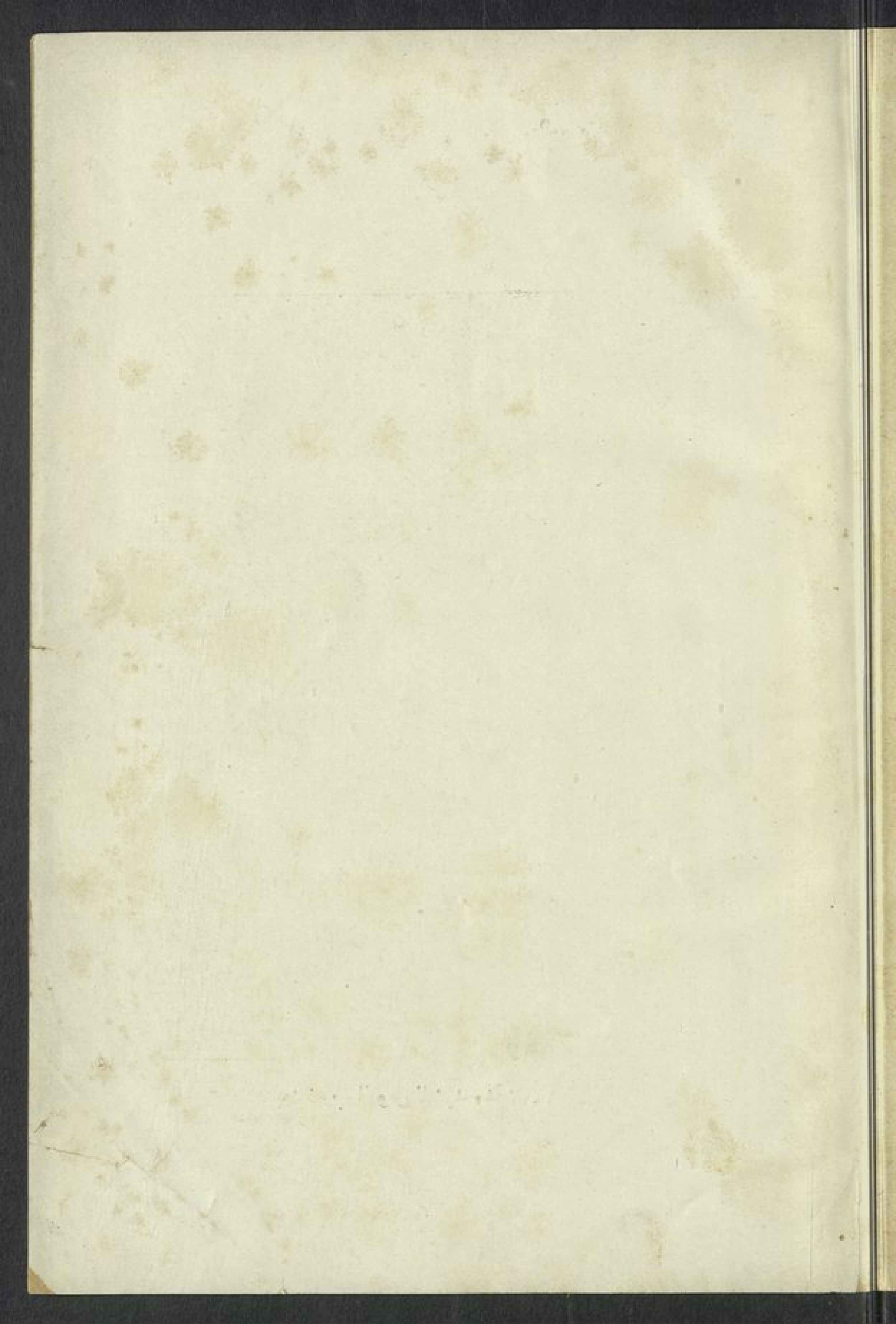
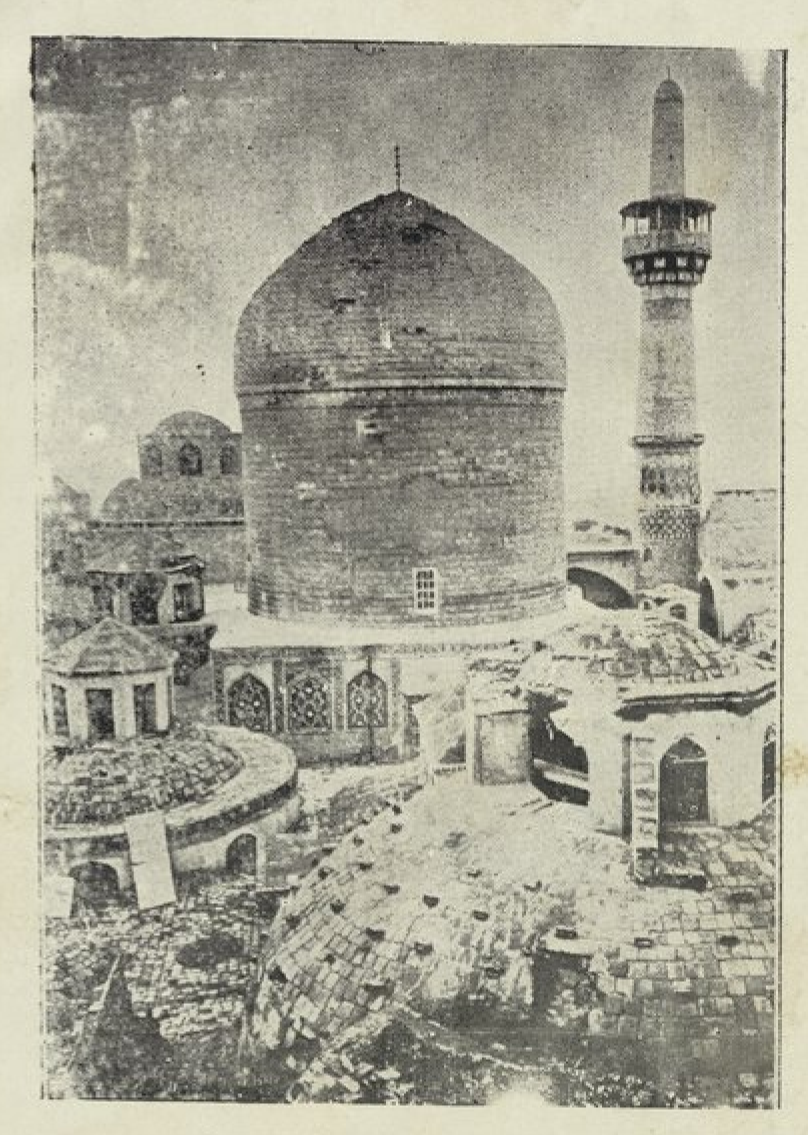



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY







بعد ضرب الروس للمشهد سنة ١٩١٢

عقيدة الشيعة

وهو كتاب عن تاريخ الاسلام في ايران والعراق



تأليف

دوايت م. رونلدسن

دكتور في اللاهوت ، ودكتور في الفلسفة

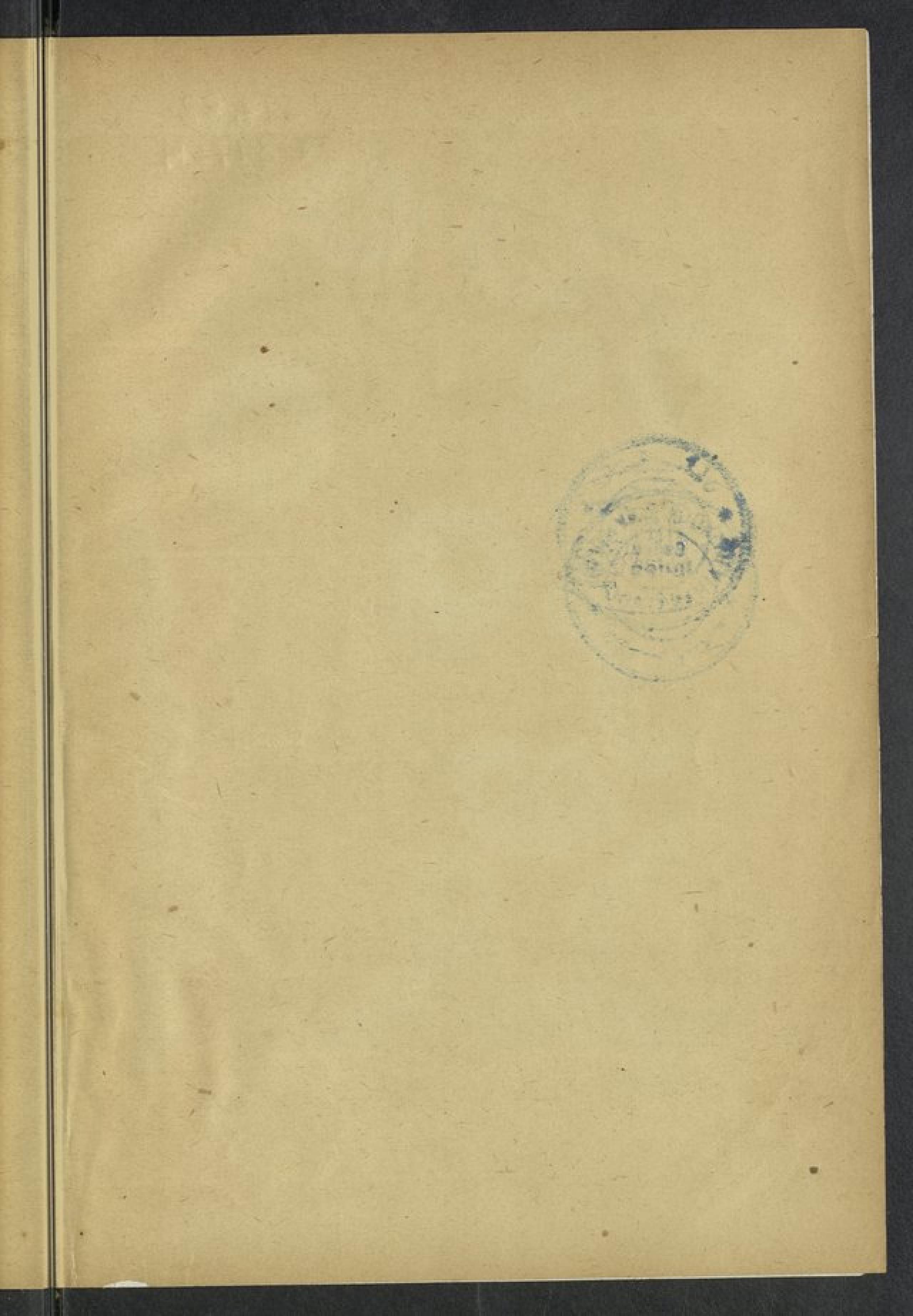
تعريب

ع. م

الناشر

مكتبة الخانجي ومطبعتها

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر



مقدمة المعرب

أطلعت اثناء قيامى بوضع كتاب عن الشيعة الاثنى عشرية ، على كتاب The Shi, ite Religion لدونلدسن فاعجبنى أسلوبه وطريقته كثيرا ، واعتقد أنه أول كتاب باية لغة غربية ظهر يبحث موضوع الشيعة الاثنى عشرية ، بمثل هذه الصورة الشاملة الوافية ، وقد رأيت تسهيل تناوله على الذين لا يعرفون غير اللغة العربية ، ويهمهم الاطلاع على المذاهب والمعتقدات الدينية ، فقمت بترجمته ونشره ، بغية إطلاعهم على ما يراه أهل الغرب فينا .

فالشيعة الامامية أو الاثنى عشرية يمثلون أكثرية أهل السواد فى العراق (أى المنطقة الرسوبية منه) ونحو تسعة أعشار أهل إيران ولهم جماعات كبيرة فى بلاد القفقاز من الاتحاد السوفييتى ، وجبل عامل فى بلاد الشام وجزر البحرين والكويت وسواحل الاحساء وفى بلاد الهند ، وكانوا حتى زمن قريب يعيشون فى عزلة عن باقى الطوائف الاسلامية يتسترون فى البلاد التى ليس لهم الحكم بها بالتقية . وكانت معلوماتنا عنهم فى أكثر الاحيان ناقصة غير وافية وأكثرها متناقضة ، وان ظهور كل كتاب من أحد الطرفين عن الطرف الآخر لا يؤخذ بالمأخذ الحسن عند ذلك الطرف مهما كانت درجة الامانة فى البحث العلمى ، فيؤدى إلى اثارة أحقاد وضغائن نحن فى أشد الحاجة إلى عكسها . بالوقت الذى أجد من الحيوى اللازم أن تتفاهم الامم الاسلامية كافة وتعمل على توحيد جهودها لمكافحة الاستغلال الغربى والافكار الغريبة التى تهدد حياة الامم الاسلامية من الصميم . ولا يمكن هذا التفاهم إلا إذا فهمت كل طائفة من المسلمين وجهة نظر الطائفة الاخرى على حقيقتها وليس ما يكتب على سبيل الدعاية ومحاولة رسم صورة جذابة بهية لا تمثل الاصل تمثيلا صادقا . وقدحاول دونلدسن كما سيرى القارىء أن يحصل صورته

قريبة بقدر الامكان من الاصل وأن يتجرد عن كل تحيز أو تحزب إلى طائفة ضد أخرى وإنى لا أتفق مع كل ماجاء به من الاراء سواء عن الاسلام بصورة عامة أو عن الشيعية بصورة خاصة ، ولم أشأ أن أعلق عليه أى تعليق لئلا يفسر ذلك بغير الروح التى كتبت بها . وأملى أن يمكننى الزمن فى المستقبل من نشر الابحاث التي اشتغلت بها أكثر من ١٦ سنة عن الشيعية ، عندما تتقدم العقول وتتهيأ لقبول الاراء الصريحة برحابة صدر

والله ولى التوفيق

ع ٠ م ٠

فاتحـــة الكتاب

للمؤلف

كتب الاستاذ براون سنة ١٩٢٤ قائلا « مازلنا نفتقر إلى مؤلف شامل معتبر عن عقيدة الشيعة بأية لغة غربية » (ص٤١٨ من كتابه Persian Literature in Modern Times — ولم اطمع عندما وضعت هذا المصنف ، أن أدرك هذا المدى البعيد إلا انني أكون قد أديت خدمة ترضيني إذا كان هذا الكتاب وسيلة لتقديم دراسة موضوع الاسلام الشيعي بأى حال من الاحوال .

وقد بذلت جهدى فى سبيل إرضاء القراء الذين ليس لهم الاطلاع التام فى الموضوع ، فاوردت حكايات عديدة عن حياة الائمة وأصحابهم ووصفت مدن الزيارة حيث تقوم المشاهد بقبابها المذهبة ، بعد أن زرتها أخيرا . والسائح الغربى مقيد بقيود شديدة فى مشاهداته الشخصية فلا يسمح له بدخول المشاهد لكننى بعد أن عشت نحو ١٦ سنة فى مدينة المشهد تمكنت من دراسة أعظم مشهد منها ، دراسة قريبة ، فرأيت أن أصف كلا من المشاهد بذكر خلاصة تاريخية له أرسم صورة جلية لأمل وإيمان الالوف من المسلمين فى الهند والعراق وسوريا ومصر ، الذين يقطعون المسافات الشاسعة فى سبيل غفران ذنوبهم .

كانت المراجع الاساسية للاخبار السنية والشيعية باللغة العربية ، وقد استفدت فائدة كبيرة من المراجع الفارسية أيضا ، وتصانيف الكتاب الغربيين لكن مثابرة عدد كبير من اساتذة « العربية » وصداقتهم ، لا يمكننى إلا أن أذكرها بالشكر الجزيل ، فاشكر الاستاذ جيوت من هارفارد والاساتذة مكدونلد وشلابير من مدرسة كندى للبعثات فى هارتفورد ؛ حيث كتبت قسما من هذا الكتاب فى أول الأمر كرسالة عن الأئمة الاثنى عشر كجزء

من إنجاز ما يستلزمه الحصول على درجة دكتوراه فى الفلسفة ، وأشكر الاستاذ نيكلسن من جامعة كمبرج لتفضله فى إبداء نقداته الثمينة على المسودة الاولى والاستاذ جاكسن من جامعة كولومبيا الذى عندما كان فى المشهد قبل سنوات عديدة قرأ المسودات الاصلية وأبدى نصيحته الثمينة بالاستمرار على العمل وأشكر شخصيا الدكتور صموئيل م . زويمر محرر مجلة العالم الاسلامى والدكتور روبرت أى. سبير من لجنة البرسبيتريان للبعثات الاجنبية لمساعدتى فى إبحاثى عن الشيعة فى إيران . واغتنم الفرصة بذكر عطف أمى وأختى ، اللتين كان تشجيعهما لى قد جعل منهما شريكتين فى تصنيف كتابى فى هذه البلاد النائية .

مدينة المشهد فى إيران

٢ كانون الثانى ١٩٣٣

دوايت م . دونلدسن

﴿ محتويات الكتاب ﴾

الباب الرابع : (على الامام الاول)

نفوذ عبد الله بن سبأ ـ على وصى محمد ـ المبالغة فى مقدرته العسكرية ـ شدة ارتباط على بالرسول ـ مساعدته فى وضع علم النحو ـ معرفته للقراءة والكتابة ـ علمه الخاص بالقرآن ـ الكتب السرية لدى الائمة ـ الاقوال المنسوبة إلى على ـ معجزاته ـ قصص لها علاقة بمعراج محمد .

الباب الخامس : (مشهد على بالنجف)

الشك فى مدفن على ـ محراب مسجد الكوفة ـ أحاديث عن النجف قديما ـ ذكر النجف فى كتب جغفرا فى العرب القديمة ـ قصة هرون الرشيد فى الصيد ـ بناء المشهد بامر عضد الدولة سنة ٩٧٧ م . ـ هولا كوخان لا يتعرض للنجف ـ ابن بطوطة وليلة ٢٧ رجب ـ ما أصاب المشهد من الاضرار من غزوات تيمور ـ نفوذ مجتهدى النجف على زمن الصفويين ـ زيارة نادرشاه وزوال شكوكه ـ امثلة عن نفوذ النجف فى سياسة إيران الحديثة ـ فضل زيارة قبر على ـ بعض الادعية المختارة .

الباب السادس : (الحسن الخليفة الذى اعتزله الخلافة)

تلخيص المسعودى لاخبار خلافة الحسن ـ إعتراف الحزب العلوى به بعد وفاة على ـ قضية المقدرة على الزعامة أو التعيين ـ تعيين على للحسن والحسين وعلى بن الحسين ـ رواية الدينورى عن خلافة الحسن ـ تفاصيل أخرى من اليعقوبى والسيوطى ـ مدة خلافة الحسن ـ أخبار الرسول عن انتهاء الخلافة ـ شبه الحسن بالرسول ـ اخلاقه ـ معجزاته وهى أقل من معجزات باقى الأئمة ـ عدة محاولات لتسميمه ـ دفنه فى البقيع .

الباب السابع : (الحسين الشهيد)

ميل على للحسن والحسين ـ التفكير بجعل الخلافة ارث ـ وصية معاوية ليزيد ـ ورود مسلم بن عقيل إلى الكوفة ـ نصيحة ابن عباس للحسين فى عدم الذهاب إلى الكوفة ـ تعيين عبيد الله بن زياد واليا على الكوفة ـ مقتل مسلم ـ الحسين فى القادسية ـ إضطراره على القتال ضد قوات متفوقة فى كربلا ـ حب محمد للحسن والحسين ـ مشاهد الرأس فى عسقلان والقاهرة وكربلا .

الباب الثامن : (كربلا أشهر المشاهد الشيعية)

موقع مدينة كربلا ـ فضل الزيارة ـ التربة ـ تربة الحسين وحدها لها خواص نافعة ـ السلاسل على الابواب ـ أقوال جغرافى العرب والسواح عنها ـ قافلة من الزوار ـ مقارنة بين سياسة التأمين وفضل الزيارة ـ الاحاديث الواردة فى فضل كربلا ـ وصف الروضتين ـ أقدم رواية عن فاجعة كربلا ـ الخوف من اليمين الكاذبة فى حضرة العباس ـ كنس ضريح الحسين ـ قراءة المآتم الحسينيه .

الباب التاسع . (الامام على الاصغر زين العابدين)

الكيسانية أو شيعة محمد بن الحنفية ـ الادعاء بأن الحسين هو الذى نص على أمامة على الاصغر ـ نجاته من القتل فى كربلا ـ استنكار الاعتداء على آل البيت ـ خروج ابن الزبير على الامويين ـ حادثة الحرة ـ زين العابدين يتبرأ من الثورة ـ حصار مكة وضرب الكعبة بالنار ـ إنسحاب الجيش بعد وفاة يزيد ـ خلافة ابن الزبير فى مكة ـ التوابون ـ ثار المختار ـ إختلاف النظريات فى الخلافة ـ تحكيم الحجر الاسود ـ أم زين العابدين أميرة فارسية ـ حياته الخاصة ، و (إحتمال) موته مسموما .

الباب العاشر : (الامام محمد الباقر)

الامام مفسر الشريعة الاول ـ ادعاؤه علم النبيين ـ إحتجاجه عن الامامة امام الخليفة هشام — نصح أخاه زيد بعدم الخروج مع الكوفيين — هل من شروط الامامة الخروج بالسيف — عداء زيد بن الحسن له — معجزات الامام الباقر — منافسة عبد الله بن على بن عبد الله بن الحسين له — أقوال للامام تدل على محبته للسلم — قصة سمه وهو فى سن السابعة والخمسين .

الباب الحادى عشر . (قيام بنى العباس)

عدم الاقتناع بان الامام رئيس روحانى فقط — تولى مروان الثانى الخلافة — إضطراب خراسان — الدعوة العباسية باسم آل البيت — فقدان الامويين قوتهم العسكرية — كره الموالى والاعاجم الشديد لحكم بنى أمية — إتحاد الكيسانية والحزب الهاشمى — الدعوة فى خراسان — مقتل الامام إبراهيم — إنتصارات أبى مسلم الخراسانى — السفاح — أبو جعفر المنصور — مقتل أبى مسلم — أين كان الامام جعفر الصادق ؟

الباب الثانى عشر : (الامام جعفر الصادق)

كثرة الرواية عنه — قلة معرفتنا بحياته الخاصة — ابتعاده عن السياسة — ماوصفه به الشهر ستانى — علاقة المنصور به — مدرسته السقراطية فى بستانه بالمدينة — أبو حنيفة فقيه الكوفة — بعض الاقوال المنسوبة إلى جعفر الصادق — الامامة وعلاقتها « بنور محمد » وفاة الامام — هل سم أيضا — دفنه بالبقيع .

الباب الثالث عشر : (المدينة ، مدينة الرسول وآله)

وصف المستوفى — إحتراق مسجد الرسول سنة ١٢٥٦ م . — البطاءة

الباب السادس عشر : (مشهد الامام الرضا ، فى طوس)

الباب السابع عشر : (الامام محمد التقى الذي رعاه الخليفة المأمون)

الباب الثامن عشر : (مشهد الكاظمين)

الباب التاسع عشر : (الامام على النقى ، السجين عشرين عاما) .

الباب العشرون : (الامام الحادي عشر ، الحسن العسكرى)

الباب الحادى والعشرون : (الامام الغائب المنتظر)

قبور العلماء والشعراء والصالحين — الزيارة بالنيابة .

الباب السادس والعشرون : (ظهور البويهيين)

منطقة بحر قزوين — الديلم وتطوعهم فى الجيوش — الحسن بن على الاطروش — سبب تشيع الديلم — قصة رؤيا أبى شجاع بويه — ابناء بويه فى خدمة مرداويج — تقدمهم فى الدولة وفتوحاتهم المستقلة — الالقاب الضخمة التى كان يمنحها بنو العباس — معز الدولة يسمل عينى المستكفى — تعازى عاشوراء — عضد الدولة — تعظيمه للخليفة فى الحفلات العامة — النشاط فى التأليف بتشجيع البويهيين للشيعة .

الباب السابع والعشرون : (أوائل جمع الحديث لدى الشيعة)

عدم تدين الحديث فى زمن الامويين — الخلاف بين مالك بن أنس والسلطات السياسية — كيف حفظت الاحاديث فى مدح على — تنوع الاحاديث التى جمعها احمد بن حنبل تأثير العباسيين على جمع الصحاح — النسائى وما أصابه فى دمشق — الترمذى وفضائل أهل البيت — جمع أحاديث الشيعة على زمن البويهيين — تراجم محدثى الشيعة — الكلينى والكافى فى علم الدين — الصدوق (ابن بابويه) ومن لا يحضره الفقية — الطوسى والتهذيب والاستبصار — الاحاديث الشيعية وعصمة الأئمة — ما يحويه الكافى — مقارنة بين محتويات الكتب الاربعة للحديث عند الشيعة .

الباب الثامن والعشرون : (مجتهد والشيعة وعلماؤهم المتأخرون)

ميل الشعوب الفاتحة إلى إتخاذ المذهب المعارض لمذهب الدولة المغلوبة — تكتم علماء الشيعة — سقوط البويهيين ونهاية المعاملة التفضيلية للشيعة — الطبرسى — مدى إشتراك الشيعة فى الحروب الصليبية — كبار علماء الشيعة

فى العهد المغولى — العلامة الحلى — قيام الصفويين — علماء الدور الصفوى

الباب التاسع والعشرون : (عقيدة الامامة)

هل الامام ضرورى — رأى علماء الامامية — معنى لطف الله — الأئمة حفظ الشريعة — الانتفاع بالامام الغائب — الامام للامة « كالقلب للجسد » — الانسان عالم صغير الامامة بنص من الله والرسول — لا يحتاج الايمان أمرا أهم من الامامة .

الباب الثلاثون : (عصمة الأئمة والانبياء)

معنى العصمة — براهين المجلسى التسعة على وجوب العصمة — لاحد لعصمة الأئمة — تفسير الآية ١١٨ من البقرة — الاحاديث الدالة على العصمة — التفسير العقلى — درجات الأنبياء والرسل أربعة — طهارة آل البيت — رد المجلسى على الاعتراضات .

الباب الحادى والثلاثون : (أصل الفكرة الاسلامية فى العصمة)

ليست الفكرة مأخوذة عن العهدين القديم والجديد — إحتمال أخذها عن الكتب غير المعترف بصحتها — القرآن لا يؤيد العصمة — عدم التطرق إلى ذكرى العصمة فى كتب الجدل القديمة — أصل فكرة العصمة يرجع إلى الشيعة — تفسير الشيعة لبعض الايات — تطور الفكرة فى زمن الامامة التاريخية — رأى الغزالى لا يؤيد الفكرة — الرازى أول من قال بها من السنة — تأثير الصوفية والمعتزلة فى تبادل الآراء بين الطائفتين — قبول فكرة العصمة بالاجماع أخيرا .

الباب الثانى والثلاثون : (شفاعة الأنبياء والأئمة)

محمد يسفه أراء اليهود لأعتمادهم على شفاعة أنبيائهم — شفاعة محمد من الاعتقادات العامة عند المسلمين — إيضاح هرغرونيه لعقيدة الشفاعة عند المسلمين – شفاعة الحسين عند الشيعة – التشفع بالشهداء والصالحين – الهداية لا تكون إلا بائمة الحق — التشفع بالأئمة فى أدعية الزيارة – الزيارة الجامعة — وجوب معرفة الامام — تحديد العهد .

الباب الثالث والثلاثون : (قيام الفرق التى لها علاقه بالشيعة حديثا)

العقائد المنسوبة إلى الاسماعيلية – أدوار الاختفاء والشهور – الشيخية – خلاصة تعاليمهم – الميرزا على محمد والبابية – بهاء الله والبهائية – تطور عقائدهم – جميع هذه الفرق تستند على فكرة انتشار الشيعة للامام الغائب .

المراجع

فهرس الاعلام

مقدمة المؤلف

إن الوحدة القومية لن تتم بسرعة ، وإن السرعة الظاهرة التى نجح فيها محمد ﷺ بتوحيد القبائل المستقلة فى الجزيرة العربية ، يقتضى أن تفهم بانها كانت بصورة ظاهرية ، وليست وحدة تامة كاملة ، فالمناطق الصحراوية المنعزلة عن بعضها والتى تقطنها القبائل العربية تقع بين الروم والفرس . وكانت الصحراء حاجزا منيعا دون توغل هاتين المملكتين وتدخلهما باستقلال القبائل . فلما جاء رسول من العرب ، وقام يعلمهم أمورا كانوا يسمعونها من القبائل والشعوب المجاورة ، اتسع أفق تفكيرهم حتى صارت لهم نظرة عالمية ودعاهم إلى التوحيد فربطهم برابطة متينة مع الامم الموحدة لله . وكانت قصص إبراهيم ويوسف وموسى تتفق وبيئتهم اتفاقا تاما فكانوا ينظرون بازدراء إلى حياة أهل المدن التى أفسدتها المدنية ، وصاروا يعتبرون انفسهم أنهم ممثلو دين إبراهيم الحقيقيين وهم يشعرون بتفوقهم التام على الأمم المجاورة .

فلما إتحدت القبائل العربية بزعامة محمد ص، أدركت قوتها العددية ، وشعرت بان الاسلام هو الذى وحد بينها بعد ان كانت متنافرة فيما بينها ، ونشك بالحقيقة فيما إذا كان هذا الحماس الدينى هو كافيا وحده لحملهم على القيام بهذه الغزوات الواسعة على البلاد المجاورة . فان معظم فتوحاتهم العالمية تم بعد وفاة محمد ﷺ وقد واصلوا اندفاعهم بسبب الحاجة الاقتصادية الشديدة ووصفهم ارنولد فى كتابة Preachisi of Islam (ص ٤٦) بانهم « شعب نشيط فعال دفعته يد الجوع والحاجة إلى ترك صحاريه القاحلة واجتياح الأراضى الغنية للشعوب المجاورة المترفهة » . .

وكان واجب محمد ﷺ من الصعوبة بمكان فقد لجأ هو وعدد من مستضعفى عشيرته إلى المدينة ومرت ثمان سنوات قبل أن يفتح الله له مكة . وحج بعد ذلك بسنتين إلى الكعبة ، وهى حجة يمكن وصفها بانها استعراض النصر ، وكان بصحبته ألوف الناس من القبائل كافة . ولما عاد من هذه الحجة أخذه المرض ولم يلبث بعد وصوله المدينة طويلا حتى وافاه الاجل . فكانت المشكلة الأولى التى جابهها المسلمون بعد موته مباشرة هى : من سيخلفه ؟ وكان بالامكان إختيار شخصية قوية لها من القابلية والكفاءة اللائقة للزعامة وذلك من بين أصحاب الرسول المقربين . ولكن الرسول أعلن أنه خاتم النبيين وآخرهم ، ولم يكن له ولد ليتولى زعامة القبائل المتحدة تحت رايته . ومع ذلك فلم يكن هناك أمل لبقاء هذه الوحدة بدون خليفة لمحمد يفسر لهم أمور دينهم وله السلطتان القضائية والسياسية .

وما أسرع ما بعثت القضية الحيوية فى من يخلف محمدا ﷺ روح التحاسد والبغضاء والضغائن القديمة من مرقدها ، وأظهرت حقيقة الوحدة الوقتية التى تمت ، وهى لا تزيد على كونها توحيد صفوف أمة ما فى زمن الحرب .

وبظهور قضية الخلافة حدث أعظم انشقاق فى الاسلام ، فمن سيخلف محمدا ؟ وهل نصب هو عليا صهره وأبا حفيديه خليفة له ؟ أو هل كان يرى أن ينتخب وجوه الأمة ، خليفته فى إجتماع ما ؟ وهل يدل أمره أبا بكر بالصلاة بالناس على إختياره للخلافة ؟ هذه المسائل هى التى شقت الاسلام إلى شقين ، وأدت أخيرا إلى إمتشاق الحسام ، وهيأت الاساس التاريخى لتطور عقيدة الامامة .

فالحزب الذى قال بان محمدا نص على خلافة على وأنه هو الامام من بعده عرف باسم شيعة على . وقد وصفوا بتآليفهم الكثيرة ، مؤكدين على النص الالهى فى الامامه وأنها من الله ، وبلغت على لسان نبيه . ويعتقد الشيعة الخلافة هى حق من حقوق الامام ، لكن نفاق بعض الصحابة وكيدهم

أدى إلى إبعاد الامام الحق عن حقه . أن عليا وان إنتخب للخلافة بعد الغاصبين الثلاثة ، لكنه أغتيل بعد مدة قصيرة . ومنذ ذلك الوقت لم يتول الخلافة أحد من أئمة الحق . ويستعمل الكتاب العرب الذين يعتقدون بالخلافة وينظرون نظرة الازدراء إلى الامامة ، كلمتى الخلافة والامامة فى بعض الاحيان للدلالة على معنى واحد . ولكننى اقتصرت بكلمة إمامة على الذين نص عليهم الله واعترف بهم الشيعة .

ويعتقد الشيعة الامامية باثنى عشر إماما . وهم غير متعاصرون كحوارى المسيح،لكن محمدا صلى الله عليه وسلم نص على أولهم ثم نص كل منهم على خلفه . ودامت الامامة « التاريخية » أو دور الأئمة الاثنى عشر ٢٢٨ سنة بعد وفاة محمد ص . وهى العقيدة الاساسية عند الشيعة فى الاسلام ، وان عدم توصل الأئمة إلى الزعامة السياسية الفعلية فى الدولة الاسلامية التى كانت بيد الخلفاء لايغير من عقيدة الشيعة فى أئمتهم شيئا أو فى إعتقادهم بعصمتهم الفكرية والخلقية . فنرى أن علماء الشيعة إذا أرادوا اثبات عقيدة أو قضية فليس عليهم سوى رواية حديث يوصلونه بطريق ما إلى أحد الأئمة ، لأن لهؤلاء الأئمة أن يمارسوا حقوق محمد (ص) ويقومون بهداية المؤمنين فى تفسير القرآن والحديث .

ان المقارنة بين الطائفتين الرئيستين فى الاسلام مع الكاثوليك والبروتستان فى النصرانية ، لا يؤدى إلى إدراك الصورة الصحيحة فان أهل السنة والشيعة كالكاثوليك نظريا بالاصل ، وكلا الطائفتين تعتقد أن بضرورة وجود خليفة لمحمد . ويمكننا القول لو ان الامامة النظرية عند الشيعة تم لها الحصول على السلطتين الزمنية والروحية لفاقت بذلك البابوية حتى فى المع عصورها الذهبية . وقد قال لامنس أحد كبار المستشرقين فى الصفحة ١٤٧ من كتابه Islam Beliefs & Institu tions وهو نفسه كاثوليكى مايلى.

« والخليفة عند السنة هو رئيس السلطة الزمنية ومجرد من كل سلطة تتعلق بالعقيدة ، فليس هو سوى حامى الشريعة والذائد عن حياض الاسلام ،

وهو لا يشبه الامام عند الشيعة الذى هو حبرها الأكبر ومعلمها المعصوم . وهو ليس خليفة محمد الزمنى فحسب بل وارث مركزه والمنصوص عليه منه ومفسر وحيه . وهو بكلمة مختصرة الزعيم الدينى والدنيوى ، ومركزه أسمى من مركز البابا فى الكنيسة الكاثوليكية إذ يضيف على صفة العصمة ، صفة التنزيه والنصب من الله . فهو الطريق الوحيد للوصول لمعرفة الله .

وفى إيضاح صفة الأئمة سنرى أن عقيدة العصمة التى وضعها مجتهدوا الشيعة وعلماؤهم قد سبقت قبول عقيدة عصمة الانبياء بعدة قرون عند أهل السنة والجماعة . وقد أوردت بعض الادعية والصلوات المستعملة عند الشيعة هذا اليوم لبيان الجانب العملى من اعتقاد الشيعة فى شفاعة الأئمة . وقد نقلتها عن كتب الزيارة العربية والفارسية .

واعتقاد الشيعة فى أن الامام الثانى عشر لم يمت وإنما أختفى بمعجزة قبل أكثر من الف سنة وينتظر رجوعه وانتصار الدولة الالهية الاسلامية التام على يديه ، فى العالم كافة ، وهى عقيدة كان لها أهم تأثير فى تاريخ إيران . وقد اعتبر هذا الانتظار مرارا عديدة ، خطرا سياسيا وتعرض بسببه الشيعة لاضطهادات شديدة ، ولكن الامل فى ظهور الامام الثانى عشر لا زال باقيا وقد قوى بعد ما أصاب البلاد الشيعية من المصائب على يد المغول والتتر والاتراك والافغان ، فهدمت مشاهد أئمتهم وذبح من لم يتستر منه بالتقية دون رحمة . وزاد الاعتقاد فى إبتداء القرن السادس عشر فى نفوذ الامام الغائب حتى أصبحت الشيعية على زمن الصفويين المذهب الرسمى فى إيران . وهذا الانتظار المستمر لظهور الامام قد أدى إلى انشقاق فرق عديدة ، ففضلا عن الفرق الشيعية التى ظهرت كل إمام حول الامام الذى سيليه ، فقد برزت فرق أخرى كالشيخية والبابية والبهائية ، وهى ترجع باصلها إلى خيبة الشيعة فى عدم ظهور الامام .

الباب الأول

(قضية الخلافة)

يتطلب درس الأمانة فحص الأخبار التي حيكت في سدى التاريخ وعلم الكلام عند المسلمين فنرى في المحل الأول أن الشيعة يعلقون أهمية كبرى على الخبر الوارد عن أن محمدا ﷺ عند عودته من حجة الوداع نزل مكاناً يعرف بغدير خم وفيه أعلن لمن كانوا معه رغبته في نصب علي خليفة من بعده. وينقل ابن واضح اليعقوبي (المتوفى سنة ٨٩١ ب. م.) وهو اهم مؤرخ عربي قديم إشتهر رواية الاخبار المؤيدة للعلويين وميله اليهم باختصار ما يعتقد أن النبي قاله في غدير خم. قال (١) :

وخرج ﷺ ليلا منصرفا إلى المدينة فصار إلى موضع بالقرب من الجحفة يقال له غدير خم لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة وقام خطيبا وأخذ بيد علي بن أبي طالب (ع) فقال : ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال فمن كنت مولاه فعلي مولاه (٢) . . (ثم قال) أيها الناس إنني فرطكم وأنتم واردون على الحوض وأني سائلكم حين تردون علي عن الثقلين ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، قالوا . وما الثقلان يارسول الله

---

(١) كتب الاستاذ نيكلسن (L.H.A ص ٣٤٩) عن اليعقوبي فقال صنف ابن واضح اليعقوبي إحد معاصري الدينوري كتابا جليلا في التاريخ العام ، ولهذا الكتاب قيمته الخاصة لان مصنفه وهو أحد الشيعة العلوية احتفظ بالاخبار الشيعية القديمة غير الملفقة ، وقد طبع هذا التاريخ في مجلدين الاستاذ هوتسما (ليدن ١٨٨٣) وهو من أقدم المؤلفات الشيعية وأهمها وقد أعيد طبعه بالنجف ب ٣ مجلدات خاليا من الفهارس

(٢) أورد الامام احمد ابن حنبل هذا الحديث عدة مرات في مسنده الجزء الاول ٨٤ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٥٢ ، ٣٣٠ . المراجع الاخرى ذكرها H,E.M.T. Wensinck ص ١٥

قال الثقل الأكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرف بايديكم فاستمسكوا به ولا تضلوا ولا تبدلوا ، وعترتى أهل بيتى (١) .

وروى أيضا أن الرسول (ص) عند إنصرافه من غزوة الحديبية وقبل النزول بغدير خم باربع سنوات كاملة ولثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة أيضا ، قال « من كنت مولاه فعلى مولاه(٢) »« وقد سميت غزوة الحديبية» بمواعيد المشركين(٣). كما سميت آخر حجة للرسول إلى مكة . بحجة الوداع(٤) أن تكرار هذا القول الاساسى نفسه للرسول فى الحالتين يدل بوضوح على إحتمال كون أحدهما تكرارا للثانى . غير أن هناك ما يستدل به من تسلسل الحوادث إحتمال إعادة الرسول هذا القول فى الحالتين . فعندما غزا الرسول الحديبية سنة ٦ للهجرة لم يكن له ولد وكان حفيداه الحسن والحسين من على وفاطمة لا يزالا طفلين عمر أولهما ثلاث سنوات وعمر الآخر أربع . ولا يمكن أن يخلفه حفيداه إلا إذا اعترف بعلى خلفا له ، فانه ليس من عادة العرب ردالنسب إلى إبنته فاطمة (٥)

ولا يغرب عن بالنا أن عليا لم يكن ابن عم الرسول وصهره فحسب ، بل إن أباه أبا طالب كفل محمدا ورباه وحماه فلا غرو ان يرغب الرسول فى أن ينظر المسلمون إلى على نظرهم إلى المرجع الثانى فى الأهمية بعده . فيحتمل

---

(١) تاريخ اليعقوبى طبعة هوتسماج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) قال المسعودي (فى كتاب التنبيه والاشراف ص ٢٥٥ ، ١٨٤ طبعة دى غوية) وفى منصرفه (ص) عن الحديبية قال لامير المؤمنين على بن أبى طالب (رض) بغدير خم (من كنت مولاه فعلى مولاه) وذلك فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة . وغدير خم يقرب من الماء المعروف بالخرار بناحية الجحفة . وولد على وسيعته يعظمون هذا اليوم .
أنظر كذلك غولد تسيهر Muh. Stud ج ٢ ص ١١٨

(٣) مروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ١٥٨ طبعة باريس

(٤) « « « ج ٤ ص ١٦٠

(٥) Lectures on Mohammadanism, Sn. HURGRONJE ص ٢٨

أنه قال فى زمن غزوة الحديبية « من كنت مولاه فعلى مولاه » .

وفى خلال السنة نفسها والسنة التى تلتها تزوج محمد ﷺ ٣ زوجات اخريات وتسرى باثنتين ، وقد يدل ذلك على أنه لم يكن قانعا تمام القنوع فى أمر من يخلفه فى بيته عن طريق على فكان شديد الرغبة فى الحصول على ولد من صلبه وفى السنة التاليـة أى السنة الثـامنة للهجرة أولد جاريته مارية القبطية التى أهداها اليه صاحب مصر ، ولدا سماه إبراهيم . ففرح به الرسول فرحا شديدا وعق له فى اليوم السابع فيقال بأنه نحر له كبشا كما هى العادة ، وتصدق بوزن شعره بعد أن حلقه ، من الفضة وأمر بدفن الشعر . وهذه العقيقة هى لحلاقة شعر إبراهيم (١) وليس شعر محمد كما ذهب إلى ذلك موير فى كتابه (حياة محمد) (طبعة ١٩١٢ ص ٤٢٦) وزاد إهتمامه بمارية القبطية بعد ذلك ما أثار غيرة نسائه ومقاومتهن الفعلية (سورة التحريم) . فهل خطر لمحمد أن يحصر المركز الدنيوى ، ويجعله ارثا فى بيته ؟ انه سـؤال يصعب البت فيـه ، فيما يتعلق بابراهيم ، فان هذا الطفل لم يدرك السنتين . وبمثل ما رد به الرسـول على أزواجه فى إهتمامه الخاص بمارية أم إبراهيم ، فانه اغتم غما شديدا بموت ولده ، حتى لم يجرأ أحد من الصحابة على التخفيف عنه .

وهنا نتسائل هـل أن ما يروى عن بيعة عـلى فى غدير خم هو نتيجة لما أصاب النبى ﷺ أخـيرا من الخيبة بوفاة إبراهيم ، مضافا إلى ذلك حقيقة عدم حمل نسائه الاخريات اللواتى تزوجهن حديثا باولاد له . أما تأريخ موت إبراهيم فالمسعودى يتردد فى القطع به فى كتابه مروج الذهب)ج٤ص١٦٠) ولـكنه يجزم فى كتابه التنبيه والاشراف (ص ٢٧٤) الذى الفه بعدئذ بان وفاة إبراهيم كانت فى شهر ربيع الأول سنة ١٠ هـ . وان « من ولادته حتى موته سنة واحدة وعشرة أشهر وعشرة أيام » وتدعى الشيعة ان محمدا ﷺ

---

(١) Semitic Magic, R. C. THOMPSON ص ٢٢٩ — ٢٣١

كرر بعد ٩ أشهر من موت إبراهيم أى فى الثامن عشر من شهر ذى الحجة إعلانه « من كنت مولاه فعلى مولاه »

ويقول ابن خلكان (١) (قلت) والثامن عشر من ذى الحجة هو عيد الغدير وهو غدير خم. وخم موضع بين مكة والمدينة به غدير أو بطيحة على قول بعضهم ويقال أن رسول الله ص لما عاد من مكة بعد حجة الوداع (١٠هـ) وقف فى خم وآخى على بن أبى طالب (رض) وقال (على منى كهرون من موسى ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره وأخذل من خذله) (٢) ويعلق الشيعة على هذا الحديث اهمية كبرى .

ويذكر Hughes فى كتابه (قاموس الاسلام) ص ١٢٨ قضية ظريفة عن عيد الغدير قال « وللشيعة عيد فى الثامن عشر من ذى الحجة ، يصنعون به ثلاثة تماثيل من العجين يمائون بطونها بالعسل ، وهى تمثل أبابكر وعمر وعثمان ثم يطعنونها بالمدى فيسيل العسل تمثيلا لدى الخلفاء الغاصبين . ويسمى هذا العيد بعيد الغدير ، وهو كما يقولون ذكرى فى نصب محمد ، عليا وصيا له فى غدير خم وهو منزل بين مكة والمدينة .

ويصف الملا محمد باقر المجلسى من علماء الشيعة الاعلام (المتوفى سنة ١٧٠٠ م) خلاصة الحديث لما جرى فى غدير خم . قال .

لما انقضت مناسك الحج قفل النبى ﷺ راجعا من مكة إلى المدينة ومعه على (ع) والمسلمون . فلما بلغ غدير خم نزل هناك ، وهو مكان لم يكن نزول المسافر متعارفا فيه . والسبب فى نزوله هناك ما انزل عليه فى القرآن بلزوم نصب على (ع) خليفة من بعده . وقد انزل عليه فى ذلك عدة مرات ولم يعين الوقت لتبليغ ذلك ، وقد أخر ذلك خشية إعتراض الناس . ولوجاوز ذلك المكان، أى غدير خم لتفرق الناس وذهبت كل قبيلة ناحية .

---

(١) ابن خلكان طبعة دى سلان ج ٣ ص ٣٨٣
(٢) Wensinck, H.E.M.T. عدة مصادر ص ١٥

فأمر محمد ﷺ الناس بالاجتماع ليقول لعلى (ع) ما يجب أن يبلغهم جميعا وقد انزل الله عليـه « يا أيها النبى بلغ ما أنزل اليك من ربك ، فان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من النـاس » (سورة المائدة الآية ٦٧) . وكان لذلك الامر بنصب على (ع) خليفة ان نزل الرسول ﷺ ومن معه فى ذلك المكان .

وكان الهواء فى غاية الحرارة والمكان مملوءا من الاشـواك ، حتى كان الرجل يضع الرداء تحت قدميه من شدة الرمضاء . وأمر الرسول ان ينصب له منبر من اقتاب الابل ، فلما نصب له واجتمع الناس ارتقى محمـد ﷺ المنبر ودعا عليا إلى يمينه ، وبعد ان حمد الله واثنى عليه أخبر الناس بدنو أجله قائلا ولقد دعيت إلى ربى وأنى مجيب ، وانى مغادركم من هذه الدنيا وانى تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله وعترة أهل بيتى ، ولن تتفرقا حتى تردا على الحوض ثم قال « ألست أولى بكم من أنفسكم ؟ » قالوا « نعم » فأخذ بيد على (ع) ورفعها حتى بان بياض ابطه وقال « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأنصر من نصره وأخذل من خذله » .

فلما نزل النبى من المنبر صلى صلاة الظهر ثم ذهب إلى خيمته وأمر بنصب خيمة بجانب خيمته لأمير المؤمنين . فجلس على فى خيمته وأمر الرسول ﷺ الناس أن يبايعوه بالامامة ويسلموا عليه بأمرة المؤمنين ففعلوا نساء ورجالا وسر عمر بذلك مثل غيره » (١)

ومن المهم أن نتذكر أن المؤرخ اليعقوبى (المتوفى سنة ٨٩١ م) كان معاصرا لأصحـاب الصحاح الستة من السنة وهم البخارى ومسلم وأبو داود

---

(١) حياة القلوب للمجلسى ج ٢ ص ٣٣٩ انظر ترجمة Merrick بعنوان Life & Religion of Muhammad . وتجد وصفا كاملا لمبايعة على عن غدير خم فى كتاب مطارح الانظار باللغة الفـارسية لمحمد صالح المازندرانى طبعة بمبى سنة ١٢٨٧ هـ . ص ٩٢ وما بعدها .

والترمذى والنسائى وابن ماجة ، وكان متشيعاً لآل على ، وقد صنف تاريخه قبل المجلسى بثمانمائة سنة وقبل أن تدون أحاديث الشيعة المتداولة اليوم بخمس وعشرين سنة على الاقل . ويذكر مايلى عن وفاة النبى .

ولما قدم ﷺ المدينة أقام اياما وعقد لاسامة بن زيد بن حارثة على جلة المهاجرين والانصار وامره ان يقصد حيث قتل أبوه فى أرض الشام . وروى عن أسامة أنه قال أمرنى رسول الله ﷺ ان أغزو يبنى من أرض فلسطين صباحا ثم أعرق (١) . .

وتوفى رسول الله (٢) وكان سنة ثلاثا وستين سنة ، وغسله على بن أبى طالب (ع) والفضل بن العباس بن عبد المطلب وأسامة بن زيد يناولان الماء وسمعوا صوتا من البيت ، يسمعون الصوت ولا يرون الشخص فقال (السلام ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت أنه حميد مجيد ، إنما يريد الله ان يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا (الاحزاب ٣٣) كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور . لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتو الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور (آل عمران ١٨٥ — ٢٨٦) ان فى الله خلقا من كل هالك مصيبة ، عظم الله أجوركم والسلام ورحمة الله) فقيل لجعفر بن محمد من كنتم ترونه فقال جبريل .

وكفن فى ثوبين صحاريين وبرد حبرة ونزل قبره على بن أبى طالب والعباس ابن عبد المطلب وقيل الفضل بن العباس وشقران مولى رسول الله ﷺ ونادت الانصار إجعلوا لنا فى رسول الله نصيبا فى وفاته كما كان لنا فى حياته

---

(١) قال المسعودى فى التنبيه والاشراف ص ٢٧٣ هـ . ص ٢٧٣ « ثم سرية أسامة بن زيد يبنى وازدود من أرض فلسطين من بلاد الشام »

(٢) يتفق المسعودى مع هذا الرأى ويناقش اختلاف الاراء (مروج الذهب ج ٤ ص ١٤٥)

فقال على ينزل رجل منكم ، فأنزلوا أوس بن خولى أحد بنى الحبلى ، وكان حفر قبره أبو طلحة بن سهل الانصارى ولم يكن بالمدينة من يحفر غيره ، وغير أبى عبيدة بن الجراح يشق ويحفر وسطا وأبو طلحة يلحد وقيل انهما سابقا حفرا فسبق أبو طلحة بالحفر وصلى عليه أياما والناس يأتون ويصلون ارسالا ، ودفن ليلة الاربعاء فى بعض الليل وطرحت تحته قطعة رحله وكانت أرجوان وربع قبره ولم يسنم .

ولما توفى ﷺ قال الناس ما كنا نظن أن رسول الله يموت حتى يظهر على الأرض ، وخرج عمر فقال والله مامات رسول الله ولا يموت وإنما تغيب كما غاب موسى أربعين ليلة ثم يعود والله ليقطعن أيدى القوم وأرجلهم ، وقال أبو بكر بل قد نعاه الله الينا فقال (إنك ميت وإنهم ميتون) (سورة الزمر ٣٠) فقال عمر والله لكأنى ماقرأتها قط ثم قال لعمرى لقد أيقنت أنك ميت ولكنما أبدى الذى قلته الجزع .

« ولم يخلف ﷺ من الولد إلا فاطمة وتوفيت بعده باربعين ليلة وقال قوم بسبعين ليلة وقال آخرون ثلاثين ليلة وقال آخرون ستة أشهر (١) »

وجاء فى حديث رواه كل من مسلم والبخارى (٢) أن رسول الله ﷺ لما دنت وفاته كان عنده فى البيت عدة رجال بينهم عمر بن الخطاب فقال النبى « ايتونى بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده أبدا » فقال عمر « ان رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن وحسبنا كتاب الله » واختلف الحضور منهم من قال قربوا يكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ومنهم من

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٢٥ طبعة هوتسما ، البخاري ، الفصل ٦٣ رقم ١١ طبقات ابن سعد ٢ (٢) ص ٤٢ . (٢) H. E. M. T. WENSINCK ص ١٦١ البخارى الفصل ٣ رقم ٣٩ الفصل ٥٨ رقم ٦ الفصل ٦٤ رقم ٨٣ الفصل ٧٥ رقم ١٧ الفصل ٦٩ رقم ٢٦ ، انظر كذلك مسلم فصل ٢٥ رقم ٢٢ ، ابن سعد ٢ (٢) ٢٦ ومايليه واحمد بن حنبل ج (١) ٢٣٢ ، ٢٩٣ ، ٣٢٤ .

يقول غير ذلك فلما اكثروا اللغو والاختلاف قال النبي ﷺ لهم « قوموا . ما ينبغي أن يكون بين يدى النبي خلاف » .

وروى عبد الله أن ابن عباس كان يقول « ان الرزية كل الرزية ماحال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم (١) » .

وهناك حديث آخر تجدر ملاحظته بصورة خاصة لعلاقته بمعتقدات الشيعة فيما بعد بالأئمة ، وهو ما روته عائشة (رض) قالت سمعت رسول الله ﷺ عند ما كان صحيحا يقول أن كل نبي يخير قبل موته ، بين هذه الدنيا والآخرة فلما أضعفه المرض كان يردد (مع النبيين والصديقين والشهداء الذين ارتضيت) وورد (بل الرفيق الاعلى) فعلمت أنه قد خير فاختار (٢) .

والذى عليه الجمهور ان محمدا ﷺ مات بين ذراعى عائشة كما جاء فى حديث مروى عنها وقد أورده صاحب كتاب مشكاة المصابيح (٣)، فقد أراد الرسول ﷺ ان يستاك بضريع الارك فأخذته عائشة فلينته له وناولته إياه فاستن به وقال « لا اله إلا الله أن للموت سكرات » ثم رفع يده وقال « اللهم أغفرلى واجعلنى مع الرفيق الاعلى » وهبطت يده وقضى ﷺ .

وليس من الغريب ان يكون لدى الشيعة حديث آخر عن آخر ساعات محمد ﷺ فى الدنيا يكون فيها لعلى وفاطمة الدور البارز بدلا من عائشة . ويروى هذا الحديث عن على وذكرته عدة مصادر شيعية (٤) . فيروى ان

---

(١) COLDSACK , Selections From Muhemmadan Trabition ١٩٣٣ ص ٣٠٣ .

(٢) البخارى ف ٦٤ ر ٨٤ ، الترمذى ف ٤٦ و ١٥ ابن سعد ج ٢ (٢) ٩ ، ٢٥ ، ٦٠ احمد بن حنبل ج (١) ٢٦٧ . انظر كتاب روضة الصفا لميرخوند ج ٢ ص ١٧٢ والترجمة الانكليزية بقلم REHATSEK قسم ٢ ص ٧٠٤

(٣) GOLDSACK Selections From Mnh· Treditieus ص ٣٠٢ WENSINCK H.E· M. .T ص ١٤

(٤) روضة الصفا لمير خوند الترجمة الانجليزية ص ٢٢٦

الرسول ﷺ بلغ فى مرضه الأخير بعض الأوامر ونزلت عليه السورة المئة والعاشرة « إذا جاء نصر الله » فسأله على إذا كانت هذه آخر كلماته فقال « نعم ياعلى فقدمل قلبى هذا العالم » ثم قال بعد ذلك « ياجبريل اعنى وانجز لى وعدى » ثم دعا عليا اليه فوضع رأسه فى حجر على وتغيرت سحنته وعرق جبينه. وكانت فاطمة جالسة قربه فلما رأت ذلك قامت حزينة وأخذت بيدى الحسن والحسين وجعلت تندب أباها. ففتح الرسول عينيه ووضع رأسه على صدرها ودعا وقال اللهم الهم فاطمة الصبر ثم قال « ابشرى يافاطمة فستكونين أول من يلحق بى » وجعل يعالج سكرات الموت فأخذت تبكى بكاء شديدا فاراد على إسكاتها فقال النبى « دعها تبكى أباها » ثم أغمض عينيه وأسلم روحه.

ويميل الانسان إلى التفكير بأن هذا الحديث يمثل ما يراه الشيعة لائقا بوفاة النبى اكثر منه ماحدث بالفعل ، ومهما كان الأمر مايفضلون الاعتقاد به على حديث عائشة.

وحالما جابه المسلمون قضية اختيار خليفة للرسول يرجعون اليه فى أمور دينهم ودنياهم ، نشأ خلاف بين أقرب أصحاب الرسول له وهم الانصار والمهاجرون. فالانصار من أهل المدينة هم الذين آووا محمدا ﷺ ونصروه عندما هاجر من مكة إلى المدينة. والمهاجرون هم الذين إضطهدوا فى سبيله وهاجروا معه إلى المدينة. وقد ظهرت بوادر الشقاق قبل وفاة الرسول بين الحزبين لميل المهاجرين إلى المؤلفة قلوبهم من قريش وتفضيلهم لهم على غيرهم ما أثار غيرة الانصار. وادرك الرسول ذلك وخاف ان يحدث خلاف بين الانصار وقريش فصعد المنبر لآخر مرة وخاطب الناس قائلا (١).

أوصيكم بالانصار خيرا فانهم الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلكم ءان تحسنوا اليهم ، ألم يشاطروكم فى الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم فى الديار ألم يؤثروكم

---

(١) البخارى ف ٦٣ ر ١١ ، ابن سعد ج ٢

على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم .

ولما قبض الرسول أسرعت الانصار لتعمل على الاستئثار بالسلطة لنفسها قال الطبرى (١) « إنها اجتمعت فى سقيفة بنى ساعدة لتولية سعد بن عبادة. وبلغ خبر ذلك أبا بكر فانطلق هو وعمر وأبو عبيدة بن الجراح اليهم وسألوا عن الخبر فقالت الانصار نختار أميرا فقال أبو بكر (رض) » منا الامراء ومنكم الوزراء وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأخذ بيد عمرويدابى عبيدة . فنهض عمر وقال « أن رسول الله قد أمر أبا بكر يوم الناس وايكم تطيب نفسه ان يتقدمه « ثم مد يده وبايع أبا بكر وبايع الناس . إلا أن بعض الانصار قالوا لا نبايع إلا عليا » .

ولا يوضح لنا سبب تنازل هؤلاء الانصار عن مبايعة سعد بن عبادة وإقتراحهم مبايعة على ، وهو نفسه من قريش .وفضلا عن هذا الخبرالمختصر الذى رواه كل من الطبرى وابن الأثير فى عدم رضا الانصار ، فقد أورد اليعقوبى ما قيل من الخطب والكلمات ووصف ما جرى فى أول عهد فى الاسلام (٢) .

فان الانصار إجتمعت لمبايعة سعد بن عبادة الخزرجى فأجلسته وعصبته بعصابة وُثنت له وسادة وجاء أبو بكر وعمر والمهاجرون مسرعين واحتجوا بأن الانصار قد تجاوزوا حقهم فأجابهم خطيب من الانصار ذاكرا فضلهم فقال أبو بكر « وما ندفعكم عن الفضل وما ذكرتم من الفضل فانتم له أهل ولكن قريشا أولى بمحمدمنكم وهذا عمر بن الخطاب الذى قال رسول الله ﷺ

---

(١) الطبرى السلسلة ١ ص ١ ، ١٨١٧ . تاريخ الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ١٥٦

(٢) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٣١ وما يليها طبعة هوتسمان . وصف اجتماع السقيفة فى تاريخ الخلفاء للسيوطى ترجمة Jarret الانكليزية فى كلكتا سنة ١٨٨١ ص ٦٧ و ٧٠ وتشابه رواية اليعقوبى وكلاهما يعتمدان على ابن سعد ج ٣ (٢) ١١٠ ، ٢٠

(اللهم اعز الدين به) وهذا أبو عبيدة بن الجراح الذى قال رسول الله ﷺ أمين هذه الامة، فبايعوا أيهما شئتم» فابيا وقالوا والله ما كنا لنتقدمك وانت صاحب رسول الله ﷺ وثانى اثنين . فضرب أبو عبيدة على يد أبى بكر وثنى عمر ثم بايع من كان معه من قريش . وتكلم بعض الانصار . وقيل لهم يا معشر الانصار انكم وان كنتم على فضل فليس فيكم مثل أبى بكر وعمر وعلى . فقام المنذر بن الارقم (أحد الانصار) وقال ما ندفع فضل من ذكرت وان فيهم لرجلا لو طلب هذا الامر لم ينازعه فيه أحد » (يعنى على بن أبى طالب)

فوثب بشير بن سعد مرشح الخزرج فكان أول من بايع من الانصار وتبعته الخزرج وباقى الناس حتى جعل الرجل يظفر وسادة سعد بن عبادة وحتى وطئوا سعدا وقال عمر « اقتلوا سعدا قتل الله سعدا (١) » .

أما بنو هاشم فاظهروا عدم رضاهم بما حدث وانضم اليهم عدد من المهاجرين والانصار فتلكأوا عن بيعة أبى بكر وكانوا يريدون إنتخاب على وكان خالد بن سعيد غائبا فأتى عليا وأراد مبايعته ، ويظهر ان عليا فكر طويلا فى مخاطرته لاثبات حقه فقرر بالتالى أن لا يفعل ذلك إذ كما قال هو لبعض أصحابه أن اكثر الرؤساء هم مع خصومه .

فبلغ أبا بكر وعمر ان جماعة من المهاجرين والانصار قد اجتمعوا مع على فى منزل فاطمة بنت رسول الله وزوج على فذهبا ليطلعا على دخيلة الأمر . ومما نستفيده من هذه الروايات انها تبحث بصورة مباشرة وشخصية . وهى تؤلف قصصا جيدة، فان أهم المسائل فى سياسة الدولة تحل فى معظم الاحيان بمقدمات رسمية بسيطة . ففى هذه القضية نرى أنه عندما بلغ أبو بكر وعمر (رض) منزل فاطمة هجموا فى جماعة على الدار فخرج على (والصحيح فى الرواية هو أن

---

(١) كان سعد بن عباده من أهل المدينة وهو صاحب راية الانصار فى الغزوات . توفى فى حوران سنة ١٦ هـ ، ودفن فى المزة قرب دمشق . انظر السيوطى ص ٦٧ ، الحاشية . وكتاب حياة محمد ل WEIL ج ٢ ص ٢٥١ و ٣٠٢

صحت هو الزبير — المعرب) ومعه السيف فلقيه عمـر فصرعه وكسر سيفه ودخـلوا الدار فخرجت فاطمة فقـالت والله لتخرجن أو لأكشفن شـعرى ولأعجن إلى الله فخرجوا وخرج من كان فى الدار .

وأقام القوم إياما ثم جعل الواحد بعد الواحد يبايع أبا بكر ولم يبايع على إلا بعد ستة أشهر وقيل أربعين يوما .

ان الروايات القليلة التى ذكرناها فى هذا الباب تبين كيف حدث الخلاف بين المسلمين حول قضية الخلافة . فبقى علينا أن نرى كيف أن حزب الاقلية فى الاسلام نظم مقاومته وطور عقيدة الامامة وكل ما يتعلق بها .

الباب الثانى

(الغاصبون الثلاثة)

ان ما يعتقده الشيعة فى حق على الصريح فى الخلافة بعد وفاة النبى ﷺ مبين باختصار فى كتاب فارسى لا زال الاقبال على درسه شديدا حتى هذا اليوم وهو كتاب (عقائد الشيعة) وقد لخصه الاستاذ براون فى كتابه persian Literatur in Modern Times — ص ٣٨١ . جاء فيه « ان عليا هو أمير المؤمنين بالحق ، (١) فكان الواجب نصبه خليفة بعد رسول الله ﷺ . وهو الذى يفسر أوامر الله للناس بعده . ولد صباح الجمعة وهو أصغر من الرسول ﷺ بثلاثين عاما وكانت ولادته فى داخل الكعبة ، وعاش ثلاثا وستين سنة منها اثنتان وثلاثون فى حياة الرسول ﷺ وإحدى وثلاثون سنة

---

(١) اشار الدكتور غولد تسيهر إلى ان المحدث الشيعى الشهير أبا جعفر محمد الكلينى (المتوفى سنة ٣٢٨ هـ . ٩٦٩) قد قطع فى كتابه (الاصول من الجامع الكافى ، طبعة بمبى ١٣٠٢ هـ . ص ٢٦١) بأنه « لاحق لغير على بالتسمى بأمير المؤمنين » Vorlesungen ص ٢٠٨ . ويقول ابن سعد (الطبقات ٣ (١) ص ٢٠٢) ان عمر كان أول من تسمى بأمير المؤمنين قال « أن رسول الله (ص) لما توفى واستخلف أبو بكر الصديق كان يقال له خليفة رسول الله (ص) فلما توفى أبو بكر رحمه الله واستخلف عمر بن الخطاب قيل لعمر خليفة خليفة رسول الله (ص) فقال المسلمون فمن جاء بعد عمر قيل له خليفة خليفة خليفة رسول الله (ص) فيطول هذا ولكن اجمعوا على اسم تدعون به الخليفة يدعى به من بعده من الخلفاء . فقال بعض أصحاب رسول الله (ص) نحن المؤمنين وعمر اميرنا فدعى عمر أمير المؤمنين ، فهو أول من سمى بذلك)

بعـده . وهذه المدة هى مدة خـلافته إلا أن حقه بقى مغصوبا مـدة خمس وعشرين سنة قضاها فى بيته .

« وأول الغاصبين أبو بكر ومدة حكمه سنتان وثلاثة أشهر ثم عمر بن الخطاب عشر سنوات وستة أشهر وجاء بعده عثمان فتولى الحكم اثنتى عشرة سنة (١) . ثم إعترف بعلى خليفة فنصب مدة أربع سنوات وستة أشهر .

« وحارب فى هذه المدة ثلاث حروب الأولى مـع القاسطين الظالمين أى معاوية وحزبه والثانية فى البصرة مع الناكثين أى عائشة وطلحة والزبير وهى حرب الجمل لأن عائشة ركبت الجمـل ، والثـالثة مع المارقـين وهم الخوارج ووقعت عند النهروان »

« وقيل أنه كان لعلى سبعة عشر ولدا وتسع عشرة بنتا . وقد تزوج بعد فاطمة (بنت الرسول) اثنتى عشرة امرأة . وبلغ عدد أزواجه وسراياه ٣٩٥ وامه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد العمران أو عبد مناف . واسم أبيـه عمرو وسماه آخرون عمران أو عبـد مناف الأصغر . ويكنى بابى طالب وقد غلبت كنيته عليه . وروى أنه كان مؤمنا يوحد الله (٢) » .

ومن المهم أن نلاحظ أن سن على كان عنـد وفاة الرسول ﷺ ٣٣ سنة

---

(١) ان صحـة ما ذكر فى مدة خـلافته كل من الخلفاء الثلاثة الاول يؤيد المسعودى فى مروج الذهب ج ، ص ١٧٥ و ١٩٠ و ٢٥٠ . وهناك اختلاف بسيط بالاشهر فى ماذكره السيوطى ترجمة JARRET ص ٨٧ • ويذكر اليعقوبى (ج ٢ ص ١٥٦ ، ١٨٣، ٢٠٥) ان مدة خلافة أبى بكر سنتان واربعة أشهر وخلافة عمر عشر سنوات وثمـانية أشهر وخلافة عثمان اثنتى عشرة سنة •

(٢) كتاب عقائد الشيعة تأليف الحـاج مرزا أقاسى . الـكتاب الرابع الفصل الثانى . مسند احمد بن حنبل ج ١ ص ٧٩ يذكر أن أبا طالب والد على رفض ان يصلى صلاة المسلمين ولم يعترف بوحدانية الله عند موته كما جاء فى البخارى (ف ٢٣ ر ٨١ وف ٦٣ ر ٤٠ وف ٦٥ سورة ٢٩ ب ١٦ وسورة ٢٨ ب ١) WENSINCK. H.E.M.L. ص ١٠٩

فهو لا يزال حدثا بالنسبة لعرف القبائل العربية ، لتولى المسؤليـة الادارية الـكبرى فليس من الشاذ أن يختار الناس من هم أكبر منه سنا من الصحابة البارزين مدة خمس وعشرين سنة . ويظهر بالحقيقة وجوب التقدم فى السن فى اختيار الخلفاء الراشدين ، فابو بكر استخلف وعمره فوق الستين ، وعمر كان سنه ٥٣ وعثمان كان قد بلغ نحو السبعين ، وعلى كان عمره إما ٥٩ أو ٦٤ بالنسبة لسنه عند ما آمن أول مرة فقيل انه كان بالعاشرة وقيل بل الخامسة عشر .

ولم يمض على وفاة الرسول زمن طويل حتى جاءت فاطمة ومعها على إلى أبى بكر تسأله ميراثها من أبيها فقـال لهما « أشهد كما الله ، ألم تعلما أو تسمعا أن رسول الله ﷺ قال نحن معشر الانبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة ؟ » قالا « نعم ولـكن رسول الله كان ينفق على أهله ، وهو بار بهم » (١) فلما سألها عما تريده من الارث قالت « فدك وخيبر وارض الفىء بالمدينة ـــ حصتى منها مثلما ترثك بناتك بعد موتك » فقال « حقا أن أباك ﷺ خير منى وأنت خير من بناتى ، الا أن رسول الله ﷺ قال (نحن معشر الانبياء لانورث ، ما تركناه صدقة) » (٢)

وقيل ان فاطمة غضبت غضبا شديدا من حكم أبى بكر ، وإنها ماتت بعد أبيها بمدة لا تزيد عـلى ستة أشهر . ومن المهم أن نلاحظ قصر هذه المدة ، لأنها تعين المدة التى امتنع بها على عن مبايعة أبى بكر ، فان عليا ذهب بعـد وفاة فاطمة إلى أبى بكر فبـايعه بالخلافة . وكانت المناصب الخطيرة أو ذات

---

(١) مسند الطيالسى رقم ٦١ . جاء فى تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٤١ أن « فاطمة بنت رسول الله (ص) اتته تطلب ميراثها من أبيها فقال لها : قال رسول الله (أنا معاشر الانبياء لا نورث ما تركنا صدقة) فقالت : أفى الله ان ترث أباك ولا أرث أبى ، أما قال رسول الله (المرء يحفظ فى ولده) فبكى أبو بكر بكاء شديدا » انظر كذلك تاريخ الخلفاء للسيوطى ترجمة Jarret ص ٧٤ .

(٢) البخارى ف ٦٤ ر ٣٨ ومسلم ف ٣٢ ر ٥٢ . موير (Annals of Early — Caliphats) — ص ٦٥

المسؤلية الكبيرة قد خص بها غيره . فكان عمر للقضاء وعتاب أمير مكة للحج بالناس بالنيابة عن أبى بكر ، وقيادة الجيوش لأسامة وخالد . وكان على يتولى أكثر الأحيان المكاتبة » (١) .

وينظر على إلى أبى بكر بعين الاحترام وله عليه تأثير فى القرارات التى كان يتخذها ، فمن ذلك ان أسامة لما عاد منصورا من غزوته إلى بلاد الشام اراد أبو بكر أن يسير بالجيش إلى محاربة طليحة المتنبى ، فأشار عليه على بالبقاء فى المدينة حتى اقنعه ، وذهب خالد مكانه .

وكان لعلى نصيب فى الغنائم والانفعال كنصيب غيره من الذين كانوا مع الخليفة . وكان من بين السبايا والغنائم جىء بها إلى المدينة بعد قتال بنى حنيفة فتاة جميلة إسمها عمانة (؟) . ويروى ميرخوند (٢) حديثا عن الرسول انه قال لعلى « ستقع فى حصتك جارية حنيفة فاذا أولدتها ولدا فسمه باسمى وكنه بكنيتى » فدفع أبو بكر الجارية الحنفية لعلى . وما انقضت سنة على ذلك حتى اشترى على جاريه أخرى سبية وهى سهبه بنت بدير رئيس بنى تغلب . وتزوج بالسنة نفسها إمامة بنت زينب بنت محمد ﷺ وابنة أخت فاطمة .

ان الاقبال على التزوج فى هذه السنة وهى أول سنة لوفاة فاطمة (ع) لا تتفق تمام الاتفاق مع الصورة التى وصف بها ابن الاثير (٣) بساطة معيشته حيث قال « ومثال لبساطة معيشته أنه تزوج فاطمة بنت الرسول ومالهما فراش إلا جلد كبش ينامان عليه بالليل ويعلفان عليه ناضحا لهما بالنهار . وماله خادم غيرها . فلما صار خليفة قدم عليه مال من أصفهان فقسمه على

---

(١) موير ، كذلك ص ١٢٣

(٢) روضة الصفا لميرخوند ج ٢ ص ١٦٩

(٣) تاريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان ج ٤ وترجمة مرغليوت (الاموبون والعباسيون) ص ٣٩ نقلا عن ابن الاثير ج ٢ ص ٢٠٤ .

سبعة أسهم فوجد فيه رغيفا فقسمة على سبعة . وكان لباسه لايقيه من البرد ورؤى وهو يحمل فى ملحفه تمرا قد اشتراه فقيل له : الا نحمله عنك ؟فقال أبو العيال أحق بحمله » وسئل عن سيماء المؤمنين فقال خمص البطون ذبل الشفاه عمش العيون .

وأوصى أبو بكر قبل وفاته باستخلاف عمر . وروت عائشة حديثا يتعلق بعلى وطلحة قالت « لما ثقل على أبى دخل عليه فلان وفلان فقالوا يا خليفة رسول الله ماذا تقول لربك إذا قدمت عليه غدا وقد استخلفت علينا ابن الخطاب ؟ فقال أجلسونى . أبالله ترهبونى ؟ أقول لقد إستخلفت عليهم خيرهم . (١) » فان صح هذا الخبر فان أمل على فى التمتع بمركز سام فى خلافة عمر لم يكن قويا . لكن عمر سمع بما طعن عليه فلم يأبه ، بل رغب من كل قلبه أن لا تقف نقائصه فى سبيل الخدمة التى دعى للقيام بها ، فانه لما بويع بالخلافة صعد المنبر وقال « اللهم أنى شديد فلينى ، وانى ضعيف فقونى ، وأنى بخيل فسخنى (٢) » ولا شك أن سلوكه هذا خفف كثيرا من حسد كبار الصحابة له .

وبقى على بالمدينة وله عند نفس عمر المكانة السامية التى كانت له عند أبى بكر . ولم يخرج فى غزوة من الغزوات على زمن عمر . إمامن الناحية العلمية فبينما يذكرون علمه الواسع فى القرآن ، (٣) نرى أنهم أودعوا أمر جمع القرآن وترتيبه إلى زيد ربيب الرسول ﷺ اما علمه بالحديث فلا يشق له فيه غبار ويقال ان عليا لم يكن يروى من الحديث الاماسمعه بنفسه من الرسول ﷺ وكان يقول لو فعلت غير ذلك فعلى اللعنة ، ويروى أنه سمع رسول الله يقول

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٣ (١) ص ١٩٦ ، ١ — ١٤

(٢) « « « « ص ١٩٦ ، ١٦ — ٢٥

(٣) طبقات ابن سعد ج ٢ (٢) ص ١٠١ ، مسند الطيالسى ع ر ٢٠٩٦

سيأتى زمان توضع فيه أحاديث كثيرة تخرج الناس عن دينهم حتى ليعتقدون بعدم جواز قراءة القرآن (١) . وقيل لعلى مالك أكثر أصحاب رسول الله ﷺ حديثا فقال « إنى كنت إذا سألته أنبأنى وإذا سكت إبتدأنى (٢) ».

ويروى أن عليا ابدى النصح لعمر فى مناسبات عديدة فسمع منه ، وبقى هو المستشار غير الرسمى للخليفة . فنصح لعمر بعد إيفاد الحملة إلى فلسطين أن يذهب هناك ففعل ، ولما تردد عمر فى قيادة الجيش بنفسه إلى المدائن أقنعه على بالعدول عن ذلك ، وكان تعيين النعمان بن مقرن للقيادة قبل معركة نهاوند برأى على (٣) . وفى عام ١٦ للهجرة أمر عمر باتخاذ هجرة الرسول من مكة إلى المدينة ، رأسا للتاريخ الهجرى وينسب بعضهم ذلك إلى رأى على (٤)

ولما طعن عمر وكان على فراش الموت جعل الامر بعده شورى فى ستة نفر احدهم على ، ما يدلنا على إحتفاظ على بمركزه مشاورا للدولة . ويظهر أنه كان يحفظ لعمر فى قلبه مركزا ساميا ، فان عمر لما وضع على حافة قبره وقف على فقال « والله ما على الارض أحد أحب إلى أن القى الله بصحيفته من هذا المسجى بالثوب (٥) »

وكان اثنان من الستة الذين إختارهم عمر لانتخاب الخليفة الجديد ، وهما سعد وعبد الرحمن ، أخوين (يقصد المؤلف سعد ابن مالك وعبد الرحمن بن عوف ، وهما قريبان وليسا بأخوين — المعرب) واجتمعوا أول مرة فى بيت المال فقال عبد الرحمن « إنى أخرجت نفسى وأخى على ان اختار منكم رجلا » فقبلوا .

---

(١) مسند الطيالسى رقم ١٦٨ (طبعة حيدر اباد ١٣٢١ هـ)
(٢) طبقات ابن سعد ٣ (٢) ص ١٠١
(٣) روضة الصفا ج ٢ ص ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢٢٠
(٤) طبقات ابن سعد ٣ (١) ص ١٠٢ ، وروضة الصفا ج ٢ ص ٢١٩
(٥) « « « « « ص ٢٦٩

ودعا عبد الرحمن عليا إلى بيته وسأله «لولم تكن أهلا للخلافة فمن تفضل» فقال «عثمان» وسأل عثمان بمثل ذلك فقال «علي» ثم دعا بطلحة والزبير وسألهما مثل ذلك ، فقال الزبير «علي» وقال طلحة «عثمان» ثم سأل (أخاه) سعدا مثل ذلك ، فقال «عثمان» . وبذلك حصل عثمان على ثلاثة أصوات وحصل على على صوتين ، فاستدعاهما تلك الليلة ولما اجتمعوا تكلم بكلام طويل ، ثم التفت إلى علي وقال له «لنا الله عليك أن وليت هذا الأمر أن تسير فينا بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة أبي بكر وعمر ؟» فتردد علي ثم قال «أسير فيكم بكتاب الله وسنة نبيه ما استطعت» وقيل أنه قال «عسى أن أفعل ، ولكنني لم اختبر سياسة الأمور» ولما سأل عبد الرحمن ، عثمان مثل ذلك أجاب «أوافق على كل ما قلت» ثم صرفهما تلك الليلة قال .

ان لم يكن لديكما ما تقولاه فاذهبا وعودا إلى غدا وسيتم الامر ان شاء الله

وفي صباح اليوم التالي جمع رؤساء المهاجرين والانصار وغيرهم في المسجد وصلى عبد الرحمن بالناس ثم خاب أهل الشورى قائلا «يا أهل الشورى ، أتجعلون أمركم في إختيار الخليفة إلى ؟» قالوا نعم . فقال «لقد نظرت في الأمر جهد طاقتي لئلا يتأخر من هو أحق بالأمر ، على من تم اختياره» ثم دعا بعلي وأخذ بيده وسأله معلنا ، بمثل ما سأله في الليلة الماضية فأجاب علي بمثل ما أجاب به أيضا . ثم دعا بعثمان وسأله مثل ذلك . فقبل عثمان دون ان ينوه بشيء عن مؤهلاته . ورفع عبد الرحمن رأسه وقال اللهم أشهد فقد وضعت ازر الخلافة على عاتق عثمان» وبايع هو وباقي الناس . ولما تردد علي والعباس ذكرهما عبد الرحمن بقوله تعالى «فمن نكث فانما ينكث على نفسه» (سورة الفتح ١٠) فتقدم علي وبايع عثمان (١) .

وبدأ عثمان حكمه في مواجهة مشكلة جديدة نشأت عن تأثير حياة المدن على العرب ، وكانت سياسة عمر هي توحيد القبائل العربية في جزيرة العرب ،

---

(١) روضة الصفا ج ٢ ص ٢٢٩

فمنعهم من الزراعة مستندا على حديث للرسول « مادخل محراث فى بيت إلا ودخل الذل معه » . غير أنه بالرغم من ذلك فقد تذوق كثير من العرب الذين إشتركوا معه فى الحكومة ، لذة حياة المدن،وكانوا يميلون إلى الهجرة من حياتهم البدوية إلى حياة السادة الاقوياء فى محيط أكثر رفاهامن محيطهم السابق ، فى المقاطعات المختلفة حديثا . وقد قدر عدد هؤلاء بمئتى الف رجل كان عمر ينظر اليهم بمثابة النواة للمملكة الاسلامية . فكان على عثمان ان يواجه هذه المشكلة فى رغبة العرب فى سكنى المستعمرات . وتراجع أمام الضغط وسمح لقريش بترك المدينة . فذهبوا ليعيشوا فى مختلف المدن فى مصر وإيران وبلاد الشام وأفريقية . وحملوا معهم كبرياءهم وتفاخرهم بنقاوة الدم العربى . وكان بين أهل هذه البلاد من دخل فى الاسلام ولا يرضى أن يعد من الامم التابعة . وأخذت هذه الجماعات تنفر من إعتبار العرب انفسهم شعبا متفوقا والطريقة الاسلوبية التى يمنح بها العرب الوظائف التى تدر بالاموال الطائلة ، حتى ساء الاعتقاد فى طول المملكة وعرضها بأن عثمان يسير على سياسة ترمى إلى السماح للعرب المتوطنين ؛ وخاصة أقاربه باستغلال الشعوب الاخرى إستغلالا حرا فأدى ذلك إلى وجود عناصر كبيرة من الناقمين .

وبقى على آنذاك فى المدينة وهو لا يزال من مشاورى الخليفة . وكان الناقمون على عثمان يأتون عليا فيبثونه شكواهم . وقرب عثمان منه ابن عمه الروان وسلمه مقاليد الامور ، وكان يتظاهر بسياسة محاباة العرب ، كما كان الناس بصورة عامة لا يحبونه . ووضع الناس ثقتهم أول الآمرفى على للوساطة عند الخليفة ، وانتهز بعد مدة قصيرة بحدوث رغبة قوية فى استبدال الادارة

وتأزم الموقف وانتهى بالمقاومة المسلحة فى السنة الثانية عشرة من خلافة عثمان فبدأ فى أول الامر بشكوى الجند فى العراق ومصر . ولما كان على يستمع إلى شكاوى هؤلاء الناس فينقلها الى عثمان ، فقد شك بعضهم ، على ضوء الحوادث التى تلت بأن عليا نفسه كان مشتركا بوضع الخطط العدائية

ضد الخليفة . ولكن المسعودى لا يرى القاء اللوم على على بأى وجه من الوجوه ، فى قتل عثمان ، وهاكم نص ما كتبه حول مقتل عثمان (١) :

« ولما كان سنة خمس وثلاثين سار مالك بن الحرث النخعى من الكوفة فى مئتى رجل وحكيم بن جبلة العبدى فى مئة رجل من أهل البصرة ومن أهل مصر ستمائة رجل عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوى وقد ذكر الواقدى وغيره من أصحاب السير أنه ممن بايع تحت الشجرة ، إلى آخرين ممن كان بمصر مثل عمرو بن الجموح الخزاعى (٢) وسعد بن عمران التجيبى ومنهم محمد بن أبى بكر الصديق ، وقد كان تكلم بمصر وحرض الناس على عثمان لامر يطول ذكره ، كان السبب فيه مروان بن الحكم .

« فنزلوا فى الموضع المعروف بخشب فلما علم عثمان بنزولهم بعث إلى على ابن أبى طالب وسأله ان يخرج اليهم ويضمن لهم عنه كل مايريدون من العدل وحسن السيرة فسار على اليهم فكان بينهم خطب طويل فأجابوه إلى ما أراد وانصرفوا .

« فلما صاروا إلى الموضع المعروف بحسة (٣) إذا هم بغلام على بعير وهو مقبل من المدينة فتأملوه فاذا هو ورش غلام عثمان فقرروه فأقر وأظهر كتابا إلى ابن أبى سرح صاحب مصر : إذا قدم عليك الجيش فاقطع يد فلان وأقتل فلانا وافعل بفلان كذا واحصى أكثر من فى الجيش وأمر فيهم بما أمر .

« وعلم القوم أن الكتاب بخط مروان فرجعوا إلى المدينة واتفق رأيهم ورأى من قدم من العراق ونزلوا المسجد وتكلموا وذكروا ما نزل بهم من عمالهم ورجعوا إلى عثمان فحصروه فى داره ومنعوه الماء فأشرف على الناس وقال : الا أحد يسقينا ؟ وقال : بم تستحلون قتلى وقدسمعت رسول الله ﷺ

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٤ ص ٢٧٦ وما يليها .
(٢) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ١٥
(٣) نفس المصدر ا (١) ص ١٧ و ٢٨

يقول (لا يحل دم أمرىء مسلم الا باحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان أو قتل نفس بغير نفس) ووالله مافعلت ذلك فى جاهلية أو اسلام

« فبلغ عليا طلبه للماء فبعث اليه بثلاث قرب ماء فما وصل اليه ذلك حتى خرج جماعة من موالى بنى هاشم و بنى أمية وارتفع الصوت وكثر الضجيج وأحدقوا بداره بالسلاح وطالبوا بمروان فأبى أن يخلى عنه ، وفى الناس بنو زهرة لأجل عبد الله بن مسعود لأنه كان من أحلافها ، وهذيل لأنه كان منها وبنو مخزوم واحلافها لعمار ، وغفار واحلافها لأجل أبى ذر ، وتيم بن مرة مع محمد بن أبى بكر ، وغير هؤلاء ممن لايحمل ذكره كتابنا .

فلما بلغ عليا أنهم يريدون قتله بعث بابنيه الحسن والحسين ومواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته ، وأمرهم أن يمنعوه منهم ، وبعث الزبير ابنه عبد الله وبعث طلحة ابنه محمدا وأ كثر ابناء الصحابة أرسلهم أباؤهم اقتداء بمن ذكرنا ، فصدوهم عن الدار فرمى من وصفنا بالسهام واشتبك القوم وجرح الحسن . فخشى القوم ان يتعصب بنو هاشم وبنو أمية فتركوا القوم فى القتال على الباب ومضى نفر منهم إلى دار قوم من الانصار فتسوروا عليها .

« وكان ممن وصل اليه محمد بن أبى بكر ورجلان آخران وعند عثمان زوجته وأهله ومواليه مشاغيل بالقتال فأخذ محمد بن أبى بكر بلحيته فقال : يا محمد والله لو رآك أبوك لساءه مكانك ، فتراخت يده وخرج عنه إلى الدار ودخل رجلان فوجداه فقتلاه وكان المصحف بين يديه يقرأ فيه فصعدت امرأته فصرخت (قد قتل أمير المؤمنين) فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما من بنى أمية فوجدوه قد فاضت نفسه فبكوا . فبلغ ذلك عليا وطلحة والزبير وسعدا وغيرهم من المهاجرين والانصار فاسترجع القوم ودخل على الدار وهو كالواله الحزين فقال لابنيه ، كيف قتل أمير المؤمنين وانتما على الباب ؟ ولطم الحسن وضرب الحسين وشتم محمد بن طلحة ولعن عبد الله بن الزبير فقال له طلحة لا تضرب يا أبا الحسن ولاتشتم ولا تلعن، لودفع مروان

ما قتل . وهرب مروان وغيره من بنى أمية وطلبوا ليقتلوهم فلم يوجدوا .
وقال على لزوجته نائلة بنت الفرفصة : من قتله وانت كنت معه ؟ فقالت :
دخل اليه رجلان وقصت خبر محمد بن أبى بكر فلم ينكر ما قالت وقال والله
لقد دخلت عليه وأنا أريد قتله فلما خاطبنى بما قال خرجت ولا أعلم بتخلف
الرجلين عنى ، والله ما كان لى فى قتله سبب ، ولقد قتل وانا لا أعلم بقتله »

الباب الثالث

على الخليفة الرابع

استخلف على ابن عم الرسول وصهره فى شهر ذى الحجة سنة خمس وثلاثين (١) وبايعه من وجوه الناس وأشرافهم « جميع أصحاب رسول الله الذين كانوا فى المدينة (٢) وكانت بيعته فى مسجد الرسول بالمدينة ، فصعد المنبر وبايعه الاشترعن أهل الكوفة وطلحة والزبير عن المهاجرين وأبو الهيثم وعقبه وأبو أيوب عن الأنصار (٣) .

وبايع الناس إلا ثلاثة نفر من قريش : مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة واعتذروا فى أن عليا قتل أبوى اثنين منهم يوم بدر وشتم أبا الثالث وعاب عثمان حين ضمه إليه . وكانوا يمثلون بنى عبد مناف واشترطوا لبيعتهم أن يقتل قتلة عثمان وأن يضع عنهم ما أصابوه ويعفى عما فى أيديهم . فغضب على وقال : أما ماذكرت من وترى إياكم فالحق وتركم ، وأما وضعى عنكم عما فى أيديكم فليس لى أن أضع حق الله وأما إعفائى عما فى أيديكم فما كان

---

(١) قال اليعقوبى أن عليا « استخلف . لسبع ليال بقين من ذى الحجة » التاريخ ج ٢ ص ٢٠٦ ، ويقول المسعودى (التنبيه والاشراف طبعة دى غوية ص ٢٩٠ أنه « بويع فى اليوم الذى قتل فيه عثمان » أما ابن سعد فيقول « بويع لعلى . . . الغد من يوم قتل عثمان بالخلافة » وكان قتل عثمان « يوم الجمعة لثمان عشرة ليلة مضت من ذى الحجة » (طبقات ابن سعد ج ٣ (١) ص ٢٠) .

(٢) طبقات ابن سعد (ج ٣ (١) ص ٢٠) .

(٣) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٠٦

لله وللمسلمين فالعدل يسعكم ، وأما قتلى قتلة عثمان فلو لزمنى قتلهم اليوم لزمنى قتالهم غداً ولكن لكم أن أحملكم على كتاب الله وسنة نبيه (١) .

فلما حدث هذا الاستياء بين قريش ثم ذكر طلحة والزبير أنهما بايعا كارهين غير طائعين . وخرجا إلى مكة وبها عائشة ثم خرجا من مكة ومعهما عائشة إلى البصرة يطلبون بدم عثمان . وبلغ عليا عليه السلام ذلك فخرج من المدينة إلى العراق ... فنزل ذاقار وبعث عمار بن ياسر والحسن بن على إلى أهل الكوفة يستفزهم للمسير معه فقدموا عليه فسار بهم إلى البصرة فلقى طلحة والزبير وعائشة ومن كان معهم من أهل البصرة وغيرهم يوم الجمل فى جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وظفر بهم وقتل يومئذ طلحة والزبير وغيرهما منهم . وبلغت القتلى ثلاثة عشر الف قتيل (٢) وأقام على بالبصرة خمس عشرة ليلة ثم انصرف إلى الكوفة (٣) .

وفضلا عن إيراد الحقائق الرئيسية للنزاع ، كما بينها ابن سعد فان هناك نقاط كثيرة ذات فائدة بشرية فيما أورده اليعقوبى بصورة أكثر تفصيلا (٤) ويمكن تقدير بعض هذه النقاط بوضوح إذا تذكرنا أن عائشة بنت أبى بكر وزوجة محمد المفضلة ، ربما كانت أكثر نساء المدينة نفوذا وأعلاهن مركزاً فى القلوب ولكن لها كراهة بعيدة العهد لعلى . فقد مرت نحو ثلاثين سنة عند ما أراد الرسول أن يغزو بنى المصطلق وكان إذا أراد ﷺ سفراً أقرع بين نسائه فأيهن خرج سهمها خرج بها معه وقد خرج سهم عائشة فسافرت

---

(١) تاريخ اليعقوبى ص ٢٠٧ ج ٢

(٢) يقدر المسعودى عدد من قتل من أصحاب الجمل ثلاثة عشر ألفا ومن أصحاب على تسعة آلاف . وقال إن الوقعة كانت لعشر ليال خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦ « التنبيه طبعة دى غوية ص ٢٩٠ » بينما يذكر اليعقوبى أنها كانت فى جمادى الاول « التاريخ ج ٢ ص ٢١١ » .

(٣) طبقات ابن سعد ج ٣ (١) ص ٢٠

(٤) تاريخ اليعقوبى ص ٢٠٦ وما يليها .

فى هودج وضع على ظهر بعير . فلماقفل راجعاً حدث لعائشة حادث سىء خطير فقد كانت لا تزال شابة صغيرة لا يتجاوز عمرها السادس عشرة وقد تزوجها الرسول وعمرها لا يزيد على الخمس . وكان الهودج الذى سافرت فيه مغلقاً وعند ما نزلت فى منزل قريب من المدينة وأخذ الناس بالرحيل وانطلق الجمل مع القافلة بدونها . وقد قالت بأنها اضطجعت فى مكانها وعرفت أن لو افتقدت لرجع إليها وأنها لكذلك إذ أقبل شاب اسمه صفوان على بعيره فقرب البعير واستأخر عنها فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب الناس .

فلما ادركت زوجة الرسول العسكر وبصحبتها هذا الشاب كان ذلك سبباً لثرثرة بعضهم فقال رأس المرجفين : «إن صفوان شاب جميل الطلعة فلا غرو أن تفضله عائشة على محمد» . وإذا إحدى النساء اللواتى كن يكرهن عائشة على أنها وصفوان كانا يتقابلان كثيراً . وبلغ الحديث مسامع الرسول . فكان ممن استشارهم فى أمرها على ، فنصحه أن يطلقها ولكن أسامة ذلك القائد الشهير أثنى عليها خيراً . وأنهيت القضية بنزول الوحى فيها (سورة النور الآية ١١ وما بعدها) فشدد فى أمر الشهادة على من قذف محصنا وأعلن الوحى بضرورة إحضار أربعة شهود لاثبات تهمة الزنا (١) .

ولكن عائشة لم تنس ما نصح به على رسول الله ﷺ فى طلاقها ولا ينتظر أن تكون من بين من يؤيدونه فى خلافته . ولما قتل عثمان كانت عائشة بمكة فلما قضت حجها انصرفت راجعة فلما صارت فى بعض الطريق سمعت بمبايعة الناس عليا بالخلافة . ولم يرضها سير الحوادث ففكرت فى أول الأمر أن تخرج عليه بنفسها فأتت أم سلمة زوج رسول الله ﷺ وذكرت لها ما كان يجول فى فكرها فذكرتها لها أم سلمة «إن حماديات غض الأبصار وخفض الأطراف وجر الذيول» لكنها عند ما قابلت طلحة والزبير فى مكة حملاها على الخروج فسارت إلى البصرة مخالفة على على . فلقيا بعلى بن منية بمال من مال اليمن مبلغه

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة «عائشة» .

اربعمائة الف دينار فاخذا المال منه واستعانا به فى أمرهما .

ولما قدم القوم البصرة وعامل علي عثمان بن حنيف فمنعهم من الدخول فقالا لم نأت لحرب وإنما جئنا لصلح فكتبوا بينهم وبينه كتابا إنهم لايحدثون حدثا وان كل فريق منهم آمن من صاحبه ثم افترقوا فوضع عثمان بن حنيف السلاح « فنتفوا لحيته وشاربه واشفار عينيه وحاجبيه وانتهبوا بيت المال»

فلما حضر وقت الصلاة نرى أن طلحة والزبير تنازعا وجذب كل واحد منهما صاحبه حتى فات وقت الصلاة وصاح الناس « الصلاة الصلاة يا أصحاب محمد » ويذكر ان عائشة اقترحت ان يصلى كل منهما يوما فاصطلحوا على ذلك

ولما سار على من المدينة إلى البصرة خرج معه أربعمائة راكب مع أصحاب رسول الله فلما صار إلى أرض أسد وطيء تبعه منهم ستمائة ثم صار إلى ذى قار وبقى هناك حتى وافاه ستة آلاف رجل من الكوفة . فسار بهذا الجيش الكبير إلى البصرة . وكان على يسهل تمييزه بقلنسوته المصرية البيضاء (١) إما وصفه فيقول المسعودى كان أسمر عظيم البطن أصلع أبيض الرأس واللحية أدعج عظيم العينين ليس بالطويل ولا بالقصير تملأ لحيته صدره ولا يغير شيبه (٢) « ويكاد ان يتفق جميع الكتاب بانه كان عظيم اللحية جدا قد فلات ما بين منكبيه بيضاء كأنها قطن (٣) ولا شك أنه كان قد بلغ من العمر ما يدعو إلى الاحترام وكان الناس ينظرون اليه كواحد من أربعة أمر الله رسوله بمحبتهم (٤)

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٣ (٢) ص ١٩

(٢) التنبية الاشراف للمسعودى ص ٢٩٧

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى ترجمة Jarret ص ١٧١ ، ابن سعد ج ٣ (١) ص ١٦ دائرة المعارف الاسلامية مادة « على »

(٤) الترمذى ٤٦ — ٢٠ و H.E.MT. Wenainck ص ١٥

وفى طريقه لقى عامل البصرة المهان وكان قد غادرها بعد ان نتفت لحيته وانتهب بيت المال فقال « يا أمير المؤمنين وجهتنى ذا لحية فأتيتك امرد »

وسار حتى بلغ الخريبة قرب البصرة فنزلها مع جيشه . وخرج طلحة والزبير فيمن معهما فوقفوا على مصافهم فأرسل اليهم على ما تطلبون وماتريدون قالوا نطالب بدم عثمان . وكان على هنا فى موقف صعب فان القتلة الحقيقيين كانوا قد هربوا اماالذين أدى استياؤهم وتحريضهم إلى وقوع المأساة فكانوا عديدين وهم بين أخلص أصحابه — وقد يكون بالحقيقة هو احدهم — فلم يكن جوابه الا « لعن الله قتلة عثمان » وهو جواب غير شاف .

واصطف أصحاب على فقال لهم « لا ترموا بسهم ولا تطعنوا برمح ولا تضربوا بسيف واعذروا » أملا منه بامكان اجتناب المعركة . فرمى رجل من عسكر القوم بسهم فقتل رجلا من أصحاب على فاتى به اليه فقال « اللهم اشهد » ثم أصيب رجل آخر فقتل فقال « اللهم اشهد » وأصيب عبد الله ابن بديل فاتى به أخوه يحمله فقال على « اللهم اشهد » ثم كانت الحرب .

وجرى أشد القتال حول الجمل الذى كانت تركبه عائشة وكان ليعلى بن منية . وأطافت بنو ضبة بالجمل فقتل منهم الفان وصفت به الازد فقتل الفان وسبعمائة وكان لا يأخذ خطام الجمل أحد الا سالت نفسه وكانت الحرب أربع ساعات من النهار وقتل طلحة والزبير . فلما رأى على مقتل خصميه وتشتت جيشهما نادى مناديه ألا لا يجهز على جريح ولايتبع مول ولا يطغى فى وجه مدبر ومن القى السلاح فهو آمن » .

ووجه ابن عباس إلى عائشة فلما دخل عليها قالت « أخطأت السنة يا ابن عباس مرتين دخلت بيتى بغير اذنى وجلست على متاعى بغير امرى » ولما دخل عليها على (رض) فقال لها يا حميراء ألم تنهى عن المسير (فقالت) يا ابن أبى طالب قدرت فاسجح (فقال) اخرجى إلى المدينة وارجعى إلى بيتك الذى امرك

رسول الله ان تقرى فيه (فقالت) افعل (١) . و يقول آخرون إنها لمارأت قوة حزب على أرادت البقاء وان تكون معه على اعدائه فلم يقبل على وامرها بالعودة (٢) .

وفى تقسيم الاسلاب بعد وقعة الجمل يقال ان عليا(رض)أعطى الناس بالسوية لم يفضل أحدا على أحد واعطى الموالى كما أعطى الصلبية ،ويقال أنه أمر بدفن القتلى وبقى ثلاثة أيام قبل أن يدخل البصرة فلما دخلها قسم بين الناس ما وجد فى بيت المال من المال . ثم رجع قافلا إلى الكوفة بعدان قضى أياما فى البصرة فقدمها فى رجب سنة ست وثلاثين .

وعندما نقرأ ما كتبه اليعقوبى نجد اسم رجل آخر اسمه الزبير (جرير ابن عبد الله — المعرب) وكان على همذان فعزله فطلب منه أن يوجهه إلى معاوية لان جل من معه من قومه فلعله يجمعهم على طاعته . ولم يستمع على لاشارة الاشتر عليه بان لا يبعثه ، وسمح للزبير (جرير) بالذهاب إلى معاوية ويحمل اليه كتابا . فقدم (جرير) على معاوية وهو جالس والناس حوله فدفع اليه كتاب على فقرأه ثم قام (جرير) فقال (يا أهل الشام ان من لم ينفعه القليل لم ينفعه الكثير وقد كانت بالبصرة ملحمة لئن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للاسلام فاتقوا الله يا أهل الشام (وروى فى على ومعاوية خيرا) فانظروا لانفسكم ولا يكونن انظر لها منكم ، ثم سكت . فقال معاوية (أبلعنى ريقى يا جرير) .

وبعث معاوية من ليلته إلى عمرو بن العاص ان ياتيه وكتب اليه (اما بعد فانه قد كان من أمر على وطلحة والزبير وعائشة ما قد بلغك فقد سقط الينا مروان من رافضة أهل البصرة وقدم على (جرير) ابن عبد الله فى بيعة على وحبست نفسى عليك حتى تأتينى على بركة الله تعالى فلما انتهى الكتاب

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢١٣

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة « عائشة »

اليـه دعا ابنيه عبـد الله ومحمـدا فاستشارهما فقال له عبـد الله أيها الشيخ ان رسول الله قبض وهو عنك راض ومات أبو بـكر وعمر وهما عنك راضيان فانك ان تفسد دينك بدنيا يسيرة تصيبها مع معاوية فتضجعان غدا فى النار ثم قال لمحمد ما ترى فقال بادر هذا الامر فـكن فيه رأسا قبـل أن تـكون ذنبا . فلما أصبح دعا وردان مولاه فقال له (ارحل يا وردان) ثم قال (حط يا وردان) فحط ورحل ثلاث مرات فقال وردان لقد خلطت أبا عبد الله فان شئت اخبرتك بما فى نفسك فقال هات قال اعترضت الدنيا والاخرة على قلبك فقلت على معه آخرة بلا دنيا ومعاوية معه دنيا بلا آخرة . والرأى أن تقيم فى منزلك فان ظهر أهـل الدين عشت فى عفو دينهم وان ظهر أهل الدنيـا لم يستغن عنك) وشعر عمرو بان الدنيا تستدعيه مادام معاوية قد بعث له فلم تقاوم نفسه وانضم إلى معاوية .

وبعد ثلاثة أشهر تقريبا كان معاوية فى مائة الف وعشرين الف (١) وقيل دون ذلك وأكثر منه . وان تسمية أصحاب معاوية باهل الشام لا يعنى أنهم من غير العرب بل هم من العرب الذين كانوا يقومون بالفتوح الاسلاميـة بالغرب أوالعرب الذين اقطعهم عثمان . فلما ساروا من الشمال كانوا لايريدون خلافة على غـير ان صيحتهم كانت (يا لثارات عثمان) والارجح أنهم كانوا يلقون بعض التبعة فى قتل عثمان على على فلا يرونه لائقا للخلافة وكتم معاوية ما بنفسه .

فلما جاءوا العراق نزلوا عند الفرات فى وادى صفين على مقربة من الرقة(٢) ويفصله من شاطىء الفرات أرض مستنقعة يكثر فيها الصفصاف والعيون . وطول هذا المستنقع ثمانية اميال وعرضه « رمية سهم » ولايعرمنها إلاطريق ممهد واحد إلى النهر . ولمـا قدم على بجيشه مجتازا بالمدائن والرقة وجد أن

---

(١) التنبيه للمسعودى ص ٢٩٠

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة « صفين »

معاوية وأهل الشام ، قد عسكروا فى خرائب المدينة (أى صفين) التى ترجع بتاريخها إلى عهد الروم ، وقد وكل معاوية أبا الأعور بالشريعة فهجم على ، وهو فى موقف غير ملائم ، وتمكن من بلوغ الشريعة فى شهر ذى الحجة . وأباح كرما منه لأهل الشام ورود مشرعه واستقاء الناس من طريقه ، فأعقب ذلك دور مؤاخاة ومفاوضة للصلح يتخلله بعض القتال ، وكفوا عن القتال فى محرم ، ولم تبدأ معركة صفين الحقيقية إلا فى شهر صفر .

قال المسعودى : وكان المقام بصفين مائة يوم وعشرة أيام والوقائع بينهم تسعون وقيعة (١) ويشمل هذا طبعاً مدة القتال الطويل فى جوار صفين وليس مدة المعركة نفسها التى دامت نحو أسبوعين . ويذكر المسعودى أن عدد من قتل من أصحاب على سبعون ألفاً من تسعين ألفاً كانوا معه ، وكان معاوية فى مائة ألف وعشرون ألفا قتل منهم خمسة وأربعون ألفاً . فاذا كان هذا صحيحاً فان الأسبوعين الأخيرين من القتال كانا أدمى الأسابيع حقاً فلا عجب إذن أن « كره الناس الحرب وتداعوا إلى الصلح » (٢) واتفقوا يوم ١٣ صفر أو ١٧ منه (٣) على تحكيم حكمين .

وبعد محاولة الحصول على النتيجة الحاسمة بالقتال ، الذى حدثت به هذه الوقائع الكثيرة ودام مدة طويلة ، فان الجيشين كانا ، على أكثر احتمال ، منهوكى القوى ، وفى هذه الحالة لايصعب إيضاح ماسمى بتحكيم الحكمين . إلا أنه كتبت مجلدات كثيرة عنه . فقال بعضهم أن نصر على وجيشه كان على قاب قوسين أو أدنى وأنهم أخطأوا فى قبول التحكيم . ومن المؤكد أن الرجل الذى دعا إلى الصلح ويقال أنه هو الذى أوصى بفكرة التحكيم حسب

---

(١) التنبيه للمسعودى ص ٢٩٥ .

(٢) طبقات ابن سعد ج ٣ (١) ص ٢١

(٣) يقول الطبري (ج ١ ص ٣٤٠) أنه يوم ١٣ ويقول الدينورى (ص ٢١٠ ٥٢١) أنه يوم ١٧ .

القرآن كان من الذين يكرههم أصحاب على كرها شديداً . وكان ساعد معاوية الأيمن وقد دعاه قبل أن ينشب هذا القتال ، وهو عمرو بن العاص . ويصفه اليعقوبى بأنه باع دينه مع على لدنياه مع معاوية ، وهو الذى أشار برفع المصاحف على الرماح يدعون إلى مافيها .

ويذكر ابن سعد (١) قصة التحكيم باختصار قال : « ورفع أهل الشام المصاحف يدعون إلى ما فيها مكيدة » من عمرو بن العاص أشار بذلك على معاوية وهو معه فكره الناس الحرب وتداعوا إلى الصلح وحكموا الحكمين فحكم على أبا موسى الأشعرى وحكم معاوية عمرو بن العاص وكتبوا بينهم كتابا أن يوافوا رأس الحول بأذرح فينظروا فى أمر هذه الأمة فافترق الناس فرجع معاوية بالألفة من أهل الشام وانصرف على (رض) إلى الكوفة بالاختلاف والدغل « وعلى ذلك » اجتمع الناس بأذرح فى شعبان سنة ثمان وثلاثين وحضرها سعد بن أبى وقاص وابن عمر وغيرهما من أصحاب رسول الله ﷺ فقدم عمرو أبا موسى فتكلم فخلع عليا وتكلم عمرو فأقر معاوية وبايع له فتفرق الناس على هذا .

ورأى بعضهم أن بعض المحاباة لعلى تظهر فى قصة التحكيم فى أذرح (٢) وأن المعجبين بعلى أضافوا هذه الحكاية لايضاح فشل الحصول على نتيجة فى المعركة . ويقول الدينورى أنه كان مع الجيشين عدد من القراء وأنهم كانوا يدعون إلى الصلح (٣) وهناك رواية ذكرها ابن سعد (٤) قال (وقيل ان الجيشين كرها الحرب ولم يرغبا فى سفك دماء أخرى فاشار عمرو بن العاص

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٣ (١) ص ٢١

(٢) غولد تسيهر Vorlesungen uber den Islam ص ١٨٩ والدينورى ص ١٨١ و ٢٠٤ و ٢٠٥

(٣) دائرة المعارف الاسلامية مادة « صفين »

(٤) طبقات ابن سعد ج ٤ (٢) ص ٣

على معاوية برفع المصاحف ودعوة أهل العراق إلى كتاب الله وبذلك يحدث بينهم الاختلاف (١)

وكان بين انصار على ضد معاوية كثير من الفرس أو العجم الذين كانوا ينزلون مدن العراق الجديدة وقد جاؤا لمكافحة كبرياء العرب من المدينة الذين خرجوا على زمن عثمان لحكم العالم (٢) وكان معه أيضا عدد من القراء الذين كانوا يطعنون فى عثمان وبعض احكامه وقد انضموا إلى على. أن هؤلاء الاعداء الالداء لحكم العرب لم يكونوا ليرضون بكل اتفاق ، وبعد فشل التحكيم قرروا عدم إمكان خدمة أغراضهم بالولاء لعلى . وقد ذكر ابن سعد مختصرا أمر هؤلاء الذين لم يرضيهم شىء فخرجوا من الجيش وهم الخوارج(٣) قال « فخرجت عليه الخوارج من أصحابه ومن كان معه وقالوا لا حكم إلا لله وعسكروا بحروراء فبذلك سموا الحرورية فبعث اليهم عبد الله بن عباس وغيره فخاصمهم وحاجهم فرجع منهم قوم كثير وثبت قوم على رأيهم وساروا إلى نهروان فعرضوا للسبيل وقتلوا عبد الله بن خباب بن الارت . فسار اليهم على فقتلهم بالنهروان وقتل منهم ذا الثدية وذلك سنة ثمان وثلاثين ثم انصرف على إلى الكوفة فلم يزل يخافون عليه الخوارج من يومئذ إلى أن قتل »

ان عليا ، الذى كانوا يأملون أن يكون المطالب بحقهم والمدعى عنهم ظهر أنه عدوهم الالد . وأصبح أمر المقاومة المسلحة أمرا غير ممكن فقد كان إنكسارهم حاسما . ولكنهم كانوا يعرفون من هو المسؤول عن قتل آبائهم واخوتهم فلما نظروا ما تم من أمر المملكة الاسلامية التى مزقتها الحروب الداخلية أخذوا ينظرون بعين الحقد إلى الطموح الشخصى للرجال الذين

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ماده « صفين »

(٢) تاريخ التمدن الاسلامى لزيدان ج ٤ ترجمة مرغليوث ص ٧٤ .

(٣) طبقات ابن سعد ج ٣ (١) ص ٢١

اصبحوا يعتقدون بانهم هم العثرة فى سبيل الوحـدة الوطنية . ان الروايات التى تذكر بالتفصيل المؤامرة التى انتهت باغتيال عـلى (١) رغم اعتبار احـد الـكتاب لهـا من الروايات المشكوك بصحتها (٢) قبلها المبرد ويـكررها اليعقوبى ويذكرها الدينورى وهى بلا شك الاساس لرواية المسعودى: (٣) قال فى سنة أربعين اجتمع بمكة جماعة من الخوارج فتذاكروا النـاس وما هم فيه من الحرب والفتنة وتعاهد ثلاثة منهم على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص ، وتواعدوا واتفقوا على أن لا ينـكص رجل منهم عن صاحبه الذى يتوجه اليه حتى يقتله أويقتل دونه وهم : عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله وكان من تجيب ، وكان عدادهم فى مراد فنسب اليهم ، وحجاج بن عبد الله الصريمى ولقبه البرك ، وزادويه مولى بنى العنبر . فقال ابن ملجم أنا أقتل عليا وقال البرك : انا أقتل معاوية وقال زادويه : أنا أقتـل عمرو بن العاص ، واتعدوا أن يكون ذلك ليلة سبع عشرة من شهر رمضان وقيل: ليلة إحدى وعشرين فخرج عبد الرحمن بن ملجم المرادى إلى على فلما قدم الـكوفة أتى قطام بنت عمه وكان على قتل أباها وأخاها يوم النهروان وكانت أجمل أهل زمانها فخطبها فقالت . لا أتزوج حتى تسمى لى قال : لا تسألينى شيئا إلا أعطيته فقـال . ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على ، فقال ما سألت هو لك مهر إلاقتل على فلا أراك تدركينه قالت فالتمس غـرة فان اصبته شفيت نفسى ونفعك العيش معى وإن هلـكت فما عند الله خـير لك من الدنيـا فقال والله ما جاء بى إلى هذا المصر وقد كنت هاربا منه إلا ذلك وقد أعطيتك ما سألت وخرج من عندها وهو يقول .

---

(١) طبقات ان سعدج ٣ ـ (.) ـ ص ٢١

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة « الخوارج »

(٣) الكامل للمبرد طبعة ليدك باعتناء رايت ص ٥٤٨ ، تاريخ اليعقوبى ج٢ص٢٥١ وما يليها ، الدينورى ص ٢٢٧ ــ ٢٢٩ ، مروج الذهب للمسعودى ج٤ص ٤٢٦ وما يليها .

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على بالحسام المعصم
فلا مهر اعلى من على وان علا ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم

فلقيه رجل من اشجع يقال له شبيب بن بجيرة من الخوارج فقال له : هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟ فقال وما ذاك ؟ قال : آتساعدنى على قتل على ؟ قال : ثكلتك امك لقد جئت شيئا إدا ، قد عرفت غناءه فى الاسلام وسابقته مع النبى ﷺ فقال ابن ملجم : ويحك أما تعلم أنه قد حكم الرجال فى كتاب الله وقتل اخواننا المصلين ؟ فنقتله ببعض إخواننا . فاقبل معه حتى دخل على قطام وهى فى المسجد الاعظم (أى مسجد الكوفة) وقد ضربت كلة وهى معتكفة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر رمضان ، فاعلمتهما ان مجاشع بن وردان بن علقمة قد انتدب لقتله معهما فدعت لهما بحرير وعصبتهما وأخذوا أسيافهم وقصدوا مقابلين لباب السدة التى يخرج منها على للمسجد ، وكان على يخرج كل غداة أول الاذان للصلاة وقد كان ابن ملجم مر بالاشعث وهو فى المسجد فقال له : فضحك الصبح فسمعهما حجر بن عدى . فقال قتلته يا أعور قتلك الله وخرج على (رض) ينادى « أيها الناس الصلاة » فشد عليه ابن ملجم وأصحابه وهم يقولون : الحكم لله لا لك وضربه ابن ملجم على رأسه بالسيف فى قرنه وأما شبيب فوقعت ضربته بعضادة الباب وأما ابن وردان فهرب . وقال على : لا يفوتنكم الرجل وشد الناس على ابن ملجم يرمونه بالحصباء ويتناولونه ويصيحون (حتى امسكوه) . . . وقيل أن عليا لم ينم تلك الليلة وانه لم يزل يمشى بين الباب والحجرة وهو يقول : والله ما كذبت ولا كذبت ، وانها لليلة التى وعدت . فلما صرخ بط كان للصبيان صاح بهن بعض من فى الدار . فقال على ويحك ، دعهن فانهن نوائح .

وبقى على (رض) الجمعة والسبت وقبض ليلة الاحد ودفن بالرحبة عند مسجد الكوفة وتنازع الناس فى موضع قبره . اما الشيعة اليوم فيجمعون على

ان جسده مدفون فى النجف على مسافة أميال من الكوفة .

ويقال ان عليا « لم يترك عند موته » صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم بقيت من عطائه ، واراد أن يشترى بها خادما لاهله . وقال بعضهم ، ترك لاهله مئتين وخمسين درهما ومصحفه وسيفه (١) » .

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٤ ص ١٣٤

الباب الرابع

‹‹ على الامام الأول ››

لو درسنا حياة الأئمة دراسة دقيقة وافية انكشفت لنا حقيقة واحدة وهى أن رجالا لا يزيدون عن مستوى الشخص الاعتيادى بشىء قد رفعوا إلى مصاف الخالدين . وخير مسلك لنا هو أن نجمع ما نتمكن من جمعه من أقدام المصادر فنقدر ما كان عليه هؤلاء الناس فى حياتهم الحقيقية ، وفى وجودهم المجرد عن التمجيد والتقديس ، ومن الضرورى بالوقت نفسه أن نحاول تصوير الهالة التى أحاطتهم بها القصص المتأخرة . ومالم نذهب إلى وراء ما كانوا عليه إلى ما قد قيل فيهم فسيكون نصيبنا الفشل التام ، للتغلغل فى روح الاسلام الشيعى . ولا نتمكن من إيضاح نشوء العقائد الغريبة الشاملة التى تعتبر اليوم أساسية للايمان :

فتدلنا أقدم الروايات على ان إدعاء على بالخلافة لم يكن بنظر أصحابه وشيعته مجرد طموح سياسى بل حق الهى له. وكان لتعاليم ودسائس شخصية خفية نسبيا فى تاريخ الاسلام اليد الطولى فى ظهور وجهة النظر هذه وانتشارها . فقد ظهر منذ زمن خلافة عثمان داعية متنقل إسمه عبد الله بن سبأ ، قطع البلاد الاسلامية طولا وعرضا « يريد إفساد المسلمين » كما يقول الطبرى ويظهر حسب قول Welhausen انه كان يهوديا قبل ان يسلم .وأصله من صنعاء اليمن وقد جاء الحجاز ومدينتى البصرة والكوفة الحديثتين ثم ذهب إلى بلاد الشام واستقر أخيرا فى مصر . وفى مصر قام بدور رئيسى فى المؤامرة فى سبيل على واعلن أن أبا بكر وعمر وعثمان كانوا غاصبين . وكان

الناقون فى خلافة عثمان يكاتبون ابن سبأ سرا وسار مع الركب الذى قدم المدينة من مصر قبل مقتل عثمان (١) ولا يشير ابن سعد الا إلى كونه أحد القراء الذين صحبوا عليا (٢) ويذكر ميرخوند فى روضة الصفا (٣) ان الكاهن اليهودى جاء المدينة واسلم وهو يأمل ان يكرمه عثمان ويحترمه فلما لم يحصل له ما أراد أخذ يتصل بالناقين عليه وينكر على عثمان إدارته علنا وبلغ عثمان خبره أخيرا فقال « ومن هذا اليهودى الذى احمل منه هذا ؟ » وأمر بنفيه من المدينة . ثم ذهب إلى مصر وصار من المشاغبين العاملين ضد عثمان .

وكان من احتجاج ابن سبأ قوله ان النصارى يقولون برجوع عيسى فينزل من السماء فان قلنا أن محمدا أعظم من عيسى وجب أن يرجع قبله لقوله تعالى « ان الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » (القصص ٨٥)

ومن تعاليمه الاخرى مما كان له نفوذ مباشر قوله ان لكل نبي وصى وأن عليا وصى محمد . وقد نصبه بنفسه وان الناس لما لم يعملوا بأمر الرسول فقد ظلموا عليا ظلما فاحشا ، فوجب عليهم جميعا أن يقروا بحق على المنصوص عليه من الله ، وان يطيعوه إطاعة مطلقة . وقد ذهب غلاة الشيعة إلى أبعد من ذلك فقالوا بالوهية على نفسه ، ويقال أنهم أخذوا عقيدتهم عن ابن سبأ (٤) الذى علمهم ان « روح الله حلت فى كل نبى وانها تنتقل فيهم الواحد بعد الآخر وقد انتقلت بعد وفاة محمد إلى على ثم ابنائه الذين انتقلت اليهم الامامة »

---

(١) نيكلسن Aliterary History of the Arabs ص ٢١٥ مع الاشارة الى الطبرى ج ١ ص ٢٩٤٢ ، ٢ Die Rel. Pol. soppo partien WELHAUSEN ص ٩٨ ودائرة المعارف الاسلامية مادة عبد الله بن سبأ

(٢) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ١٦٣

(٣) روضة الصفا ترجمة kestahar ج ٢ (٣) ص ١٦٠

(٤) الملل والنحل للشهرستانى طبعة Cureton

لحدث من ذلك جدال كبير فى ما إذا نص الرسول ﷺ بالفعل على على فى غدير خم أو لم يفعل ، وهل توجد أقوال أخرى للرسول كان الواجب فهمها على أنها تعبر عن غايته فى نصب على خليفة له . فقد وردت فى بعض كتب الحديث القديمة عند أهل السنة أحاديث يظهر أنها تؤيد (١) العلويين الذين رفضوا نظرية إجماع الامة ، فى قولهم هذا . ثم كيفوا فيما بعد انفسهم حسب مقتضيات الظروف واعترفوا بالخلفاء القائمين وبايعوهم بالاسم مع احتفاظهم برأيهم فى ان أحد الفاطميين الاحياء هو بالحقيقة الخليفة أو امام المسلمين .

وتدل كلمة الامام على من يؤتم به فى الصلاة ، والامامة منصب من مناصب الخلافة يحتفظ به الخليفة لنفسه . ولما أمر الرسول ﷺ فى مرضه الاخير، أبا بكر أن يصلى بالناس اعتبر ذلك سندا قويا بيد الطاعنين بالقول فى النص على خلافة على . فقالوا بأن كل نص محتمل سابق لعلى غير واقع . ولم يكن لعلى أن يأم الناس والصلاة بهم مدة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان . وكان الخلفاء الثلاثة يكرمون منزلته ويحترمونه ويستشيرونه ،وليس ثمة خبر موثوق يدل على أنه لما استخلف ادعى بسلطة روحانية أكثر مما كان لغيره من الخلفاء . وهو فى مركزه الحقيق أحد أصحاب رسول الله ﷺ ،انتخب للخلافة بعد عثمان باجماع من كان حاضرا من الوجوه والرؤساء وغيرهم . وقد قتل اثناء جهوده للتغلب على ثورة شديدة واسعة النطاق ضد سلطته .

ولسوء الحظ أنه لما صنفت كتب الحديث من الصحاح الستة أو الكتب الشيعية الاربعة كان مركز على فى الاقاصيص الشيعية قد احاطت به هالة من الاساطير ولناخذ مثلا ما جاء عن شجاعته فى الحروب ، فيروى أنه قتل فى

---

(١) صحيح الترمذي ٢١ – ٤٦ ، تاريخ الخلفاء للسيوطى طبعة garret ص ١٧٢ وما يليها ، Cuillaume The Traditip of Islam ص٦١ ، H.E M.T تأليف Wensinck تحت عنوان « على و « الحسن و « الحسين » الخ .

صفين ٥٢٣ رجلا فى يوم واحد . (١) وكان صاحب راية رسول الله ﷺ فى غزواته « فى بدر والمشاهد كلها » (٢) وتردد ذكره كثيرا فى حملة الراية فى غزوة خيبر ، (٣) وهو فخر عظيم ولا وجه لتكذيبه لما عرف عن اخلاصه وشجاعته . وسيفه ذو الفقار ، وكان للعاص بن منبه ، فغنم منه فى بدر واعطاه الرسول ﷺ عليا . (٤) وكان يضرب به الهامات فلا تخطىء ضربته ويحمل به على عدوه وهو راكب فيقده إلى نصفين « يسقط الاعلى ويبقى الاسفل فوق ظهر الحصان » أو يقف لأعدائه فاذا هجموا عليه مد ذراعه فاسقط منهم ثلاثا وثلاثين . (٥) « وانه تناول بابا عند الحصن ، حصن خيبر فتترس به عن نفسه فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله علينا ثم القاه فلقد رأيتنا ثمانية نفر نجهد ان نقلب ذلك الباب فما استطعنا ان نقلبه » (٦)

ولابد لنا ان نتهيأ لسماع روايات مبالغ فيها تختص بمزايا على الاخرى فقد قال احمد بن حنبل « لم ترد رواية بفضل احد من أصحاب رسول الله ﷺ بقدرما ورد فى فضائل على » (٧) . ووصفها بعضهم فى أنها كانت من الكثرة ما أثارت حسد بنى أمية وكرههم له . اما أمر اعتماد محمد ﷺ عليه إعتمادا خاصا ، فيعترف به الجميع . ويذكر أصحابه أنه قضى صباه مع رسول الله ﷺ ولم يفارقه . وكان من أول من آمن به وربما كان أولهم بعد خديجة زوجة الرسول ﷺ . ويروى ان النبى ﷺ عندما خرج إلى غزوة تبوك

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٤ ص ٢٠٦

(٢) طبقات ابن سعد ٣ (١) ص ٤

(٣) Wensinck , H. E. M.T ص ١٦ ،

(٤) Steingass Persian - English Dictionary

(٥) دائرة المعارف الاسلامية : مادة « على » (٦) تاريخ الخلفاء للسيوطى طبعة Jarrett ص ١٧٢ (٧) مسند الامام احمد ا ص ١٠٨ ، ١١٤ ، ١١٨

ابقـاه فى المدينـة وقال له « أما ترضى ان تـكون منى بمنزلة هرون من موسى ؟ » (١)

وعلى كل حال ، فانه كهرون كان فى بعض الحالات إذا كلف ببعض الواجبات الادارية الخطيرة كانت أجوبته تفضح عن شعور الشباب وتردد التواضع . فيروى عنه أنه قال « بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيا فقلت يارسول الله انك تبعثنى إلى قوم شيوخ ذوى أسنان وانى أخاف ان لاأصيب فقال ان الله سيثبت لسانك ويهدى قلبك » (٢) وكان عمر نفسه يعتبر عليا اقضى أهل المدينة وأقرأهم للقرآن (٣) .

ولابد لطلاب اللغة العربية أن يلاحظوا باهتمام المساعدة التى يقال ان عليا اسداها لأبى الاسود الدؤلى لضبط قواعد العربية . و« كان » أبو الاسود « من سادات التابعين واعيانهم صحب على بن أبى طالب رضى الله عنه وشهد معه وقعة صفين ، وهو بصرى . وكان من أكمل الرجال رأيا واسدهم عقلا وهو أول من وضع النحو ، قيل ان عليا رضى الله عنه وضع له الكلام كله ثلاثة أضرب اسم ، وفعل ، وحرف ، ثم دفعه اليه وقال له تمم على هذا . . فأتى بكاتب من عبد القيس فلم يرضه فأتى بآخر فقال له أبو الاسود إذا رأيتنى قد فتحت فمى بالحرف فانقط نقطة فوقه وان ضممت فمى فانقط بين يدى الحرف وان كسرت فاجعل النقطة من تحت ، ففعل ذلك . وإنما سمى النحو لأن أبا الأسود المذكور قال استأذنت على على بن أبى طالب رضى الله عنه أن أضع نحو ما وضع فسمى لذلك نحوا . والله اعلم » (٤) .

فترى انهم كلفوا انفسهم عناء كبيرا لاظهار ان عليا بالقلم ليس باقل منه

---

(١) ابن حجر ج ٢ ص ١ ، ١٢٨

(٢) Wensinck H. C. E. M. T ص ١٥

(٣) طبقات ابن سعد ٢ (٣) ص ١٠١

(٤) وفيات الاعيان لابن خلكان طبعة دى سلان ج ١ ص ٦٦٣

بالسيف . وقد سماه الحسن البصرى « بعالم الله فى هذه الامة » (١) « وذكر الواقدى أنه كان عنـد ظهور الاسـلام ستة أو سبعة نفر يعرفون القراءة والـكتابة فى قريش قبيلة الرسول ﷺ ، منهم عمر وعثمان وعلى ، ممن تولوا الخلافة بعـدئذ . اما الرسول ﷺ فيقال انه كان أميـا ، يكتب له أربعة ما يوحى اليه من القرآن ، على ما يجـدونه من العسب والرقاع وقطع الاديم والعظام . ومن الروايات التى يرويها المسلمون أن عليا آخر الخلفاء الراشدين كان يـكتب الـكاف الطويلة التى يمتاز بها الخط الـكوفى بصورة مضبوطة يصعب حتى مع آلات القياس التفريق بين الـكافات التى يكتبها »(٢)

وليس من المستبعد ان محمدا ﷺ كان يعرف الـكتابة ، ومهما كان لامرفان من الخطأ المبالغـة فى تأكيد استعمال العسب وقطع الاديم والعظام من قبـل كتابه . ومن المحتمل ان استنسخ ما اثبت من القرآن ، بصورة واسعة ، فنسمع انعدد نسخ القرآن كان يتضاعف بسرعة . فأن « كتاب » العرب الجديد كان من المفاخر لهم وقـد زاد عـدد النسخ فحدث فيما بينها بعض الاختـلاف فى القراءة فرأى عثمان (رض) ضرورة استنساخ نسخة موحدة للقرآن . وعندما نسمع ان جماعة من جيش معاوية تتقدم نحو جيش عـلى وهى ترفع المصاحف أو جزءا منها على الرماح وتنادى بتحكيم « كلام الله » نعلم انعددا كبيرا من المصاحف كان فى التداول بين أيدى الناس .

وتؤكد بعض الروايات انه كان عند عـلى نسخة من القرآن جمعها ورتبها بنفسه وعلق عليها بعض الحواشى حسب ماكلم الرسـول ﷺ به . وهذه الحواشى التى على نسخته هى كما يظهر كل ماادعاه على مما أوحى للرسول ﷺ ولم يكن عنده غيره ولما كان لقضية حقيقة هذه الصحيفة التى كان على يراجعها

---

(١) طبقات ابن سعد ٢ (٢) ص ١٠٢

(٢) غولد تسيهر Vorlesungen الباب الخامس الفصل ٣

تأثير على اعتقاد الشيعة بوجود كتاب سرى يسمونه بالجفر . (٩) فلا أرى مندوحة من ذكر بعض الاحاديث الواردة عن الموضوع . فلنتذكر أولا أن كلمة الصحيفة تجمع على صحف وقد جاءت هذه الكلمة بصيغة الجمع فى ذكر « الصحف المئة التى انزلت على آدم وشيث وإدريس وإبراهيم وموسى واشار اليها القرآن فى سورة الاعلى »(الآية ١٨—١٩)« ان هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى » (٢) . وجاء فى باب العلم من البخارى حديثا رواه عن أبى جحيفة قال قلت لعلى « هل عندكم كتاب ؟ « قال » لا. الا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم أو مافى هذه الصحيفة « قلت » ومافى هذه الصحيفة ؟ » قال « العقل وفكاك الاسير ، ولا يقتل مسلم بكافر » (٣) واورد البخارى حديثا عن (إبراهيم) التيمى رواه مرتين (٤) عن أبيه ذكر خطبة لعلى قال فيها « ما عندنا شىء الا كتاب الله وهذه الصحيفة » ثم ذكر ان فيها التوصية بالجريح وما يفعل بالابل المسنة وحدود حرم المدينة وهى بين عائر وكذا . « وذكر احمد بن حنبل هذا الحديث عدة مرات (٥) » وقال ان حدود حرم المدينه بين عائر إلى ثور . ثم أضاف على عن النبى ﷺ انه قال « من أحدث فيها (أى المدينة ـــ المعرب) حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملئكة والناس اجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل ».

فاذا كان عمر على بين العاشرة والخامسة عشر عند أول إسلامه وانه كان يعرف الكتابة كما تذكر الروايات ، فليس ببعيد الاحتمال ان يكون عنده قرآن علق هو حواشيه بما حدثه به الرسول . وان ماجاء فى هذه الحواشى

---

(١) Huart, Les Calltgraphes et Les Mintaturiates de Lorient Mussulman 1908

(٠) دائرة المعارف الاسلامية مادة « جفر » بقلم D. B. Mcdonald

(٣) قاموس الاسلام تأليف Haghes (٤) صحيح البخارى ، طبعة ليدن ج(٣)٣٩ مسند الطيالسى ، طبعة حيدر اباد سنة ١٣٢١ هـ رقم ٩١

(٥) صحيح البخارى ، طبعة ليدن فصل ٥٨ باب ١٠ و ١٧

قد بينته الروايات بصورة عامة ، فهى عبارة عن بعض تفاصيل للاحكام وغيرها ، لا غموض أو سر فيها ولا علاقة لها بما يدعيه الشيعة من الادعاءات المرتبة فى الازمنة المتأخرة عن كتاب الجفر .

ومن هذه الروايات المتأخرة ما ذكره الكليني (١) فى ان « النبي ﷺ علم عليا بابا يفتح له منه الف باب » (٢) وان طول هذه الصحيفة ، وهى بخط على . سبعون ذراعا بذراع الرسول ﷺ و « فيها كل حرام وحلال وكل شىء يحتاج اليه الناس » وان عنده الجفر و « فيه علم النبيين والوصيين وعلم العلماء الذين مضوا من بنى إسرائيل » ويذكر المسعودى ان الأئمة المتأخرين كانوا يشيرون إلى هذه الكتب التى يفترض ان عليا تركها لهم يتوارثونها صاغرا عن كابر (٣) .

والاعتقاد بوجود هذه الكتب المقدسة السرية عند الأئمة ، ثابت . وتوسع الكتاب المتأخرون فى وصفها فذكر محمد باقر المجلسى فى القرن السابع عشر فى كتابه حياة القلوب (٤) انه لما دعا محمد نصارى نجران فى اليمن إلى الايمان بنبوته وان عيسى قد بشر به ، ذكر كتابا اسمه الجامعة . ويقولون ان فى هذه الجامعة صحف ١٢٤٫٠٠٠ نبى . ففيه صحيفة آدم « عن ملكوت الله عز وجل وما خلقه وما قدره فى السموات والارض ، دنيا وآخرة . وأورث أبو البشر هذا الكتاب الذى يحتوى على جميع العلوم ابنه شيث » فاضاف اليه شيث وأورثه ادريس ، وكذلك صحف إبراهيم وموسى وعيسى حتى جاء خاتم النبيين محمد ﷺ .

وصنف المجلسى صاحب التآليف الكثيرة كتابا باللغة الفارسية عن حياة

---

(١) مسند احمد بن حنبل ج ١ ص ٨١ و ١١٩ و ١٢٢ و ١٢٦

(٢) أصول الكافى للكلينى ص ٨٥

(٣) مروج الذهب للمسعودى ج ٧ ص ٣٨٢ (٤) حيات القلوب للمجلسى ج ٢ ترجمة Merrick بعنوان Life & Religion of Muhammad ص ٣١٥

الأئمة وقد طبع بالحجر فى طهران سنة ١٩١٢ . واسم هذا الكتاب تذكرة الأئمة ، ويذكر فيه ان الجفر الجامع كتاب اتفق العلماء على أنه كان عند على وان ما بقى منه اليوم هو ٢٨ فصلا كل منها من ٢٨ صفحة كل صفحة من ٢٨ جزءا . . . « ولا يعلم ما كتب فيها إلا الله والأئمة أو من علمهم امام معصوم » .

ويشير الكتاب نفسه إلى « الصحيفة » ويقول انها باملاء الرسول ﷺ وخط على ، وطولها سبعون ذراعا وعرضها بعرض جلد الكبش . واسمها أيضا الجامعة وفيها كل حرام وحلال» وكتابان آخران أقل أهمية من الصحيفة أحدهما الجفر الابيض وهو من أربعة عشر جزءا كل جزء من ١٤ قسما الخ. ومصحف فاطمة ، وأحاديث كثيرة تدل على ان الله أعطى آدم خمسة عشر حرفا من حروف الاسم الاعظم ، ونوحا ثمانية وإبراهيم ستة وموسى أربعة وعيسى اثنين وآصف بن برخيا حرفا واحدا وأعطى محمد ﷺ اثنين وسبعين حرفا ، فعلمها عليا (١) .

وصنفت كتب تجمع الحكم والامثال المنسوبة إلى على (رض) . وقد جمع الشاعر الفارسى رشيد الدين مائة منها ، ترجمت إلى الالمانية . (٢) وذكر Ockley فى كتابه History of the Saracens (ص ٣٣٩) ١٦٩ كلمة . والى القارىء بعض كلماته كما أوردها السيوطى : (٣)

جاء رجل إلى على فقال « أخبرنى عن القدر » فلما الح عليه قال له « ياأيها السائل ان الله خلقك لما شاء أو لما شئت؟ » قال « بل لما شاء » قال « فيستعملك لما شاء » .

---

(١) تذكرة الأئمة للمجلسى ، طبع حجر . طهران ١٩١٢ ص ٥٦ وما يليها .

(٢) Fleischer Ali.s hundert Spruche طبعة ليبسك سنة ١٨٣٧

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى ترجمة Garrett ص ١٨٥ وما يليها

وقيل له ما السخاء ؟ قال ما كان منه ابتداء فاما ما كان عن مسئلة فحياء وتكرم .

وأتاه رجل فاثنى عليه فأطراه وكان قد بلغه عنه قبل ذلك ، فقال له على: انى لست كما تقول وانا فوق مافى نفسك .

وقال : وابردها على كبدى إذا سألت عما لا أعلم ان أقول الله أعلم .

وقال من اراد ان ينصف الناس من نفسه فليحب لهم ما يحب لنفسه .

وقال : سبع من الشيطان ، شدة الغضب وشدة العطاس وشدة التثاؤب والقيء والرعاف والنجوى والنوم عند الذكر .

غير أنه لم يكن ما بلغه على فى الاساطير من المنزلة السامية يرجع إلى شجاعته فى الحروب ولا لعلمه ولا لعقله وحكمته .

« فهو لا يقاس بالقديسين وله كرامات لا يتردد شيعته من مقارنتها بالمعجزات . . وقد رد الله له الشمس فى الصهباء بعد ان غربت ليتمم صلاة العصر . ورد فى مسجد الكوفة يد عبد اسود قطعت بامر منه حسبما يقتضيه الشرع للسارق . وجيء بأحد رؤس الخوارج كان قد أتهم امرأة إمام على (رض) إذا به يصبح ثم يعوى فينقلب إلى كلب . وبدعائه نهضت ثمانون جملا كان رسول الله ﷺ قد وعدبها اعرابيا . وكان فى جوار الكوفة مرة فهجم أسد على الناس فامر على أحدهم ان يريه خاتمه ففعل فاختنق الاسد. واحيي ميتا ، وظهر بعد وفاته بقرون عديدة فى المنام ومسح على عيون بعض الناصبين فاعماهم .

ولعل أغرب حوادث تمجيد على ما نراه فى قصة معراج الرسول ﷺ إلى السماء كما ورد ذلك فى القرآن بقوله تعالى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا (سورة الاسراء ١) قال Canon Sell « (١) ان هذا الحادث هيأ

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية : مادة على .

لخيال الرواة مجالا خصيبا لأروع الوصف لما رآه النبي ﷺ وسمعه . ومن الظلم الفاضح ان نعتبر هذه المبالغات أمورا اعتقادية ضرورية . وان العلماء البارزين فى مدرسة الاسلام الحديثة لا يرون فى المعراج الارؤيا ، وهم ان السواد من الناس لا يقبلون بهذا الرأى » .

والشيعة بطبيعة الحال يرفضون هذا الرأى بشدة . ويمكن الاطلاع على معتقدات الشيعة عن ذلك فى الجزء الثانى من كتاب حياة القلوب للمجلسى والذى ترجمه القس Gemes L. Merrick بعنوان Life&religiom of Muhammed وهو يمثل بصورة عامة المعتقدات الشيعية المقبولة . قال المجلسى (ص١٩٠) « ان الروايات الشيعية والسنية تدل على ان المعراج كان بالجسد وليس بالروح فقط وباليقظة وليس بالمنام . وعلى هذا اتفق علماء الشيعة الاقدمون . اما الشكوك التى فى قلوب بعضهم عن عروج الرسول ﷺ بالجسد أو الروح فسببها قلة الدرس أو عدم الاعتقاد بقدرة الله والاستماع إلى من لا دين له » وفى وصفه جميع ما سمعه محمد ورآه فى عروجه إلى السماء ، يذكر المجلسى ما رآه على وما سمعه ، قال (١) :

« روى عن محمد ﷺ انه قال عن ليلة معراجه ان الله تعالى أمرنى ان اسئل الانبياء الماضين عن سبب رفعهم إلى هذه الدرجة ، فشهدوا جميعا بأننا رفعنا بفضل نبوتك وامامة على بن أبى طالب (رض) والأئمة من صلبك . فجاء النداء ان انظر إلى يمين الكرسى فنظرت فاذا باشباح على والحسن والحسين وعلى بن الحسين (أى زين العابدين) ومحمد الباقر وجعفر الصادق وموسى الكاظم وعلى الرضا بن موسى ومحمد التقى وعلى النقى والحسن العسكرى والمهدى — وهم يصلون فى بحر من النور ، فقال الله تعالى : هؤلاء حججى وأوصيائى وأوليائى وينتقم آخرهم من اعدائى .

« قال النبي ﷺ انه لما عرج به سألته الملائكة عن على حتى ظهر له

---

(١) Seli. Life of Muhammad C.L.S. for India ص ٧٢

ان أهل السماء يعرفون عليا أكثر منه . قال ولما صرت فى السماء الرابعة رأيت ملك الموت فأخبرنى أنه مأمور على قبض أرواح الكائنات الا روحى وروح على ، فان روحيكما سيقبضها الله عز وجل بنفسه بيد القدرة . ولما بلغت الكرسى رأيت عليا بن أبى طالب واقفا عنده فقلت له يا على كيف سبقتنى ؟ فسألنى جبريل من تكلم ؟ فقلت أخى عليا . فقال ليس هذا على ، بل ملك خلقه الرحمن شبيها بعلى . فاذا اشتاق احدنا من المقربين ان ينظر عليا نظر إلى هذا الملك »

وهكذا نرى ان موسى وعيسى وإبراهيم كلهم يستفسرون عن على ويهنون محمدا انه استخلف مثله فى مكانه (١). وجاء فى كتاب طبع حديثا(٢) ان الرسول ﷺ قال « ورأيت ليلة المعراج أنه قد كتب على كل حجاب من النور ، وكل قائمة من الكرسى ان لا إله إلا الله محمد رسول الله على بن أبى طالب أمير المؤمنين » .

---

(١) Merrick life & riligion of Muhammed ص ٢٠٣

(٢) عرجة الاحمدية للشيخ محمد جعفر سنة ١٣٢٩ ص ١٩٣ و ٣٥ و ٣٦

الباب الخامس

« مشهد على بالنجف »

روى عن الامام جعفر الصادق ان عليا طلب ان يدفن سرا خوفا من ان ينبش الخوارج قبره (١) ولما كان قليل من الناس ممن يعرف السر فقد ظن بعضهم ان عليا دفن فى بيته فى المدينة . ويؤيد هذا الرأى ما جاء فى سياحة توماس فورستر فى القرن السادس عشر (٢) فقد قال عند وصفه المدينة ان فيما وراء مسجد الرسول ﷺ « قبرين آخرين عليهما ستائر خضر دفنت فى إحدهما فاطمة بنت محمد ودفن فى الآخر على زوج فاطمة المذكورة » . ومنهم من قال ان عليا دفن فى مسجد الكوفة ومنهم من قال بل فى رحبة القصر بها وقال غيرهم انه دفن فى الكرخ من محلات بغداد القديمة . ورغم اختلاف الاقوال فان علماء الشيعة عامة متفقون على أن عليا بن أبى طالب رابع الخلفاء وأول الأئمة مدفون فى النجف وهى تبعد عن الكوفة أكثر من أربعة أميال بيسير ، وهذا هو إعتقاد سواد الناس .

وذكر ابن جبير ان فى مسجد الكوفة « محراب محلق عليه باعواد الساج مرتفع عن صحن البلاط كأنه مسجد صغير وهو محراب أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وفى ذلك الموضع ضربه الشقى اللعين عبد الرحمن بن ملجم بالسيف فالناس يصلون فيه باكين داعين » (٣)

---

(١) تحفة الزائرين للمجلسى ، طبع حجر ، ايران سنة ١٢٧٤ هـ . ص ٥٣

(٢) The principal Voyages of the English Nations. Hakluyt edit. Everyman's Liberary vol. III p.195

(٣) رحلة ابن جبير ، طبعة Wiright تذكار جب ج ٥ ص ٢١١

اما أن الشيعة إجماعا يعتبرون ان النجف هو المكان الذى دفن فيه على فتدل عليه الاف القبور التى نراها خارج المدينـة . ويتذكر كل زائران إلى شمال المدينة وشرقيها «ساحات شاسعة مغطاة بالقبور وآلاف القباب المختلفة الالوان فى مختلف أدوار عـدم الترميم » (١) ولابد لمن ذهب إلى النجف ان يسير على الطريق الملتوى المؤدى اليها خلال هذه المقبرة الشاسعة . وإذا كان معه دليل واسع الاطلاع من الشيعة فقـد يقول له ان إبراهيم عـلى ما يظن جاء هذه القرية ومعه ابنه اسحق،وان زلازل عظيمة وقعت فى هذا الجوار فانقطعت بوجود إبراهيم فيها ، وذهب إبراهيم ليـلة واسحق إلى قرية من القرى بعيدة فوقع زلزال عظيم فى النجف ، فلما عاد توسل اليه الناس ان يبقى معهم فرضى على ان يبيعوه الوادى الكائن خارج القرية ليزرع فيه .ويروى ان اسحق قال ان هذه الارض لا تصلح للزرع ولا للرعى ، لـكن إبراهيم اصر واكد ان زمانا سوف يأتى فيكون هنا قبر عليه مشهد عظيم « يفوز به سبعون الفا بدخول الجنة بغير حساب ويشفعون لغيرهم » (٢)

ان الوادى الذى اراد إبراهيم أن يشتريه هو وادى السلام . ويروى عن الامام الرابع ان عليـا قال ان وادى السلام جزء من الجنة وما من مؤمن (أى شيعى) يموت فى شرق الارض وغربها الا حشر الله روحـه إلى وادى السلام و « كانى بهم قعود يتحدثون » (٣) وذكر أيضا وادى برهوت واليه « تصير أرواح الذين كفروا بمحمد وأوصيائه من النـاس كافة » ويشار فى هذا إلى عين برهوت فى حضرموت وهى عين طولها ٣٣ قـدما وعرضها ٢٥ قدما مملوءة بالـكبريت المحرق (٤) .

---

(١) Historical Mesopo'amia كتاب دليل محلى اصدرته جريدة الاوقات العراقية سنة ١٩٢١ ص ٥٠

(٢) تحفة الزائرين للمجلسى ص ١٠٨

(٣) تحفة الزائرين للمجلسى ص ١١١

(٤) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « برهوت »

وتفسر الاحاديث أصل اسم النجف فيذكر « ان النجف كان جبلا وهو الذى قال ابن نوح سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء فأوحى الله اليه يا جبل أيعتصم بك منى ؟ فتقطع قطعا قطعا وصار رملا دقيقا وصار بعد ذلك بحرا عظيما وكان يسمى ذلك البحر بحر (نى) ثم جف بعد ذلك فقيل نى جف فسمى نجف » (١)

اما ما ذكر عن النجف فى كتب جغرافى العرب فان أقدم ما كتبه هو ابن حوقل ، وقد صنف كتابه فى القرن العاشر الميلادى فذكر ان حاكم الموصل بين سنتى ٢٩٢ — ٣١٧ هـ . « بنى قبه فوق أربع أعمدة على قبر مشهد على، وزين هذا المشهد بالستائر الثمينة والمعلقات وأحاط كذلك المدينة المجاورة بسور » (٢) اما فيما يختص باكتشاف هذا المشهد فيقول المستوفى فى كتابه الذى الفه فى القرن الرابع عشر (٣)

« ويقع على فرسخين من الكوفة نحو الجنوب الشرق مشهد على أمير المؤمنين ويعرف بالمشهد الغروى ، فان عليا لما جرح الجرحة التى مات فيها فى مسجد الكوفة أوصى أن يحمل جسده عند موته على جمل ويطلق عنانه ، وحيثما برك دفن جسده . ففعلوا ذلك وصادف ان برك الجمل فى المكان الذى فيه المشهد اليوم فدفن هناك . ولم ينكشف المرقد المبارك مدة حكم الامويين وكذلك فى حكم العباسيين حتى زمن هرون الرشيد . وصادف ان خرج هرون الرشيد سنة ١٧٥هـ (٧٩١م) إلى الصيد فى هذه النواحى فتبع صيدا فهرب الصيد واحتمى فى هذا المكان ، فركض حصانه نحو هذا المكان فلم يفعل واثر ذلك فى قلب الخليفة وسأل الناس هناك فاخبروه بأن ذلك هو قبر على وامر هرون ان تحفر الارض فوجد جسد على راقدا وهو مجروح ، فبنى عليه قبة وسكن الناس حوله »

---

(١) تحفة الزائرين للمجلسى ص ١١١

(٢) لسترنج Lands of the Eastern Caliphate ص ٧٦

(٣) نزهة القلوب للمستوفى ، تذكار جب ج ٢٣ المتن ص ٣١ الترجمة الانكليزية ص ٣٨

وربما كان فى ذكر ان جسد على وجد راقدا وهو مجروح ، بعد مضى ١٣٠ سنة على مقتله ما يدل على ان المستوفى نفسه كان شيعيا معتقدا . ثم يذكر انه بعد مرور نحو ١٩٠ سنة على قصة هرون الرشيد « ان عضد الدولة البويهى اقام فى (٣٦٦ هـ ٩٧٧ م) بناء عظيما على القبر كما يشاهد اليوم وأصبح المكان منذ ذلك التاريخ مدينة صغيرة محيطها ٢٥٠٠ خطوة » . ويخبرنا ابن الاثير ان عضد الدولة البويهى واثنين من ابنائه دفنا هناك . ويقال ان هذا المشهد الذى لم يمر على بنائه أكثر من سبعين سنة احترقه بتمامه سنة (٤٤٣هـ ١٠٥١م) اثناء إضطهادات الشيعة . ويظهر أن بناءه أعيد حالا أو على الاقل قبل ان يزوره الوزير نظام الملك بصحبة ملك شاه سنة (٤٧٩هـ ١٠٨٦م)[١]. ويضيف المستوفى على ذلك قائلا ان السلطان ملك شاه السلجوقى زار النجف فرأى ان المنارة « كانت معوجة نصفها مستقيم والآخر مائل فسأل عن السبب فأجيب ان عليا مر مرة بها فانحنت المنارة إحتراما له فاشار اليها الخليفة على أن تبقى على حالها » .

وورد ذكر النجف فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر فى رحلة ابن جبير فيقول عند وصفه الكوفه ان على مقدار فرسخ منها المشهد الشهير الشأن المنسوب لعلى بن أبى طالب (رض) وحيث بركت ناقته وهو محمول عليها مسجى ميتا على ما يذكر .

وفى القرن الثالث دخل هولاكوخان بغداد وخربت بلاد واسعة حولها إلا ان من الواضح ان الشيعة انفسهم هم الذين دعوا المغول وشجعوهم على المجىء بسبب ما وقع عليهم من التعديات الكثيرة فان الجند من السنة بقيادة ابن الخليفة قد أباحوا دور الشيعة فى محلة الكرخ وأخرجوا نساءهم عن الحرم وحملوهن على ظهور الخيل مكشوفات الرؤوس عاريات الاقدام إمام الناس . فارسل الوزير وهو من ابناء تلك الطائفة التى أبيحت حرمتها كتابا

---

(١) كتاب لسترينج المار ذكره ص ٧٧

إلى السيد تاج الدين محمود ابن نصر الحسيني رئيس الحلة وهي مركز شهير للنفوذ الشيعي يخبره فيه « انه قد نهب الكرخ المعظم . . وقد نهبوا العترة العلوية واستأسروا العصابة الهاشمية . . فلهم أسوة بالحسين عليه السلام إذ نهب حريمه واريق دمه . . وكان جوابهم بعد خطابي ان لابد من الشنيعة وقتل جميع الشيعة وإحراق النهاية وتمزيق الذريعة وان لم تكن لكلامنا مطيعا لجرعناك الحمام تجريعا . ولنتركن فى بغداد أخل من الحناء عند الاصلع ومن الخاتم عند الاقطع » .

وكان هولاكو اذ ذاك قد فتح حصن الاسمعيلية فى الموت فكتب له الوزير مؤيد الدين بنى العقلى المعرب يشرح له ضعف بغداد ويستدعيه للمجىء (١) فقدم المغول ونرى ان فى « اثناء حصار بغداد أرسل بعض رؤساء الحلة حيث النفوذ للسادة ابناء على ، وفدا إلى هولاكو بخضوعهم يذكرون انهم يروون حديثا بسند اجدادهم إلى على والأئمة الاثنى عشر فى انه (أى هولاكو) ستخضع له تلك البلاد (أى العراق العربى) . ويوضح هذا السبب فى ان المغول لم يتعرضوا للشيعة بسوء ، وللسبب ذاته أرسل هولاكو مئة مغولى « لحماية قبر على فى النجف » (٢)

وبعد ذلك بسنوات قليلة عندما كان الايلخانيون من المغول يعملون كل ما بوسعهم لاعلاء شأن مدينتهم الجديدة السلطانية التى على نحو مئة ميل من قزوين ، « فكر أو لجايتو بنقل رفاة على من النجف والحسين من كربلا اليها وشيد بناء فخم ليكون مدفنا لهما » ولكنه لم يعش ليحقق نيته واصبح البناء الذى شيده قبرا له (٣)

وكما أن المستوفى فى وصفه النجف أثناء القرن الرابع عشر لم يذكر شيئا

---

(١) History of The Mongols تأليف Howarth ج ٣ ص ١١٤ — ١١٥
(٢) History of The Mongols تأليف Howarth ج ٢ ص ٢٢٥
(٣) History of The persia تأليف Sykes ج ٢ ص ٢٢٥

عن إعادة تعمير البناء كذلك ابن بطوطة الذى الف رحلة بنفس العصر فانه لم يذكر الترميمات التى جرت على المشهد بعد فتح المغول (١) قال .

ثم رحلنا فنزلنا مدينة مشهد على ابن أبى طالب (رض) بالنجف وهى مدينة حسنة . . من احسن مدن العراق وأكثرها ناسا . . (وفيها) القبر الذى يزعمون أنه قبر على عليه السلام . . وأهل هذه المدينة كلهم رافضية . و (هم) تجار يسافرون إلى الاقطار وهم أهل شجاعة وكرم . . . وحيطان هذه الروضه منقوشة بالقاشانى . . . والقبة مفروشة بانواع البسط من الحرير وسواه وبها قناديل الذهب والفضة . . . وفى المدينة خزانة كبيرة تجمع بها النذور من الناس فى بلاد العراق وغيرها من يصيبه المرض فينذر للروضة نذرا إذا برىء . وهذه الروضة ظهرت لها كرامات ثبت بها عندهم ان بها قبر على (رض) فنها ان فى ليلة السابع والعشرين من رجب . . يؤتى إلى تلك الروضة بكل مقعدى العراقين وخراسان وبلاد فارس والروم فيجتمع منهم الثلاثون والاربعون ونحو ذلك فاذا كان بعد العشاء الاخرة جعلوا فوق الضريح المقدس والناس ينتظرون قيامهم وهم ما بين مصل وذاكر وتال ومشاهد للروضة فاذا مضى من الليل نصفه أو ثلثاه أو نحو ذلك قام الجميع أصحاء من غير سوء . . . وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقاة ولم أحضر تلك الليلة لكنى رأيت . : . ثلاثة من الرجال . . . وهم مقعدون فاستخبرتهم عن شأنهم فاخبرونى انهم لم يدركوا ليلة المحيا وانهم منتظرون أوانها من عام آخر »

فلما قضى المغول على الخلافة العباسية وازالوا أثرها أصبحت بغداد مدينة ثانوية صغيرة واهملت منظومة الرى البديعة التى كانت تروى المناطق المحيطة بها . غير انه قامت حركة ظاهرة لاحياء الثقافة خلال الخمسين أو الستين سنة التالية ماعاش أولئك الذين سلموا قبل ان يصاب الاسلام بهذه النكبة الكبرى

---

(١) رحلة ابن بطوطة ترجمة lee لندن ١٨٢٩ الباب ٤ ص ٣٢

« ونجو من القتل » فكانت خلال الدور الجلائرى أو الايلخانى حركة نشاط على ظاهرة (١) ولم تمنع زيارة مشاهد الأئمة المدفونين فى جوار بغداد . ونلاحظ بالحقيقة ان بعض الامراء المتأخرين من المغول كانوا يتسمون بالحسن والحسين ما يدل على تسامحهم وانحراف ميولهم نحو المشاهد الشيعية .

ولا يظهر ايضا أن مشهد النجف قد أصابه ضرر ما اثناء الغارات التيمورية ففى سنة ١٣٩٣ م صمم تيمور على ضم العراق العربى إلى ملكه ونزل فى بعض مراحله عند قبر الولى المدفون فى إبراهيم لك فزاره ووزع الصدقات عنده وبلغ بغداد فى الثلاثين من شهر آب فقتح له أهلها أبواب مدينتهم . وهرب السلطان احمد خال الجلائرى نحو الحلة فقامت عساكر تيمور بالتفتيش عن السلطان الهارب فى كل مكان حتى التقوا به فى سهل كربلا . وكان الحر شديدا والقتال غير حاسم الا أن السلطان تمكن من الهروب . وخاف رؤساء العساكر التيمورية من الهلاك عطشا فعادوا ادراجهم حتى بلغوا الفرات فى مكان يسمى « مكد » (ربما كان مشهد) حيث قتل الحسين بن على . فقبل كل منهم أبواب المشهد المقدس وزاروا مع الزائرين (٢) مايدل على ان الغزاة التيموريين لم يحملوا عداء معينا للشيعة . ولم يفكروا بالتعرض إلى أماكنهم المقدسة. حتى انه عندما عاد التيموريون إلى بغداد بعد ثمان سنوات واخذوها عنوة ووضعوا السيف فى اهلها دون رحمة لا نسمع انهم تعرضوا بسوء إلى المشاهد فى ظاهرها .

وبعد وفاة الشاه رخ الابن الثالث لتيمور بعد حكمه الطويل من ١٤٠٤- ١٤٤٧م أخذت تلك الامبراطورية التى انشئت بالسيف والخراب تتفسخ شيئا فشيئا . واعقبتها امارتان تركمانيتان وهما القره قويونلى والآق قويونلى بالتتالى حتى كانت اليد العليا أخيرا للازبك الذين جاءوا من ما وراء النهر خلال هذه

---

(١) براون Literary History of Persia ج ٣ ص ١٧٢

(٢) History of the Mongols. Howarth ج ٢ ص ٦١٢ — ٦٦٥

الفترة من الحروب والنهب والفوضى . غير ان الساحة لهذه الحركات السياسية لم تكن فى بغداد ، فلا نسمع باشارة إلى تخريب المشاهد الكائنة فى جوارها

ولما قبضت الاسرة الصفوية على زمام الامور وهي أسرة تقوم على دعاية شيعية إعتدائية مد الشاه إسمعيل سلطانه خلال خراسان حتى هراة فضلا عن ضمه المقاطعات الجنوبية إلى املاكه ، حتى إذا جاء عام ١٥٠٩ م كانت رقعة مملكته تمتد من نهر جيحون إلى خليج البصرة ومن بلاد الافغان إلى الفرات وكان ذلك الدور مبدأ إهتمام عظيم بالمشاهد القريبة من بغداد واعتبر صدر الصدور أو المجتهد الشيعى الاكبر السلطة القضائية العليا فى البلاد وهو الذى يتصرف بجميع الاوقاف . ولم يدم ذلك طويلا إذ أصبحت العراق بعد خمس وعشرين سنة جزءا من الامبراطورية العثمانية وذهبت حصة كبيرة من الاموال المخصصة للمشاهد إلى العثمانيين بدلا من الايرانيين . وبطبيعة الحال سر الشيعة كثيرا عندما استعاد الشاه عباس أرض المشاهد المقدسة سنة ١٦٠٣ ولكن السلطان مراد تمكن من استرجاعها سنة ١٦٣٨ وبقيت تحت الحكم العثمانى مدة ٣٠٠ سنة تقريبا .

وحاول نادر شاه فى القرن الثامن عشر أضعاف نفوذ مجتهدى الشيعة فالغى مركز صدر الصدور ورغم ذلك فان إمام الجمعة فى أصفهان كان لايزال يعتبره الناس عامة الممثل للامام المختفى من آل على وهو رأس الطائفة الشيعية(١) وقد أخبرت فى النجف أن نادر شاه لم يكن فى أول الامر مؤمنا حقيقيا وقد اراد ان يرفع المذهب الشيعى فيوحد الاسلام غير انه اقتنع بعدئذ باحقية إدعاءات الأئمة ، بالمعجزات التى حدثت فى ذلك المشهد .

فقد كان من المشهور مثلا ان الخمر إذا دخل ضمن أسوار النجف انقلب خلا وان الكلب لا يدخلها . فاراد نادر شاه ان يأخذ بطلا من النبيذ وكلبا معه عندما زار النجف ، الا انه عند باب النجف قاوم الكلب كل محاولة

---

(١) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الحادية عشر مادة « Sti,ihs »

لادخاله المدينــة حتى إضطروا إلى قتله وانقلب النبيذ خــلا . وكانت هذه المعجزات وغيرها سببا إلى اعتقاد نادر شاه بالأئمة .

ويذكر انه فى سـنة ١٧٩٤ القى اغا محمــد خان أول الشاهات القاجاريين القبض على وزير منافسه لطف على خان ، وكان شـديد الغضب لافلاته منه فامر بقطع يدى هذا المسـكين البرىء وقلع عينيه « وفى تلك الليلة رأى فيما يراه النائم ان رسول الله ﷺ يعاتبه عتابا شديدا ، فاكرم هذا الوزير بغالا وخيما وادواة أخرى يذهب بها إلى النجف ويقضى باقى عمره عند القبر المقدس لعلى » (١) ونرى من هذه الحـادثة ان المشهد وان كان تحت الحـكم العثمانى فان الزوار وغيرهم كانوا يذهبون اليه كالعادة . وبقى المشهد حتى بعد هجوم الوهابيين سنة ١٨٠٣ ونهبهم الـكنوز المـكدسة هنـاك محلا للزيارة وربما يعزى بعض ذلك إلى اعتباره إمتيازا مقدرا للشيعة فى إيران وبعضه بلاشك إلى ان زواره هم المنبع الرئيسى لدخله .

وفى زمن القاجاريين كانت مشاهد العراق تحت السلطة السياسية العثمانية وكان مجتهدو الشيعة الذين توطنوا النجف أقل تعرضا للتدخـل من الجهتين العسكرية أو السياسية مما لو كانوا فى إيران . فلم يكونوا قانعين دوما بالنفوذ الذى لهم فى إيران بواسطة مدارسهم الدينية أو اختلاطهم بالزوار . فاخذت تلك الطبقة من رجال الدين الذين قمعهم نادر شـاه ، باستعادة سلطانها وقـد جعلت من النجف مركزا لها ، وقامت هذه الطبقة فى مواقف مهمة من الضغط بشدة ممـا اثر فى القرارات للقضايا السياسية فى إيران . فمن النجف اصدرت الفتوى سنة ١٨٩١ م للمؤمنين كافة بالامتناع عن التدخين لمحاربة امتياز حصر التنباك . فحـدث بنتيجة ذلك إضطراب خطير فى طهران اجبر الحـكومة الايرانية على سحب الامتياز وكذلك فى الزمن الذى إتخذ به الدستور الايرانى فقد اعترف ضمنا فيه بان السلطة العليا تعود إلى الامام الغائب . ولمـا كان

---

(١) History of persia, Malcolm ج ٢ ص ١٢٤ حاشية

مجتهدو الشيعة هم ممثلوه المعترف بهم وجب ان يدخل عـدد معين منهم ضمن اعضاء المجلس خلال مدة الحكم القاجارى .

وعند ما أخذ الناس يتكلمون علنا فى إسقاط القاجاريين عندما صار الحاكم الحالى لإيران فى مركز الدكتاتور العسكرى المطلق فيها ، فكر هو وانصاره باعلان الجمهورية فى إيران واحتجت السلطات فى النجف على ذلك بان النظام الجمهورى مخالف المدين الاسلامى ولعادات المسلمين ، غير ان ذلك لايمنع تغيير الأسرة باخرى . وعلى ذلك أعلن وزير الحربية بعد استحضارات دامت بضعة أشهر نفسه شاها على إيران ووضع التاج على رأسه واسس الاسرة البهلوية الجديدة .

ومشهد النجف فى الوقت الحاضر مدينة صغيرة تقع وراء ساحة القبور الشاسعة ، عدد سكانها تقريبا نحو ٢٠٫٠٠٠ نسمة يحيط بها سور مربع الشكل وتشمخ من وراء هذا السور القباب المذهبة فوق قبر على وقد زين مدخل الضريح بالفضة المصقولة والمرايا والنقوش الكاشانية . وفوق القبر نفسه صندوق من الفضة « مشبك بالفضة وله باب ذات قفل فضى كبير » وفى الصحن منارتان جميلتان مكسوتان بصفائح من الذهب (١)

وقد جاءت الاحاديث عن الأئمة عن فضل زيارة قبر على فمنها ما روى عن الامام جعفر الصادق انه قال « من زار أمير المؤمنين عارفا بحقه غير متجبر ولا متكبر كتب الله له اجر مائة الف شهيد وغفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر » . واتى رجل الامام الصادق واخبره انه لم يزر أمير المؤمنين فقال له « بئس ما صنعت لولا انك من شيعتنا ما نظرت اليك ، الاتزور من يزوره الله مع الملئكة ويزوره الانبياء ويزوره المؤمنين » قال « جعلت فداك ماعلمت ذلك » قال « فاعلم أن أمير المؤمنين افضل عند الله من الأئمة كلهم وله ثواب

---

(١) دائرة المعارف البريطانية الطبعة ١١ مادة « نجف »

أعمالهم وعلى قدر اعمالهم فضلوا » (١)

وعلى الزائر قبل ان يزور ، كما قال الامام جعفر الصادق ، ان يغتسل ويلبس ثوبين طاهرين وينال شيئا من الطيب . ودعاء الزيارة الذى ذكره الكلينى (٢) لا يختلف كثيرا عما ذكره ابن بابوية (٢) وأوله كما يلى .

السلام عليك يا ولى الله
السلام عليك ياحجة الله
السلام عليك يا خليفة الله
السلام عليك ياعمود الدين
السلام عليك ياوارث النبيين
السلام عليك يا قسيم الجنة والنار
السلام عليك يا صاحب العصا والميسم
السلام عليك يا أمير المؤمنين .

اشهد انك كلمة التقى وباب الهدى ، والاصل الثابت والجبل الراسخ والطريق الحق .

اشهد انك حجة الله على خلقه وشاهده على عباده وامينه على علمه ومستودع اسراره ومعدن حكمته واخ رسوله .

« اشهد انك اول مظلوم وأول من غصب حقه فأصبر وانتظر ولعن الله من ظلمك ، وغصب حقك وعاداك لعنة عظيمة يلعنه بها كل ملك كريم ونبى مرسل ومؤمن صادق . ورحمة الله عليك يا أمير المؤمنين ـ وعلى روحك وجسدك »

ان إيراد الدعاء بكامله أمر ممل وقد ذكر المجلسى فى كتابه عن الزيارات

---

(١) تحفة الزائرين للمجلسى ص ٥٠
(٢) الكافى للكلينى ج ٢ ص ٣٢١
(٣) من لا يحضره الفقيه لابن بابوية ص ٢٣٦

ثمانية ادعية طويلة تقرأ فى زيارة النجف (١) وينسب كل دعاء إلى أحد الأئمة وقد توارثتها الاجيال وقرأها مرة بعد أخرى مئات الالوف من الزائرين الصادقين إلى مشهد على بالنجف .

---

(١) تحفة الزائرين للمجلسى ص ٥٨ — ٩٢

الباب السادس

الحسن (ع) الخليفة الذى اعتزل الخلافة

« بويع الحسن ابن على ابن أبى طالب » على قول المسعودى (١)

« بالكوفة بعد وفاة أبيه بيومين من شهر رمضان من سنة أربعين ، ووجه عماله إلى السواد والجبل . وقتل الحسن عبد الرحمن بن ملجم على حسب ما ذكرنا . ودخل معاوية الكوفة بعد صلح الحسن بن على لخمس بقين من شهر ربيع الاول فى سنة إحدى واربعين وكانت وفاة الحسن ــ وهو يومئذ بن خمس وخمسين سنة ــ بالسم ، ودفن بالبقيع مع أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ »

ويروى احمد ابن حنبل (٢) انه بعد مقتل على (ع) خطب الحسن بالناس فقال « لقد قبض فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الاولون بعمل ولا يدركه الآخرون بعمل . وقد نصبه رسول الله » . وقد ناقشنا (٣) صحة هذه القضية آنفا وسننظر فى هذا الفصل ما اذا كان هناك دليل على أن الحسن قد تعين سابقا لتولى الخلافة بعد على .

من المحتمل جدا أن فكرة الحق الالهى التى تقضى بان يعين كل امام خلفه لم تبتعد بوضوح فى أول الامر من الاراء الاخرى بالخلافة . فان عادة القبائل العربية ان يختاروا من يلى السابق فى الاهمية بمجتمعهم ولا شك

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ١

(٢) احمد بن حنبل ج ١ ص ١٩٩ المسند

(٣) انظر الباب الاول وحديث غدير خم

أن هذا المبدأ هو الذى تقرر بموجبه اختيار أو تعيين الخلفاء الثلاثة الأول أبى بكر وعمر وعثمان . ويمكن أيضا إعتبار أن عليا جاء إلى الخلافة فى الزمن الذى قدمته الظروف إلى الصف الأول دون أن يكون لذلك أية علاقة مع الأرث أو التخصيص ويمكن أن نتوقع بصورة طبيعية أن تؤول الخلافة بعد على إلى معاوية فانه قد برهن عندما كان عاملا لعثمان فى الشام على مقدرة فائقة فى الادارة .

ولكن الاسلام لم يعد محصورا فى جماعة عربية متحدة يحكمها العرف والعادات القديمة فقد تعرف المسلمون الذين إشتركوا بحملات الفتح ضد الدولة البوزنطية فى الغرب بفكرة الانتخاب الأرثى وكذلك الذين ألفوا جيوش الاحتلال فى أراضى الدولة الفارسية المنقرضة . وجاءت تعاليم ابن سبأ ودعوته فى ان عليا بكونه وصى النبى ﷺ انتقل اليه النور الالهى أو الروح الالهى التى يتمكن من توريثه من شاء . وفى خلال خلافة على التى دامت اربع سنوات انقسمت المملكة الاسلامية . وحدثت حروب أهلية شديدة دامت عدة سنوات فوضعت حدا فاصلا بين الشرق والغرب . وكانت خطة التحكيم المرسومة لعقد هدنة بعد معركة صفين قد فشلت فى توحيد الشعور . فقد كان الخليفتان المتنافسان على ومعاوية يلعن إحدهما الآخر علنا فى الصلاة . وكان المجتمع الاسلامى بأجمعه منهوك القوى من جراء سنوات الحرب وبينما كان كلا الطرفين يستعيد قوته كان هناك توتر وعدم طمأنينة بصورة مستمرة جعلت إيجاد استقرار فى الحكومة أمراً مستحيلا .

ففى هذا الزمن الذى يسوده الاضطراب العام اغتيل على (رض) ونعلم ان الحسن اختير بعد ذلك مباشرة ليخلف عليا فى الكوفة . وحسب حديث مقبول عند الشيعة (١) أن عليا قبل ان يموت دفع الى الحسن « الكتب والسلاح »

---

(١) أصول الكافى للكلينى ص ١١٠

بحضور أهل البيت ورؤساء الشيعة وقال له : يابنى أمرنى رسول الله ﷺ أن أوصى اليك وان ادفع اليك كتبي وسلاحى كما أوصى إلى رسول الله ﷺ ودفع إلى كتبه وسلاحه وأمرنى أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين « ثم أقبل على ابنه الحسين فقال » وأمرك رسول الله ﷺ ان تدفعها إلى ابنك هذا ثم أخذ بيد علی بن الحسين ثم قال لعلى بن الحسين « وأمرك رسول الله ﷺ أن تدفعها إلى ابنك محمد بن على واقرأه من رسول الله ﷺ ومنى السلام » .

اما أن عليا قد قام بمثل هذا التعيين الواسع لاربعة أئمة متعاقبين فامر لايكاد أن يكون محتملا . الا أن احاديث أخرى تتعلق بنفس القضية فهى أقل طموحا من الأول . فقد روى أحدهم أن عليا قال للحسن « ادن منى حتى أسر اليك ما أسر رسول الله ﷺ الى وائتمنك على ما ائتمننى عليه» ففعل . ومنها أن عليا دعا الحسن ولى الأمر وولى الدم . ويقال أنه قال له بهذه المناسبة « ان عفوت عن قتلى فقد عفوت وان قتلت قاتلى فاقتله بضربة واحدة »

وربما كان أوثق مصدر شيعى عما حدث بعد وفاة على هو ما جاء فى كتاب الاخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى (٨٩٥ م) . ولهذا الكتاب أهمية كبرى فقد كتب من وجهة نظر الشيعة وقبل أن يدون الحديث عندهم وقبل دخول المسلمين الهند بمئة سنة وقد مات الدينورى قبل ما يفترض من غياب آخر أمام باثنتين وعشرين سنة قال الدينورى : (١)

« ودفن على (ع) ليلا وصلى عليه الحسن (ع) وكبر خمسا فلم يعلم أحد أين دفن — قالوا ولما توفى على خرج الحسن إلى المسجد الاعظم فاجتمع الناس اليه فبايعوه . ثم خطب الناس فقال :

« أفعلتموها ؟ قتلتم أمير المؤمنين أما والله لقد قتل فى الليلة التى نزل

---

(١) الاخبار الطوال لابى حنيفة الدينورى طبعة Gwrgass ص ٢٣٠

فيها القرآن ورفع فيها الكتاب وجف القلم ، وفى الليلة التى قبض فيها موسى بن عمران وعرج فيها بعيسى »

قالوا : ولما بلغ معاوية قتل على تجهز وقدم أمامه عبيد الله بن عامر بن كريز فاخذ على عين التمر ونزل الانبار يريد المدائن وبلغ ذلك الحسن بن على وهو بالكوفة فسار نحو المدائن لمحاربة عبيد الله بن عامر بن كريز فلما انتهى إلى ساباط رأى من أصحابه فشلا وتواكلا عن الحرب فنزل ساباط وقام فيهم خطيبا ثم قال .

« أيها الناس إنى قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضغينة وأنى ناظر لكم كنظرى لنفسى وأرى رأيا فلا تردوا على رأيى ، أن الذى تكرهون من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة وأرى أكثركم قد نكل عن الحرب وفشل عن القتال ولست أرى أن أحملكم على ما تكرهون » .

« فلما سمع أصحابه ذلك نظر بعضهم إلى بعض فقال من كان معه من يرى رأى الخوارج أكفر الحسن كما كفر أبوه من قبله ؟ فشد عليه نفر منهم فانتزعوا مصلاه من تحته وانتهبوا ثيابة حتى انتزعوا مطرفه من عاتقه ، فدعا بفرسه فركبه ونادى « أين ربيعه وهمدان » فتبادروا اليه ودفعوا عنه القوم ثم أرتحل إلى المدائن فكمن له رجل ممن يرى رأى الخوارج يسمى الجراح بن قبيعة من بنى أسد بمظلم ساباط فلما حاذه الحسن قام اليه بمعول فطعنه فى فخذه وحمل على الاسدى عبد الله بن خطل وعبد الله بن طبيان فقتلاه ومضى الحسن مثخنا حتى دخل المدائن ودخل القصر الابيض وعولج حتى برأ . واستعد للقاء ابن عامر . وأقبل معاوية حتى وافى الانبار وبها قيس بن سعدبن عبادة من قبل الحسن لحاصره معاوية وخرج الحسن فوافق عبد الله بن عامر فنادى عبد الله بن عامر « يا أهل العراق إنى لم أر القتال وإنما أنا مقدمة معاوية ، وقد وافى الانبار فى جموع أهل الشام فاقرئوا أبا محمد يعنى الحسن منى السلام وقولوا له أنشدك الله فى نفسك وانفس هذه الجماعة

التى معك فلما سمع ذلك النـاس إنخذلوا وكرهوا القتال وترك الحسن الحرب وانصرف إلى المدائن وحاصره عبد الله بن عامر بها .

ولما رأى الحسن من أصحابه الفشل أرسل إلى عبـد الله بن عامر بشرائط أشترطها على معاوية على أن يسلم له الخلافة وكانت الشرائط (١) أنلا يأخذأحدا من أهل العراق باحنة (٢) وأن يؤمن الاسود والاحمر (٣) ويحتمل ما يكون من هفواتهم (٤) ويجعل له خراج الاهواز مسلما فى كل عام (٥) ويحمل إلى أخيـه الحسين بن على الفى الف درهم (٦) ويفضل بنى هاشم فى العطاء والصلات على بنى عبد شمس .

فـكتب عبـد الله بن عامر بذلك إلى معاوية فـكتب معاوية جميع ذلك بخطه وختمه بخـاتمه وبذل عليه له العهود المركبة والايمـان المغلظة وأشهد على ذلك جميع رؤساء أهل الشام ، ووجه به إلى عبد الله بن عامر فاوصله إلى الحسن فرضى به .

« وكتب إلى قيس بن سـعد بالصلح وأمره بتسليم الامر الى معـاوية والانصراف إلى المدائن . فلما وصل الـكتاب بذلك إلى قيس بن سـعد قام فى النـاس وقال أيها الناس إختاروا أحد الامرين القتال بلا امام أو الدخول فى طاعة معاوية فاختاروا الدخول فى طاعة معاوية . فسارحتى وافى المدائن .

وسار الحسن بالناس من المدائن حتى وافى الـكوفة ووافاه معاوية بها فالتقيا فوكد عليـه الحسن تلك الشروط والايمان . ثم سار الحسن باهل بيته حتى وافى مدينة الرسول ﷺ وأخذ معاوية أهل الـكوفة بالبيعة فبايعوا واستعمل عليها المغيرة بن شعبة وسار منصرفا فى جموعه إلى الشام »

ويروى اليعقوبى رواية مشابهة لخلافة الحسن القصيرة واليعقوبى (١) معاصر للدينورى وقد كتب أيضا من وجهة نظر الشيعة . إلا أنه أضاف بعض

---

(١) تاريخ اليعقوبى ، طبعة هوتسما ٢ ص ٢٥٤

التفاصيل النادرة فيقول مثلا أن الجراح الاسدى عندما جرح الحسن بمغول « قبض على لحية الجراح ثم لواها فدق عنقه »

ويذكر أنه لما قدم معاوية العراق وغلب على الامر كان الحسن عليلا شديد العلة فلما رأى الحسن أن لاقوة به وأن أصحابه قد افترقوا عنه فلم يقوموا له صالح معاوية وصعد المنبر (ربما كان ذلك عندما عاد إلى الكوفة) فحمد الله واثنى عليه وقال: « أيها الناس إن الله هداكم باولنا وحقن دماءكم باخرنا وقد سالمت معاوية وأن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين (سورة الانبياء الآية ١١١).

ويقول السيوطى أن الحسن أرسل إلى معاوية يبذل له تسليم الأمر اليه على أن تكون له الخلافة من بعده. ويعلق مترجم كتاب السيوطى أنه لم يقرأ هذا الخبر فى مكان آخر (١). ولعل أهم كتابين اليوم فى ايران تبحث حياة الأئمة بالتفصيل هما كتاب جنات الخلود وروضة الشهداء ويقرأ هذان الكتابان فى المآتم الحسينية (٢) ويذكر هذا الكتابان معلومات اضافية على تنازل الحسن عن الخلافة. فيذكران أن جيش الحسن كان يبلغ فى أول الامر أربعين الفا وجيش معاوية ستين ألفا وقد نجح معاوية فى إرشاء قواد الحسن. وفى الكتابين محاولة خالصة لجعل الامام على حق فى تنازله ويلقيان اللوم على طمع بعض القواد وغدر أهل الكوفة المتكرر.

ولا يعلم بالضبط مدة خلافة الحسن القصيرة فيقول المسعودى أنها كانت ستة اشهر و ٣ أيام (٣) ويصفه بانه « أول خليفة خلع نفسة وتنازل لغيره »

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى طبعة جارت ص ١٩٤

(٢) جنات الخلود ، الفصل التاسع ، روضة الشهداء تأليف حسن واعظ كشفى (٩١٠هـ) الفصل ٦ ص ١٠٧ — ١١٧ ، براون — Persian Literature under Tartar Dominion — ص ٤٤١ و ٥٠٣ — ٥٠٤

(٣) التنبيه والاشراف المسعودى (المكتبة الجغرافية العربية) ج ٨ ص ٣٠٠

والذى قبله الشيعة أن خلافته دامت عشر سنين وستة أشهر بقى منها فى الخلافة أربعة عشر شهرا وسلمها إلى معاوية مدة تسع سنين وأربعة أشهر تقية وحرصا على أرواح شيعته وأموالهم وأعراضهم من تعرض معاوية وأصحابه لهم » فمدة خلافته حسب هذا القول التى دامت أربعة عشر شهراً تزيد على المدة التى ذكرها المسعودى بثمانية أشهر تقريبا . ويوضح ذلك بانه فى خلال المدة التى كان يدعى كل من على ومعاوية فيها الخلافة بعث معاوية يسراً فى ثلاثة آلاف ليحصل له على بيعة أهل مكة والمدينة وانفذ على بعد ذلك جيشاً يبلغ أربعة الاف لانقاذ المدينتين والحصول على البيعة له . فبايع أهل مكة عليا أما أهل المدينة فالغريب انهم بايعوا الحسن اثناء خلافة على (١) فاذا اعتبر الشيعة المتأخرون ابتداء خلافة الحسن من هذه البيعة بالمدينة كان ذلك هو الفرق البالغ نحو سبعة أو ثمانية أشهر .

وقليل من الحوادث التى وقعت فى أوائل تاريخ الاسلام لم تدمج فى الاحاديث ايضاح أسبابها قبل وقوعها . ومن أبرز الامثلة لهذا الميل لايضاح السبب فى انعكاس الحال مع أهل البيت برواية أحاديث عن تنبؤ الرسول ﷺ بوقوع هذه الامور ماروأه المسعودى فى أنه وجد فى عدة من كتب التاريخ أن الرسول ﷺ قال « الخلافة من بعدى ثلاثين سنة » (٢) ويذكر السيوطى هذا التنبوء المفروض ويقول مترجمه أن محمدا مات سنة ١١ هـ وأن تنازل الحسن كان سنة ٤٠ هـ » فيتضح من ذلك كما قال البخارى صحة نبوة محمد وأحقية الحسن بالخلافة . (٣)

وناحية ثانية تلفت النظر فى الاحاديث عن الأئمة هى وجود أحوال معينة

---

(١) السير وليام موير Annals of the Early Caliphate ص ٤٠٩ ، مروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ٥٧

(٢) مروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ٧

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى طبعة جارت ص ١٩١

ترتبط بولادة كل امام تكاد تكون واحدة لجميعهم . فيقال أن عليا ولد فى الكعبة نفسها أما الحسن فانه وإن لم يولد فى الكعبة أيضاً إلا أنهم يذكرون أنه ولد فى بيت على وفاطمة فى المدينة وهو البيت الوحيد الذى سمح جبريل بابقاء بابه مفتوحة إلى مسجد الرسول ﷺ (١)

ومن الاحاديث التى تصف حب محمد لحفيديه الحسن والحسين ذلك الحديث الذى يعزى معرفة حوادث المستقبل بدرجة بارزة ، عندما أخذ الحسن وهو طفل وصعد به المنبر وخاطب الناس قائلا « اتنكرون لابنى هذا أنه سيد وسيصلح الله به بين طائفتين من المسلمين » (٢) ويذكر أن هذين الحفدين كانا يشبهان أباهما وجدهما فى نواح مختلفة فالحسن يشبه محمدا ﷺ بما فوق للسرة وعليا بما تحتها بينما يشبه الحسين عليا فى أعلاه ومحمدا ﷺ فى أسفله .(٣)

إلا أنه مهما كانت درجة التشابه الظاهرى مع النبى ﷺ فان الاخبار تدل على أن الحسن كانت تنقصه القوة المعنوية والشجاعة والضبط النفسى(٤) والقابلية العقلية لقيادة شعبه بنجاح .وقد قدرت دائرة المعارف الاسلامية شخصيته مختصراً بان« الشهوات النفسية ونقص النشاط والذكاء هما الصفتان الاساسيتان لاخلاقه . وبعد وفاة فاطمة فى شرخ صباها لم تكن علاقته مع أبيه أو أخوته على أحسن مايرام . وقد قضى زهرة شبابه فى الزواج والطلاق ، حتى بلغ عدد من تزوجهن المئة ، وسمى بالمطلاق وخلق لعلى أعداء خطرين . وقد برهن على كثرة تبذيره بان خص كل أمرأة من نسائه بمال كثير . فنرى بذلك كيف بذرت

---

(١) جنات الخلود فصل ٩

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٩١ ، البخاري ٥٠ـ ٩ الترمذي ٤٦ـ ٣٠ الطيالسى رقم ٨٧٤ و « الحسن »

(٣) جنات الخلود الفصل ٩ ، البخارى ٦١ـ ٢٣ الترمذى ٤١ـ ٦٠ والطيالسى رقم ١٣

(٤) دائرة المعارف الاسلامية مادة الحسن بقلم لامنس .

أموال طائلة خلال خلافة علي ، بالزمن الذى كانت الخلافة نفسها شديدة الافتقار »

ويعترف الشيعة أنفسهم انه كان للحسن ستون زوجة وعدد كبير من السرايا فنقرأ أن عدد نسائه الشريعات بلغ الستين عدا السرايا أو اللواتى تمتع بهن . وقد ذكر أن عددهن كان بين الثلثمائة والتسعمائة . وقد طلق كثيراً منهن . فسمى بالمطلاق » (١)

وقد بلغت عليا عدة شكايات من أناس بارزين فى أن الحسن كان يتزوج بناتهم ولايلبث أن يطلقهن . وكان الجواب الوحيدلعلى هو « أن لاينكحونه بناتهم » (٢)

ولا توجد حوادث حقيقة تذكر إلا القليل خلالفترة إعتزاله فى المدينة . فقد كان معاوية يرسل له الاموال بدون إنقطاع فيبذرها باستمرار فكانت النتيجة ما يقال انه مات بالسل عندما بلغ من العمر خمسا وأربعين سنة (٣)

أما فيما عداالتاريخ الواقعىفسواء أكانالسبب إنحطاطه المشتهر أو لاسباب أخرى ، فان المعجزات التى تنسب له أقل عدداً من معجزات أكثر الأئمة . فقد ذكرت له ست عشر معجزة (٤) نذكر منها مايلى :

١ — خرج الحسن فى بعض عمرهومعه رجل من ولد الزبيرفنزلا فى منهل من تلك المناهل تحت نخل يابس فقال الزبيرى لو كان فى هذا النخل رطب لأكلناه فدعا الحسن فاخضرت النخلة وحملت رطبا .

٢ — طلب منه بعضهمأن يعمل معجزةفاحيا ميتا . وفى أخرىأرى الطالب الثلاثة مقيدين بسلاسل إلى صخرة وألسنة النيران تلتهمهم من كل جانب .

---

(١) عقائد الشيعة الكتاب الرابع الفصل ٢

(٢) موير ، الكتاب المار الذكر ص ٤١٨

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : الحسن.

(٤) خلاصة الاخبار الفصل ٣٠ « الامام الحسن »

وكأن الثلاثة (أى أبو بكر وعمر وعثمان) يتعذبون لانكارهم حق على .

٣ — وسقط يوما سوطه من يده فى المدينة فناوله إياه عبد أسود فدعا الحسن له فصار أبيض .

٤—عارض جابر الجعفى فى صلح الحسن مع معاوية فذكر له الحسن حديث النبى ﷺ « أن إبنى هذا سيد سيصلح الله به الفئتين » وكأنه لم يقتنع فتكلم الحسن بكلمات فاذا بالرسول ﷺ واقفا أمامها فذكر له الحسن مابينهما فامر النبى جابرا ان يصدق الامام . وجاء مع النبى على والحمزة وجعفر فبهت جابر ثم رآهم يصعدون جميعا إلى السماء .

٥ — ما أخزى به رجلا أظهر شكه به فقال له . هل تقدر أن تجعلنى امرأة وامرأتى رجلا . فغضب الحسن ودعا عليه فصار ما أراد . ثم أنهما تابا وجاءا اليه فدعا الله فعادا إلى الحالة الأولى .

٦ — أن معاوية أرسل رجلا إلى الحسن يسأله بعض المسائل الصعبة . فسأله « ما الفرق بين الحق والباطل ؟ فقال الحسن الفرق بين الحق والباطل أربعة أصابع (وهى المسافة بين العين والاذن)

والخبر عن وفاة الحسن وكذلك الخبر الذى تأخذ به الشيعة هو أن مات مسموماً بعد عدة محاولات غير ناجحة لسمه . (١)

فتذكر القصة أنهم اتفقوا مع خادم له يحمل طعامه ، أن يسمم له الطعام . فكتب اليهم أنه فعل ذلك ثلاثا فلم يحدث شىء . فارسلوا رسولا بكتاب إلى الخادم ومعه زجاجة بها سم قتال يقال أن قطرة منه فى البحر تقتل السمك . وهذا السم هو « زهر هلاهل » كما يصفه أحد الشيوخ الايرانيين (أى السم الفتاك) بانه سائل يفرزه السقنقور فى بعض الأحيان على سفح التل وهو قوى إلى درجة يتمكن بها من قتل أى حيوان إذا ضربه وإذا وقع على الارض

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٦٦ ، مروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ٢ وما يليها جنات الخلود الفصل ٩ ، وروضة الشهداء الفصل ٦ ص ١٠٧ — ١١٧

حفر سطحها . لكن الرسول كان جائعا فنزل فى مرحلة ليأكل ، فلما أكل أصابه مغص شديد . فجاء ذئب وهو يتلوى فاكله أما ناقته فسلمت ووصل الكتاب والسم المرسل إلى خادم الحسن ، إلى يد الحسن نفسه . وكان عنده بعض الضيوف . فلما قرأ الكتاب وضعه تحت وسادته ولم يذكر شيئا وألح عليه أصحابه بالسؤال فلم يجبهم . وأصفر وجهه فقام أحد أصحابه وتمكن من أخذ الكتاب فلما قرأه مع آخرين قاموا وقتلوا الخادم الذى افتضح غدره

وفى مرة أخرى أغرى مروان كما يذكر الشيعة إحدى زوجات الحسن بسمه وأقنعها أن يزيدا بن الخليفة يرغب تزوجها ولا يتمكن من ذلك مادام الحسن حيا . فاتفقت معه على سمه .

فوضعت له السم فى المرة الأولى بالعسل واطعمته اياه فمرض مرضا شديدا وأدرك ماجرى فذهب إلى قبر الرسول ﷺ وصلى واحتك بحجر القبر وذهب عنه الالم شيئا فشيئا ويعتبر أنه شفى بمعجزة .. وأخذ منذ ذلك الحين يشك بزوجته جعدة بنت الاشعث بن قيس وتسمى بعضا باسماء .

وحاولت مرة أخرى تسميمه ووضعت السم فى تمر وجاءته به فى سلة فأمرها الحسن من باب الحيطة والحذر أن تأكل من التمر قبله ولما كانت تميز التمرات المسمومة أخذت حفنة من غير المسموم وأكلتها . وأخذ الحسن سبع تمرات مسمومات فشعر بمرض شديد فذهب إلى قبر النبى ﷺ مرة أخرى فنجا بمعجزة .

وبعد هذه الحوادث اضطربت أعصاب الحسن فقال لاصحابه أن صحته منذ سنوات عديدة لم تكن على مايرام فى المدينة وقد قرر الذهاب إلى الموصل . وكان أحد أسباب ذلك رغبته فى الابتعاد من زوجته التى كان يخافها . وكان فى الموصل رجل أعمى يكره الحسن (ع) فسمم رأس عكازته وجاءه يوما يطلب صدقة وكان الحسن جالسا متربعا وإحدى رجليه على الارض ووضع الاعمى رأس عصاه على رجل الحسن وداسها بثقله . وأعلن الاطباء أن العصا كانت مسمومة وسقوه بعض الادوية فشفى .

ولم يجد الحسن الراحة التى كان ينشدهافى الموصل فعاد إلى المدينة وسكن بعيدا عن زوجته التى شك فيها واتخذ الحيطة فى مأكله ومشربه ولكن اسماء جاءت ليلا ومعها سم من الماس المسحوق . وكان إلى جانب الحسن أناء فيه ماء للشرب ففكرت فى تسميم الماء ولكن فوهة الاناء كانت مشدودة بقطعة من القماش مختومة . غير أن القماش كان ناقعاً فرشت السم علية فامتصه فتسمم الماء ، ولما امر الحسن إبنته ان تسقيه ماء ففعلت فاصابه مرض شديد حتى قذف باحشائه . وعلى كل حال فان هذا الوصف التصويرى يذكر بانه قذف بكبده قطعة قطعة حتى بلغت مائة وسبعين قطعة . وقال أحد الشيوح الايرانيين ان الاطباء الحديثين يقولون ان هذا الأمر غير ممكن وقوعه وبذلك يلقون بعض الشك على تفاصيل شهادة الحسن . .

ويذكر فى الاخبار ان الحسن عندما كان على فراش الموت اخبر بان من اعطته السم لا تنال ما تريد ، فيروى بناء على ذلك ان معاوية أرسل اليها بعد ذلك يقول : « إننا نحب حياة يزيد ، ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه »(١)

وتروى قصة انهم ارادوا دفنه مع النبى ﷺ حسب وصيته (٢) ، وكان قد اخبر بان عائشة ربما منعت دفنه هناك . فاذا فعلت ذلك فيدفن فى البقيع إلى جانب أمه . فلما حملوا جنازة الحسن إلى قبر النبى ﷺ ابلغ مروان الخبر إلى عائشة فخرجت تمنع وقد ركبت بغلة وقالت ان دفن الحسن هناك مما يحط من قدر الرسول ﷺ فغضب محمد بن الحنيفة أخو الحسن من أبيه على وقال لها « خرجت على أبى وأنت على جمل واليوم جئت تشتمينا وانت على بغلة ، وان خرجت غدا لخزى الاسلام فستكونين على فيل »فغضبت عائشة من ذلك والتفتت إلى بنى أمية وسألتهم كيف انها تخاطب بمثل ذلك وهم سكوت فسألوها ومانفعل فقالت «ارموا جنازة الحسن بالسهام» ففعلوا حتى سل منها سبعون نبلا . فاخذ بنو هاشم الجنازة ودفنوها بالبقيع كما أوصى الحسن إلى جانب أمه فاطمة .

---

(١) مروج الذهب ج ٥ ص ٣ (٢) الاخبار الطوال للدينورى ص ٢٣٥

الباب السابع

الحسين ، الامام الشهيد

يقال ان عليا كان يفضل الحسين على الحسن فكان يقول « الحسن كثير السخاء لاهم له الا الطعام والضيافة اما الحسين فهو منى وانا منه (١) وكان كلاهما مع على فى زمن فتنة المدينة على عثمان فلما قتل عثمان غضب عليهما على أو تظاهر بالغضب لانهما لم يحولا دون مقتله رغم قربهما منه . ولا نجد اثناء خلافة الحسن من يظهر تفضيل الحسين عليه ولا نسمع بفرقة تعتقد بوجوب انتقال الامامة رأسا من على إلى الحسين لمزاياه الشخصية البارزة . ولما تنازل الحسن عاد معه الحسين إلى المدينة وبقى مدة خلافة معاوية ممتنعا عن القيام بكل حركة ضده (٢) .

وكانت فكرة جعل الخلافة ارثية من نصح المغيرة بن شعبة لمعاوية ، وكان من اقدر رجاله ويقال انه أول من زيف النقود فى الاسلام ، فحصل معاوية أثناء حياته بالبيعة ليزيد (٣) . وقد أثار ذلك افكار الحزب العلوى فى الكوفة الذى كان ينتظر وفاة معاوية ذلك الزعيم المسيطر الكفء فى دمشق فيعودون إلى تأييد حق آل البيت .

ولنتبع رواية المسعودى فى وصفه شهادة الحسين (٤) ونلق جانبا بالوقت

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة « الحسين »

(٢) الاخبار الطوال لابى حنيفة الدينورى طبعة Guirgass ص ٢٣٤ و ٢٣٥ و ٢٣٨

(٣) الامويون والعباسيون لزيدان ترجمة مرغليوث ص ٦١

(٤) مروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ١٢٧

الحاضر الكمية الهائلة من الخرافات التى اضافها الشيعة فنقرأ أنه لما مات معاوية أرسل أهل الكوفة إلى الحسين يخبرونه برغبتهم فى بيعته وانهم سيموتون دونه . وانهم لا يحضرون جمعة ولا جماعة بسببه . وكان الحسين قد تأخر عن بيعة يزيد ، فلحق بمكة .

ويروى ان معاوية كان قد توقع مثل هذه التطورات فاوصى وهو على فراش الموت يزيدا قال . . فاما الحسين فاحسب أهل الكوفة غير تاركيه حتى يخرجوه فان فعل فظفرت به فاصفح عنه فان دماء رسول الله ﷺ تجرى فى عروقه (١) .

ومن مكة أرسل الحسين بابن عمه مسلم إلى الكوفة وقال . سر إلى أهل الكوفة فان كان حقا ما كتبوا به عرفنى حتى الحق بك فخرج مسلم من مكة فى النصف من شهر رمضان حتى قدم الكوفة والأمير عليها النعمان بن بشير الانصارى .

ونزل مسلم على رجل يقال له عوسجا ، مستترا ، فلما ذاع خبر قدومه بايعه من أهل الكوفة اثنا عشر الف رجل . وقيل ثمانية عشر الفا . فكتب بالخبر إلى الحسين وسأله القدوم عليه .

فلما هم الحسين بالخروج إلى العراق اتاه ابن العباس وقال : يا ابن عم قد بلغنى انك تريد العراق وأنهم أهل غدر وإنما يدعونك للحرب فلا تعجل وإن أبيت الا محاربة هذا الجبار وكرهت المقام بمكة فاشخص إلى اليمن فانها فى عزلة ولك فيها انصار واخوان فاقم بها وبث دعاتك واكتب إلى أهل الكوفة وانصارك بالعراق فيخرجوا أميرهم . فان قووا على ذلك ونفوه عنها ولم يكن بها أحد يعاديك اتيتهم وما أنا لغدرهم بأمن وان لم يفعلوا اقمت بمكانك إلى أن يأتى الله أمره ، فان فيها حصونا وشعابا .

---

(١) موير Annals of the Early Caliphate ص ٢٠٥

قال الحسين : « يا ابن عم أنى أعلم انك لى ناصح وعلى شفيق ولكن مسلم بن عقيل كتب إلى باجتماع أهل المصر على بيعتى ونصرتى وقد اجمعت على المنبر » قال « إنهم من جربت وجربت وهم أصحاب أبيك وأخيك وقتلتك غدا مع أميرهم ، إنك لو قد خرجت فبلغ ابن زياد خروجك استنفرهم اليك وكان الذين كتبوا اليك أشد من عدوك ، فان عصيتنى وأبيت إلا الخروج فلا تخرجن نساءك وولدك معك ، فو الله إنى لخائف ان تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون اليه » فكان الذى رد عليه « لان اقتل والله بمكان كذا أحب إلى من أن استحل بمكة » .

فيئس ابن ابن عباس منه وخرج من عنده .

وبلغ ابن الزبير ان الحسين يريد الخروج إلى الكوفة وهو اثقل الناس عليه فلم يكن شيء يؤتاه أحب اليه من شخوص الحسين عن مكة . فاتاه فقال « أبا عبد الله ما عندك ؟ فوالله لقد خفت الله فى جهاد هؤلاء القوم على ظلمهم واستذلالهم الصالحين من عبيد الله » فقال الحسين : « قد عزمت على اتيان الكوفة » فقال » وفقك الله ، اما لو ان لى مثل انصارك ماعدلت عنها « ثم خاف ان يتعمه فقال » ولو اقمت بمكانك فدعوتنا وأهل الحجاز إلى بيعتك اجبناك ، وكنا اليك سراعا وكنت أحق بذلك من يزيد وأبى يزيد

ولما اتصل الخبر بيزيد كتب إلى عبيد الله بن زياد بتوليته الكوفة ، فخرج من البصرة مسرعا حتى قدم الكوفة على الظهر فدخلها فى أهله وحشمه وعليه عمامة سوداء قد تلثم بها وهو راكب بغلة . والناس يتوقعون قدوم الحسين فجعل ابن زياد يسلم على الناس فيقولون « عليك السلام يا ابن رسول الله قدمت خير مقدم » حتى انتهى إلى القصر وفيه النعمان بن بشير فتحصن فيه ثم أشرف عليه فقال « يا ابن رسول الله مالى ولك ؟ وما حملك على قصد بلدى من بين البلدان » فقال ابن زياد « لقد طال يومك يانعيم » وحسر اللثام عن فيه فعرفه ففتح له .

ولما اتصل خبر ابن زياد بمسلم تحول إلى هانىء بن عروة المرادى . ولما علم ابن زياد بموضعه وجه محمد بن الاشعث إلى هانىء فسأله عن مسلم . وهنا اختلف الرواة فيقول المسعودى ان هانئا أجاب ابن زياد جوابا غليظا فضرب وجهه بقضيب كان معه كسر أنفه وشق حاجبه ونثر لحم وجنته . وكسر القضيب على وجهه ورأسه . وصاح أصحاب هانىء بالباب « قتل صاحبنا » فخافهم ابن زياد ولم يقتله وأمر بحبسه فى بيت إلى جانب مجلسه وانصرف أصحابه . ولكن اليعقوبى يذكر قصة أخرى (١) فيقول ان ابن زياد لما قدم الكوفة بلغه ان هانئا كان شديد العلة وكان صديقا لابن زياد ، فأتاه ليعوده فقال هانىء لمسلم وأصحابه وهم جماعة « إذا جلس ابن زياد عندى وتمكن فانى سأقول اسقونى فاخرجوا فاقتلوه » وقال هانىء « اسقونى » ثلاثا فلم يخرجوا ففهم ابن زياد فقام فخرج من عنده ووجه بالشرط يطلبون مسلما عندئذ حسب قول اليعقوبى .

ومهما كان الأمر فان القتال جرى قرب دار هانىء ونادى مسلم : يامنصور وهو شعار شيعة الحسين فتنادى أهل الكوفة بها فاجتمع اليه فى وقت واحد ثمانية عشر الف رجل فسار إلى ابن زياد فتحصن منه فحصروه فى القصر ، فلم يمس مسلم ومعه غير مائة رجل فلما نظر إلى الناس يتفرقون عنه صار نحو أبواب كنده . فما بلغ الباب الا ومعه منهم ثلاثة ثم خرج من الباب فاذا ليس معه احد .

وربما كان ما ذكره المسعودى من قبيل المبالغة فى غدر أهل الكوفة ، غير اننا نعلم على الاقل من اليعقوبى ان قتالا جرى عند بيت هانىء وأخذ ابن زياد مسلما فقتله وجر برجله فى السوق وقتل هانئا لاعانته مسلما (٢) أما المسعودى فيقول ان مسلما لما لم يجد معه أحدا نزل عن فرسه ومشى

---

(١) تاريخ اليعقوبى طبعة هوتسما ج ٢ ص ٢٢٨

(٢) كذلك ص ٢٢٩

متلددا فى ازقة الكوفة لا يدرى اين يتوجه حتى انتهى إلى باب مولاة الاشعث بن قيس فاستسقاها ماء فسقته ثم سألته عن حاله فاعلمها بقضيته فرقت له وآوته وجاء إبنها فعلم بموضعه فلما أصبح غدا إلى ابن الاشعث فاعلمه فمضى إلى ابن زياد فاعلمه . فقال « انطلق وجئنى به » ووجه معه عبد الله السلمى فى سبعين رجلا . فاقتحموا على مسلم الدار فثار عليهم بسيفه وشد عليهم فاخرجهم من الدار ثم حملوا عليه الثانية فشد عليهم واخرجهم أيضاً . فلما رأوا ذلك علوا ظهر البيوت فرموه بالحجارة وجعلوا يلهبون النار باطراف القصب ثم يلقونها عليه من فوق البيوت فلما رأى ذلك قال : « أ كل ما أرى من الاصلاب لقتل مسلم بن عقيل » فخرج اليهم مصلتا سيفه إلى السكة فقاتلهم واختلف هو وبكير بن حمران الاحمرى ضربتين فضرب بكير فم مسلم فقطع السيف شفته العليا وشرع فى السفلى وضربه مسلم ضربة منكرة فى رأسه ثم ضربة أخرى على حبل العاتق فكاد يصل إلى جوفه وهو يرتجز ويقول:

اقسم لا أقتل الا حرا وان رأيت الموت شيئا مرا

كل امرى يوما ملاق شرا اخاف ان اكذب أو أغرا

فلما رأوا ذلك تقدم اليه محمد بن الاشعث واعطاه الامان فامكنهم من نفسه وحملوه على بغلة وأتوا به ابن زياد .

فلما صار مسلم إلى باب القصر نظر إلى قلة مبردة فاستسقاهم منها فاتى بماء فى قدح فلما رفعه إلى فيه امتلأ القدح دما فصبه وملىء له الثانية فلما رفعه إلى فيه سقطت ثناياه فيه وامتلأ دما فقال « الحمد لله لو كان الرزق المقسوم لشربته » ثم ادخل إلى ابن زياد فأمر بضرب عنقه . وصلبت جثته فى اليوم الذى ارتحل فيه الحسين من مكة إلى الكوفة وذلك لثمان ليال مضين من ذى الحجة سنة ستين . وحمل رأسه إلى دمشق . ويقول المسعودى انه أول قتيل صلبت جثته من بنى هاشم وأول رأس حمل من رؤوسهم إلى دمشق .

فلما بلغ الحسين القادسية لقيه الحر بن يزيد التميمى فقال له « أين تريد

يا ابن رسول الله ؟ » قال « أريد هذا المصر » فعرفه بقتل مسلم وما كان من خبره ثم قال . « ارجع فانى لم أدع خلفى خيرا أرجوه لك » فهم بالرجوع فقال له أخو مسلم « والله لا نرجع حتى نصيب بثارنا أو نقتل كلنا » فقال الحسين لاخير فى الحياة بعدكم ، وواصل مسيره .

ويقول اليعقوبى ان ابن زياد وجه بالحر بن يزيد ليمنعه من العدول . ثم سار حتى لقى خيل ابن زياد عليها عمرو بن سعد بن أبى وقاص فعدل إلى كربلا — وهو فى مقدار خمسمائة فارس من أهل بيته وأصحابه ونحو مائة راجل — فلما كثرت العساكر على الحسين ايقن أنه لا محيص له فقال « اللهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا ثم هم يقتلوننا »

ولا تمام رواية المسعودى التصويرية « ان الحسين لم يزل يقاتل حتى قتل رضوان الله عليه » وكان الذى تولى قتله رجل من مذحج واحتز رأسه وانطلق به إلى ابن زياد . فبعث به ابن زياد إلى يزيد بن معاوية ومعه الرأس فدخل إلى يزيد وعنده أبو بردة (برزة) الاسلمى فوضع الرأس بين يديه فاقبل ينكت بالقضيب ويقول .

نغلق هاما من رجال أحبة   علينا وهم كانوا اعق واظلما

فقال أبو برزة « ارفع قضيبك فطال والله ما رأيت رسول الله ﷺ يضع فمه على فمه يلثمه » .

« وكان جميع من حضر مقتل الحسين من العساكر ومحاربيه وتولى قتله من أهل الكوفة خاصة ولم يحضرهم شامى . وكان جميع من قتل مع الحسين فى يوم عاشوراء بكربلا سبعة وثمانين منهم ابنه على بن الحسين الاكبر ومن ولد أخيه الحسن ، عبد الله والقاسم وأبى بكر ومن اخوته العباس وعبد الله جعفر وعثمان ومحمد الاصغر ابنا على (من غير فاطمة)

« وقتل الحسين وهو ابن خمس وخمسين سنة وقيل : ابن تسع وخمسين سنة . ووجد به يوم قتل ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة . ضرب

زرعة بن شريك التميمى كفه اليسرى . وقتل معه من الانصار أربعـة وباقى من قتـل معه من أصحـابه من سائر العرب . وأمر عمر بن سعد أصحابه ان يوطئوا خيلهم الحسين وكان عدة من قتل من أصحاب سعد ثمانية وثمانين رجلا »

وبينما المسعودى الذى لقب بهردوت الاسلام لم يكن ليضحى بقصة شائقة فى سبيل الاقتصار على الحقائق التاريخية المجردة ، فان وصف مقتل الحسين الذى نقلناه عنـه متصرف مع إضافة بعض النقاط عن اليعقوبى ، يختلف إختلافا بارزا عن القصص الخرافية التى كتبها الشيعة المتأخرون (١)

وليس فى الاحاديث الأولى أمور كثيرة تختص بالحسنين الا ما يدل على حب محمد لحفيديه (٢) فيروى مرة انه بينما كان الرسول ﷺ يتحدث إذ عثر الطفلان فسقطا ، فانقطع الرسول ﷺ عن الحديث وانهضهما . ويذكر انهما كانا يشبهان جدهما ويروى الترمذى وابن ماجه ان الرسول ﷺ كان يستصحبهما معه على بغلته . ويروى مسلم أن الرسول ﷺ قال مرة ان الله يريد ان يطهر عليا وفاطمة والحسن والحسين . وحـديث آخر يرويه احمد بن حنبل (٣) أن الرسول ﷺ أخبر عليا وهو مضطرب ان جبريل ظهر له وأخبره بان الحسين سيقتل على شاطىء الفرات ، وهو من نوع الاحاديث التى ظهرت فيما بعد فى مصنفات علماء الشيعة .

واختلف الرواة فى ما جـرى لرأس الحسين فيـذكر ابن خلـكان (٤) ان رأس الحسين بن بنت محمد كان مدفونا بعسقلان قبل نقله إلى مصر وان الافضل شـاهنشاه بنى مشهد الرأس فى عسقلان . اما ابن بطوطة (٥) فيقول « ومن

---

(١) قانون اسلام تأليف جعفر شريف ترجمة Herklots سنة ١٨٣٢ و The Miracle play of Hasan & Hasin تأليف Sir Lewis belly وروضة الشهداء الفصل ٧ ص ١١٧ — ١٣٠

(٢) H.E.M.T. Wensinck ص ٩٤

(٣) احمد بن حنبل السنن ج ١ ص ٨٥ (٤) ابن خلكان ترجمة دى سلان ج ١ ص ٦١٥ الحاشية (٥) رحلة ابن بطوطة ترجمة Lee فصل ٥ ص ٢٠

بيت المقـدس زرت عسقلان وكانت خرابا وفى هـذا المـكان المشهد الشهير برأس الحسين قبل نقله إلى مصر »وفى القاهرة يوجد جامع الحسين (١) فيذهب الدراويش فى أيام معينة من شهر محرم ويطوفون بالقبر الذى يقال ان فيـه رأس الحسين الشهيد .

ولـكن شيعة إيران ينظرون إلى سهل كربلا نظرة إحـترام عظيم حيث حيث وطىء جسد الحسين بالخيل . ويذكرون ان أحـد زوجاته كانت ابنة يزدجر آخر الملوك الساسانيين فيعتبرون شهادته فى كربلا مصيبة قومية عظمى يحيون ذكرها بالتعازى الـكثيرة وتمثيل السبايات فى شهر محرم . ان سفك دم الحسين بن بنت النبى فى سهل كربلا قد أصبح يعتبر ذا قيمة فى التضحية ويظهر ذلك فى تطور العقيدة وفى انتشار عادة الزيارات التى يمتاز بها مشهد الحسين .

---

(١) Manners & Customs of the Modern Egyptians , Lane طبعة Everyman's Library ص ٢١٩

الباب الثامن

﴿ كربلا ، أشهر المشاهد الشيعية ﴾

اتذكر يوم غادرنا الفندق فى بغداد بالساعة الرابعة صباحا لزيارة كربلا ، وقطعنا الصحراء بسيارة فورد من طراز « ت » القديمة وهى تسير بأقصى سرعتها . وقبيل السادسة خففنا من السرعة فى أرض رملية كثيفة فى طريق ملتو بين بساتين النخيل المحيطة بالمدينة المقدسة . وكان الفصل صيفا ، فكنا نشاهد جماعات من الناس هنا وهناك باتوا ليلتهم تحت النخيل . وقد أخذوا يهيئون شاى الصباح بالسماورات ، أو كانوا جالسين عند حافة ساقية من الماء يستاكون .

وتقع المدينة على بعد ثلاثة أميال أو أربعة داخل البساتين لا يحميها سور فبلغناها بعد دقائق معدودات ، وجلسنا فى مقهى امام مشهد الحسين تقريبا نتناول فطورنا من الخبز الايرانى (ويعرف بخبز العجم فى العراق — المعرب) الحار والشاى والتمر . والغريب ان الشخص فى المقهى الايرانى لا يتناول الا الشاى لعدم تيسر غيره الا نادرا . وتركت السيارة لالتقط صورة للشارع الرئيسى الممتد إلى الحضرة ، غير ان منظر القبة الذهبية ، افسده برج الساعة الكبيرة من هذه الزاوية .

وكنت أرى من مكانى فى المقهى ، النقوش الدقيقة المشتبكة على الكاشانى فى مدخل الصحن وعلى المنائر . وقد ربطت سلسلة حديدية عند الباب لتؤشر الحد الذى لا ينبغى « للكافر النجس » ان يجتازه . ان زيارة هذا المشهد مع الاعتقاد بنبوة محمد وامامة الحسين المنصوص عليها من الله لمن أعظم الاعمال واهمها ، فان الزائر يحصل على الامان من سقوط سقف داره عليه أو الغرق أو الحرق أو الوحوش الضارية . أما لغير المؤمن فان اجتياز هذه السلسلة

جريمة قد تؤدى إلى الموت على يد الرعاع لان مثل هذا العمل ينجس الصحن المقدس حول القبر .

ولما فكرت فى السهولة التى جئت بها إلى كربلا تحققت ان المسافر الاعتيادى يختلف عن الزوار إختلافا تاما . وكان فى المقهى عدد من هؤلاء الزوار قد خرجوا من الحمام قبل مدة قصيرة ، وجلسوا على التخوت ولفوا حول اجسادهم العارية مئزرا أحمر وهم يتناولون الشاى . وسيلبسون ملابسهم النظيفة ويزورون حسب طقوس دقيقة معينة .

ورأيت شيخا ذا وجه يقربه إلى القلب ، تاركا شايه إلى جانبه ليبردوهو يصلى وكان كلما سجد وضع جبهته على تربة صغيرة من الطين . ورأيت عددا من الدكاكين فى الشارع الرئيسى وفى كل منها مئات من هذه الترب ، لاشك وأنها للبيع . وقد أخبرنى بعضهم ان أحد الأئمة قال ان بيع التربة المأخوذة من الأرض المعجونة بدم الحسين كبيع لحمه . الا اننا عندما غادرنا كربلا دفع السائق عشرين فلسا لشراء علبة من الكبريث وأخذ عددا من الترب بدل الباقى ، ويحمل بائعو الترب مئات منها فى صينية ، كهدية اسمية لمن عليه سيما الزائر ، قائلين انهم لا يعينون ثمنا لها . وانهم سيحصلون على ثمنها يوم القيامة . ولما كانوا يحصلون على ثمنها فى هذه الدنيا فقد أصبحت هذه العادة ازعاجا للزوار الاغنياء . ويشترى التجار الهنود كل مئة تربة بثلاث روبيات وفى بيوت كثيرة من كربلا سراديب مملوءة منها .

ويقال ان طين هذه الترب مأخوذ من المكان الذى قتل فيه الحسين وتستعمل المسبحات المعمولة من هذا الطين بصورة عامة تقريبا . وتتألف المسبحة من أربع وثلاثين حبة ، فيقضى المؤمن التقى أوقات فراغه بالتسبيح قائلا « الله أكبر » أربعا وثلاثين مرة و « الحمد لله » ثلاثا وثلاثين مرة و « سبحان الله » ثلاثا وثلاثين مرة . وإذا مات الشيعى فهو عظيم الحظ ان وضعت قلادة من هذا الطين حول رقبته وخاتم من الطين فى سبابته اليمنى

ومعضد من الطين حول كل من ذراعيه وصرة من التراب الذى يكنس من القبر فى يده اليمنى ، ويستحسن ان تكتب بعض الآيات من القرآن على كفنه بهذا الطين .

وأهم كتب الزيارة عند الشيعة هو كتاب تحفة الزائرين ، الفه المصنف الشهير ذو التآليف الكثيرة محمد باقر المجلسى فى القرن السادس عشر ، ويخصص الكتاب طين قبر الحسين للشفاء من الامراض . ويروى عن الامام السابع موسى بن جعفر انه قال لا تأخذوا من تربتى شيئاً لتتبركوا به فان كل تربة لنا محرمة الا تربة جدى الحسين فان الله عز وجل جعلها شفاء لشيعتنا وأوليائنا . (١) ويعتقد استنادا إلى الاحاديث المروية عن الأئمة ان من كان مريضا على فراش الموت وتناول قدر حمصة من التربة عن اعتقاد صادق بالامام الحسين ، عاش . ويقول الامام الثامن على الرضا « ان أكل كل طين من القبر حرام كأكل الميتة الا طين تربة الحسين فهو شفاء من كل داء وان أخذ على رأس ميل » ويعتبر هذا الوعد من الامام الرضا ، صادقا بشرط الا تكون العلة علة السام أى الموت . وعن الامام الرضا انه كلحم الخنزير ومن أكل فمات (أى أكل من الطين ، لا كما ظن المؤلف فى ان المقصود هو لحم الخنزير) لم يصل عليه الا أكل طين قبر الحسين . ويعتقد انه إذا مرت الارواح الخبيثة أو كفار الجن بمن يحمل معه تربة ، شموا رائحة زكية لا يشعر بها الرجل .

ودقت ساعة البرج ثلاثا أى الثالثة بعد طلوع الشمس (وهذا غلط فان غروب الشمس هو مبدأ الساعة العربية وليس طلوعها — المعرب) فنظرت نحو البرج فرأيت الترميم المزيف الذى أجرى بصفائح الزيت ، كما شاهد ذلك كرميت روزفلت (٢) ثم مشيت إلى السلسلة التى تحدد الصحن ونظرت إلى

(١) تحفة الزائرين للمجلسي ص ١٤٦

(٢) War in the Garden of Eden تأليف Kermit Roosevelt ص ٧٦

الداخل بكل شوق . فكم اشتاقت نفسى إلى دخول هذا المكان وقضاء النهار كله فى درس النقوش الكاشانية وقراءة الكتابات . وكان لدى ماذكره جغرافيو العرب ونقله عنهم لسترينج فى كتابه الذى لا يستغنى عنه طالب The Lands of the Estern Caliphate وقد اشار المؤلف إلى أنه لابدوان كان مشهد من المشاهد فى هذا المكان حتى قبل سنة ٨٥٠ م . فان الخليفة المتوكل نال بغض الشيعة جميعا إلى يوم الدين ، بأمره بهدم مشهد الحسين وتخريبه باغراقه بالماء . ثم نسمع بان أرض كربلا حرثت وزرعت ، وحيل بين الزوار والزيارة وكان المخالف معرضا لعقوبة شديدة (١) . ثم انشىء بناء آخر وربما كان ذلك فى أوائل القرن العاشر ، وقد أشار اليه الاصطخرى وابن حوقل (٢) ، وبعد سنوات قليلة جاء البويهيون ، ولم يشاءوا ان يقضوا على البيت العباسى ، واكتفوا بأخذ مقاليد الحكم الزمنى بأيديهم وبنى الأمير عضد الدولة - وهو نفسه الذى أمر ببناء مشهد على بالنجف - مشهدا فخما للحسين فى كربلا سنة ٩٧٩ م . ولم يدم حكم البويهيين طويلا ، فنسمع ان فى سنة ١٠٦١ احرقت القبة البديعة . وزار كربلا بعد إعادة بناء القبة على الارجح ، ملكشاه سنة ١٠٨٦ م .

ولم نقرأ وصفا لكربلا ومشهد الحسين أقدم مما ذكره المستوفى فى القرن الرابع عشر . (٣) وهو وصف غير واف فهو بالاضافة إلى نسبته البناء الاصلى إلى عضد الدولة اكتفى بالاشارة إلى وجود مدينة صغيرة أخذت تنمو حول المشهد ، طول محيطها ٢٤٠٠ خطوة . ولكن ابن بطوطة الذى الف رحلته فى هذا العصر ذكر وجود مدرسة دينية ، ووصف المشهد بقوله و « العتبة الشريفة وهى من الفضة وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة ،

---

(١) Literary History af Persia تأليف براون ج ١ ص ٢٩٠

(٢) لسترينج Lanbs of the Eastern Caliphate ص ٧٨

(٣) نزهة القلوب للمستوفى ، ترجمة لسترينج ، تذكار جب ج ٢٣ (٢) ص ٣٩

وعلى الأبواب أستار الحرير » أما عن المدينة فقال انها « مدينة صغيرة تحفها حدائق النخيل ويسقيها ماء الفرات . . . وأهل المدينة طائفتان . . . وبينهما القتال ابدا . . ولأجل فتنتهم تخربت هذه المدينة »

وبينا انا واقف عند الباب افكر بأحسن وسيلة اتمكن بها من مشاهدة ماله أهمية تاريخية من البناء ، إذ سمعت صوتا يشبه غناء غير متزن . فقد وصلت قافلة من الزوار بدلالة المطوفين . ولما اقتربوا منى كانوا يرددون ما يقوله المطوف امامهم من دعاء الزيارة للسلام ، وظننت انه نفس ما ترجمه Tassy (١) qe Carcin

« Que ' l Éternel baigne accspter les vocnx pue ge emrof pour le repos de l' àme glorieuse de deux braves imems des denx martyrs bien | aimes de Dicn ,les innoceutes Victimes de la mèchanceté , les bien heurxn Abou Mohammed el Hasan et Abon Adb — Allah et pour tous les donze imams les quatorze purs et Soixante — douze mrrtyrs de laPlaine de Kerbelr »

وهاهم أولاء زوار أضناهم التعب ، جاءوا من بلاد بعيدة . ولم يقدموا بسيارات بل قضوا بين أربعة أسابيع وثمانية فى الطريق ينهضون صباح كل يوم مع طلوع الشمس فيقضون بين ثمانى واثنى عشر ساعة على ظهور البغال وكانوا رجالا ونساء يدل مظهرهم على أنهم من أهل القرى أو بعض العمال أو صغار البياعين . ومما يلفت النظران بينهم عددا من العجائز ، رأين احفادهن وها قد تحقق ما قد كن يحلمن به طول أيام حياتهن . وكنت أدرس وجوههم وهم يمرون من امامى فى طريقهم إلى أحد الخانات القريبة . وكان مظهرهم كله يدل على الجد .

فهل لنا ان ندرك مغزى هذه الزيارة لهم ، فانهم طول حياتهم ، كلما ختن طفل أو تزوج عروسان أو مات أحد ، جاء رجل من رجال الدين وأخذ

(١) L'Islamisme تأليف Garcin de Tassy ص ٢٦٦

يعيد على مسامعهم فصلا من مأساة كربلا ، وهم يبكون . ويعلمون مقدار الثواب الذى وعدتهم الأئمة به فى هذه الزيارة . أليس ذلك فى الكتب ؟ ألم يسمعوه من القراء كل ليلة من سفرهم ؟ فقد سمعوا وهم أطفال ان ٤٠٠٠ ملك يحيطون بقبر الحسين وملائكة يبكون عليه ليلا ونهارا ، وكلما جاء زائر حتى من أقاصى الأرض ذهبت الملائكة لاستقباله وإذا مرض عادته وإذا مات مشت وراءه إلى قبره واستغفرت له . وقد قيل لهم ان الله نفسه ينظر فى احتياج الزوار وانه يغفر ذنوبهم لخمسين سنة . وجاء معظمهم بمبالغ غير وافية من المال وهم يعلمون عدد الايام التى يتمكنون بها من شراء الخبز فى كربلا ويبقى لديهم ما يكفيهم للرجوع . وعليهم ان يدفعوا بعض المال فى سبيل الخير ، وهذا المال هو مما اقتصدته العائلة منذ مدة طويلة ، ومثل هذا المال يدفع إلى مؤسسات التأمين فى البلاد التى لم تعد تهتم بأمر الزيارات ونحوها .

ولا تخلو المقارنة بسياسة التأمين من فائدة ، فكتب الزيارة فضلا عن وعدها باضافة عدة سنوات إلى عمر الذين يؤدون هذه الزيارة عن عقيدة وايمان ، تعدد ما يمكن ان نسميه بفوائد التأمين ، فان من يؤدى هذه الزيارة بنية خالصة يحصل على ثواب ١٠٠٠ حجة إلى مكة و ١٠٠٠ شهادة و ١٠٠٠ يوم من الصيام وعتق ١٠٠٠ مملوك . وإذا زار فى السنة الثانية حجبت عنه الشياطين والجن فلا يصيبه منها اذى ، ويمنعهم الله عنه . وإذا مات ، دفنته الملائكة ويقوم يوم الحشر مع اتباع الامام الحسين ، يعرفهم بالراية التى يحملها بيده ، فيقود الامام (ع) زواره إلى الجنة ، أو حسب رواية أخرى إذا مات الزائر فى كربلا غسلته الملائكة وأخذته إلى السماء فيرفع له مائة الف درجة حق زيارته هذه . وفى يوم القيامة يدخل الذين دفنوا عند أى مشهد من المشاهد للأئمة ، إلى الجنة بدون حساب مهما كانت ذنوبهم وتصافحهم الملائكة مهنئين .

ففى سهل كربلا وطئت جسد الحسين أربعة آلاف فارس من جيش عمرو ابن سعد وهنا اختلط دمه ودم اثنين وستين أو اثنين وسبعين من أصحابه من آل البيت (أو آل الرسول) بتراب كربلا . فاصبحت أرض كربلا مقدسة عند طائفة كبيرة من المسلمين كان ولاؤهم دوما لبيت محمد . وهم يحيون ذكرى مقتله كل عام بمواكبهم العزائية فى محرم ، فيعيدون تمثيل الحوادث الدامية التى جرت فى كربلا جميعها .

وليس من الغريب ان تروى أمور غريبة عن مثل هذا المكان المقدس . فيروى عن الامام السادس عن النبى ﷺ أنه ذكر ان الملائكة جاءت بتراب بيت المقدس إلى كربلا ليدفن فيها الحسين،وانهم هيأوا قبره قبل مقتله بالف سنة . وروى عن الامام الرابع وهو ابن الحسين نفسه انه أخبر بأن مريم العذراء جاءت من الشام إلى كربلا فولدت عيسى بالمكان الذى دفن فيه الحسين ثم عادت تلك الليلة الى الشام . ونقرأ أيضاً أن عليا مر بارض كربلامع أصحابه ، فلما وصل البقعة التى قتل بها الحسين قال « ان مائتى نبى ومائتى وصى ومائتين من ابناء الانبياء يشتاقون ان يدفنوا هنا » (١)

ونعلم ان الحائر وهو حرم الحسين فى كربلا ورد ذكره فى الطبرى فى حوادث سنة ٩١٥م . وانه كان فى ذلك الوقت بعض المتولين فى كربلا «كانت أم موسى والدة الخليفة المهدى (٢) تقوم بنفقاتهم » وعندما كان الطبرى فى سن الثانية عشرة أمر الخليفة المتوكل برفع قبر الحسين وأصحابه واغراقه بمياه النهر . وتذكر الروايات الشيعية ان مكان القبر لم يصبه الماء بمعجزة فبقى جافا واليه تشير كتب الزيارة باسم « الحائر » (٣)

وتبين الصورة المأخوذة من الجو وجود مشهدين فى كربلا وكلاهما ضمن

---

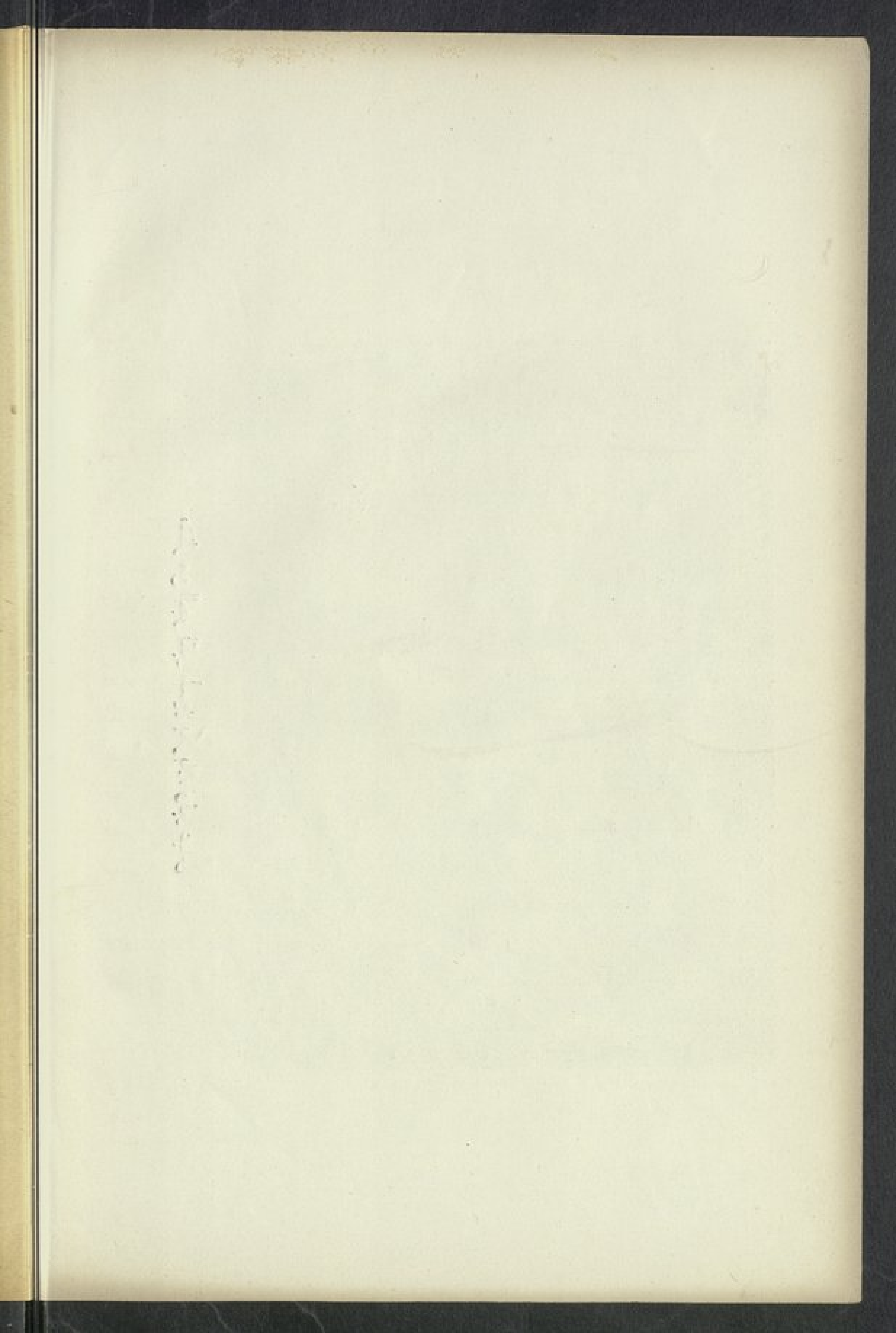
(١) تحفة الزائرين للمجلسى . ص ١٦٤

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة « حائر » بقلم هرتزفلد ، وكذلك مادة مشهد الحسين

٣) تحفة الزائرين للمجلسى ص ١٦٢ ومفتاح الجنان له ص ٣٦٦



منظر من الجو لقبر الحسين بكربلاء وقبر عباس



البقعة المقدسة . ويتشابهان تشابها عظيما فلكل منهما منائر وبرج ساعة وطارمة وصحن وايوانات وحجر كالتي فى الخانات . وبناء ان مركزيان بنفس الحجم والشكل تقريبا وفسحة حول القبر للطواف . الا ان هناك فروقا ظاهرة يلاحظها الناظر لأول وهلة . فالمشهد الذى فى مقدم الصورة له ثلاث منائر بدلا من اثنتين . وهذا مشهد الحسين الذى تتلألأ فيه قبته المغشاة بالذهب إذا طلعت عليها الشمس . اما المشهد الذى فى مؤخر الصورة فهو للعباس أخى الحسين من أبيه ، وقبته مغطاة بالكاشانى الاخضر ولها منظر رائع امام السماء الصافية كأنها سلحفاة هائلة الخلقة إذا نظرتها تحت الغمام . ويقال ان العباس هذا أبدى شجاعة نادرة فى المعركة ، وقد نشأت الروايات فى خطر اليمين الكاذبة عند قبره . وهو كما أخبرنى صديق شيعى ليس بامام تنتظر منه الرحمة بل من أصدق الرجال واشجعهم .

ولكى ندرك أهمية هذين المشهدين نقرأ ما كابده الحسين فى نهايته مع أصحابه . وإذا تتبعنا ما كتبه الدينورى (٨٩٥ م) (١) وهو من أقدم المؤرخين الذين لهم ميول شيعية واحسنهم ، نرى ان أصحاب الحسين لم يزالوا يقاتلون ويقتلون حتى لم يبق معه إلا أهل بيته . فكان أول من تقدم منهم فقاتل على بن الحسين وهو على الاكبر فلم يزل يقاتل حتى قتل وقد طعن فصرع وأخذته السيوف فقتل ثم قتل بعده ستة آخرون الواحد بعد الآخر بينهم عبد الله بن مسلم والقاسم وأبو بكر ابنا الحسن .

ويقال ان العباس بن على لما رأى ذلك قال لاخوته عبد الله وجعفر وعثمان «تقدموا ـ بنفسى أنتم ـ فحاموا عن سيدكم حتى تموتوا دونه» فتقدموا جميعا فصاروا أمام الحسين يقونه بوجوههم ونحورهم . فقتل عبد الله وجعفر

---

(١) الاخبار الطوال للدينورى ص ٢٦٨ وتاريخ اليعقوبى طبعة هوتسما ج ٢ ص ٢٥٣ و ٢٨٩ و Das Heiligtum al Husains zu kerbala تالف أ. نولدكه (برلين ١٩٠٩)

وعثمان الواحد بعد الآخر . وبقى العباس قائما امام الحسين يقاتل دونه ويميل معه حيث مال حتى قتل . وبقى الحسين وحده فحمل عليه مالك بن بشر الكندى فضربه بالسيف على رأسه وعليه برنس خز فقطعه وافضى السيف إلى رأسه فجرحه . فالقى الحسين البرنس ودعا بقلنسوة فلبسها ثم اعتم بعمامة وجلس . ودعا بصبي له ، وربما كان من جاءه بالقلنسوة فاجلسه فى حجره . فرماه رجل من بنى أسد وهو فى حجر الحسين بمشقص فقتله . وبقى الحسين مليا جالسا ولو شاءوا ان يقتلوه قتلوه غير ان كل قبيلة كانت تتكل على غيرها وتكره الاقدام على قتله . وعطش الحسين فدعا بقدح من ماء فلما وضعه فى فيه رماه الحصين بن نمير بسهم فدخل فمه وحال بينه وبين شرب الماء فوضع القدح من يده . ولما رأى القوم قد احجموا عنه قام يتمشى على المسناة فحالوا بينه وبين الماء فانصرف إلى موضعه الذى كان فيه . فانتزع له رجل من القوم بسهم فاثبته فى عاتقه فنزع السهم وضربه زرعة بن شريك (التميمى) بالسيف واتقاه الحسين بيده فاسرع السيف من يده . وحمل عليه سنان بن أوس النخعى فطعنه فسقط ونزل اليه حولى بن يزيد الاصبحى ليحز رأسه فارعدت يداه ، فنزل أخوه شبل فاحتز رأسه فدفعه إلى أخيه حولى .

وها قد مر أكثر من الف سنة على حدوث هذه المأساة فى كربلا ولا يزال مئات الألوف من الزوار يفدون اليها كل سنة . وأكثرهم من إيران ، ويكادون ان يكونوا من انحاء البلاد الاسلامية كافة . وهم يحملون معهم فى كثير من الاحيان رفات بعض أقاربهم ممن أوصوا بدفنهم فى كربلا . وإلى يمين مدخل مشهد الحسين سرداب عظيم يبلغ من طوله نحو ٢٠٠ يرد ينزل اليه بدرجات . ويؤتى بجنائز الزوار الاجانب محمولة فى توابيت ، فيوضع من يدفن منهم هناك فى هذا السرداب . ومثل هذا فى مشهد العباس وقد أخبرت بانه لا يدفن أحد فى هذين السرادبين الا بعد دفع رسم لا يقل عن خمسمائة روبية . وبداخل مشهد العباس يشير الدليل إلى خزينة الشهداء حيث دفن أولاد الحسين وغيرهم من أهل البيت .

وعند مدخل ضريح العباس كتبت لوحة كبيرة للزوار « ان لاتتبختر على هذه الارض التى طالما عفربها الملائكة والملوك جباههم » وقبة هذا المشهدغير مذهبة إذ يقال ان نادر شاه وهو الذى أمر ببنائها رأى شخصا فى المنام وهو على ما يظن أبو الفضل العباس فوبخه قائلا « اننى أصغر سنا من الحسين وما أنا إلا تراب قدميه ، فعليك أن تفرق فى البناء بين السيد والعبد » . وداخل الضريح مزين بالسجاد الايرانى الثمين ، مما قدمه التجار هدية ، وقد نقشت أسماؤهم فى زاوية من السجاد . وتتدلى الشمعدانات من الفضة والذهب تحت القبة وفوق الضريح نفسه مشبك من الفضة بسيط الصنع والقبر داخل هذا المشبك وعليه عمامة وسيف. وتؤكد الروايات ان العباس قاتل به فى كربلا ولعل أغرب ما يراه الانسان هو بقعة سوداء مدورة فى سقف القبة ،وتروى قصة فى أن رجلا حلف يمينا كاذبة عند هذا الضريح فطار رأسه عن بدنه واصطدم بالسقف . وتؤكد القصة على الاقل ان القسم الاعظم من الشيعة يترددون فى القسم برأس أبى الفضل العباس ، كاذبا . ويطوف الزوار بقبره ثلاثا وإذا صاروا تحت البقعة السوداء إعترفوا بذنوبهم واستغفروا الله .

أما ضريح الامام الحسين تحت القبة الذهبية فعليه مشبكان،الداخلى منهما من الذهب والخارجى من الفضة البديعة الصنع . وقد أهدى هذا المشبك الفضي ناصر الدين شاه وعليه إسمه . ويأتى الزوار بمختلف الهدايا من النقود والجواهر والمصوغات ويلقونها داخل المشبك.وعلى الاخص عندما ينذرون نذورا ثقيلة للامام واستجيب ما يطلبونه ، فيلقون بنذورهم داخل المشبك الذهبى ، ويفتح المشبك بين آن وآخر وتجمع الهدايا ويعلن عنها قبل أن تباع ويؤخذ ثمنها ، جزءا من مال المشهد.ويجرى فتح المشبك بشبه إحتفال يحضره ممثلون عن السلطة المدنية .

وأخبرنى شاهد عيان ممن أسعدهم الحظ بمشاهدة جمع الهدايا وكنس داخل الضريح بصورة رسمية . قال:وقع الاختيار أولا على اثنين من السدنة

فاغتسلا فى حوض ماء بارد والتف كل منهما بازار أبيض كالكفن شد بخيوط حول العنق والرسغين والكعبين . وليس ذلك من وجهة الطهارة وحدها بل لئلا يظن انهما أخفيا شيئا من الاشياء الثمينة فى طيات ملابسها . ولما دخلا عند الضريح سجدا عند القبر وزحفا على ايديهما وأرجلهما إلى داخل المشبك وبعد ان مسحا التراب عن الاشياء الثمينة التى وجدوها دون ان ينثروه ، فالتراب نفسه ثمين وبعد دقائق معدودات خرجت فيران بيضاء وهى تركض حول القبر . وقد أخرجها الخبز الخاص الذى يضعه فى المشبك من ادبرت عنه الدنيا فيدعو الامام للتوسط له . ولما شاهد السادنان اللذان يكنسان القبر ذلك ، هتفا « ها ان الملائكة تعمل معنا » فهلل الناس وكبروا لأن الملائكة حسب الأخبار الواردة يتخذون الصورة التى يختارونها . وبعد ٣ ساعات من النفض والكنس وجمع الاشياء الثمينه وتفريقها أخرجت الجوهرات وأخرجت معها كمية من التراب المقدس الذى جمعاه بكل اعتناء . فنقلت الاساور والقلائد الثمينة الخ . إلى خزينة المشهد وهو تؤلف جزءا من الدخل النظامى ، وجمع السدنة التراب فى صرر تباع للزوار . لأنهم يعتقدون أنها إذا دفنت مع الانسان غفرت له ذنوبه .

وبعد أن تمت هذه العملية ، أقيمت القراءة الحسينية (روضة خوانى) وأعيد ذكرى مأساة كربلا . ودار السدنة حول القبر يضربون أكتافهم المكشوفة بالسلاسل التى علقت بها المسامير أو السكاكين الصغيرة وقد كشفوا القسم الاعلى من أجسادهم حتى السرة . ويصيحون « حسين ! حسين ! » باسم شهيد الشهداء ، والشفيع لهم يوم القيامة .

الباب التاسع

الإمام على الأصغر زين العابدين

احتلف الحزب العلوى بعد شهادة الحسين (ع) فى قضية الامامة، وهل تنتقل بعده إلى محمد بن علي (ع) وهو ابن الحنفية وليس بابن فاطمة (ع)؟ ويصف التاريخ محمدا هذا بأنه كان أقوى من الحسن أو الحسين خلقا، وكان له حزب قوى يظاهره فى ادعائه الامامة، وهم الكيسانية. وقد أفاض فى ذكرهم مؤرخو السنة والشيعة على السواء. (١) وأخذوا عن السبئية قولهم بتناسخ روح الاله فى الأنبياء وأنها انتقلت بعد وفاة محمد ﷺ إلى على (ع) ثم إلى الأئمة من أبنائه. (٢) وكانوا يعتقدون أن الدور (وهو ألف سنة) على وشك الانتهاء، وأن عدد الأئمة أربعة، وهم على وبنوه الثلاثة: الحسن والحسين ومحمد. ونقل الأستاذ (نكلسن) الأبيات التالية عن كثير كما ذكرها (الشهر ستانى) فى وصف الكيسانية: (٣)

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه ... هم الاسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا تراه العين حتى ... يقود الخيل يتبعها اللواء
يغيب فلا يرى فيهم زمانا ... برضوى عنده عسل وماء

---

(١) مقدمة ابن خلدون، طبعة كاترمير (ج ١ ص ٢٠٧) والفصل (١٩) من كتاب تبصرة العوام للسيد المرتضى علم الهدى.

(٢) الملل والنحل للشهر ستانى طبعة كيورتن (ص ١٣٢).

(٣) Literary History of the Arabs لنكلسن (ص ٢١٦)

م — ٨

اما الفرقة الثانية من العلويين فترى أن محمد بن الحنفية ليس من أبناء محمد ﷺ وأن الحسين أوصى بالامامة إلى ابنه على . (١) إن شروط الامامة وإن نصت نظريا على وجوب تعيين الامام لمن يخلفه ، إلا أننا نلاحظ أنها تنتقل فى الحقيقة بالارث كلما كان إلى ذلك سبيلا . فحين قتل على الأكبر ابن الحسين فى كربلاء انتقلت الامامة إلى ابن الحسين الآخر ، وهو على الأصغر الذى لقب بعدئذ بزين العابدين . وكان أحد الخمسة الذين نجوا من القتل فى كربلاء ، وهم فيما عداه عمته وأخوه عمر وأختاه .

ويذكر ابن سعد (٢) أن سن على الأصغر عند شهادة أبيه كان لايقل عن الثلاثة والعشرين ، وكان مريضاً فلم يقاتل ، فأعفاه عمرو بن سعد من القتل . ويصفه الدينورى بأنه قد كان راهق . (٣) وقد يكون من الخطأ أن نقرنه بأخيه عمر ، الذى كان عمره إذا ذاك أربع سنوات ، فندعوهما « بابنى الحسين الصغيرين » (٤) وأرسل الخمسة الذين لم يقتلوا إلى عبيد الله بن زياد أمير الكوفة ، فوجه بهم إلى يزيد فى دمشق . ونقرأ فى كتب التاريخ أنهم لما بلغوا الشام أدخلوا على يزيد وأدخل معهم رأس الحسين (ع) ورمى بين يديه وخاطب الشمر بن ذى الجوشن الخليفة قائلا : « يا أمير المؤمنين ، ورد علينا هذا فى ثمانية عشر رجلا من أهل بيته وستين رجلا من شيعته فسرنا اليهم فسألناهم النزول على حكم أميرنا عبيد الله بن زياد أو القتال ، فاختاروا القتال على الاستسلام . فغدونا اليهم عند شروق الشمس فأحطنا بهم من كل جانب ، فلما أخذت السيوف منهم مآخذها جعلوا ينهزمون إلى غير وزر ، ويلوذون منا بالآكام والحفر ، لو ذان الحمام من صقر ، فو الله يا أمير المؤمنين ما كان إلا

---

(١) أصول الكافى للكلينى (ص ١١٠ و ٢٢٠).

(٢) طبقات ابن سعد (ج ٥ ص ١٥٦ ، ١ — ٢٥).

(٣) الاخبار الطوال للدينورى (ص ٢٧٠).

(٤) Annals of the Early Caliphate لمور (ص ٤٤١).

مقدار جزر جزور أو نومة قائم حتى أتينا على آخرهم ، فهاتيك أجسادهم مجردة ، وثيابهم مرملة ، وخدودهم معفرة ، تصهرهم الشمس ، وتسفى عليهم الرياح ، زوارهم العقبان، ووفودهم الرخم . (١)

وبعد أن قضى آل الحسين الخمسة الذين نجوا من القتل مدة فى دمشق سمح لهم بالعودة إلى المدينة فجاءوها وحكوا ما جرى عليهم من المصائب فى كربلاء. فكانت الفرصة المناسبة لمن يعمل على إثارة الناس على الظالمين من بنى أمية الذين سفكوا دماء أهل بيت النبى ﷺ دون سبب يستوجب القتل.

وكان ذلك هو عبد الله بن الزبير فاغتنم الفرصة ، وكان قد بلغ العقد السادس من العمر ، وربما كان من الذين يصطادون فى الماء العكر ، وهو ذو طموح يبلغ الأنانية ، إلا أنه يمتاز بالمقدرة الحقيقية على القيادة ، وكان هو أحد الثلاثة الذين امتنعوا عن مبايعة يزيد بولاية العرب عندما أرادهم على ذلك معاوية ، والآخران هما الحسين وعبد الرحمن . وكان تشجيعه للحسين بالخروج إلى الكوفة عن غير إخلاص منه فى صداقة ، وكان على يقين بما سيحل بالحسين فيتخلص من مزاحم ويصفوا له الجو . ومهما كان الأمر فلقد هاج أهل المدينة وماجوا لما سمعوا من المظالم. وخطب عبد الله بن الزبير (وأمه بنت أبى بكر رض) أهل المدينة فى المسجد ذاكرا لهم غدر أهل مكة ، غير أنه اكتفى بلقب « العائذ بالبيت»

وثارت المدينتان على يزيد ولكل مدينة رئيسها ، وانتقل عبد الله إلى مكة وعمل على إثارة جزيرة العرب على بنى أمية . لكن الخبر ما كاد يصل إلى دمشق ،حسب قول اليعقوبى ، حتى وجه مسلم بن عقبة سنة ٦٣ بجيش لقمع الثورة فى مكة والمدينة . ويظهر أن هذه الحملة كانت على صورة غارة فلم نسمع بانكسار جيش ابن الزبير ولكننا سمعنا بقتل عدد من رؤساء الثورة،

---

(١) الاخبار الطوال للدينورى (ص ٢٧١) .

وتعرض أهل المدينة للقتل والنهب والافعال الشائنة ، وأبيح حرم الرسول ﷺ . (١)

وبعد ثلاثة أيام من القتل والنهب فى المدينة ، جلس مسلم ليبايعه النـاس على أنهم عبيد ليزيد. فأتاه على بن الحسين فأقعده إلى جانبه وقال: لقد أوصانى أمير المؤمنين بك خيرا . فاجابه على (ع) : إننى لم ارض بما فعل أهل المدينة أبدا. فأعاده مسلم إلى داره مكرما (٢)

وسار قسم من جيش مسلم بقيادة الحصين بن نمير لمحاربة أهل مـكة .فلما قدمها ناوش أهلها الحرب فى الحرم ورماه بالنار حتى أحرق الـكعبة . فتهدمت بيوت كثيرة . (٣) ويقال ان حصار مـكة دام ٦٤ يوما (٤) فجاء خبر وفاة الخليفة يزيد، فعاد الجيش المهاجم إلى دمشق، ووجد عبد الله بن الزبير الفرصة لتنظيم جيشه . فحارب به الخوارج مرات عديدة وأعاد بناء الـكعبة وتمت له البيعة فى الحجاز والعراق وجنوبى جزيرة العرب وجعل عاصمته مـكة ودام حكمه نحو تسع سنوات .

أما أهل الـكوفة فلم يرضوا بمروان الذى خلف يزيد فى دمشق ،ولا بابن الزبير فى مكة ، ورأوا أنهم قد أخطأوا خطأ كبيرا فقالوا : « ماعـذرنا يوم الحساب غدا امام الله وكيف سنواجه النبى ﷺ وقد قتلنا ابن بنته ؟» ورأو أنه لايغسل ذلك عنهم الا الثأر من قتلة الحسين (ع) ونجحت الدعوة . فوجه سليمان بن صرد، الذى اختير مع آخرين للرياسة ، الـكتب إلى الشيعة يدعوهم. فانضم اليه عدد كبير منهم ، ففزعوا إلى خمسة نفر منهم ليروا ما يجب عمله . واجتمعوا فى دار سليمان واتفقوا على ان ما أصاب الـكوفة من البـلاء كان

---

(١) تاريخ اليعقوبى طبعة هوتسما (ج ٢ ص ٢٩٨)

(٢) الاخبار الطوال للدينورى (ص ٢٧٠) ومروج الذهب للمسعودى (ج٥ ص١٦٢ـ١٦٤)

(٣) اليعقوبى (ص ٣٠٠)

(٤) دائرة المعارف الاسلامية مادة « عبد الله بن الزبير » .

جزاءا لما فعلوه بالحسين ، فعليهم ان يتوبوا ويستغفروا . وطلب سليمان إلى الناس أن يتوبوا ويستغفروا ، ففعلوا ثم نهضوا رافعين السيوف والرماح ، وأقسموا ان يطهروا الأرض من قتلة آل بيت النبي ﷺ ويفنوهم عن آخرهم ويبايعوا زين العابدين بالخلافة . (١)

وخرج « التوابون » مع سليمان إلى موضع بالعراق يقال له عين الوردة « يطلبون بدم الحسين » و « يعملون بما أمر الله به بني إسرائيل إذ قال : (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) (بني إسرائيل ٥١) . وكانوا يريدون خلع مروان وعبد الله بن الزبير ومبايعة علي بن الحسين بالخلافة . وتبع سليمان عدد من الناس ، فوجه اليهم مروان عبيد الله بن زياد وقال له : إن غلبت على العراق فأنت أميرها . فلقي سليمان بن صرد فلم يزل يحاربه حتى قتله . (٢)

وبقتل سليمان خمدت ثورة الكوفة . لكن الدعوة للمطالبة بدم الحسين لم تخمد، فقد جاء رجل إلى الكوفة كان له اتصال بالخوارج ، وهو المختار بن أبي عبيد، وادعى أنه يعمل باسم زين العابدين الذي كان لا يزال في المدينة، وتم له الأمر بالكوفة ، وأخذ قتلة الحسين وأهل بيته في كربلاء فقتل الشمر وعمرو بن سعد وأرسل رأسيهما إلى زين العابدين. وانتصر على عبيد الله بن زياد عند الزاب ، فقتل عبيد الله . وأرسل المختار رأسه إلى المكان الذي استقبل به عبيد الله رأس الحسين (ع) في قصر الامارة بالكوفة .

ولكن ابن الزبير كان يعتقد أن لا علاقة لزين العابدين بأعمال المختار ، فقد قاتل المختار حتى ظفر به أخيرا وقتله ولم يتعرض لزين العابدين بسوء في المدينة. ووردت كتب من المختار إلى الامام فلم يجب عليها ، وأعلن تبرأه من المختار في مسجد الرسول بالمدينة (٢) .

---

(١) Canon Sell كتاب اثنى عشرية (ص ٢) نقلا عن صحيفة العابدين (ص ٨٥)
(٢) اليعقوبي (ج ٢ ص ٣٠٦) . (٣) مروج الذهب للمسعودي (ج ٥ (ص ١٧٢)

وتمكن ابن الزبير من الاحتفاظ بسلطته فى مكة بعد ذلك مدة سنتين أو ثلاث ، غير أن حروبه مع مختلف فرق الشيعة أنهكت قواه وزادت فى قوة بنى أمية ، حتى إذا كان عام (٧٣ هـ) حاصر الحجاج مكة وانهزم ابن الزبير وقتل .

ففى خلال هذا الدور المضطرب السياسى تشعبت الآراء حول الخلافة ، وكانت أهم المسائل التى ظهرت قضية الشيخين. أبى بكر وعمر (رض) . وكان ما يوجه لمن يظهر بالأمر من الشيعة : هل يتبرأ من الشيخين أم لا ؟ ثم قضية الأحقية بالخلافة بين محمد بن الحنفية أخى الحسين من أبيه ،وزين العابدين بن الحسين (ع) . فتفرقت الشيعة بذلك إلى عدة فرق . وقد فشلت جهود الحزب الشيعى كافة للحصول على السلطة الزمنية فى المملكة الاسلامية مما أفضى بالأمر أخيراً إلى تحوير نظرتهم إلى الامامة واعتبار الأئمة هداة روحانيين وشفعاء .

وذهب بعد مقتل ابن الزبير بقليل محمد بن الحنفية وزين العابدين إلى مكة ليريا أيهما أحق بالأمر ، فقال محمد :انه أحق بالأمر لأنه ابن على بن أبى طالب (ع). فقال له زين العابدين : اتق الله ولا تدع مالم يجعله الله لك . فاتفقا على الذهاب إلى الحجر الأسود . فصلى محمد ودعا وسأل الحجر بالشهادة فلم يجبه بشىء . ثم قام زين العابدين وصلى فاضطرب الحجر حتى كاد يسقط من جدار الكعبة. ثم أجاب بلسان عربى مبين قائلاإنه هو الامام الحق بعد الحسين . فقبل محمد (١) . وعاد زين العابدين بعد هذا التحكيم إلى المدينة حيث عاش عيشة هادئة معتزلا الناس إلا من بعض أصحابه الذين كانوا يأتونه لتفهم أمور دينهم .

ويذكر معظم المؤرخين الذين تطرقوا إلى حياة زين العابدين الخاصة أن

---

(١) Canon Sell كتاب اثنى عشرية (ص ١١) نقلا عن صحيفة العابدين، ص ١٨٤) .

أمه كانت أميرة فارسية . (١) فيذكر ابن خلكان أن المسلمين لما أتوا المدينة بسبي فارس فى خلافة عمر بن الخطاب (رض) كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد، فباعوا السبايا، وأمر عمر ببيع بنات يزد جرد أيضا، فقال له على بن أبى طالب (رض) إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة . فقال : كيف الطريق إلى العمل معهن ؟ قال : يقومن ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن . فقومن فأخذهن على بن أبى طالب فدفع واحدة لعبد الله بن عمر وأخرى لولده الحسين وأخرى لمحمد بن أبى بكر الصديق، فاولد عبد الله أمته ولده سالما، وأولد الحسين زين العابدين، وأولد محمد ولده القاسم .

وكان يقال لزين العابدين « ابن الخيرتين » لقوله ﷺ : إن لله من عباده خيرتين، فخيرته من العرب قريش ومن العجم فارس . وكان زين العابدين كثير البر بأمه فقيل له : إنك أبر الناس بأمك ولا نراك تأكل معها فى

---

(١) ابن خلكان . طبعة بولاق (ج ١ س ٣٤٧) . ويضيف ابن خلكان إلى قصة أم زين العابدين وأخواتها نقلا عن الكامل للمبرد ما يدل على نظر الناس إلى المولدين واختلاف نظرهم عن ذلك إلى الذين يجرى فى عروقهم دم بنات الملوك . فيروى عن رجل من قريش لم يسم لنا قال : كنت أجالس سعيد بن المسيب فقال لى يوما من أخوالك ؟ فقلت له أمى فتاة، فكأنى نقصت فى عينه، فأمهلت حتى دخل سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب (رض) فلما خرج من عنده قلت : يا عم . من هذا ؟ فقال: سبحان الله، أتجهل مثل هذا ؟ هذا من قومك، هذا سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . قلت: فمن أمه ؟ فقال : فتاة . قال: ثم أتاه القاسم بن محمد ابن أبى بكر الصديق (رض) فجلس عنده ثم نهض، قلت : يا عم، من هذا ؟ فقال : أتجهل مثل هذا من أهلك ؟ ما أعجبك ! هذا القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق . قلت : فمن أمه . قال : فتاة . قال: فأمهلت شيئا حتى جاءه على بن الحسين (رض) فسلم عليه ثم نهض . فقلت : يا عم من هذا ؟ قال : هذا الذى لا يسع مسلما . أن يجهله، هذا على بن الحسين بن على بن أبى طالب (رض) فقلت : من أمه ؟ قال : فتاة . قلت: يا عم. رأيتنى نقصت من عينك لما علمت أن أمى فتاة، أفمالى فى هؤلاء أسوة ؟ قال: فجللت فى عينه جدا .

صحفة ؟ فقال : إنى أكره أن تسبق يدى إلى ما سبقت عينها . (١)

وعاش زين العابدين بعد وفاة ابن الزبير نحو عشرين عاما هادئا فى المدينة (٢). واشتهر بالحزن والبكاء بعد شهادة أبيه ،وحسن التعبد ،حتى لقب بزين العابدين، وبهذا الاسم ينادى يوم القيامة . وهو من البكائين الخمسة أو الستة فى تاريخ العالم ، فان آدم بكى ندما نحو ٣٠٠ سنة ،وبكى نوح قومه، وبكى يعقوب ابنه يوسف أربعين سنة ، وكذلك يوسف ويحيي خوف النار، وفاطمة أباها ﷺ ،وبكى زين العابدين الحسين (ع) والذين استشهدوا معه فى كربلاء . ومما يروى عن شدة حزنه أن رجلا مر بالطريق والامام يصلى على السطح ، فأصاب الرجل ماء منهمر من الميزاب من غير مطر. فلما سأل عن ذلك قيل له إن الامام إذا بكى جرى دمعه من السطح فى الميازيب .

وكان يقوم الليل فيكبر سبعين تكبيرة فى الصلاة ويختم القرآن . وكان عذب الصوت فاذا تلى القرآن وقف السقاءون بقربه مسحورين يصنتون . ولطول سجوده ثفنت جبهته وركبتاه .

ومن أعرف ما أصابه أن الشيطان تمثل له مرة فى صورة ثعبان والتقم ابهام رجله ليشغله عن العبادة فآلمه ،فلم يقطع صلاته. فلما فرغ وكشف الله فعلم أنه شيطان طرده .

وكان كثير الحلم ،فيروى أن خادما كان يحمل اليه طعاما فى إناء فانسكب ما فيه على رأس الامام ورقبته ، فلم يقل له شيئا بل أعتقه .

اما عن كرمه فيروى أنه كانه يحمل الحنطة والدقيق فى أكياس إلى أبواب

---

(١) ابن خلكان(ص٣٤٧).وأضاف المؤلف قائلا: «هذا ضد قصة أبى الحسن مع ابنته فانه قال : كانت لى ابنة تجلس معى على المائدة فتبرز كفا كأنه طلعة فى ذراع كأنه جمارة فما تقع عينها على لقمة نفيسة الا اختصتنى بها ، فزوجتها . فصار يجلس معى على المائدة ابن لى فيبرز كفا كأنه كرنافة فى ذراع كأنه كربة. فو الله ما تسبق عينى إلى لقمة طيبة الا سبقت يده اليها » .

(٢) مروج الذهب للمسعودى(ج ٥ ص ٣٦٨)

الفقراء ، وكانوا نحوا من ثلثمائة ، كل ليلة وهم لا يعرفونه . أما نهارا فكان يأمر بذبح مئة شاة كل يوم يوزع لحمها على الناس . ويقضى معظم وقته على قطعة من حصير ممزقة صائما نهارا وقد يفطر على رغيف من شعير . ويذكر أحد الكتاب عنه أنه قال : إنه كان يشبع من رائحة الطعام .

ويروى أيضا أن فقيرا محتاجا ركبته الديون فسأل الامام شيئا ، فدفع اليه ما كان فى يده ، وهو قرصة خبز بائرة لا تقوى عليها الاسنان . فمر بدكان سماك واستبدلها بسمكة بائرة . فلما شق بطنها وجد فيه لؤلؤتين ثمينتين فباعهما بمال عظيم قضى منه دينه وحسنت بعد ذلك أحواله .

وكان الامام زين العابدين شديد الشبه بعلى (ع) يقاربه فى الطول ، ذو شعر أصهب ، أبيض الوجه والرقبة ، عريض الصدر بطينا ، وذلك دليل على الشجاعة . وهو أول إمام كان له زوجة واحدة ولدت له ولدا واحداً هو محمد الباقر ، الذى انتقلت اليه الامامة من بعده . غير أنه كان له أربعة عشر ولدا وبنت من سراياه اللواتى لا حصر لهن .

ويقال إن حادثة جرت فأثارت عليه حسد هشام بن عبد الملك وذلك عندما حج فى السنة التى حج بها الامام ، ففى الطواف أقبل على بن الحسين وعليه إزار ورداء وجعل يطوف ، فلما بلغ إلى الحجر تنحى الناس هيبة له حتى يستلمه ، وزاد فى حرج الموقف وجود الفرزدق الشاعر وقد أنشأ قصيدة فى مدح الامام أغضبت هشام غضبا شديدا . ويقول مؤرخو الشيعة إن هشام عزم لذلك على سم الامام (١) .

---

(١) تجد تفاصيل ذلك فى تذكرة الأئمة فصل (٦ص ١٣٠) . وفى جنات الخلود الجدول التاسع . اما المعجزات فيذكرها كتاب خلاصة الاخبار بالتفصيل فى الفصل (٣٢). وهذه الكتب تظهر لنا أن أكثر ما يلقن ويدرس أمور لا يمكن التسليم بها تاريخيا .

وتوفى الامام سنة ٩٤ أو ٩٥ هـ اثناء خلافة الوليد ، وكان هشام إذ ذاك لا يزال شابا ، وعمر الأمام زين العــابدين سبعا وخمسين سنة ، فلا يبعد أنه مات ميتة طبيعية . ودفن إلى جانب عمه الحسن فى البقيع. وقد قضى سنتين من عمره فى زمن على، وعشرا مع الحسن ، وعشرا مع الحسين، وخمسا وثلاثين سنة إماما .

الباب العاشر

الامام محمد الباقر (ع)

انتقلت الامامة الروحانية إلى محمد الباقر فى السنة الأخيرة أو نحوها من خلافة الوليد . وكان ذلك أيام عز الأمويين فى دمشق ، فقد انتشرت فنون السلم ، وتأسست المدارس ،وانبث العلم ، ومنح الشعراء الجوائز السنية ، وشجعت الاعمال الخيرية على أنواعها ، فشيدت المستشفيات ودور للشيوخ والعرج والعمى (١)

اما الامام الجديد الذى كان يسكن المدينة كأبيه هادئا فكان عمره عند انتقال الامامة اليه نحو ١٩ سنة . اما تاريخ وفاته فمختلف فيه ، فاليعقوبى يقول انه توفى سنة ١١٧ هـ، اما المسعودى فيقول انه عاش حتى سنة ١٢٥ - ١٢٦ هـ (٢) . اما التاريخ الذى يقول به ستانلى لين بول فى كتاب Muhammoban Dvnasties (٣) فهو ١١٣ هـ وربما كان ذلك قبل موعد وفاته بعشر سنين .

ويقال ان محمدا الباقر كان مشهورا بعلمه وشريف مولده. فيذكر ابن خلكان

---

(١) موير Annals of The Early Cafiphate ص ٤٤٧

(٢) ذكر ابن سعد فى الطبقات (ج ٥ ص ٢٣٨) أنه مات سنة ١١٤ أو ١١٧ أو ١١٨ هـ أما اليعقوبى (التاريخ ج ٢ ص ٢٨٤) فيقول إنه مات سنة ١١٧ . أما المسعودى (مروج الذهب ج ٦ ص ١٧) فيرى أن محمد الباقر مات فى زمن الوليد الثانى (١٢٥ - سنة ١٢٦ هـ) ولكنه يذكر أن آخرين يؤكدون أنه عاش حتى زمن يزيد الثالث أو الى سنة ١٢٦ هـ .

(٣) ستانلى لين بول Muhammadan Dyuasties ص ٧٢

أنه سمى بالباقر لتبقره بالعلم (١) . ويقول اليعقوبى :إنه سمى بالباقر لأنه بقر العلم بقرا (٢) .

وولد فى المدينة يوم الثلاثاء لثلاث خلون من صفر سنة ٥٧ هـ ويقال إن عمره كان ثلاث أو أربع سنين عند شهادة جده الحسين . وأمه أم عبد الله بنت الحسن بن على بن أبى طالب .

وعاش مكرما متفرغا للعلم فى عزلته بالمدينة . وكان الناس يأتونه فيسئلونه عن الامامة . وقد نقل Cnuon Sell فى كتابه الاثنى عشرية عن(مآثر الباقر) فى بعض أقواله عن الامامة ما يدل على التأكيد على صفة الامام الروحية (٣)

« فقد سأله رجل يوما هل ورث النبي ﷺ علم الانبياء ؟ قال : نعم. ثم سأله: هل ورثها هو ؟ فقال ، نعم . ثم سأله : هل يقدر أن يحيي الموتى ويبرىء الاكمه والابرص ؟ قال نعم باذن الله . ثم انه مسح يده على عين الرجل وكان أعمى فابصر ، ثم مسح عليها فعاد كما كان (المعرب عن البحار) فعمى ثم أعاد له بصره . وتذكر روايات كثيرة أخرى مثلها .

وعاش فى المدينة منجمعا عن الناس متفرغا للدرس ، وكان الناس يستوضحونه بعض الامور المتعلقة بالامامة . وترى خلاصة تعاليمه فى كتاب مآثر الباقر اقتبسها Canon Soll فى الاثنى عشرية ، ويمكن ان نقتبس قسما مهما منها لانه يوضح التأكيد فى هذا الدور المتقدم على صفةالامامة العقلية والروحية .

سأله رجل يوما . هل ورث النبي ﷺ علم جميع الأنبياء ؟ قال : نعم . فسأله: هل ورثها هو؟ قال:نعم. قال:وهل تقدران تحيي الميت وتبرى الاكمه

---

(١) ابن خلكان ترجمة دى سلان (ج ٢ ص ٥٧٩)

(٢) تاريخ اليعقوبى (ج ٢ ص ٣٨٤)

(٣) Canon Sell الاثنى عشرية (ص ١٨ — ١٩)

والاعمى ؟قال : نعم باذن الله تعالى . ومسح بيده على عين رجل فعمى ثم أعاد له بصره . وتروى قصص كثيرة عن ذلك .

وكان يبحث فى مواضيع كثيرة : كماهية الروح وصفات العلماء وصفات الله . وكان لا يشجع البحث فى كنه ذات الله ويقول : ان ذلك فوق إدراك البشر. وسأله أحد رؤساء المعتزلة يوما عن تفسير غضب الله فقال : إنه العقاب وليس غضبه كغضب البشر . وان طبيعة الله لا تتغير . وعرف الرسول ﷺ بانه ينزل عليه جبريل فيراه ويسمع كلامه وينزل عليه الوحى وربما رأى فى منامه ، والنبي ﷺ ربما سمع الكلام وربما رأى الشخص ولم يسمع ، والامام هو الذى يسمع الكلام ولا يرى الشخص. وقال : إن الأئمة معصومون ، وان أهل البيت خالصون من ارتكاب المعاصى ، وان الأرض هى ملك للأئمة وبهم ينظر الله إلى الناس بعين الرحمة ولولاهم لهلك الناس ، وهم لا يخافون وان انكر الأشقياء ذلك .

وفى دفاع الامام الباقر عن حقوقه فى الامامة أمام الخليفة هشام ، قرأ قوله تعالى : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا» (سورة المائدة الآية ٣) . ثم قال بان الوحى الظاهر قد كمل وان الرسول ﷺ أسر لعلى بامور أخرى. وان عليا اختص أحد آل البيت فأورثه الأسرار . واجاب هشام : ان الله لم يشرك أحدا بمعرفة أسراره فكيف يجوز لعلى أن يدعى ذلك ؟ فذكر له الباقر أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ تدل على العلاقة الوثيقة بينه وبين المكانة السامية لعلى . فلما سمع هشام ذلك سكت ساعة ثم أذن للباقر وأصحابه بالانصراف . ولم تؤثر مظاهر السلطة والفخفخة عند الخليفة على الامام فاجاب على مسائله بدون خوف أو تردد .

ويذكر لنا ابن خلكان (١) أن زيدا أخا محمد الباقر خرج سنة ١٢٢

---

(١) ابن خلكان ترجمة دى سلان (ج ٣ س ٢٧٤)

ودعا لنفسه . وكان ذلك على زمن الخليفة هشام . فارسل اليه يوسف بن عمر الثقفى والى العراقين العباس المرى بجيش . فاصاب زيدا سهم رماه به أحد من كان مع المرى ، فمات من جرحه . وصلب فى كناسة الكوفة وحمل رأسه إلى الاقطار .

وقال المسعودى (١) عند ذكره خروج زيد: انه فى سنة ١٢١ وقيل ١٢٢ شاور زيد أخاه محمد بن على بن الحسين، فاشار عليه بأن لا يركن إلى أهل الكوفة إذ كانوا أهل غدر ومكر ، وذكره بما أصاب أهل البيت على يدهم . فأبى زيد إلا ما عزم عليه فخرج باهل الكوفة وانتهى أمره كما ذكرنا . ويعزو الشيعة تحذير محمد الباقر له إلى معرفته الغيب . ونلاحظ ان هذا التحذير كان فى زمن خروج زيد، فيمتنع ان تكون وفاة محمد الباقر قبل هذا التاريخ .

ويذكر الشهرستانى (٢) ان مناظرة جرت بين زيد وأخيه محمد الباقر، لان زيدا كان يتلمذ لواصل بن عطاء . ويقتبس العلم ممن يجوز الخطأ على جده فى قتال الناكثين والقاسطين . ويتكلم فى القدر على غير ما ذهب اليه أهل البيت ، ومن حيث أنه كان يشترط الخروج شرطا فى كون الامام إماما حتى قال له يوما : « على قضية مذهبك والدك ليس بامام فانه لم يخرج قط ولا تعرض للخروج » .

وهناك بعض الشك فى سبب موت محمد الباقر وزمن وفاته. فيقول البعض ان إبراهيم بن الوليد سمه. إلا أن المعروف (٣) هو أن زيد بن الحسين خاصمه فى ميراث ، فجذبه من ثيابه وأراد طعنه ثم اختصما إلى القاضى فحكم للامام ورفع زيد القضية إلى الخليفة هشام ، واتهم الباقر عنده فاستشاط غضبا وأرسل مالا إلى عامله بالمدينة يحرضه على ان يحتال فى أخذ الميراث من

---

(١) مروج الذهب للمسعودى (ج ٥ ص ٤٦٧) وما يليها ، التنبيه طبعة دى غويه (ص ٣٢٣)
(٢) كتاب الملل والنحل للشهرستانى طبعة كيورتن (ص ١١٦) وما يليها .
(٣) تذكرة الائمة للمجلسى (ص ١٣٦)

الامام أو ما لديه من الوثائق وإرسالها له . ويظهر أن الامام كان قد أخذ للامر أهبته فاعطى العامل صندوقا فيه غير النسخة الأصلية ، فارسلها إلى الخليفة . فلما أراها زيدا عرفها . وتقول الروايات الشيعية: ان الخليفة أعطى زيدا سرجا مسموما ، فدبر زيد إيصاله إلى الامام ، فلما ركبه مات بتأثير السم . ولكننا نرى كيف أن العدل الآلهي انتقم من زيد ، فيروى أنه مرض بعد ذلك بغتة وفقد عقله، فلم يصل أو يستغفر وذهب لينال جزاءه .

اماقصص المعجزات التى عملها الامام فيقبلها أكثر الشيعة على انها صحيحة وهم يروونها فى كتبهم المُعتمدة ليبرهنوا على قدرة الامام . وتنسب إلى محمد الباقر إحدى وثلاثون معجزة (١) . فقد أخبر رجلا بانه سيموت بعد يومين . فسأله أحد أصحابه عن ذلك فقال : « الا تدرى اننا نرى على القرب والبعد وما خفى وما ظهر فلا تخفى علينا أعمالكم ونحن أولياؤكم » . وفى مرة أخرى أخبر بعزل عامل المدينة قبل يومين أو ثلاثة أيام .

وروى عن الرسول ﷺ أنه قال لجابر بن عبد الله الانصارى (٢) أحد أصحابه: «يا جابر، إنك ستعيش حتى تدرك رجلا من أولادى اسمه اسمى، يبقر العلم بقرا ، فاذا رأيته فأقرئه منى السلام». ويقال إن محمدا الباقر لما رأى جابرا أخبره حالا بما قال له الرسول .

ومن أحسن القصص ما يروى أن رجلا جاءه وهو شديد الحاجة وأخبره أن أباه دفن مالا وأخفاه عنه ومات ولم يخبر به أحدا . فكتب الامام كتابا ودفعه له وقال له: انطلق بهذا الكتاب الليلة إلى البقيع حتى تتوسطه ثم تنادى « يا درجان ، يا درجان » فانه يأتيك رجل . . . فاسأله عما بدا لك وقل له : أنا رسول محمد الباقر . وفعل الرجل بما أمر وطلب أباه ، فجىء به وقد غيره

---

(١) خلاصة الاخبار للسيد محمد مهدى ، كربلا ١٢٩٧ هـ . (الفصل ٣٣)

(٢) كان جابر بن عبد الله الانصاري من أكابر الصحابة (انظر طبقات ابن سعد ٣ : ص ١١٤)

اللهب ودخان الجحيم . وفى الحديث:اعترف الأب بذنبه وأخبره بمكان المال وأمره أن يدفع إلى الامام محمد الباقر خمسين الف دينار منه .

وروى عن الامام جفعر الصادق بن محمد الباقر أنه قال : جاء أبى وادى فيروز فأمر ان تنصب له خيمة ، فعمد إلى نخلة يابسة فدعا الله ثم تمتم بكلمات لم أسمعها ثم قال أيتها النخلة ، أطعمينا مما جعل الله فيك . فرأيت النخلة قد أثمرت من ساعتها وسقط علينا الرطب من أحمر وأصفر . فأكل وأكلنا . وكان معنا أبو أمية الأنصارى فقال له أبى . يا أبا أمية ، هذه معجزة مريم فقد هزت جذع النخلة فتساقطت عليها رطبا جنيا . وقد أشار إلى ما جاء فى القرآن (سورة مريم الآية ٢٤ — ٢٥) وذلك عندما أخذ مريم المخاض (فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا . وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) .

وادعى عبد الله بن على بن عبد الله بن الحسين الامامة ، وروى أن وفدا مؤلفا من اثنين وسبعين رجلا جاء إلى المدينة من خراسان . ومعهم أموال يحملونها إلى الامام وهم لايعرفونه ،فذهبوا إلى عبد الله أولا،فأخرج لهم درع النبى ﷺ وخاتمه وعصاه وعمامته . فلما خرجوا من عنده على ان يرجعوا غدا لقيهم رجل من أتباع محمد الباقر فخاطبهم بأسمائهم ودعاهم إلى دار سيده . فلما حضروا كلهم طلب الامام الباقر من ابنه جعفر أن يأتيه بخاتمه ،فأخذه بيده وحركة قليلا وتكلم بكلمات فاذا بدرع الرسول وعمامته وعصاه تسقط من الخاتم، فلبس الدرع ووضع العمامة على رأسه وأخذ العصا بيده فاندهش الناس . فلما رأوها، نزع العمامة والدرع وحرك شفتيه فعادت كلها إلى الخاتم ، ثم التفت إلى زواره وأخبرهم أنه لا إمام إلا وعنده مال قارون . (١) فاعترفوا بحقه فى الامامة ودفعوا له المال .

---

(١) قارون (سورة القصص) هو قراح المذكور فى التوراة (العدد ٢٦) وكان بنو اسرائيل يحتقرونه، لانه كان شديد البخل والاعتزاز بثروته الكبيرة .(انظر دائرة المعارف الاسلامية . مادة قارون) .

ويذكر ابن سعد (١) بعض أقوال للامام محمد الباقر تدل على حبه للسلام، فقد قال: « لا تنازعوا فيما بينكم فانه ينزع الايمان بالقرآن ». وكان يجيب على بعض الاسئلة بما يرضى الامويين الذين يرعونه. فمما يروى عن جابر أنه سأله: هل من أهل البيت من أشرك بالله؟ قال: لا. قال: وهل منكم أهل البيت من يعتقد بالرجعة؟ قال: لا. قال جابر: وهل منكم أهل البيت من يبغض أبا بكر وعمر؟ قال: لا، بل نحبهما ونودهما وندعولهما.

إنه وان يكن من المحتمل ان الامام محمد الباقر قد مات مسموما فى سن السابعة والخمسين، كما تقول الشيعة، وأنه قد حصل على الشهادة، إلا أنه يجب أن لا ننسى انه بلغ من العمر سنا لا يكون موته باسباب أخرى من الامور المحتملة. ان مجرد الشك فى سنة وفاته وكيفيتها تدل على جهل الشيء الكثير عن أيامه الأخيرة. فيروى أنه أوصى أن يدفن بملابسه التى صلى بها. وقال ابنه إنه دفن مثل رسول الله ﷺ فى ثلاثة أثواب. فحياته وموته من غير واضحتين تاريخيا.

وكانت هناك أمور أخرى تشغل الناس حينئذ. فالحركات الايجابية ضد الامويين كان قد اشتد أمرها، وأصبح الناس لا يلقون بالاذهاب إمام مسالم وهو محمد الباقر، وقيام آخر مسالم مثله، وكان ذلك من الامور المهملة أو التى لا يلتفت اليها أحد.

---

(١) طبقات ابن سعد (١) ص ٢٣٦

الباب الحادى عشر

قيام بنى العباس

بلغ الاضطهاد الأموى درجة لا تطاق وانتشر الاستياء فى طول البلاد وعرضهافلم يبق إلا القليل ممن يقنع بفكرة كون الامام زعيما روحياً فحسب. وكان الموقف السلبي الذى وقفه الامام زين العابدين والذى وقف مثله الامام محمد الباقرجعل فرق الشيعة الاخرى ترى فى ذلك دليلا على أن لا فائدة من انتظار أى إرشاد أو مساعدة من الشيعة الامامية. فكان الكيسانية، وهم ابناء من قالوا بامامة ابن الحنيفة، يميلون جد الميل الى حركة إيجابية ضد مضطهديهم. وكان ميل زيد أخى الامام محمد الباقر وميلهم مما جعله يستمع إلى دعوة أهل الكوفة له للظهور.

وكان آخر خلفاء بنى أمية مروان الثانى، وقد حكم بين سنتى (١٢٧ — ١٣٢ هـ) وكان قد ولى أرمينية واذربيجان اثنتى عشرة سنة، قاتل خلالها القبائل الشديدة المراس فى ققفاسية،وحاز خبرة واسعة فى الحروب، ووضع خطة لاعادة تنظيم القوات الاسلامية، فبدلا من تقسيم الجيش إلى فرق تنتسب كل منها إلى قبيلهرأى تأليف جيش نظامى يخدم أفرادهبرواتب معينة بامرة قادة محترفين، وينقسم الجنود المجندون للخدمة العسكرية إلى فرق قليلة العدد تفوق فى سرعة حركتها وقوتها نظام الخطوط الطويلة عند العرب (١). فلما صار له هذا الجيش رأى أن إبراهيم بن الوليد الخليفة الجديد فى مركز متزعزع إذ لم تؤيده الا بلاد الشام الجنوبية. فرأى فى ذلك فرصة فقرر الخروج عليه لا للخلافة بل للمطالبة بحقوق ابناء الوليد

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية. مادة « مروان بن محمد »

الثانى القتيل . فالتقى بسليمان بن هشام وهو على جيش الخليفة فهزمه، فمضى سليمان إلى الشام فقتل ابنى الوليد الثانى وسار إلى تدمر . وكان مروان قد ادعى فى أول الأمر أنه يقاتل فى سبيل هذين الولدين، فلما قتلا، وكان القيسية يشدون ازره ،لم يتردد من دخول الشام حيث بايعه الناس بالخلافة .

وبعد مبايعة مروان ظهرت مقاومة خطيرة فى بلاد الشام أولا ثم امتدت إلى العراق ، وبذل هو وأنصاره جهودا كبيرة فى سبيل اطفائها . وبينما كان مشغولا فى هذه القلاقل بلغه الخبر باضطراب خراسان النائية . وقد كتب له عامل بنى أمية على خراسان من مرو كتابا يصف له الخطر الداهم جاء فيه :

أرى خلل الرماد وميض جمر ويوشك ان يكون له ضرام
فان النار بالعودين تورى وان الفعل يقدمه الكلام
أقول من التعجب ليت شعرى أأيقاظ أمية أم نيام (١)

وكان السبب فى اضطراب خراسان الأستياء السائد فى البلاد كافة من الأمويين ورغبة العناصر الناقمة من غير العرب فى انتقال الحكم إلى أسرة جديدة . وكانت الدعوة لآل البيت شديدة فى خراسان ، ولم تكن هذه الدعوة للأئمة العلويين الذين اتبعوا سياسة عدم المقاومة فى الأيام الأخيرة بل إلى فرع آخر من بنى هاشم له نفوذ أقوى وسياسة إيجابية أشد. ولقرابة العباسيين من النبى ﷺ من جهة عمه العباس جدهم الاعلى .

وكان العباس ممن ساند عليا بعد وفاة الرسول فى ادعاء الخلافة مفضلا إياه على نفسه . ولما تولى على الخلافة بعد مقتل عثمان ولى عبيد الله بن عباس على البصرة وكان هذا البيت لا ينظر إلى عبد الله نظر الفخر ، اذ أن عليا لما حاسبه فى بعض الأموال التى تسلمها ، شعر بالاهانة فغادر البصرة وحمل معه مبلغا من المال يقدر بستة آلاف الف درهم والتحق بمعاوية ، فضمه اليه وكان يدفع له مخصصات سنوية

(١) مروج الذهب للمسعودى (ج٦ ص٦٢) وتاريخ اليعقوبى طبعة هو تسماج (٢ص ٤٠٨) والاخبار الطوال للدينورى طبعة guirgass (ص٣٥٦) وقد ترجمه الى الانكليزية نيكلسن (فى L · H .A ص٢٥١)

وقضى حياته فى الدرس والعلم فى ظل الامويين . وهو يعد المفسر الأول للقرآن الحقيق غير أنه يظهر فى بعض الأحيان ان علمه فى التاريخ والحديث لا يزيد كثيرا على امانته فى الادارة (١)

إلا أن ابن هذا الناكث ، وهو على بن عبد الله بن عباس ، ٢) كان مفخرة بنى العباس ، فقد ولد فى الليلة التى قتل فيها على سنة ٤٠ للهجرة (٦٦١) وكان أجمل قريش ، وازهدهم ، ولم ينج من شدة رقابة الأمويين وكلائهم على بنى هاشم جميعا ، فوشى به فى خلافة الوليد الأول بأنه يتآمر سرا على بنى أمية ، فنفى إلى قرية الحميمة فى مقاطعة الشراة بين فلسطين وجزيرة العرب ، وعاش فى هذه القرية حتى توفى سنة ١١٧ هـ . وهنا تزعم ابنه الدعوة العباسية .

وقد ادرك بنو العباس فى الحميمة لقربهم من دمشق ان الامويين فقدوا قوتهم الحربية بسماحهم للقبائل العربية بالتوطن فى المدن ، ففقدت الجيوش نشاطها بالاختلاط وكانت عجرفتهم سببا لجعل اسم العرب مكروها .

وكما ذكرنا آنفا لم يكن الغزو لنشر كلمة الله بقدر ما كان لحب الفتح ودفع العرب إلى اجتياح بلاد الشام وإيران وتوطنهم البلاد الاجنبية حيث عاشوا على أهل البلاد وكانوا ، أى العرب ، ينظرون اليهم بعين الاحتقار . وقد أراد هؤلاء أن يحوزوا احترام الفاتحين بدخولهم فى دينهم فخاب ظنهم . وأصبح المسلمون الجدد موالى للقبائل العربية وكان . هذا هو كل حظهم من المساواة . وبدلا من ان يحصلوا على المساواة التى كانوا ينشدونها فى حقوقهم كان العرب الذين يرتبطون بهم بالولاء يعاملونهم باحتقار ، وكانوا معرضين لانواع الاهانة الاجتماعية ، وبدلا من اعفائهم من الجزية التى

(١) دائرة المعارف الاسلامية ماده « عبد الله بن العباس » ونيكلسن (ص ١٤٥)
(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة « عبد الله بن العباس » .

يدفعها غير المسلمين كانوا يؤدون ضرائب إضافية فوق ذلك لموظفى الدولة . ولا ننسى ان هؤلاء الموالى لم يكونوا من الفلاحين الجهلاء بل من الذين يعترف العرب أنفسهم بثقافتهم — ويؤلفون العمود الفقرى للصنف المثقف العالم ، وقد اختصوا بدراسة علم الدين والفقه ، وهما من العلوم التى ينظر الناس اليها بعين الاحترام . وها هنا نجد موقفا شديد الخطر . (١)

وحدث فى هذه اللحظة عندما كان الاستياء من الضغط العسكرى للامويين على أشده تهيأت فرصة قادرة أدت إلى الاتحاد بين أهم فرعين من البيت الهاشمى . فان إمام الكيسانية وهو حينئذ أبو هاشم بن محمد بن الحنفية ، كان قد استدعاه الخليفة هشام لزيارة دمشق ، وكان الخليفة عارفا بما بيبته الكيسانية من الدعوة فى خراسان ، فكان يخاف أبا هاشم ، إذ هو الزعيم القوى للثورة ، فسمه بالحليب. ويقول زيد: إن أبا هاشم لما شعر بالسم وهو فى طريقه جاء الحميمة، مقر الفرع العباسى، فنزل عند محمد بن على بن عبد الله ابن عباس . ويقال إنه لما شعر أبو هاشم بقرب موته تنازل عن حقه بالخلافة إلى محمد (٢) بحضور شهود من الكيسانية . فلما مات أبو هاشم قام محمد بالدعوة بعد ان حصل على تأييد الكيسانية له ، بعزم أشد . غير انه مات قبل ان ينال غرضه ، فعهد بالامامة إلى ولده إبراهيم .

---

(١) نيكلسن فى L ·H A. ص ٢٤٧ — ٢٤٨

(٢) « ان هذه الرواية وان وردت فى أقدم تواريخ العرب فان المحققين الاخرين يشكون فى صحتها شكا كبيرا ويعزونها إلى اختراع شيعة العباسيين الذين ارادوأن يبرهنوا بهذه الصورة على حق العباسيين بالخلافة » (دائرة المعارف الاسلامية « أبو هاشم » بقلم K.V.Zettersieen إلا ان قوة هذا الشك تخف عندما نعلم أن أبا هاشم قد مات بالحميمة وليس من المستبعد أن يكون لهذا الاتفاق علاقة بتوجيه الجهود بين الكيسانية والعباسيين ضد بنى أمية .

فأخذ إبراهيم يرسل الدعاة إلى الاطراف بادئاً بخراسان ، فقد كان يعتمد على أهلها أكثر من غيرهم ،لأن أكثر الكيسانية كانوا فى خراسان والعراق. وقد قام سكان هاتين المقاطعتين بمساعدة العلويين عدة مرات . وقد أرسل الدعاة أنفسهم الذين استخدمهم أبو هاشم وطلب منهم ان يحصلوا على البيعة لآل محمد ، دون أن يذكروا ان المقصود هو فرع آل على أو آل العباس . وكان الخراسانيون،وقد ملوا استبداد الامويين ، حاضرين لمبايعة آل محمد وهم يعتقدون أن الدعوة يشترك فيها الفرعان (١)

وكان أول هؤلاء الدعاة بكير بن ماهان، فجاء مرو وأعلن موت محمد وإمامه إبراهيم . وبقى حتى سنة ١٢٦ هـ . وعاد يحمل أموالا كثيرة لبث الدعوة العباسية . وكان ذلك قبل تولى مروان الخلافة فى دمشق ببضعة أشهر. ومات بكير فى السنة التالية فارسل مكانه أبو سلمة إلى خراسان .فنجح نجاحا كبيرا فى بث الدعوة، حتى إن إبراهيم لما أرسل القائد الشاب أبا مسلم الذى يبلغ من العمر التاسعة عشرة ، لتأليف جيش من الموالين لهم فى خراسان ، انضم اليه فى يوم واحد رجال ستين قرية من نواحى مرو . وكان ان كتب بعد ذلك بزمن قصير نصر بن سيار عامل بنى أمية كتابه إلى الخليفة مروان يستفزه ويذكر ان أبا مسلم على رأس ٠٠٠ ر ٢٠٠ رجل والمسافة بين مرو ودمشق طويلة . لكن نفوس مسلمى العجم وخاصة القبائل المحاربة فى إيران اطمأنت أشد الاطمئنان عندما سمعت بان الجيش المؤلف من أهل البلاد والذى يقوده أبو مسلم قد أخرج عمال بنى أمية وجندهم من مرو ونيسابور . واتخذت الحركة شكل دعوة موحدة من بنى هاشم ضد بنى أمية وصار ذلك ما يسعون اليه، حتى إن بعض الامامية أخذوا يعتقدون بقرب رجوع الحق إلى آل على .

---

(١) جرجى زيدان ، الامويون والعباسيون. ترجمة مرغليوث(ص ١٤٦ — ١٤٧)

وكان مروان ، الخليفة الجديد لا يألو جهدا فى العمل على اطفاء نار الثورة فى اليمن والعراق . ووردت الأخبار فى استيلاء أبى مسلم على خراسان جميعها وبقائه فيها وإرسال جيوشه نحو الغرب . واراد مروان أن يقضى على رأس الفتنة بأخذ إبراهيم رئيس بنى العباس فى الحميمة . فقيل انه أمر به فخنق ، وقيل بل أدخل رأسه فى جراب نورة حتى مات (١)

وكان لابراهيم أخوان، وهما أبو العباس وأبو جعفر ، فهربا إلى خراسان . وعادا بعد مدة قصيرة ومعهما جيوش أبى مسلم الظافرة ليتم على أيديهما النصر فى الغرب فيصبحا الخليفتين ، الأول والثانى من خلفاء بنى العباس .

ومهدت لهما السبل فى الكوفة الدعوة التى قاما بها أكثر من اثنتى عشر سنة . فلما قدما بالجيش إلى الكوفة كان مسودا ، وهو اللون الذى اتخذه بنو العباس شعارا لهم ، وازدحم المسجد بالناس وكلهم يلبسون السواد وعلى رءوسهم العمائم السود ويحملون الرايات السود. وتقدم أبو سلمة من أشد الدعاة حماسة فى خراسان بالصلاة ، ثم ذكر ان أبا مسلم قد مكن المسلمين من رفع نير الامويين عن أعناقهم ، وانه يعلن أن أبا العباس ، أخا إبراهيم القتيل ، هو خليفتهم وإمامهم الحق . ففرح الناس وبايعوا أبا العباس وأخذوا ينادون يأهل خراسان ، يا لثارات إبراهيم !

وسار مروان نحو الكوفة فى ١٢٠٠٠٠ والتقى بجيش خراسان عند الزاب الاعلى ودامت معركة الزاب يومين، وكان القتال شديدا. وتذكر الأخبار أن فرس مروان هربت بدونه ، فظن الناس أن مروان ، قد قتل ، فتفرق جيشه وانهزم . ولم يقتل مروان بل تمكن من النجاة والهرب ووراءه الطلب من مكان إلى آخر حتى ظفر به فى كنيسة منعرلة على النيل فقتل، وهو آخر خلفاء بنى أمية . وتمكن عبد الرحمن من الهروب إلى الاندلس والاستقلال بها .

وعاد أبو العباس منتصرا وخطب فى مسجد الكوفة واتخذها عاصمة له

(١) تاريخ اليعقوبى طبعة هوتسماج (٢ ص ٤٠٩).

وسمى نفسه فى هـذه الخطبة بالسفاح ،فأظهر بذلك نيته فى استئصال شأفة الأمويين . وكانت مذبحة الموصل مثالا ، لما كان فى نيته ، فانه ولى اخاه وضم اليه أربعة آلاف رجل من أهل خراسان ،فقدم الموصل يوم جمعة فقتل ثمانية عشر الف إنسان من صلب العرب ،ثم قتل عبيدهم ومواليهم حتى أفناهم . (١) وقضى مدة حكمه القصيرة التى لم تزد على أربع سنوات فى القضاء على الثورات المتعددة وقتل كل من شك به .

وتولى الخلافة بعـده أبو جعفر المنصور الشهير ، وهو الذى بنى مدينـة بغداد المدورة واتخـذها عاصمة له ، وجعل لها أربعة أبواب ، وهى : باب الـكوفة وهو تلقاء الـكوفة. وباب البصرة وهو تلقاء البصرة ،وباب الشام وهو تلقاء الشام ، وباب خراسان وكان يسمى باب الدولة لاقبال الدولة العباسية من خراسان (٢) .

وكان المنصور شديد الحذر فأدى به ذلك إلى قتل أقدر رجال دولته ، ومنهم أبو مسلم الذى كان المنصور لا يطمئن اليه . فنسمع ان المنصور لما قدم خراسان زمن أخيـه ، لم يبالغ أبو مسلم فى بره وإكرامه ولم يظهر السرور التام بقدومه ، ولمـا انصرف من خـراسان إلى أخيـه قال له : لست بخليفة ما دام أبو مسلم حيا . (٣)

وكان المنصور يريد التغلب على أبى مسلم وإقناعه بالمجىء مـع جيشه إلى العراق . ونزل المنصور مدينة بناها كسرى أنوشروان قرب المدائن وأرسل إلى أبى مسلم ، وكان قريبا منه ، ان يوافيـه اليها ليناظره فى أمور لم يحتملها الـكتاب . فجاءه وامر المنصور حاجبه إذا دخل أبو مسلم أن يأخذ عنه سيفه. فغضب أبو مسلم من هذه المعاملة وأعطى سيفه، ودخل على أبى جعفر وهو

---

(١) تاريخ اليعقوبى طبعة هوتسماج (٢ ص ٤٢٩)
(٢) مروج الذهب للمسعودى (ج ٦ ص ١٧١)
(٣) الدينورى طبعة Yuirgass ص ٣٧٣

يعتقد أنه لم يكن فى البيت غيرهما . وكان المنصور قد أكمن ثلاثة رجال ممن يثق بهم وقال لهم : إذا أنا صفقت يدى ثلاثا فاخرجوا إلى أبى مسلم فاقتلوه . وبعد كلام بينهما صفق المنصور بيديه فاخذته السيوف (١)

ومن الانصاف أن نقول إن أبا مسلم كان يحكم بخراسان كما كان يحكم المنصور بالعراق . ويقال إنه لم يتردد فى اتخاذ أية وسيلة ضد اعداء بنى العباس أو ضد أعدائه الشخصيين أو منافسيه ، فأزالهم عن طريقه بالقوة وبالدهاء (٢) . ويظهر أن طريقته فى الحكم أن يضرب . وأن يعمل بذلك ، وربما كان ما فكر فيه أبو مسلم عندما رأى نفسه فى الفخ المنصوب له ، شدة أسفه على أنه غلب على أمره أكثر من أسفه على نكران المنصور لجميل خدماته فى خراسان .

ففى هذا العصر المضطرب الذى قامت به دولة بنى العباس ،وكان فيه القتل والاغتيال على الشبهة فى خلال حكم المنصور، فسائل أنفسنا: كيف عاش الامام جعفر الصادق وكيف كان مركزه كامام ، وكيف تركوه ليعيش فى المدينة ؟

---

(١) كذلك (ص ٣٧٧)

(٢) ويظهر انه فى معتقداته الدينية . وربما كان مدفوعا بمطامعه الشخصية ، قد وحد بين الاسلام والفكرة الحلولية القديمة . فكان يدعى ان روح الله حلت فيه. وكان المقنع فى خراسان، وهو هاشم المقنع أحد تلامذته . وكان يميل إلى العلويين . وان عددا من طوائف الشيعة ترجع أصلها إلى أبى مسلم .

انظر دائرة المعارف الاسلامية . مادة « أبو مسلم »

الباب الثانى عشر

(الامام جعفر الصادق)

ان الامام الذى يروى عنه أكثر من غيره فى الفقه والحديث هو الامام جعفر الصادق . ويقول الكلينى إنه عاش خمسا وستين سنة(٨٣ – ١٤٨هـ) . فهو أطول عمرا من الأئمة الآخرين (١) . ويتفق المؤرخون على أن أمه أم فروة بنت القاسم حفيد أبى بكر الصديق . (٢) ومن كلمات أبى بكر : تمسكوا بالصدق فان الصدق منجاة . (٣) ولقب الامام جعفر بالصادق لصدقه .

وكان كثير الاحترام لأمه ، فروى عن أبيه أنه قال : « يا أم فروة ، إنى لأدعو الله لمذنبى شيعتنا فى اليوم والليلة الف مرة لانا نحن فيما ينوبنا من الرزايا فصبر على ما نعلم من الثواب وهم يصبرون على مالا يعلمون » (٤)

ولا نعلم إلا القليل عن أوصاف جعفر إلا أنه كان أبيض الوجه والجسم، أشم الانف ،حالك الشعر . (٥) ولم يذكر إلا القليل عن حياته البيتية غير أننا نعلم أنه أعقب عشرة أولاد سبعة منهم من زوجته فاطمة ومن أم ولد، والباقون من أمهات مختلفات ، أو كما نقرأ فى مكان آخر، من نساء كان يتسراهن(٦) .

وسواء أكان عن عقيدة ومبدأ أو عدم رغبة ، فى ذلك الدور المضطرب

---

(١) أصول الكافى للكلينى (ص ١٩٣). انظر كذلك تذكرة الأئمة للمجلسى(ص ١٣٩ — ١٤٨) وبحار الانوار (ج ٢ ص ٧٩) وتاريخ اليعقوبى (ج ٢ ص ٤٥٨).

(٢) مروج الذهب للمسعودى(ج ٤ ص ١٨٢) .

(٣) مسند الطيالسى طبعة حيدر اباد سنة ١٣٢١هـ (ص ٣ الحديث ٥) .

(٤) أصول الكافى للكلينى (ص ١٩٣) .

(٥) تذكرة الأئمة للمجلسى (ص ١٣٩).

(٦) عقائد الشيعة(ك ٤ ف ٣)وجنات الخلود(الباب ١٣) والبحار(ج ١١ ص ١٣٤).

الهائج ، فإن الامام جعفر تمكن من الابتعاد عن السياسة ابتعادا تاما. ويذكر المسعودى أن أبا سلمة لما رأى قتل مروان الثانى لابراهيم الامام خاف انتقاض الأمر فاراد دعوة جعفر الصادق فى الشخوص اليه ليصرف الدعوة اليه ويجتهد فى بيعة أهل خراسان له ، فدعا الامام جعفر بسراج ثم أخذ كتاب أبى سلمة فوضعه على السراج وقال للرسول : عرف صاحبك بما رأيت . ثم أنشأ يقول متمثلا : (١)

أيا موقدا نارا لغيرك ضوءها ويا حاطبا فى غير جبلك تحطب

ومدح الشهرستانى جعفر الصادق مدحا عظيما فقال: «وهو ذو علم غزير فى الدين وأدب كامل فى الحكمة وزهد بالغ فى الدنيا وورع تام عن الشهوات. وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين اليه ويفيض على الموالين له أسرار العلوم . ثم دخل العراق وأقام بها مدة ما تعرض للامامة قط . ولا نازع أحدا فى الخلافة ، ثم غرق فى بحر المعرفة لم يطمع فى شط ، ومن تعلى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط . وقيل : من آنس بالله توحش عن الناس ، ومن استأنس بغير الله نهبه الوسواس . وهو من جانب الأب ينتسب إلى شجرة النبوة وهو من جانب الأم ينتسب إلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه » (٢)

ربما كان بعض الشك فيما رواه السيوطى عن جعفر الصادق فى قوله: « أنا برىء ممن ذكر أبا بكر وعمر الا بخير » (٣) ان مثل هذا الميل نحو عشيرة أمه ، أو تقدير المزايا الحقيقية للخليفتين الأول والثانى ، ربما كانت من الاسباب التى ساعدته على اجتناب اثارة الشك فى قلوب من عاصره من الخلفاء ، وهم من الأمويين : هشام والوليد وإبراهيم ومروان ، ومن العباسيين . السفاح والمنصور

---

(١) مروج الذهب (ج ٦ ص ٩٣ — ٩٦)
(٢) الملل والنحل للشهرستانى طبعة كيورتن (ص ١٢٤)
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى (ص ١٢٥)

ويستدل مما رواه الكليني (١) أنه لم يعش بسلام مستمر ، فيقال إن الخليفة المنصور وجه إلى والى المدينة أن أحرق على الامام داره . فأخذت النار فى الباب والدهليز . فخرج الامام يتخطى النار ويمشى فيها ويقول: أنا ابن اعراق الثرى ، أنا ابن إبراهيم خليل الله . وهو الذى يذكر القرآن كيف نجا من النار (سورة الأنبياء الآية ٦٩) . ويعتبر الشيعة هذه القصة من معجزات الامام ، أما غيرهم ممن يقرءونها فيعتبرون أن عنصر الصدق فى الحكاية قد يكون فى أن دار الامام احترقت مرة ، فأطفا النار برجله قبل أن تحدث ضررا .

أما عن شعور الخليفة المنصور نحو الامام جعفر فيروى ابن خلكان « أن المنصور استدعى رجاله البارزين إلى العراق . فاستعفاه جعفر وأراد البقاء فى المدينة فلم يقبل ، فاستأذنه ان يتأخر قليلا ريثما يدبر أموره ، فرفض المنصور ، فقال الامام للمنصور : لقد سمعت أبى عن أبيه عن جده رسول الله ﷺ أنه قال : من خرج فى طلب الرزق رزقه الله ، ومن بقى مع عياله مد الله فى أجله . قال المنصور : أسمعت ذلك حقا عن أبيك عن أبيه عن جده رسول الله ﷺ ؟ . قال : أشهد الله بذلك . فعفاه المنصور من الذهاب إلى العراق ، وسمح له بالبقاء فى المدينة مع أهله » (٢)

وكان الامام خائفا عندما أرسل إليه المنصور عقيب مقتل محمد بن عبد الله ، فدعا : ربى سهل لى حزونته ، ولين لى طبعه ، واعطنى الخير الذى أرجوه ، ونجنى من الشر الذى أخافه . ويظهر أن دعاءه قد استجيب : لأنه حينما دخل على الخليفة قام وعانقه وخضب لحيته بالغالية ورده إلى بيته مكرما . ولما سئل عن ميله إلى محمد بن عبد الله ، تلا قوله تعالى (سورة الحشر الآية ١٢): « لئن أخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم

---

(١) أصول الكافى للكلينى (ص ١٩٤)

(٢) ابن خلكان طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ ﻫ (ج ٢ ص ١١٢)

ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لا ينصرون) . فقنع المنصور ، وقال : كفى بقولك شهيدا (١)

ومن الوصف الذى نقرؤه عن إكرام جعفر الصادق ضيوفه فى بستانه الجميل فى المدينة ، واستقباله الناس على اختلاف مذاهبهم ، يظهر لنا أنه كانت له شبه مدرسة سقراطية . وقد ساهم عدد من تلامذته مساهمة عظمى فى تقدم علمى الفقه والكلام . وصار اثنان من تلامذته وهما أبو حنيفة ومالك بن أنس فيما بعد من أصحاب المذاهب الفقهية وأفتوا بالمدينة فى أن اليمين الذى أعطى فى بيعة المنصور لا يعتبر مقيدا ما دام قد أعطى بالاكراه . ويروى أن تلميذا آخر من تلامذته ، وهو واصل بن عطاء رئيس المعتزلة ، جاء بنظريات فى الجدل مما ادى إلى إخراجه من حلقة تدريس الامام جعفر . وكان جابر بن حيان الكيماوى الشهير من تلامذته أيضا (٢)

ولعل أهم تلامذته كان أبا حنيفة (والمشهور ان أبا حنيفة لم يتتلمذ عليه ولكنه ربما حضر مجلسه ـ المعرب) وكانت له حلقة تدريس شهيرة بالكوفة ، وهو أحد مؤسسى مدرسة القياس والرأى فى الفقه بالاضافة إلى الحديث ، وخالف بذلك مدرستى مكة والمدينة ، وأدى إلى انتقاده من قبلهما انتقادا شديدا . وكانت فتاواه تتعلق بالفقه لا علاقة لها با لحكومة ، فقد رفض بكل شدة تعيينه للقضاء . وتمكن ان يقوم بعملة فى التدريس والافتاء بالكوفة على زمن الامويين والعباسيين . ومن المحتمل فضلا عن ذلك أنه كان شديد الميل للعلويين وناقما على الحال التى أبعدوا بها عن الدولة (٣) .

---

(١) كذلك (ص ١١٢)

(٢) جرجى زيدان : الامويون والعباسيون (ص ١٥٢) و Anedoc Letenature تأليف Huare (ص ٣١٣)

(٣) دائرة المعارف الاسلامية مادة : « أبو حنيفة »

ومن العجيب أن هذين العالمين المتعاصرين تمكنا من القيام بالتدريس كل فى مدينة ،أبو حنيفة بالكوفة وجعفر الصادق بالمدينة ، مدة طويلة فى مثل هذا العصر المضطرب . وكانت العلاقة بينهما ودية . ويظهر ان كلا منهما حاول أن يشتهر بمعرفته كل شىء .

ويروى لنا ابن خلكان نكتة ظريفة للامام جعفر على منافسه فى العلم، ذلك أنه سأل أبا حنيفة فقال : ما تقول فى محرم كسر رباعية ضبى ؟ . فقال: يا بن رسول الله ،ما أعلم ما فيه . فقال : أنت تتداهى ،ولا تعلم ان الضبى لا يكون له رباعية وهى ثنى أبدا (١)

ومرة أخرى قال أبو حنيفة :لو لم يقل الامام ثلاث مسائل لقبلت به . فقد قال : إن الخير من الله والشر من عمل عباده . وأقول ان لااختيار للعبد وان الخير والشر من الله . والثانية أنه قال: ان الشيطان يعذب يوم القيامة بالنار. وأقول : ان النار لا تحرقه فهو من نار والنار لا تؤذى نفسها (٢) . والثالثة أنه قال باستحالة رؤية الله بالدنيا أو الآخرة . وأقول: إن كل موجود يمكن رؤيته ان لم يكن فى هذه الدنيا ففى الآخرة . وكان بهلول يسمع ، وهو من المتشيعين للامام ، فرفع لبنة وضرب بها رأس أبى حنيفة . وقال وهو يهرب . لقد فندت مسائلك الثلاث . فاشتكاه أبو حنيفة إلى الخليفة فأمر ببهلول وجىء به . فسأله : لم ضربت رأس أبى حنيفة بلبنة ؟ » فقال لم أفعل ذلك . فاحتج أبو حنيفة قائلا: ولكنك ضربتنى . فاجاب بهلول: ألم تقل ان الشر من الله ولا اختيار للعبد فلم تلمنى ؟ وقلت كذلك : ان الشىء لا يؤدى نفسه . وانت خلقت من تراب وكانت اللبنة من التراب

---

(١) ابن خلكان طبعه بولاق سنة ١٢٨٤ (ج ٢ ص ١٦٣)

(٢) جاء فى القرآن ان الله خلق ابليس والجن من النار (سوره الكهف ٤٨) (سوره الاعراف ١٢) سوره ص ٧٦ وخلق آدم من طين . انظر دائره المعارف ماده الملائكة بقلم ما كدونلد .

فكيف آذتك ؟ وقلت : إنك تقدر أن ترى الله إذ كل موجود يمكن رؤيته حسب قولك ؟ فأسألك أن ترينى الألم الذى فى رأسك . (١)

ورغم ذلك فان الذين كانوا يظاهـرون قضية الامام جعفر الصادق كانوا يحترمون أبا حنيفة احتراما زائدا، فهم يذكرون له ماقاله فى المنصور وغيره من الظالمين من بنى أمية أو بنى العباس . فقـد قال أبو حنيفة : لو أن هؤلاء بنوا مسجدا وأمروه بعـد الآجر له فانه لا يفعل . لانهم فاسقون والفاسق لا يليق للامامة . وبلغ المنصور هذا القول أخيرا فامر بأبى حنيفة إلى السجن وبقى فيه حتى مات . وكان ما لاقاه من الاضطهاد لقوله هذا أن كسب صداقة الشيعة (٢) وقد استند فى قوله على ما جاء فى القرآن حيث يخاطب الله إبراهيم (البقرة ١٢٤) : (إنى جاعلك للناس إماما. قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين) . وقد بنى علماء الشيعة المتأخرين كالمجلسى قولهم فى أن هذه الآية تنص نصا صريحا على أن الفاسق لا يكون إماما ، ويبدون فرحهم فى أن البيضاوى والزمخشرى وأبا حنيفة يكادون أن يتفقوا معهم فى تفسير هذه الآية (٣)

ورأى الامام جعفر الصادق فى الارادة، وكان البحث يدور حولها حينئذ بشدة ، هو : ان الله أراد بنا شيئا وأراد منا شيئا ، فما أراده بنا طواه عنـا وما أراده منا أظهره لنا . فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا

ورأيه فى القدر هو أمر بين أمرين ، لا جبر ولا تفويض . وكان يقول فى الدعاء: اللهم لك الحمد إن أطعتك ولك الحجة إن عصيتك لا صنع لى ولا لغيرى فى إحسان ولا حجة لى ولا لغيرى فى اساءة (٤)

---

(١) تذكره الأئمة للمجلسى (ص ١٣٠)
(٢) » » » » (ص ١٣٠)
(٣) » » » » (ص ١١٨)
(٤) الملل والنحل للشهرستانى (ص ١٢٤)

ويقول اليعقوبى عن الامام جعفر الصادق: « وكان أهل العلم الذين سمعوا منه إذ رووا عنه قالوا : أخبرنا العالم » . وإذا ما تذكرنا أن مالك بن أنس (٩٤ — ١٧٩) مصنف كتاب الموطأ كان معاصرا للامام جعفر، وقد سبق البخارى ومسلم بنحو، قرن ظهر أن الامام جعفر هو الذى يعزى اليه القول فى محص الحديث: « ان ما كان موافقا لما فى كتاب الله فاقبلوه وما كان مخالفا له فاتركوه »

وقد أورد اليعقوبى فى تاريخه (١) بعض الحكم والكلمات المنسوبة للامام جعفر نذكر بعضها فيما يلى على سبيل المثال :

« ثلاثة يجب لهم الرحمة : غنى افتقر ، وعزيز قوم ذل ، وعالم تلاعب به الجهال » .

« من أخرجه الله من ذل المعاصى إلى عز التقوى ، أغناه الله بغير مال وأعزه الله بغير عشيرة » .

« ومن خاف الله أخاف الله منه كل شىء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شىء ، ومن رضى من الله باليسير من الرزق رضى منه باليسير من العمل » .

وروى المؤلف نفسه أن الامام جعفرا قال : « خلتان من لزمهما دخل الجنة. فقيل: وما هما ؟ قال : احتمال ما تكره إذا أحبه الله، وترك ما تحب إذا كرهه الله . فقيل له : من يطيق ذلك ؟ فقال : من هرب من النار إلى الجنة »

وقال : « أوصى الله إلى موسى : أدخل يدك فى فم التنين إلى المرفق فهو خير لك من مسألة من لم يكن للمسألة بمكان » .

وقال : لا تخالطن من الناس خمسة ، الأحمق فانه يريد أن ينفعك فيضرك والكذاب فان كلامه كالسراب يقرب منك البعيد ويباعد منك القريب ،

---

(١) تاريخ اليعقوبى طبعة هوتسماج (٢ ص ٤٥٨) وما يليها

والفاسق فانه يبيعك بأكلة أو شربة ، والبخيل فانه يخذلك أحوج ماتكون اليه . والجبان فانه يسلمك ويتسلم الدية »

وقال: « المؤمنون بألفون ويؤلفون ويغشى رحلهم » .فان من عادتهم فى القوافل ان يغشوا رحال الابل بقماش ملون .

وقال: «من غضب عليك ثلاث مرات فلم يقل سوءا فاتخذه لك خلا. ومن أراد أن تصفوله مودة أخيه فلا يمارينه ولا يمازحنه ولا يعده ميعادا فيخلفه».

وقد ذكرنا سابقا ان الامام جعفر عاش فى أواخر زمن الأمويين وأوائل العصر العباسى ، أثناء انشغال هذين الحزبين بمقاومة بعضهما ، فوجد له الفرصة لصرف اهتمامه إلى تفسير أوامر الله . ولفتاويه فى هذه القضايا يرجع العلماء المتأخرون فى أكثر الأحيان . ويصعب أن نبت فى هل أنه دون فتاويه هذه وكتبها . ويعتبر اليوم بصورة عامة أن التصانيف المنسوبة اليه إنما هى مزيفة (١) فى الازمنة المتأخرة . رغم قول ابن خلكان ان له كلاما فى صنعة الكيمياء والزجر والفأل . كان تلميذه أبو موسى جابر بن حيان الصوفى الطرسوسى قد الف كتابا يشتمل على الف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق وهى خمسمائة رسالة (٢) .

وبينما ترد أكثر الأحاديث التى يستند عليها علماء الشيعة لتثبيت عقيدة الامامة ، إلى الامام جعفر الصادق ، نجد ان من أهم الأحاديث وأبعدها أثرا ذلك الذى ذكره المسعودى . وقد نسبه الامام إلى على بن أبى طالب أنه قال: « ان الله حين شاء تقدير الخليقة وذرء البرية وابداع المبدعات نصب الخلق فى صور كالهباء قبل دخول الارض ورفع السماء . وهو فى انفراد ملكوته

---

(١) دائره المعارف الاسلامية مادة « جعفر بن محمد الصادق »

(٢) ابن خلكان المذكور آنفا ص١١٣ ــ انظر دائره المعارف الاسلامية مادة «جعفر» بقلم د . ب . مكدونلد. وابن خلدون متن كازر (ج ٢ ص ١٩١) وترجمة دى سلان (ص ٢٢٤)

وتوحد جبروته ،فأتاح نورا من نوره فلمع ، ونزع قبسا من ضيائه فسطع ، ثم اجتمع النور فى وسط تلك الصور الخفية فوافق ذلك صورة نبينا محمد ﷺ فقال الله عز من قائل : « أنت المختار المنتخب وعندك مستودع نورى وكنوز هدايتى ، من أجلك أسطح البطحاء ، وأموج الماء ، وأرفع السماء ، وأجعل الثواب والعقاب، والجنة والنار ، وأنصب أهل بيتك للهداية، وأوتيهم من مكنون على مالا يشكل به عليهم دقيق، ولا يغيب عنهم به خفى. واجعلهم حجتى على بريتى ، والمنبهين على قدرتى ووحدانيتى »

ثم أخذ الله الشهادة عليهم بالربوبية والاخلاص بالوحدانية ، فقبل أخذ ما أخذ جل شأنه ببصائر الخلق انتخب محمدا وآله وأراهم أن الهداية معه والنور له والامامة فى آله ، تقديما لسنة العدل وليكون الاعذار متقدما .

«ثم أخفى الله الخليقة فى غيبه ، وغيبها فى مكنون علمه ، ثم نصب العوالم وبسط الزمان وموج البحر وأثار الزبد ، وأهاج الدخان ، فطفا عرشه على الماء، فسطح الارض على ظهر الماء، ثم استجابهما إلى الطاعة، فأذعنتا بالاستجابة، ثم انشأ الله الملائكة من أنوار أبدعها وأرواح اخترعها .

وقرن توحيده بنبوة محمد ﷺ فشهرت فى السماء قبل بعثته فى الأرض . فلما خلق الله آدم أبان فضله للملائكة وأراهم ما خصه به من سابق العلم ، حيث عرفه عند استنبائه إياه أسماء الأشياء ،فجعل الله آدم محرابا وكعبة وبابا وقبلة سجد اليها الابرار والروحانيون الانوار . ثم نبه آدم على مستودعه ، وكشف له عن خطر ما ائتمنه عليه ، بعد ان سماه إماما عند الملائكة، فكان حظ آدم من الخير ماأراه من مستودع نورنا. ولم يزل الله تعالى يخبأ النور تحت الزمان إلى أن وصل محمدا فى ظاهر الفترات .

فدعا الناس ظاهرا وباطنا ، وندبهم سرا وإعلانا ، واستدعى عليه السلام التنبيه على العهد الذى قدمه إلى الذر قبل النسل . فمن وافقه واقتبس من مصباح النور المقدم اهتدى إلى سيره ، واستبان واضح أمره . ومن لبسته الغفلة استحق السخط .

واستطرد الامام جعفر قائلا : ثم انتقل النور إلى غرائزنا ولمع فى أئمتنا ، فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض ، فبنا النجاة ومنا مكنون العلم وإلينا مصير الأمور . وبمهدينا تنقطع الحجج ، خاتمة الأئمة ومنقذ الأمة وغاية النور ومصدر الأمور . فنحن أفضل المخلوقين وأشرف الموحدين وحجج رب العالمين . فليهنأ بالنعمة من تمسك بولايتنا وقبض عروتنا » (١) .

وقد أطلق الكتاب لأنفسهم الحرية فى رواية الأحاديث عن الامام جعفر فيما يتعلق بنور محمد ، كما يظهر فيما ننقله عن الملا محمد تقى الخونسارى (٢) قال : « روى عن الامام جعفر الصادق عن أبيه : أن على بن أبى طالب قال : إن الله خلق نور محمد قبل أن يخلق آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل وغيرهم . وخلق عز وجل مع نوره اثنى عشر حجابا : حجاب القدرة ، وحجاب العظمة ، وحجاب المنة ، وحجاب الرحمة ، وحجاب السعادة ، وحجاب الكرامة ، وحجاب المنزلة ، وحجاب الهداية ، وحجاب النبوة ، وحجاب الرفعة ، وحجاب الهيبة ، وحجاب الشفاعة ، ثم حبس نور محمد فى حجاب القدرة سبعة آلاف سنة وهو يقول : « سبحان من هو غنى لا يفتقر » ، وفى حجاب المنزلة ستة آلاف سنة وهو يقول : « سبحان العلى العظيم » ، وفى حجاب الهداية خمسة آلاف سنة وهو يقول : « سبحان ذو العرش العظيم » ، وفى حجاب الرفعة أربعة آلاف سنة وهو يقول : « سبحان من يغير ولا يتغير » ، وفى حجاب النبوة ثلاثة آلاف سنة وهو يقول : « سبحان ذى الملك والملكوت » ، وفى حجاب الهيبة ألفى سنة وهو يقول : « سبحان الله وبحمده » .

ثم أظهر الله اسم محمد على اللوح ، فكان اللوح منوراً أربعة آلاف

---

(١) مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ٥٥)

(٢) خلاصة الاخبار (الفصل ٢٨)

سنة ، ثم أظهره على العرش (السماء التاسعة) فكان على ساق العرش سبعة آلاف سنة . إلى أن وضعه الله عز وجل فى صلب آدم . فانتقل منه إلى نوح. وهكذا حتى صار فى صلب عبد المطلب ، ومنه إلى صلب عبد الله .

ولما أرسل الله نور محمد أكرمه بست كرامات . ألبسه قميص الرضا ، ورداه برداء الهيبة ، وألبسه سراويل المعرفة ، وجعل تكته تكة المحبة يشد بها سراويله ، وجعل نعله نعل الخوف ، وناوله عصا المنزلة ، ثم قال : يا محمد اذهب إلى الناس وقل لهم : قولوا لا إله إلا الله .

وأصل ذلك القميص من ستة أشياء ، نسجه من الياقوت ، وكماه من اللؤلؤ ، ودخريصاه من البللور الأصفر ، وجربانه من المرجان الأحمر ، وإبطاه من الزبرجد الأخضر ، وجيبه من نور الرب جل جلاله . فقبل الله توبة آدم بذلك القميص ، ورد خاتم سليمان به ، وأنجى يونس من بطن الحوت به ، وكذلك سائر الأنبياء ، ولم يكن ذلك القميص إلا قميص محمد .

وقد تظهر هذه الأفكار غريبة على الذين لم يتعودا سماعها منذ طفولتهم ، غير أنها لنا ذات شأن ، فمنها نعرف أن هـذا الادعاء الطويل العريض فى أن نوراً سماويا نزل إلى نفوس الأئمة ، ظهر على أكثر احتمال فى زمن إمامة جعفر الصادق ، فقد استند على هـذا الاعتقاد الكثير من التطور التالى لعقائد الشيعة .

ومات الامام جعفر فى السنة العاشرة من حكم جعفر المنصور سنة ١٤٨هـ (٧٦٥ م) . واتفقت الأقوال على تاريخ موته . وكان نقش خاتمه : « الله وليى وعصمتى » وقد عاش أربعا وستين أو خمسا وستين سنة . ومع ذلك يقال إن الخليفة أمر فأعطى عنبا مسموما فمات . فصار بذلك شهيداً ومات الميتة الخاصة بالأئمة ، فانه يقال بأن جميع الأئمة، فيما عدا على والحسين والمهدى، ماتوا مسمومين ، وذلك حسب الأحاديث الواردة فى أن الامام لا يموت ميتة طبيعية ، لا كما تقتضيه سنة الاحتمال .

ودفن الامام جعفر فى مقبرة البقيع بالمدينة إلى جانب أبيه وجده، وعلى قبورهم منذ قرون رخامة عليها مكتوب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله مبيد الأمم ومحيي الرمم . هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين . وقبر الحسن ابن على بن أبى طالب ،وعلى بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ومحمد بن على، وجعفر بن محمد ، رضى الله عنهم » .

الباب الثالث عشر

المدينة

مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله

المدينة ، مدينة صغيرة مساحتها نصف مساحة مكة ، إلا أن أرضها أكثر نباتا واقسى حرارة . وتجرى فيها جداول الماء بين حقول وحدائق وبساتين نخيل ، وبرديها (التمر المعروف) وعجوتها يفوقان جودة نظيرهما فى أى بلد آخر ، وتغلب السمرة على أهلها ، ويشتغل رجالها بالتجارة .

وقد وردت فيها أحاديث كثيرة منها ما جاء فى المصابيح . قال صلى الله عليه وسلم : « إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حراما ، وإنى حرمت المدينة حراما مابين لابتيها ، لايراق فيها دم ولايحمل فيها سلاح القتل ولايخبط فيها إلا العلف ». وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « علىأبواب المدينة الملائكة لايدخلها الطاعون والدجال » . وقال صلى الله عليه وسلم : « من استطاع أن يموت فى المدينة فليمت بها فانى أشفع لمن يموت بها» . وقال صلى الله عليه وسلم: « آخر قرية من قرى الاسلام خرابا المدينة (١) » .

إن هذا الوصف الذى وصفه المستوفى للمدينة فى القرن الرابع عشر ليس فيه شىء من وصف قبر الرسول وما كان عليه من حالة سيئة إبان زيارته للمدينة أو خلال السنوات المئة التى سبقتها . فمنذ حريق سنة ١٢٥٦ عند ما احترق

---

(١) نزهة القلوب للمستوفى ترجمة لسترينج الانجليزية ، ذكرى جب المجلد (٢٣ ، ٢ ص ١٢) و. Selections Grom Muh· Traditions. Gold Sack مدراس ١٩٢٣ (ص ١٤٤) .

مسجد الرسول وتخرب كله تقريبا ، وبقيت الأنقاض لم ترفع عن القبر أكثر من مئتى سنة ، حتى جاء عام ١٢٧٩ عند ماجعل الملك السلطان قلاوون مكان قبر النبي قبة مغطاة بصفائح من الرصاص . ولم يقم أحد بتعمير المسجد على الوجه اللائق إلا بعد أن أصابت هذه القبة صاعقة فى سنة ١٤٨١ فاحترقت المكتبة واحترق معها عدد كبير من نسخ القرآن . وبدىء بالتعمير والترميم سنة ١٤٨٤ فزيد فى حجم القبة على القبر حينئذ ، وأحيطت ساحته بسياج من القضبان النحاسية . إلا أنه فى سنة ١٤٩٢ أصابت المئذنة الرئيسة البديعة البناء صاعقة فأحرقتها (١) .

وفى خلال الدور الصفوى فى إيران (١٥٠٢ — ١٧٣٦ م) ، وهو دور حروب طويلة بين إيران والدولة العثمانية . أصبح الحج إلى مكة وزيارة المدينة من الأمور المحفوفة بالخطر على الشيعة . والحقيقة ان الشاه عباس وغيره من ملوك الصفويين كانوا يعرقلون الحج ويمنعونه ليحولوا الناس إلى تعظيم المشاهد فى داخل الحدود الايرانية، ولتحتفظ البلاد بالمبالغ الطائلة التى اعتاد الحجاج أن يبذلوها . ونرى بعض الأحاديث المروية عن الأئمة التى تقلل من أهمية الذهاب فعلا إلى المدينة وتؤيد « الاكتفاء بدعاء الزيارة على البعد » فمن ذلك الحديث بأن لله ملائكة سائحين فى الأرض يبلغون عن أمته السلام . وفى حديث عن الامام محمد الباقر فى أن من لم يقدر على زيارة المدينة فليصم ثلاثة أيام ثم يقرأ دعاء زيارة النبى من سطح بيته أو من الصحراء .

ويقول المجلسى استناداً على أحاديث قوية : « إن هذا الدعاء قد يكون عند رأس الامام الذى يكون فى بلده ، أو قبر بعض الصالحين ، أو يبرز إلى الصحراء (٢) » .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة « المدينة » .

(٢) تحفة الزائرين للمجلسى (ص ٣٦)

وفى ختام القرن الثامن عشر كان العثمانيون قد استولوا على العراق العجمى وسيطروا على الحجاز . وأصبح السلطان هو الخليفة المعترف به فى العالم الاسلامى اللهم إلا فى البلاد الشيعية . وكانت مدن الزيارة تدار على أساس مالى . فاستعادت الزيارات أهميتها وأخذ ألوف من الزوار من إيران يذهبون إلى النجف وبغداد وكربلا وسامرا لطلب شفاعة الأئمة المدفونين هناك . وكان الذين يذهبون إلى الحج يذهبون إلى المدينة أيضاً لزيارة قبر النبى وقبر ابنته فاطمة والقبر الذى يجمع أئمة أربعة ، وهم : الحسن وزين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق .

وكانت الحكومة العثمانية وسكان المدن المقدسة يجنون فوائد كبيرة من الزيارات ، غير أن فكرة قصد الألوف من المسلمين من مختلف أنحاء البلاد الاسلامية للحصول على شفاعة نبيهم وأئمتهم الأموات قد أثارت ثائرة قبائل الوهابيين فى الحجاز ، كانوا قد نصبوا أنفسهم فى منصب المصلحين ، فأعلنوا أن ما يجرى عند قبر النبى من هذه العبادة حرام غير جائز . فهاجموا المدينة سنة ١٨٠٤ م واستولوا عليها وحملوا كنوزها ، ومنعوا زيارة قبر النبى ، وحاولوا هدم القبة التى على قبره فلم يفلحوا ، غير أنهم نهبوا كنوز اللؤلؤ والجواهر وغيرها التى أهداها الزوار الأتقياء إلى المسجد (١) .

وبعد إعادة الحكم العثمانى إلى الحجاز سنة ١٨١٨م بسنوات أمر السلطان عبد المجيد بتخصيص مبالغ كبيرة لاعادة بناء مسجد الرسول ﷺ بالمدينة . وجرى البناء بين سنتى (١٨٤٨ — ١٨٦٠) وقدرت نفقاته بسبعمائة ألف دينار . وقال بعضهم : إن هذا المبلغ ربما كان يشمل ثمن الجواهر التى أهداها السلطان للمسجد وكذلك المبالغ التى تسربت إلى جيوب المشرفين على العمل (٢) .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة « المدينة » .

(٢) TheHoly Cities of Arabian, Rutter (ج٢ص ٢٣٧).

ولا يزال هـذا البناء قائما على حالته إلى اليوم . وقد وصفه من السائحين المحدثين برتن (١٨٥٣) وويفل (١٩٠٨) والبتنونى (١٩١٠) ورتر (١٩٢٨).

وبقى الحكم العثمانى فى مكة والمدينة حتى سنة ١٩١٨ ثم تنازلت الحكومة التركية عن حقوقها إلى الحسين ملك الحجاز الجديد ، وذلك حسب شروط الصلح بعد الحرب العامة . ولـكن الحسين لم يتمكن من الاحتفاظ بسلطته ، فقد عاد الوهابيون وأصبحوا سادة الموقف ، واستولوا على مكة والمدينة . ولما بلغ هذا الخبر الشيعة فى إيران جللوا مشاهدهم جميعاً بالسواد ، وهو إشارة الفزع التى تعنى عندهم « تراب على رءوسنا » فقد كانوا يخافون أن تزداد الحالة سوءاً فيهدم قبر النبى وقبور أهل بيته فى المدينة . وكانوا على حق فيما خافوا لأن نقطة الخلاف الأساسية بين الوهابيين وسائر الفرق الاسلامية هى « فى طلب الشفاعة من القبور ». وتمس هذه القضية مثلا إسلاميا أعلى ، وهو التوحيد . فيعتبر الوهابيون أن طلب الشفاعة والتوسط بالقبور إشراك . ولما كانت زيارة قبور الأموات من الصالحين هي لطلب شفاعتهم وتوسطهم رأى الوهابيون تخريب مثل هذه القبور ومحو أثرها (١)».

أما فيما يختص بقبر النبى فان احتلال الوهابيين للمدينة لم يؤد إلى تخريبه كما كان منتظرا. وكان علماء الوهابيين يرون هدم القبة وإعادة بناء الحرم دون أن يضم قبر النبى . ولـكن إمامهم ابن السعود تمـكن بحسن سياسـته أن يحول دون ذلك خوفا من إثارة عداء العالم الاسلامى أجمع . فلم يتعرض أحد لقبر النبى . ووجد الحماس الدينى له منفذا فى تخريب القباب والقبور التى فى مقبرة البقيع . وقد وصف رتر هـذه المقبرة بعد أن تم عمل التخريب فيها ، فقال: « وعند ما دخلت البقيع كان منظرها كمدينة محى أثرها فلاترى فى المقبرة

---

(١) مرغليوث: مقال « Ideas of Modern Eslam » فى مجلة Moslem World عدد تموز ١٩٣٠ ص ٢٣٩)

إلا أكواما من التراب والأحجار والأخشاب وقضبا حديدية وقطعاً من الرخام وكسراً من الأسمنت والآجر هنا وهناك . فكأنها أنقاض مدينة خربها زلزال . ووضعت عند الجدار الغربى أكوام عظيمة من الألواح الخشبية القديمة وأخرى من الأحجار وغيرها من القضبان الحديدية والسياجات . وهى بعض المواد المبعثرة التى جمعت وكدست هناك . وأزيلت الانقاض عن بعض النياسم الضيقة ليتمكن الزوار من الوصول إلى الأطراف البعيدة من المقبرة ، ولا توجد علامات أخرى للنظام غيرها . فالمكان كله ساحة مليئة بمواد البناء المخربة وأحجار القبور — وهى لم تخرب عفوا بل قلعت من أماكنها وسحقت سحقاً ( ) » .

ووصف أحد المصريين ماشاهده فقال : « وهدموا فى المدينة جميع القبور التى فى البقيع ، وهى المقبرة التى دفن فيها كثير من أصحاب الرسول . وكذلك مسجد حمزة عم النبى وقبره فى أحد (٢) » .

ولكى تتصور ما يشعر به الشيعى نحو هذا التخريب اقرأ ما وصف به أحدهم مقبرة البقيع قبل زمن الوهابيين . قال المستوفى : « وتقع مقبرة المدينة المعروفة بالبقيع إلى شرق المدينة . وفيها قبور إبراهيم بن رسول الله ﷺ وبنات المصطفى ﷺ وعثمان بن عفان وأمير المؤمنين الحسن ، والعباس ابن عبد المطلب والامام زين العابدين والامام محمد الباقر والامام جعفر الصادق صلوات الله عليهم أجمعين (٣) » .

ويذكر ابن جبير أن فيه « روضة فيها أزواج النبى ﷺ . وبازائها روضة صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبى ﷺ . ويليها روضة العباس بن عبد المطلب

---

(١) رتر فى كتابه المذكور آنفا (ص ٢٥٠)

(٢) مرغليوث كذلك (ص ٢٤٠)

(٣) نزهة القلوب للمستوفى (ص ١٤)

والحسن بن على رضى الله عنهما . وهى قبة مرتفعة فى الهواء على مقربة من باب البقيع المذكور وعن يمين الخارج منه . ورأس الحسن إلى رجلى العباس رضى الله عنهما ، وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشيان بألواح ملصقة أبدع إلصاق مرصعة بصفائح الصفر ومكوكبة بمساميره على أبدع صفة وأجمل منظر . وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم ابن النبى ﷺ (١) » .

فضل زيارة المدينة

قبل أن يطبع أول دليل للسائحين فى أوربا وأميركا بسنوات عديدة ، صنفت كتب لدلالة الزوار من المسلمين إلى الأسلوب الصحيح الواجب اتباعه عند زيارة المدن المقدسة المختلفة . ومن أهم هذه الكتب للشيعة : كتاب تحفة الزائرين ، يقع فى أكثر من ٤٠٠ صفحة . كتبه فى القرن السابع عشر أشهر علماء الشيعة الملا محمد باقر المجلسى (المتوفى سنة ١١١١ هـ ـ ١٦٩٩م) وهو لا يشبه كتب الدلالة الحديثة التى تحتوى على نتف من التاريخ والجغرافية وتدل السائح على بعض الأماكن التى عليه أن يشاهدها . فان غاية الزائر الشيعى من قطع المسافات الشاسعة فى أراضى الشرق الصحراوية ليست لاشباع الرغبة فى السياحة أو التفرج ، بل همه الأول فى رؤية الله وغفران ذنوبه . وعلى ذلك فكتاب المجلسى هو المرجع فى كيفية بلوغ هذا القصد من الزيارة. ويهتم المجلسى اهتماما كبيرا فى بيان فضائل زيارة كل بقعة من البقاع وكيفية أداء الزيارة ، وذكر الأدعية والصلوات فى كل وقت ومكان .

فيذكر فى فضل زيارة المدينة مثلا أنه ورد عن عدة أئمة عن النبى ﷺ

---

(١) رحلة ابن جبير نص Wight وتلخيص M J.de Gosrer ذكرى جب (ج ٥ ص ١٩٦ . للترجمة انظر مقال زيارة ابن جبير للمدينة ، بقلم المؤلف فى J. A. O S. ج ٥٠ ص ٣٩) .

أنه قال : « من زارنى فى حياتى أو بعد وفاتى وجبت له شفاعتى يوم القيامة ». وروى عنه أيضا أنه قال : « من أتى مكة حاجا ولم يزرنى إلى المدينة جفوته يوم القيامة . ومن جاءنى زائراً وجبت له شفاعتى . ومن وجبت له شفاعتى وجبت له الجنة » . وروى عنه أيضاً أنه قال : « من مات فى أحد الحرمين مكة والمدينـة لم يعرض ولم يحاسب . ومن مات مهاجراً إلى الله حشر يوم القيامة مع أصحاب بدر » . ويقولون أيضاً إن النبى ﷺ قد قال : « من زار قبرى غفرت له ذنوبه ولم يمت فقيراً » .

وكثيراً ما نجد ، عند بيان القيمة فى زيارة مشهد من المشاهد ، أن نجد حديثا ينسب إلى أحد الأئمة ، فمن ذلك ما روى عن الامام الثامن على الرضا ابن موسى أن أحدهم سأله : أيهما أفضـل : الحج إلى مكة وعدم زيارة قبر الرسول ، أم زيارة قبر الرسول وعـدم الحج ؟ فأجاب الامام : وما تقول فى ذلك ؟ نحن الشيعة نعترف بأن زيارة قبر الامام الحسين أفضل من الحج إلى مكة فلم لانعترف أن زيارة قبر الرسول أفضل أيضا ؟ (١) »

اداب زيارة مسجد الرسول

صلى الله عليـه وسلم

يستحب لمن أراد زيارة المدينة أن يغتسل لدخولها، وكذلك لدخول مسجدها وزيارته . فاذا دخل باب جبريل وقف مستأذنا (٢) ، ثم يكبر مئة تـكبيرة ، فاذا دخل الروضة بين الحجرة والمحراب وقف عند رأس الرسول ، أى إلى غربه ، أمام الأسطوانة الثانية التى عند رأس القبر وهو مستقبل القبلة ، وهى فى المدينة نحو الجنوب . وقرأ دعاء الزيارة ، وذلك حسب الأسلوب الشيعى

---

(١) تحفة الزائرين للمجلسى (ص ٢٤ — ٢٦)
(٢) تحفة الزائرين للمجلسى (ص ٢٧)

المتبع ، فيروى عن الامام السادس جعفر الصادق أنه قال : « تقوم عند الأسطوانة المتقدمة من جانب القبر الأيمن عند رأس القبر وأنت مستقبل القبلة ومنكبك الأيسر إلى جانب القبر ومنكبك الأيمن مما يلى المنبر » .

أما دعاء الزيارة الذى يقرؤه الشيعة فى هذا المقام فينسب إلى الامام الثامن على الرضا ، ويختلف عن الدعاء الذى يقرؤه أهل السنة فى أنه يؤكد عصمة النبى (١) وأهل البيت ، وهو :

السلام عليك يا أبا القاسم .

« « يا سيد الأولين والآخرين .

« « ياحلية يوم الدين .

« « يا شفيع يوم القيامة .

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

وأشهد أنك عبده ورسوله ، وأنك قد بلغت رسالات ربك ، ونصحت لأمتك ، وجاهدت فى سبيل ربك ، وعبدته حتى أتاك اليقين .

السلام عليك وعلى آلك الطاهرين فى الحياة والممات .

السلام عليك وعلى أخيك ، أى على ، ووصيك وابن عمك أمير المؤمنين وعلى ابنتك سيدة نساء العالمين ، وعلى ولديك الحسن والحسين ، ورحمة الله وبركاته .

عليهم أفضل الصلوات وأزكاها وعليك ورحمة الله وبركاته .

وإذا لم يتمكن الزائر الشيعى أن يقف ويدعو فى المكان الذى عينته

---

(١) من المفيد جدا مقارنة هذا الدعاء الذى ذكره المجلسى فى (تحفة الزائرين ص ٣١) مع الدعاء الذى يقرؤه أهل السنة كما ترجمه Yarciu de Tassy فى كتابه L'eslamisme (ص ٢٨٢) وبرتن فى كتابه Pilgrimage toMeeca x Medina (ج ١ ص ٣١٧).

الأئمة أو كما قال المجلسى : « إذا وجبت التقية فليقف الزائر أمام رأس القبر ويدعو مثل أهل السنة » .

وفى هذا المكان شباك صغير تمكن برتن (Burton) منه أن يرى ستارة أو بعض المعلقات وعليها كتابات ثلاث بحروف مذهبة تدل القارىء على أن وراءها قبر رسول الله والخليفتين الأولين . ويذكر الكاتب نفسه أن الفرس تمكنوا فى بعض الأحيان أن ينجسوا المكان الكائن قرب قبرى أبى بكر وعمر بقذف النجاسة الملفوفة بقطعة من الشال ،يدل ظاهرها على أنها هدية ، من الشباك .

إن الفرس متهمون على الأقل بمحاولة إلقاء النجاسة ، وربما كان الدافع لهم ضرورة التقية عند مالايسمح لهم بالمكان الذى يعتقدون بوجوب الصلاة فيه . وقد وجد العرب من أهل السنة العذر بين وقت وآخر بذبح الحجاج الايرانيين .

ويروى أن الامام زين العابدين وقف عند هذا المكان من قبر الرسول وسلم وشهد له بالبلاغ ودعا ثم أسند ظهره إلى المرمرة الخضراء الدقيقة العرض ممايلى القبر وألصق بالقبر وأسند ظهره إلى القبر واستقبل القبلة وقال :

« اللهم إليك ألجأت أمرى ، وإلى قبر محمد عبدك ورسولك أسندت ظهرى ، والقبلة التى رضيت لمحمد وآله استقبلت .

اللهم إنى أصبحت لا أملك لنفسى خير ما أرجو لها ، ولا أدفع عنها شر ما أحذر عليها ، وأصبحت الأمور بيدك ، فلا فقير أفقر منى ، إنى لما أنزلت إلى من خير فقير . (سورة القصص الآية ٢٤) .

اللهم أردنى منك بخير فانه لاراد لفضلك .

اللهم إنى أعوذبك من أن تبدل اسمى وتغيرجسمى ، وتزيل نعمتك عنى .

اللهم كرمنى بالتقوى ، وجملنى بالنعم ، واغمرنى بالعافية ، وارزقنى شكر العافية .

وفى مسجد الرسول أسطوانة يقال إن فيها قطعة من الجذع الذى استند إليه الرسول قبل أن يبنى المسجد . ويستحب من زوار الشيعة أن يقفوا عنده ويقرءوا سورة القدر إحدى عشر مرة ويصلون ست ركعات .

وقد روى عن الامام الصادق أن على الزائر بعد فراغه من الدعاء عند القبر أن يأتى المنبر فيمسح عينيه ووجهه به ، فانه يقال إنه شفاء للعين «وقم واحمد الله وأثن عليه ، وسل حاجتك فان رسول الله ﷺ قال : « مابين منبرى وبيتى روضة من رياض الجنة ، وإن منبرى على ترعة من ترع الجنة » .

وهناك بعض آداب زيارة مقبرة البقيع وما يقرأ من الأدعية عند قبر فاطمة والحسن وزين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق ، لأنهم من الشفعاء الأربع عشر للشيعة . أما اليوم فلا يرى الزائر فى مقبرة البقيع قبابا مذهبة ، أو قبوراً مزوقة ، فالساحة كلها وفيها مراقد كثير من أهل البيت ليست إلا صحراء مكشوفة . فليست هى اليوم سوى مبكى لهم ، ولا تقرأ اليوم الأدعية فى طلب الشفاعة من قبور الأئمة فى المدينة .

الباب الرابع عشر

الامام موسى الكاظم

ولد موسى الكاظم أثناء الكفاح بين الأمويين والعباسيين . وكان عمره أربع سنوات عند ماتولى السفاح ، أول خلفاء بنى العباس . وعاش نحو عشرين سنة فى حياة أبيه الذى يشك فى موته مسموما قبل نهاية حكم المنصور الطويل بعشر سنوات . وامتدت إمامة موسى خلال السنوات العشر الباقية من خلافة المنصور وعشر سنوات من خلافة المهدى وسنة واحدة وبضعة أشهر من خلافة الهادى ونحو ١٢ سنة من حكم هارون الرشيد . فكانت مدة إمامته نحواً من ٣٣ سنة . وهى تزيد على إمامة أبيه جعفر الصادق بثمان سنوات ، فى هذا المركز الممتاز الخطر الذى ترمقه العيون .

وكانت أمه حميدة كالخيزران زوجة الخليفة المهدى المتسلطة ، جارية بربرية (١) ويقول البعض إنها من الأندلس (٢) الذى اشتهرت نساؤه بجمالهن . أما اليعقوبى فلا يحاول (٣) أن يقطع فى هذا الأمر برأى ويكتفى بقوله إنها أم ولد ولا يميزها عن النساء الجوارى فى بيت الامام جعفر بدلة أو حظوة (٤) .

---

(١) بحار الأنوار للمجلسى (ج ١١ ص ١٧٢) نقلا عن الكلينى فى أصول الكافى (ص ١٨٢) .

(٢) تذكرة الأئمة (ص ١٤٤ و ١٤٨) .

(٣) تاريخ اليعقوبى طبعة هوتسما (ج ٢ ص ٤٤٩) .

(٤) يصعب على المؤرخين التمييز بين الزوجة الشرعية والسرية ويذكر كتاب عقائدالشيعة أنه كان للامام جعفر ٢٨ زوجة شرعية فضلا عن السريات (الكتاب الرابع الفصل الثالث) ولكن كتاب جنات الخلود يذكر فى الفصل (١٣) منه أنه كانت له زوجتان وعدد كبير من السريات .

ونشأ موسى فى أسرة كبيرة بين ستة اخوة وتسع أخوات. وكان إسماعيل أخوه الأكبر هو المعين للامامة بعد أبيه، وقد سبب موته قبل موت أبيه اضطرابا كبيرا عند الشيعة أجمعين . وذلك لأنهم لم يستعدوا لهذا الأمر وأدى هذا إلى تضارب الآراء فيما يتعلق بطبيعة الامامة .

وكان أكثر الاراء إضرارا هو القول بان إسماعيل كان آخر الأئمة، وهو السابع . وقد أنكر أصحاب هذا الرأى موته قبل وفاة أبيه . وقد اعترفوا بأنه غاب، ولكنهم أصروا على أنه سيعود، لأنه لم يمت حقيقة بل حجبه الله إلى الوقت الذى يقتضى ظهوره فيه . وقبل الآخرون أمر موته وساقوا الامامة بعده إلى ولده . وسميت هذه الفرقة جميعها، القائلة بفكرة انقطاع الامامة الظاهرة بوفاة إسماعيل أو ابنه، بالسبعية. ويعرفون أيضا بالاسماعيلية. فالقرامطة والفاطميون والحشاشون وإسماعيلية الهند وإيران وأسيا الوسطى طوائف وجدت الفكرة السبعية مكانها بينهم فى التاريخ الدنيوى، كما يمكن أيضا إرجاع أصل الدروز، وإلى حد ما المتاولة والنصيرية، إلى السبعية القديمة (١) .

اما الشيعة الاثنى عشرية فيؤكدون ان الامام جعفر الصادق نص على امامة ابنه الاكبر إسماعيل بعده، غير أن إسماعيل كان سكيرا، فنقلت الامامة إلى موسى، وهو الوليد الرابع من بين سبعة أولاد . وكان الخلاف الناجم عن ذلك سببا فى حدوث انقسام كبير بين الشيعة، كما أشار إلى ذلك ابن خلدون (٢) فنشأت فرق وطوائف متعددة من هذا النقاش المستمر فى القضية

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة «السبعية»

(٢) مقدمة ابن خلدون فى — Notices et Extraits de Manuscrits de la — Bilbiothique Imperiale النص العربى المجلد ١٦ القسم ٢ ص ٣٥٥، الترجمة The Shiàh Imamate فى The Moslem Worlb عدد كانون الثانى ٩٣١.

المثيرة لانتقال الامامة . وقد ذكر الشهر ستانى (١) هذه الفرق بالتفصيل . ونجد من أقدم ما ذكر عن فرق الاسماعيلية من وجهة نظر الشيعة الامامية فى الفصل التاسع عشر من كتاب تبصرة العوام للسيد المرتضى علم الهدى المتوفى سنة ٤٣٦ (١٠٤٤)

وأول المعجزات الثلاث والعشرين التى تعزى إلى الامام موسى تختص بأخ لهمن إخوته أكبر منه ، وهو عبد الله ، وقد ادعى انتقال الامامة اليه. فأمر موسى ان تجمع كومة كبيرة من الحطب فى فناء الدار ودعا أصحابه ، وبينهم أخوه عبد الله ، فاجتمعوا ، ولما استقر بهم الجلوس التفت موسى وأمر باشعال الحطب وقام أمامهم جميعاً وتخطى النار ووقف فى وسطها فلم تمسه باذى ولم تحترق ملابسه . ثم دعا أخاه عبد الله وطلب منه ، ان كان ادعاؤه حقا وإمامته منصوصا عليها من الله ، أن يفعل مثل ما فعل هو . ويذكر الرواة ان عبد الله اصفر وجهه وخرج (٢) .

اما عن حياة موسى فى المدينة عند ما شارك أباه عزلته فى الدرس، فى هذا العصر الشديد الاضطراب،فليس معهادليل قاطع به،وليست هناك قيمة تاريخية كبيرة لهذه المعجزات التى تعزى له فى زمن شبابه ، كتلك التى يرويها يعقوب ابن سراج عندما أمره جعفر الصادق ان يسلم على مولاه وأشار إلى موسى الكاظم . فسلم عليه ، فامره موسى (الصبى) ان يبدل الاسم الذى سمى به ابنته البارحة لانه اسم يبغضه الله . ويذكر يعقوب انه كان قد سمى ابنة له البارحة حقا. وان الامام جعفر أمره أن يفعل ما قال موسى لما فى ذلك من خير له

---

(١) كتاب الملل والنحل للشهر ستانى طبعة Cureton (ص ١٤٥ وما بعدها . الترجمة الالمانية Haardrucher . هاله سنة ١٨٥٠ ، الترجمة الانكليزية للبحث المذكور فى J. A. O. S. (ج ٢ ص ٢٦٣ — ٢٧٢)

(٢) خلاصة الاخبار فصل (٣٥)

ولعل أهم ما يمتاز به العصر الذى عاش فيه موسى هو ما حدث من المقارنة غير المناسبة بين علوم اليونان والفرس وثقافتهم وبين بساطة الحياة العربية القبلية وجهلهم النسبى ، فان العرب على ماهم عليه قد انحطت سمعتهم بالمعاملة الشديدة للأمويين،ولم يعد من يعترف لهم بالتفوق القومى أو القبلى، بل إن الحالة كانت على عكس ذلك فقد ظهرت حركة الشعوبية وقد أخذت اسمها من الآية (١٣) من سورة الحجرات من القرآن ، وهى تؤيد تفوق الشعوب على العرب على أساس « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وكان الشعوبيون يقولون : ان الفرس أو الروم أفضل من العرب من كل وجهة فلم التفوق عليهم بالعلم والفن ، حتى وفيم يدعى العرب انه خاص بهم كعلم الانساب والعلم بالصحراء (١) .

وكان هذا النفوذ المتزايد للفرس والروم مع احتقاره الجرىء للعرب ، قد أدى إلى إظهار تعاليم الزنادقة من قبل أناس كان يخفون وراء ستار الاسلام افكارهم الدينية الفارسية القديمة . وكانوا فى بعض الاحيان لا يجدون داعيا للتخفى فينشرون اراءهم المانوية وغيرها مما هوضد الفكرة الاسلامية . وكان هؤلاء الناس يعرفون بالزنادقة (٢) . وقد شدد الخليفة المهدى والهادى وهارون الرشيد النكير على هؤلاء الناس . وفى الوقت الذى ازداد فيه النفوذ الفارسى كان العلويون ، الذين شعروا بأن الفرع العباسى الآخر من الدوحة الهاشمية قد غدر بهم ، أخذوا يعملون على خلق الاضطرابات فى مختلف أقسام المملكة .

وكان الامام موسى يعرف أن كل خليفة ينظر اليه بعين الحذر ويراقبه لعله يجد فيه ما يدل على عدم إخلاصه،وربما كان يعلم ما سينتهى اليه مصيره

---

(١) MUIR . The Caliphate Rise, Decline a Fall ١٩١٥ (ص ٤٧٥)

(٢) نكلسن Leterary History of the Arabs (ص ٣٧٢)

بعد ذلك . خاصة إذا كان يصدق ما يروى بأن المنصور كان السبب فى موت أبيه . على أن مثل هذه المخاوف كما يظهر لم تؤثر فى حياته المبيتية تأثيرا كبيرا ، فقد كان له من الولد ثمانيـة عشر ذكرا وثلاث وعشرون بنتا . « ولم تكن له زوجة شرعية » حسب ما جاء فى كتاب جنات الخلود (الباب ١٤) الذى يذكر بكل صراحة « أن اولاده جميعهم من جوار لاتعرف أسماؤهن ، إلا أن ذلك لا يؤثر فى كرم المحتد ، فانما العبرة بالأب » .

ويذكر اليعقوبى دون أن يبـدى سـببا أن موسى بن جعفر أوصى أن لا تتزوج بناته ، فلم تتزوج واحدة منهن ، إلا أم سلمة فانها تزوجت بمصر (١) . ولقب بالـكاظم لـكظمه الغيظ ، وكان يدعى العبد الصالح . ولنتصور كم كان اهتمامه بالعبادة أكثر من اهتمامه بالسياسة ، وهى صفة اختص بها جميع الأئمة بعد الحسين ، نسمع بانه « دخل مسجد رسول الله ﷺ فسجد سجدة فى أول الليل وسمع وهو يقول فى سجوده : عظم الذنب عنـدى ، فليحسن العفو عندك . يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة » . وجعل يرددها حتى أصبح .

اما عن سخائه وكرمه فيذكر لنا ابن خلكان أيضا : « أنه كان يبلغه عن الرجل أنه يؤذيه فيبعث اليه بصرة فيها الف دينار ، وكان يصر الصرر ثلثمائة دينار وأربعمائة دينار ومائتى دينار ثم يقسمها بالمدينة » . وربما كان هذا السخاء والـكرم مما جعل المهدى يرتاب به ، فأقدمه إلى بغداد وحبسه .

ويروى ابن خلـكان ان هذا الخليفة رأى فى النوم علـى بن أبى طالب (رض) وهو يقول : يا محمد ، (فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الارض وتقطعوا أرحامكم) . قال الربيـع بن يونس ، وهو من المقربين للمنصور : فأرسل إلى ليلا ، فراعنى ذلك . فجئته فاذا هو يقرأ هذه الآية ، وكان احسن النـاس صوتا ، وقال : على بموسى بن جعفر . فجئته به ، فعانقه وأجلسه إلى

---

(١) ابن خلـكان ترجمة دى سلان (ح ٣ ص ٤٦٣)

جنبه وقال : يا أبا الحسن ، انى رأيت أمير المؤمنين على بن أبى طالب (رض) فى النوم يقرأ على كذا ، فتؤمننى ألا تخرج على أو على أحـد من أولادى ؟ فقال : والله لافعلت ذلك ولاهو من شأنى . قال : صدقت ، أعطه ثلاثةالاف دينار ورده إلى أهله إلى المدينة . قال الربيع : فأحكمت أمره ليلا ، فما أصبح الاوهو فى الطريق خوف العوائق (١)

فان صحت هذه الحكاية فان الامام كان فى المدينة عنـد ما حدثت ثورة العلويين فى زمن الهادى ، وكان سببها سوء المعاملة التى لاقاها بعض آل البيت عند ما اتهموا بشرب الخمر فشهروا فى المدينتين . فثـار بنو هاشم ولم تطفأ الفتنة إلا بعد قتال شديد (٢) .

ولم يتعرض أحد للامام موسى ، وكان كثير العبادة ، فـكان يقول : (٣) ما أهان الدنيـا قوم قط إلا هنأهم الله إياها وبارك لهم فيها ، وما أعزها قوم قط الا بغضهم الله إياها .

وتنسب اليه بعض المعجزات فى المقدرة عـلى الشفاء ، فمن ذلك أنه رأى امرأة وصبية لها تبكيان ، فقال : ما شأنك ؟ فقال كنت وصبيتى نعيش من هذه البقرة وقـد ماتت فتحيرت فى أمرى . فصلى ركعتين وذهب إلى البقرة ووضع اصبعه المباركة عليها فقامت مسرعة سوية . فقالت المرأة : عيسى بن مريم ورب الـكعبة (٤) (تنسب هـذه المعجزة إلى الامام الصادق — المعرب) .

وفى خلافة هارون الرشيد أصبح الامام موسى موضع الريبة ، فيروون

---

(١) ابن خلكان المذكور نفس الصحيفة

(٢) موير المذكور (ص ٤٢٣)

(٣) اليعقوبى المذكور (ص ٤٩٩)

(٤) خلاصة الاخبار (فصل ٣٥) .

أن الرخيد سمع مرة من الامام أمام قبر الرسول فى المدينة كلاما يدل على التفاخر حين قال الرشيد عند القبر : « السلام عليك يا رسول الله يابن عم » افتخارا على من حوله . فقال الامام : « السلام عليك يا أبت » . فتغير وجه هارون وقال : هذا هو الفخر يا أبا الحسن حقا (١) .

وهذه الحادثة قد تكفى لايضاح استدعاء الرشيد له أول مرة للمجىء إلى بغداد . ثم سجنه هناك. وقد روى الخزاعى عبد الله بن مالك ، وكان على دار الخليفة وشرطته ، قال : أتانى رسول الرشيد فى وقت ما جاءنى فيه قط فانتزعنى من موضعى ومنعنى من تغيير ثيابى ، فراعنى ذلك . فلما صرت إلى الدار سبقنى الخادم فعرف الرشيد خبرى . فأذن لى فى الدخول عليه ، فوجدته قاعدا على فراشه ، فسلمت عليه ، فسكت ساعة ، فطار عقلى وتضاعف الجزع على ثم قال : يا عبد الله ، أتدرى لم طلبتك فى هذا الوقت ؟ قلت : لا والله يا أمير المؤمنين . قال : إنى رأيت الساعة فى منامى كأن حبشيا قد أتانى ومعه حربة فقال : ان خليت عن موسى بن جعفر الساعة والا نحرتك فى هذه الساعة بهذه الحربة ، فاذهب فخل عنه . قال : فقلت : يا أمير المؤمنين ، أطلق موسى بن جعفر ، ثلاثا . قال : نعم . امض الساعة حتى تطلق موسى بن جعفر وأعطه ثلاثين الف درهم وقل له : إن أحببت المقام قبلنا فلك عندى ما تحب ، وان حببت المضى إلى المدينة فالاذن فى ذلك لك . قال : فمضيت إلى الحبس لاخرجه، فلما رآنى موسى وثب إلى قائما وظن أنى قد أمرت فيه بمكروه ، فقلت : لا تخف فقد أمرنى باطلاقك وأن أدفع لك ثلاثين الف درهم ، وهو يقول لك : إن أحببت المقام قبلنا فلك ذلك ولك كل ما تحب ، وإن أحببت الانصراف إلى المدينة فالامر فى

---

(١) ابن خلكان المذكور نفس الصحيفة وكتاب هارون الرشيد تأليف Palmer (ص ١٢٩)

ذلك مطلق لك . وأعطيته ثلاثين الف درهم وخليت سبيله وقلت له : لقد رأيت من أمرك عجبا . قال : فانى أخبرك : بينما أنا نائم ، إذ أتانى رسول الله ﷺ وقال : يا موسى ، حبست مظلوما فقل هذه الكلمات فانك لا تبيت هذه الليلة فى الحبس . فقلت :بأبى وأمى ما أقول ؟ قال : قل :

« يا سامع كل صوت ، ويا سائق القوت ، ويا كاسى العظام لحما ومنشرها بعد الموت ، أسألك بأسمائك الحسنى ، وباسمك الاعظم الاكبر المخزون المكنون الذى لم يطلع عليه أحد من المخلوقين ، ياحليما ذا أناة لا يقوى على اناته ، يا ذا المعروف الذى لا ينقطع ابدا ولا يحصى عددا ، فرج عنى » فكان ما ترى (١) .

أما ما أدى إلى سجنه الاخير ، فيذكر الفخرى أنه وشى به بعض حساده من أقاربه إلى الرشيد وقال له : ان الناس يحملون إلى موسى خمس أموالهم ويعتقدون امامته وانه على عزم الخروج عليك . وكثر القول ، فوقع ذلك عند الرشيد بموقع أهمه وأقلقه ، واعطى الواشى مالا أحاله به على البلاد ، فلم يستمتع به ، وما وصل المال من البلاد الا وقد مرض مرضة شديدة ومات فيها .

واما الرشيد فانه حج فى تلك السنة ، فلما ورد المدينة قبض على موسى ابن جعفر وحمله فى قبة إلى بغداد فحبسه عند السندى بن شاهك (٢) . ويتفق ذلك مع ما رواه المجلسى معتمدا على أوثق الأحاديث الشيعية قال : « وكان هارون حمله من المدينة لعشر ليال بقين من شوال سنة (١٧٧-١٧٩ المعرب) وقد قدم هارون المدينة فى منصرفه من عمرة شهر رمضان ، ثم شخص هارون إلى الحج وحمله معه ، ثم انصرف إلى طريق البصرة فحبسه عند عيسى

---

(١) مروج الذهب للمسعودى (ج ٦ ص ٣٠٨) وابن خلكان نفس الصحيفة .

(٢) الفخرى (ابن الطقطق) فى الاداب السلطانية Chrestomathie Arale لسنتردى سامى (ج ١ المتن ص ٧) والترجمة (ص ٦)

ابن جعفر ، ثم أشخصه إلى بغداد لحبسه عند السندى بن شاهك ». ثم يقول المجلسى : « انه توفى فى حبسه ودفن فى بغـداد فى مقبرة قريش » (١) . ويضيف الفخرى إلى ذلك قوله : « وكان الرشيد بالرقة فامر بقتله . فقتل قتلا خفيا، ثم أدخلوا عليه جماعة من العدول بالكرخ ليشاهدوه إظهارا أنه مات حتف أنفه » (٢) .

ويذكر اليعقوبى عن شهادة العـدول (٣) فيقول : وكان (أى موسى) ببغداد فى حبس الرشيد ، قتله السندى بن شاهك . فأحضر مسرورا الخادم واحضر القواد والكتاب والهاشميين والقضاة ومن حضر ببغداد من الطالبيين ثم كشف عن وجهه فقال لهم : اتعرفون هذا ؟ قالوا : نعرفه حق معرفه ، هـذا موسى بن جعفر . فقال لهم : أترون أن به أثرا ما يدل على اغتيال ؟ قالوا : لا . ثم غسل وكفن وأخرج ودفن فى مقابر قريش فى الجانب الغربى.

---

(١) بحار الانوار للمجلسى(المجلد ١١ ص ٢١٤)
(٢) الفخري نفس الكتاب والصحيفة
(٣) تاريخ اليعقوبى المذكور .

الباب الخامس عشر

على الرضا

الامام الذى تورط فى السياسة

بعد أن قضى هارون الرشيد على نفوذ البرامكة قضاء مبرما اختار للوزارة الفضل بن الربيع ، الذى كان يميل للعرب ويكره الفرس . وكان الحزب العربى يميل ميلا شديدا إلى تولية الامين لأنه كان عربيا محضا ولان أم المأمون كانت أم ولد ، فارسية اسمها مراجل . ولكن هارون الرشيد كان يرى فى ابنه المأمون تفوقا على أخيه ولياقة للحكم . ومخافة أن يحدث انشقاق فى المملكة بعده ، أرسل خادمه مسرورا إلى السجن ليأتيه بيحيي ، ذلك الشيخ الكبير ليأخذ رأيه . فابدى هارون لهذا البرمكى النبيل حزنه على مقتل جعفر ثم بين له غرضه قائلا : « ان رسول الله ﷺ مات ولم يوص . وكان الاسلام فى فتوته والدين لا يزال جديدا فى القلوب . وكان العرب متحدين وقد أخرجهم الله من الظلمات إلى النور وآمنهم من الخوف . فحدث خصام على الخلافة وصار ما صار مما تعرفه ، وأريد أن أعين لولاية عهدى من أرتضيه وأعتمده فى السياسة وهو عبد الله المأمون . إلا أن بنى هاشم يميلون إلى محمد الامين إرضاء لما فى نفوسهم ، وهم يعرفونه سيء التدبير مبذرا يميل إلى شهواته وتحكمه النساء . فاذا فضلت عبد الله عادانى بنو هاشم ، وان جعلت محمدا وحده وليا لعهدى أخاف أن تصاب المملكة على يديه (١)

وعلى ذلك عين الرشيد سنة ١٨٣ ، وهى السنة التى يظن ان مسرورا قتل فيها الامام موسى الكاظم فى سجن السندى ، ولده الامين وليا لعهده ، وجعل له « حماية الحرمين وجميع أمور المسلمين » وولى المأمون المقاطعات الشرقية

---

(١) Haroun Alradid تأليف H . E Palmer . (١١٩)

« حيث يسود العنصر الفارسى » وعاصمته مرو . وفى حالة موت الامين أو المأمون يتولى الآخر أمور المملكة باجمعها (١) .

وبعد تسع سنوات ، أى فى سنة ١٩٢ هـ ، خرج هارون إلى خراسان ومعه ابنه المأمون . وكان قد حدثت عدة ثورات فى خراسان وازداد فيها الاستياء ، وكانت غاية الرشيد القضاء على الثورة وتثبيت المأمون فى مركزه الجديد . وبقى الامين فى العراق ، غير ان صديقه الساهر على مصلحته ، الوزير الفضل بن الربيع ذهب مع الرشيد ، وكان مع المأمون وزيره الفضل ابن سهل .

وبعد ان ساروا فى طريقهم الطويل المنهك الممتد بامتداد سلسلة البرز وقطعوا العقبة الكائنة قرب شريف أباد الحديثة بلغوا مدينة نوقان ، وهى مدينة طوس العظمى . فمرض الرشيد فجأة مرضا شديدا ومات فى ليلته . وربما كان سبب وفاته شدة التعب الذى أصابه فى السفر ، فى الوقت الذى كان يحاول إخفاء عدم طاقته البدنية التى كان يقاسى الامها . أو اصابته ، كما ذهب بعضهم ، نوبة قلبية عندما شعر بانه وصل مريضا إلى طوس ، وهو المكان الذى أخبر أنه سيموت فيه . فدفن فى بستان فى قرية سناباذ على ميل من نوقان . فلما مات عاد وزيره الفضل بن الربيع مسرعا إلى بغداد وأعاد الجيش الذى جاء للمدد .

وغضب المأمون على الفضل بن الربيع غضبا شديدا لعمله هذا ، وكان معه الفضل بن سهل الذى اشتهر بميوله الفارسية بدرجة لا يعادلها الابغضه لسميه وزير الامين . فاشار هذا على سيده ان يتهيأ لكفاح حاسم ، فان أخاه قد جرده بعمل وزيره من جيشه ، وهو لابد يريد نكث بيعته

---

(١) عصر المأمون تأليف احمد فريد الرفاعى (ج ٢ ص ٢٤٤) ودائرة المعارف الاسلامية مادة : هارون الرشيد . وكتاب بالمر السابق الذكر (ص ١١٥ - ١١٦)

والاستئثار بميراث أبيه . وذكره بفضل إيران فى توطيد حكم بنى العباس على زمن أبى مسلم. وخلاصة القول فانه حثه على تقوية مركزه بالتقرب من الشعب الايرانى ، ثم العمل على الاستئثار بالسلطة فى البلاد جميعا (١) .

فوطد المأمون السلم فى خراسان وتقرب إلى كثير من رعاياه فى تلك المقاطعة ، ولكنه لم يشأ ان يخل بالعهد الذى أخذه عليه أبوه فى مكة : فبايع أخاه بالخلافة . غير أن الفضل بن الربيع لما عاد إلى بغداد تمكن من اقناع الامين بنكث العهد وتعيين ابنه موسى وليا للعهد بدلا من المأمون. ففعل ذلك سنة ١٩٤ هـ . فأخذ المأمون على ذلك يعد العدة لتسيير الجيوش من خراسان لتثبيت حقه فى الخلافة . وانضم ألوف من الايرانيين الموالين ، الذين يفضلون المأمون على الامين ، إلى هذه الجيوش التى كانت بقيادة قائدين قديرين وهما هرثمة وطاهر . وانتهى الامر بحصار بغداد حصارا طويلا شاقا (١٩٦ — ١٩٨ هـ) حتى تمكن طاهر من انفاذ رأس الامين إلى المأمون وهو فى خراسان » برهانا على انتهاء الحرب (٢) .

وبويع المأمون حينئذ بالخلافة لكنه لم يجرؤ على الشخوص إلى بغداد. وكان خلال هذه المدة تحت تأثير شديد من وزيره الفضل بن سهل الذى اشتهر بميوله الفارسية والشيعية ، وقرر أخيرا ، وهو فى رأيه عمل سياسى كبير ، ان يتقرب من الشيعة بتعيين امامهم وليا للعهد .

وكان الامام عند الشيعة آنئذ على الرضا بن موسى الكاظم . وامه فارسية أيضا ، وهى جارية اسمها تكتما ، اختارتها حميدة لابنها موسى الكاظم (٣) . ويذكر المصدر نفسه أن عليا الرضا كان كثير الرضاع فى طفولته

---

(١) كتاب بالمر الآنف الذكر (ص ١٢٦)

(٢) لسترينج Baghdad dnring the Appasib Caliphate (ص ٣٢٠)

(٣) بحار الانوار لمحمد باقر المجلسى (ج ١٢ ص ٣) وكذلك عيون أخبار الرضا لابن بابوية المتوفى سنة ٣١؛ (ص ١١)

حتى قالت أمه : أعينونى بمرضعة . فقيل لها:أنقص الدر ؟ فقالت : لا أكذب والله ما نقص ولكن عليا ورد من صلاتى وتسبيحى وقد نقص منذ ولدت. وكان لابيه عدد كبير من السرايا ، ولم يتزوج . وولد له ثمانية عشر ولدا وتسع عشرة بنتا . ويظهر انه لم يهتم كثيرا فى تسجيل الولادات وغيرها . فقد ذكر عدد من الكتاب ان ولادة الرضا كانت سنة ١٥٣ هـ (١) ولكن المصادر الشيعية تعتبر ولادته فى ١١ ذى القعدة سنة ١٤٨ (٢) . فكان عمره ٢٥ سنة عند ما خلف والده فى الامامة بالمدينة . وبعد ١٨ سنة من ذلك أراد المأمون ان يكتسب صداقة مختلف طوائف الشيعة بتعيين على الرضا لولاية عهده .

وكان الخليفة المأمون بعيدا فى مرو فارسل إلى على الرضا أن يأتيه هناك. فاجاب الامام إلى ذلك وخرج من المدينة سنة ٣٠٠ هـ فى سفرته الطويلة إلى مرو التى تقع فى منتهى الزاوية الشمالية الشرقية من إيران . وبذلك تنازل عن سياسة الأئمة الثلاثة الذين سبقوه ، لأن الامام لا يتمكن من قبول ولاية العهد دون أن يتورط فى السياسة . وقد قال انه لا يرغب فى ذلك إنما ينفذ الدعوة التى تلقاها .

وفى المعجزات الكثيرة التى تنسب اليه (٣) ، يظهرونه بمظهر الرجل المفكر المحبوب فضلا عن شدة تقواه التى يتطلبها مركزه . فعن الريان بن صلت قال : لما أردت الخروج إلى العراق عزمت على توديع الرضا فقلت فى نفسى : إذا ودعته سألته قميصا من ثياب جسده لأكفن به ، ودراهم من ماله أصوغ به لبناتى خواتيم. فلما ودعته شغلنى البكاء والاسى على فراقه عن

---

(١) ابن خلكان طبعة بولاق (ج١ص٣٤٨)ومروج الذهب للمسعودى(ج٧ص٦١)
(٢) أصول الكافى للكلينى (ص ٢٠٠) وكتاب المجلسى السالف الذكر (ص ١)
(٣) كتاب المجلسى السالف الذكر (ص ٦)

مسألة ذلك . فلما خرجت من بين يديه صاح بى : ياريان ، ارجع . فرجعت . فقال لى : اما تحب ان أدفع اليك قميصا من ثياب جسدى تكفن فيه إذا دنا اجلك ؟ أو ما تحب أن ادفع اليك دراهم تصوغ بها لبناتك خواتيم ؟

فقلت : يا سيدى ، قد كان فى نفسى أن اسألك ذلك فمنعنى الغم بفراقك. فرفع الوسادة واخرج قميصا فدفعه الى ، ورفع جانب المصلى فاخرج دراهم فدفعها إلى . فعددتها فكانت ثلاثين درهما .

وروى البزنطى قال : بعث إلى الرضا بحمار له فجئته ، فمكثت عامة الليل معه . فلما أردت النهوض قال لى . لا أظنك تقدر على العودة هذه الليلة . فقلت : نعم أظن ذلك . قال :لا ، ومن الخير ان تبيت الليلة هنا وعند الصباح اذهب على بركة الله . وأمر جاريته ان تفرش لى فراشه . فبت فى وسادته وكسائه وملحفته . فاصابنى زهو فى نفسى ، فاذا به يقول . يا احمد ، ان أمير المؤمنين أتى زيد (صعصعة) بن صوحان عائدا له ، فلما اراد أن يقوم من عنده قال : يازيد(صعصعة) بن صوحان ، لا تفتخر بعيادتى إياك وتواضع لله وتوكل عليه .

وقال أبو محمد الغفارى : لزمنى دين ثقيل فقلت . ما لقضائه غير الرضا . فلما أصبحت اتيت منزله فاستأذنت عليه، فأذن لى. فلما دخلت قال لى ابتداء: يا أبا محمد ، قد عرفنا حاجتك وعلينا قضاء دينك . فلما أمسينا أتى بطعام للافطار، فاكلنا ، فقال : يا أبا محمد ، تبيت أو تنصرف ؟ فقلت : يا سيدى ، ان قضيت حاجتى فالانصراف أحب إلى . قال : فتناول من تحت البساط قبضة فدفعها إلى . فخرجت فدنوت من السراج فاذا هى دنانير حمر وصفر ، فاول دينار وقع فى يدى رأيت نقشه كان عليه: يا أبا محمد ، الدنانير خمسون ، ستة وعشرون منها لقضاء دينك ، وأربعة وعشرون لنفقة عيالك . فلما أصبحت فتشت الدنانير فلم أجد ذلك الدينار ، وإذا هى لا تنقص شيئا .

وحج الامام عند خروجه من المدينة إلى مرو حجة وداع ، ثم توجه من

المدينه إلى البصرة ولم يصل الكوفة (١) ، ومن بغداد توجه شمالا قاطعا الجبال إلى قرمسين وهمدان ثم سار بمراحل قصيرة إلى الرى ، وهى مدينة *Rhages* عند اليونان وخرائبها قرب طهران اليوم. وتوجهت القافلة المنهوكة القوى شرقا وهى تحمل نور محمد حتى بلغت مدينة طوس بعد شهر ، ومنها سارت إلى مرو فى تركستان الحديثة . وقد يكون البطء فى سفر الامام لطول الوقت الذى تقطع به القوافل ذلك الطريق بين بغداد ومرو ، فالمسافة تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر ،وقد يكون ذلك لا ستقبال الناس له فى كل مكان استقبالا فخما .

وعند وصوله إلى مرو كان الخليفة المأمون لا يزال مصرا على رأيه ،وقد اكرمه إكراما عظيما وأسكنه دارا فخمة .

ويتمسك كتاب الشيعة بقولهم : إنه اضطر إلى قبول رأى المأمون . وقد أبدى رأيه بصراحة فى تفضيله الحياة الطليقة على قيود الحكم (٢) .

ويقول اليعقوبى ان المأمون بايع له بولاية العهد لسبع وعشرين خلون من شهر رمضان سنة ٢٠١ هـ (٣) . وضربت الدنانير والدراهم باسمه . وقد نقش عليها : « ملك الله والدين ، المأمون أمير وخليفة المؤمنين والرضا امام المسلمين » (٤) . ولم يكتف المأمون بذلك بل جمع ولد العباس فى مرو ، نساء ورجالا ، صغيرهم وكبيرهم ، فكان عددهم ثلاثة وثلاثين الفا (والصحيح أنه أمر باحصائهم فقط وانه أمر بجمع خواص الأولياء — المعرب) وقدم على الرضا وأجلسه بأعلى المراتب ثم أخبرهم انه نظر فى ولد العباس وولد على

---

(١) أصول الكافى للكلينى (ص ٢٠١)

(٢) Sell ، اثنى عشرية ، مدراس (ص ٣٢)

(٣ تاريخ اليعقوبى طبعة هوتسما (ج ٢ ص ٥٤٥) ، التنبيه والاشراف طبعةدى غويه (ص ٢٤٩ ، ٢٥٠)

( ) Sell ، اثنى عشرية (ص ٣٢)

فلم يجد فى وقته أحدا أفضل ولا أحق بالامر من على بن موسى الرضا . وأخذ بيده وبايعه بولاية العهد (١) ، وزوجه بابنته أم حبيب ، وأمر بازالة السواد من اللباس والاعلام ولبس الخضرة ، وهى شعار العلويين ، بينما كان السواد شعار العباسيين .

وانتهى ذلك إلى الحزب العربى فى بغداد ، وكان لا يميل إلى المأمون ، كما أعظمه من بالعراق من ولد العباس ، إذ علموا ان فيه خروج الامر عنهم ، فاجمعوا على خلع المأمون ومبايعة إبراهيم بن المهدى عم المأمون . فبويع له لخمس خلون من المحرم سنة اثنتين ومائتين .

وجمع الفضل بن سهل اثناء وجود الرضا مع المأمون فى مرو مجلسا دعا اليه رؤساء الاديان من اليهود والنصارى والمجوس ليسمع المأمون كلامه وكلامهم ، وفى الاجتماع الاول (٢) جلس الامام مع المأمون واعقبته اجتماعات أخرى ، وجرت فى أحدها مناظرة فى علم الكلام والتوحيد اشترك فيها سليمان المروزى فى بغداد (الفصل ١٣) وجرت مناظرة أخرى فى العصمة بين الامام وعلى بن محمد بن الجهم (الفصل ١٤) أعقبه مجلس آخر لاتمام البحث (الفصل ١٥) . وقد اشترك المأمون فى الموضوع اشتراكا كبيرا . ومن المؤسف ان أخبار هذه المجادلات فى المصادر الشيعية لم تكتب الابعد مئتى سنة من الحادث ، فكان من السهل طبعا على الكاتب وهو ابن بابويه (المتوفى فى سنة ٤٣١ هـ) ، ان ينسب أقوالا مناسبة للامام عن أن يخترع أجوبة وافية لخصومه ، اليهودى منهم أو النصرانى أو المجوسى على السواء . ويجوز أن يكون ثيودور أبو قره اسقف حران (٣) هو الجاثليق المجهول

---

(١) أصول الكافى للكلينى (ص ٢٠١)

(٢) عيون أخبار الرضا لابن بابوية الفصل (١٣ ص ٧٨ — ١٠٠)

(٣) Yuillaceme A Debate Between Christian & Moslem Doctors J.R A S , Centuennary Snppleneut 1924 p .,233

الوارد ذكره فى عدة مجالس ، وان ذكره لمجادلة امام المأمون صحيح . غير ان اخباره مثل أخبار ابن بابوية ضعيفة جدا فيما يختص بالجانب الآخر ، إذ بينما يذكر احدهما بعض المعلومات غير الصحيحة عن التوراة والانجيل يذكر الآخر معلومات مثلها عن القرآن .

وبقى الامام الرضا فى مرو مدة لا تزيد على السنة ، إذ أن المأمون عندما سمع بمبايعة عمه إبراهيم بالخلافة فى بغداد قرر مغادرة خراسان واثبات حقه بنفسه . فخرج فى السنة نفسها (سنة ٢٠٢ هـ) إلى العراق ومعه ، كما قال اليعقوبى (١) . الرضا عليه السلام وهو ولى عهده وذو الرياستين الفضل ابن سهل وزيره . فلما صار فى سرخس (قومس) نزل الوزير مع المأمون فقتل وهو فى الحمام ، قتله غالب الرومى وسراج الخادم ، فقتلهما المأمون جميعا وقتل قوما معهما . يرجح الرأى القائل بان القتل كان بسبب حد اعضاء الحزب العربى (٢) ، على رأى أن المأمون هو الذى دبر قتله لشكه فى ان الفضل كان يخفى عليه معلوماته عن سوء الوضع العسكرى فى العراق (٣) ولما صار الجيش بعد يوم أو يومين إلى طوس توفى الرضا بقرية يقال لها (النوقان) أول سنة ٢٠٣

ويقول اليعقوبى الذى يمثل الرأى الشيعى : « ان علته لم تكن غير ثلاثة أيام . فقيل ان على بن هشام أطعمه رمانا فيه سم ، واظهر المأمون عليه جزعا شديدا » (٤) .

اما المسعودى فيقول إن الرضا مات لعنب اكله واكثر منه ، وقيل

---

(١) تاريخ اليعقوبى (ج ٢ ص ٥٤٨)

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة « المأمون »

(٣) « « « « على الرضا »

(٤) تاريخ اليعقوبى (ج ٢ ص ٥٥٠)

انه كان مسموما : (١) والرواية المعروفة هى أنه أكل عنبا مسموما .

ويذكر ابن بابوية عدة أسباب جعلت المأمون يسم الامام الرضا ،ويبين الظروف التى نصب فيها الرضا ابنه محمد للامامة بعده (٢) .

فمات الرضا ، ودفن بعيدا عن المدينة ، بلد أبائه من أهـل البيت . فدفن فى سناباذ عـلى ميل من القرية التى مات فيها . ودفن فى القبر الذى دفن فيه أشهر خلفاء بنى العباس . ففى البستان نفسه دفن المأمون أباه هارون الرشيد قبل تسع سنوات . فوقف هذه المرة فى سفره الذى تأجل طويلا إلى بغداد ، بنفس المكان وصلى على الامام الذى اراد أن يجعله خليفة .

---

(١) مروج الذهب للمسعودى(ج ٧ ص ٦١)

(٢) عيون اخبار الرضا لابن بابوية (الفصول ٥٩-٦٠)

الباب السادس عشر

مشهد الامام الرضا فى طوس

كان لدفن الامام على الرضا فى مكان ناء مثل طوس ، نصيبه الكبير من الاهتمام فى الاحاديث الشيعية . فيقال ان الرسول نفسه قال : « ستدفن بضعة منى بأرض خراسان لا يزورها مؤمن إلا أوجب الله له الجنة وحرم جسده على النار . وما زارها مكروب الا نفس الله كربته » .

ويروى عن على أمير المؤمنين أنه كان عالما حق العلم بما سيكون ، حتى إنه قال مرة : « سيسم أحد أولادى ظلما بارض خراسان ، اسمه كاسمى واسم أبيه موسى » . وللتعويض عما سيناله هذا الولد المعين من أولاده من الاذى ، أردف مؤكدا : « من زار قبره غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولو كانت بعدد النجوم والقطر وأوراق الشجر » .

ويقال إن موسى أبا على الرضا قال : « سيقتل ولدى على مسموما ظلما وعدوانا ويدفن بجانب قبر هارون الرشيد » . ثم قال : « ومن زار ولدى عليا كان له عند الله كسبعين ألف حجة . ومن زاره وبات عنده كان كمن زار الله فى عرشه » . فقال له أحدهم : كمن زار الله فى عرشه ؟ قال : نعم ، إذا كان يوم القيامة كان على عرش الله أربعة من الأولين وأربعة من الآخرين ، فاما الاربعة الذين هم من الاولين فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى . واما الاربعة الذين هم من الآخرين فمحمد وعلى والحسن والحسين عليهم السلام ، ثم يمد المضمار فيقعد معنا من زار قبور الأئمة ، الا ان اعلاهم درجة وأوفرهم حياة زوار

قبر ولدى علي . (١) ونرى كثيرا من هذه الاحاديث منقوشة فى الحضرة الرضوية فى الوقت الحاضر ، ويرى الحديث الاخير على إفريز تجاه بوابة نادر الذهبية .

صورة تاريخية المشهد

توفى الامام الرضا فى طوس فى أوائل القرن التاسع الميلادى . وللذى كتبه اليعقوبى خلال النصف الاخير من القرن نفسه ، يعود الفضل فى تعريفنا ان اسم طوس كان يطلق حينئذ على المقاطعة أكثر مما يطلق على مدينة معينة . واشهر مدينتين كانتا فى هذه المقاطعة هما نوقان وطابران . ونوقان هى مدينة طوس العظمى ويطلق عليها اسم طوس فى أكثر الاحيان . وبطوس قوم من العرب من طيئ وغيرهم وا كثر أهلها عجم. (٢) وفى نوقان مات هارون الرشيد والامام الرضا . ثم أصبحت طابران بعدها مدينة طوس العظمى . ويؤيد كلام اليعقوبى المراحل التى ذكرها ابن رستة من نيسابور إلى طوس . وكانت نوقان منزلا من المنازل بدلا من طابران (٣) .

ولما قدم هارون الرشيد طوس نزل دار حميد بن قحطبة الطائى عامله هناك . وله دار وبستان فى سناباذ على ميل من نوقان ، فمات ودفن حسب وصيته فى حجرة من الدار . وأمر المأمون بن هارون ببناء قبة فوق قبره . فلما مات الرضا

---

(١) تحفة الزائرين للمجلسى (ص ٣١٤) وما يليها

(٢) كتاب البلدان لليعقوبى طبعة دى غويه (ص ٢٧٧) ولسترنج ، Lands of the Eastern Caliphate (ص٢٨٩) .

(٣) كتاب الاعلاق النفيسة لابن رستة طبعة دى غويه .

فى نوقان دفن بنفس الحجرة ، فقيل فيه (١) « دخل دار حميد بن قحطبة الطائى فدخل قبر هارون الرشيد ».

ونسمع فى القرن العاشر بوجود قلعة إلى جوار طابران « وهى بناءعظيم يرى من مسافات بعيدة » كما يقول المقدسى : « وأسواق هذا النصف من المدينة عامرة » . ونلاحظ أيضا بالعصر ذاته ان « القبور المجاورة لسناباذ كانت محاطة بسور فى القرن الرابع (العاشر) . ويذكر ابن حوقل وجود مشهد يزوره كثير من الناس . وبنى مسجد عند قبر الامام الرضا بأمر الامير فائق عميد الدولة ، ولا يوجد أجمل منه فى خراسان كلها ، على قول المقدسى. وبنى قبر هارون الرشيد إلى جانب قبر الامام ، وشيدت دور وسوق فى جوار ذلك البستان (٢) . وقد تخرب هذا البناء الجميل الذى وصفه كل من ابن حوقل والمقدسى ، بعد مدة قصيرة من إتمامه بأمر الأمير سبكتكين تشديدا فى مقاومة الشيعة . وظل البناء خرابا سنين عديدة لم يجسر أحد على عمارته خوفا من الاضطهاد .

وفى أوائل القرن الحادى عشر أمر السلطان محمود بن سبكتكين بتعمير مشهد الرضا وإقامة بناء فخم عليه قبة عالية . ويقال انه رأى أمير المؤمنين فى المنام فعاتبه وقال له : إلى كم يدوم هذا الحال ؟ فعلم أنه يشير إلى قبر الرضا. وتم البناء باشراف حاكم نيسابور سنة ١٠٠٩ م . ولكن هذا البناء تخرب أيضا بعد مدة قصيرة على يد القبائل التركية واللصوص . (٣) وكان الخراب كاملا ، فلا توجد اليوم كتابة على بناء المشهد الحالى يرجع تاريخها إلى ما قبل ذلك الدور .

---

(١) عيون أخبار الرضا (الفصل ٥٩).

(٢) لسترنج Lanbs of the Eastern Caliphate (ص ٣٨٩).

(٣) مطلع الشمس للمرزا محمد حسن خان الملقب باعتماد الدولة (ج ٢ ص ٤٩).

وفى القرن الثانى عشر اعاد أبو طاهر القمى فى زمن السلطان سنجر السلجوقى ، تشييد البناء على نفقته الخاصة أو نفقة السلطان . وبقى هذا البناء الجديد نحو مائة سنة حتى تخرب معظمه على يد المغول ، ففى سنة ١٢٢٠ بعد ان ذبح تلكوخان سكان مدينة نيسابور فعل بطوس ما فعل بنيسابور ، فخربت مدينة طوس (طابران القديمة) ونهب المشهد الذى كان فيه قبرا الامام على الرضا وهارون الرشيد . ولم يتخرب المشهد كله ، إذ لا تزال بعض الكتابات عند الضريح يرجع تاريخها إلى سنة ٦١٢ هـ . (١٢١٥) إلى قبل غزو المغول بخمس سنوات (١) .

واعيد بناء المشهد فى أوائل القرن الرابع عشر على زمن السلطان محمد الجايتو ، وهو أول من تشيع من المغول . فيذكر هوارث فى كتابه تاريخ المغول أن أم الجايتو نشأت ابنها نشأة مسيحية ، فعمدته باسم نقولا . فلما ماتت أمه اقنعته زوجه بالدخول فى الاسلام . وكان متمسكا بقواعد الدين الحنيف مع مراعاة أحكام ياسا غازان . وكانت الاموال التى تأتى إلى المشهد تصرف حسب شروط الوقف لاصحابها . فلما تيسرت الاموال للمشهد أعيد بناء قبر على الرضا . وكان الجايتو كثير التنقل من مذهب إلى مذهب ، وقد اساءه كثيرا الجدال بين الحنفية والشافعية حول قواعد النكاح ، غير أننا نرى على السكة التى ضربت فى أواخر أيامه نقش اسم على وذكر الأئمة الاثنى عشر (٢) .

وزار ابن بطوطة فى القرن الرابع عشر المشهد بعد تجديد بنائه بسنوات (١٣٣٣ م) فيذكر انه وجد المشهد مدينة كبيرة ضخمة كثيرة الفواكه

---

(١) السير برسى سايكس History of Persia (ج ٢ ص ٩٣٥) وما يليها ، ومطلع الشمس (ج ٢ ص ٥٠) ، وكتاب لسترينج الذكر (ص ٣٩٠).

(٢) History of the Mongols تأليف Howarth (ج ٣ ص ٥٢٥ ـ ٥٢٦ و ٥٨٠)

والمشهد عليه قبة عظيمة على بابها ستر حرير . وعلى القبة قناديل فضة معلقة وازاء هذا القبر قبر هارون الرشيد. وعليه دكانة يضعون عليها (الشمعدانات). وإذا دخل الرافضى للزيارة ضرب قبر الرشيد برجله وسلم على الرضا (١) . ويشير المستوفى ، وهو معاصر لابن بطوطة ، إلى سناباذ باسم المشهد ويقول عنها : إنها مدينة صغيرة .ويذكر حب أهلها للغرباء وكثرة الفواكه بها . (٢)

ولم يمض زمن طويل على ذلك حتى أخذ تيمورلنك يشن غاراته على خراسان سنة ١٣٨٠ م . فأصاب طوس والمشهد الكثير من الضرر . ومن حسن الحظ أن شاه رخ بن تيمور عين حاكما لخراسان فأعاد تعميرها . وكان يفكر ، بعد وفاة تيمور ، وعلى الاخص فى زمن ثورة سمرقند ، بضرورة تعمير البلاد التى تم له الاستيلاء عليها . فقرر فى سنة ١٤٠٥ إعادة بناء طوس أولا ، غير انه وجد ان الذين نجوا من السيف منها قد انتقلوا إلى سناباذ وبنوا لهم بيوتا من الطين فيها ، وقد حاول عماله إقناعهم بالرجوع فلم ينجحوا لأنهم لاذوا بالامام ، واستأذنوا من شاه رخ فى بناء سور وحصون حول بيوتهم ، فصار هذا المكان مدينة المشهد الشهيرة . وأهملت طوس ، وهى التى كانت مكان طابران القديمة ، اهمالا تاما (٣) .

وتبرعت زوجة الشاه رخ بالمال اللازم لبناء مسجد فخم لا زال يعرف باسمها ، وهو مسجد جوهر شاه ، و « افخم مسجد فى أسيا الوسطى » (٤) ولا زال اسمها موجودا على الكتابات على البناء ، ونرى كتابات أخرى تنسب إكمال البناء والتزيين إلى الشاه سلطان حسين الصفوى . ونقرأ فى بعض

---

(١) رحلة ابن بطوطة ترجمة Lee الفصل (١٣ ص ٩٠).

(٢) نزهة القلوب للمستوفى ترجمة لسترينج (ص ١٤٩).

(٣) مطلع الشمس (ج ٢ ص ٥٤) .

(٤) كتاب السير برسى سايكس المار الذكر (ج ٢ ص ٥٤).

الكتابات التى يرجع عهدها إلى سنة ٨٢١ هـ ، وهو عصر جوهر شاذ ، حديثا ينسب إلى الرسول وهو : « المؤمن فى المسجد كالسمكة فى الماء أما الكافر فهو كالدجاجة فى الكن » .

وليس ما يدل على حدوث تلف آخر فى مشهد الرضا بعد ذلك اللهم الا ما حدث من الزلازل ، فانشق جدار البناء الرئيس على زمن الشاه سليمان الاول الصفوى . وكان السير جون جادرين فى اصفهان عند ما وردت الاخبار بحدوث الزلازل فكتب فى مذكراته ليوم ١١ آب ١٦٧٣ م . ما يلى : وجاء خبران سيئان متراد فان يوم ١١ وهو ان ثلثى مدينة المشهد عاصمة خراسان وهى بنفس المقاطعة ، ونصف نيسابور وهى مدينة عظيمة بنفس المقاطعة ، ومدينة أخرى صغيرة قربها قد تهدمت بالزلزال . وكان ما أحزن قلوب الايرانيين عموما والمتدينين منهم خصوصا هو التخريب الذى حدث فى حضرة المشهد حيث قبر الامام الرضا ، وهو مسجد جميل مشهور فى الشرق قاطبة ، فقد تصدعت القبة ، وسلمت وجهة البناء نوعاما . فارسل الشاه معتمدا من قبله ليرى بنفسه مقدار ما تخرب، ثم أعقبه بشخصين آخرين وزودهما باوامر إلى عمال المقاطعة ، لملافاة هذه المصيبة الكبرى » (١)

وكتب جادرين أيضا بعد ذلك بشهرين : « وفى اليوم التاسع من شهر تشرين الاول ذهبت إلى دار صاغة الملك فى القصر الملكى لأشاهد صنع الصفائح الذهبية على شكل طوابيق يغطى بها سطح قبة حضرة الامام الرضا بالمشهد ، وهى القبة التى هدمتها الزلازل كما ذكرت آنفا . وقد استخدم الف رجل ، كما قلنا فى ترميم بناء المسجد ، وهم يعملون بهمة ونشاط ، فلا ينتهى شهر كانون الاول حتى ينتهى معه عملهم . وهذه الصفائح هى من النحاس مربعة الشكل عرضها ١٠ عقد وطولها ١٦ وثخنها بثخن كراونين

---

(١) Sir John Chabrin's Travels in Persia, Argonout Press 1927 (ص ٦٢).

(العملة الانكليزية المعروفة) وتحتها قضيبان عرض كل منهما ٣ عقد، متصلان بعضهما ببعض على شكل صليب فيغرسا بالتسييع لتمسك بالطوابيق، وقد ذهب وجه الطابوقة بطبقة من الذهب ذات كثافة تظهر بها كأنها قطعة مصمتة من الذهب، واستهلكت كل طابوقة ماوزنة ٣ دوقات وربع كل دنك وكلفت ما قيمته ١٠ كراونات. وأخبرنى رئيس الصاغة وهو الناظر على العمل، بأنهم أمروا بصنع ٣٠٠٠ طابوقه » (١).

ورممت القبة الذهبية بأمر الشاه سليمان وفى زمنه كما يظهر من الكتابات على القبة نفسها، وقد جاء فى آخر هذه الكتابة: « ان الشاه سليمان الحسينى قد تمكن من كسوة هذه القبة السماوية بالذهب وزينها وعمرها بعد ما أصابها من الضرر بزلزال عظيم فى هذا المكان المقدس سنة ١٠٨٦ — ١٦٧٣ » (٢). وتذكر الكتابة على الباب المؤدية إلى المسجد من البوابة الذهبية ان الشاه سليمان أمر بترميم مسجد جوهر شاذ بالوقت نفسه (٣).

وعلى الافريز فى داخل البوابة الذهبية كتابة تخلد ان الشاه عباس الكبير اذن له ان يمشى على قدميه من أصفهان دار السلطنة زائرا المشهد وقد اسعده الحظ فى الاشتراك بتزيين هذه القبة من ماله الحلال سنة (١٠١٠ — ١٦٠١) وتم العمل سنة (١٠١٦-١٦٠٧). وفى القرن الثامن عشر أمر نادرشاه بترميم القبة الذهبية وأهدى هدايا كثيرة إلى المشهد.

وأهم ما اهداه الشاهات القاجاريون هو قاعة الاستقبال والبوابة الذهبية، وقد أهداها فتح على شاه، ثم حسنها وزينها ناصر الدين شاه سنة (١٢٥٠ — ١٨٤٨).

وآخر تلف مهم حدث فى المشهد هو ما كان نتيجة القصف الروسى

---

(١) كذلك (ص ١١٢).

(٢) مطلع الشمس (ج ٢ ص ١٢٧).

(٣) كذلك (ج ٢ ص ١٢٩).

سنة ١٩١١ فقد اغار على المدينة جماعة من اللصوص فنهبوها والتجئوا إلى حرم المشهد واعلنوا عصيانهم على الحكومة الدستورية ، ولما كانت الحكومة الايرانية ضعيفة آنئذ فيقال إنها خولت الروس الذين كانت لهم قوات كبيرة فى خراسان ان يعيدوا الامن إلى نصابه ، فقصف الروس الحضرة الرضوية ، حيث التجأ الثوار ، بالمدافع من موضع مناسب خارج المدينة.ولم تمض دقائق معدودات حتى تلف قسم كبير من القبة والابنية العالية وقتل نحو مائة من الابرياء العزل ، وتمكن اللصوص من التسرب إلى خارج المدينة والخلاص . واستاء الايرانيون من هذا العمل استياء كبيرا ، فهم يقيمون له ذكرى سنوية ، ويذكرون ما أصاب روسيا منذ ١٩١١ من العقاب الالهى لاهانتهم حرمة الامام الرضا ، فلم يكتفوا باطلاق النار عليه بل شغلوه عدة أيام ،فكانوا يدخلون إلى الحرم باحذيتهم ومعهم كلابهم .

حب الناس للامام الرضا

ان المصائب التى مرت بالمشهد قد زادت فى الحب الذى يظهره الناس عامة للامام الرضا . ولا عجب فى مدينة مقدسة هى أبعد المدن عن التأثير السنى ، ان تتجسم فيها الاخبار بعد سنوات طويله وتتخذ اشكالا وصورا غريبة ، وان تنسب للامام اعمال عجيبة كثيرة ، فقد امطرت السماء اجابة لدعائه ، وكان يذكر وجهة كل غمامة ومسقطها ، وأخرج قطعة ذهبية من النقود من صخرة بعد ان حكها بخشبة ، وانه أخبر عبد الله بن المغيرة عن دعاء دعا به فى مكة ، وانه كان يعلم ما بقلوب الناس فأخبر الكثيرين منهم . وكان يعلم بساعة موت كل انسان . وأنبت الخضرة فى وسط الشتاء فى بستان أحدهم وانضج العنب . والساعة الثالثة من النهار عنده ساعة مقدسة . وهم يستعينون به على الاسفار بالبر والبحر وعلى ما يقاسونه من الام

التغرب (١) ذلك إلى أن هذا المشهد هو أبعد المشاهد عن مركز الثقافة الاسلامية ، و لايمكن بلوغه إلا بعد سفر طويل مضن يقطع فيه المسافر نحو (٨٠٠) أو (٩٠٠) ميل ، ومافى هذه المشقة من الأجر فى زيارة الامام الرضا فى المشهد البعيد .

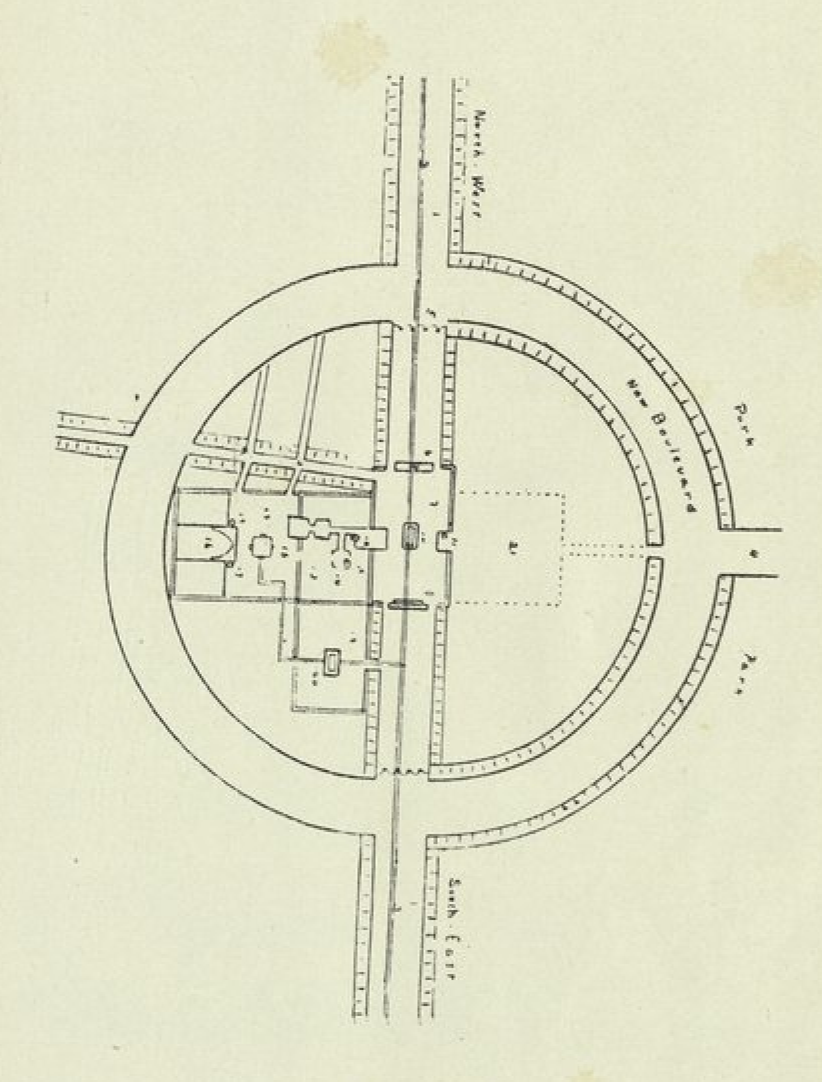
وصف المشهد المقدس

يمتد شارع مركزى من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى على طول المدينة فيدخل الزائر الى الحضرة من البابين العلوى والسفلى لهذا الشارع ، أو من طريق السوق المسقف . وتجرى ساقية ماء فى وسط الشارع الرئيس . وقد نمت أشجار الدلب التى غرست هناقبل سنوات كثيرة عند مارآهافريزر سنة ١٣٨٥ (٢) ووصفها بأنهامن «بعض الاشجار المكافحة الباقية » - نموا هائلا حتى سقط كثير منها . وفتح شارع يدور بالحضرة لتسهيل المرور . وأزال فتح النصف الجنوبى من هذا الشارع ، أبنية مزدحمة قذرة كحمامات وخانات ، كانت مصدر خطر على صحة المدينة .وشق النصف الشمالى من هذا الشارع وسط مقبرة واسعة تضم أجداث أجيال عديدة من الشيعة ، وهم يعتقدون اعتقادا جازما بانهم سيقومون يوم القيامة مع الامام خالصين من الذنوب كما ولدتهم امهاتهم ، بفضل شفاعته . وقد حفرت الحفر التى على جانبى الشارع لغرس الاشجار خلال ٦ أو ٨ طبقات من القبور ، وقد أخذت أحجارها لرصف الشارع . وتجرى إحالة المقبرة ، التى تبلغ مساحتها نحو عشر أفدنة فى الشمال ، إلى حديقة يخترقها شارع الطبسى الجديد ، الذى يمتد من

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة(على الرضا) تلخيص المعجزات عن كتاب جنات الخلود (الباب ١٥) . ومادة مشهد بقلم M . Streck وهوغنى بالمراجع .

(١)James .B Fraser , Journey into Khorasan 1825 P . 444



تخطيط للمشهد

الحضرة الى قلب المدينة الذى هو نوقان القديمة .

وعند بلوغ الحاجز فى الشارع الأعلى الذى لايجوز للعجلات أو غير المؤمنين اجتيازه ، يرى الناظر نقوشا كاشانية دقيقة على قوس الباب المؤدية إلى السجن القديم الذى تبلغ مساحته ٣٧٧ ٪ ١٠٥ أقدام . وخلف هذا المدخل برج ساعة يكاد أن يكون خاليا من الفن ، وتدق الساعات وأنصاف الساعات حسب التوقيت العربى . وعبر الصحن القديم مدخل مشابه آخر يؤدى الى الشارع الأسفل ويعلوه برج آخر دون ساعة ، يستعمله النقارون لقرع النقارات ونفخ الأبواق عند طلوع الشمس وغروبها . ويسمى هذا المكان بالنقار خانه . وقرع النقارات لطلوع الشمس وغروبها وللسلام الملكى من العادات القديمة جدا فى ايران (١) ويندهش الزائر عند دخول الصحن القديم لرؤية الذهب الساطع فوق القبة العالية . ويزداد التأثر بمنظر المنائر البراقة الكائنة فوق البوابة الذهبية . والمنائر المقابلة لها الكائنة فوق بوابة عباس . وفى منتصف وسط الصحن منحرفا الى الغرب حوض ماء تجرى اليه المياه من خزان نظيف يقع فى الجانب الغربى من المدينة ، وليس من الساقية التى تمر بالشارع .

وتتصل الساحة الكبيرة وراء الصحن القديم بالبناء الأصلى للحضرة الذى يحتوى على ١٥ غرفة وحجرات عدة وأروقة . أما غرفة الضريح فمربعة ، طول ضلعها ٣٤ قدما ، ترتفع فوقها القبة الذهبية إلى علو ٨٢ قدما.

---

(١) يذكر بلوتارخ (كراسوس ٢٣ (١٠) استعمال النقارات من قبل البرثيين لافزاع العدو وكانت عادة استعمال النقارات للسلام الملكى عامة فى اوربا فى القرون الوسطى واستعملت أيضا عند دخول ادوارد الثالث الى كاليه سنة ١٩٤٥ وذكر سوسر الـ nakares) فى Knight,s Tale (السطر ٢٥١٤) بين الالات الموسيقية التى استعملت فى الاحتفال . (دائرة المعارف الاسلامية مادة . نقارات«Kettledrums») وقرع النقارات فى مشهد الرضا لتحية الشمس عند شروقها وغروبها تدل على بقاء بعض العادات التى لها علاقة بتقديس الشمس فى ايران قبل الاسلام

ولم يبق من قبر هارون الرشيد إلا اسطوانة غير مؤشرة فى زاوية من الغرفة وهى أقرب اسطوانة إلى قبر الامام . ولا تراعى عادة لعن الخليفة المتوفى كما كان سابقا . وزين داخل القبة بأمر ناصر الدين شاه بمقرنصات من المرايا ، وغطيت الجدران بتزيينات من الكاشانى عليها آيات من القرآن وأحاديث مناسبة .

والمدخل إلى الضريح عادة من الشرق . ويقف الزائر أمام محراب عند كل واجهة ويدعو ، وهذه الجدران مزينة بكتابات كثيرة فى تعظيم المشهد . وعلى القبر ٣ مشبكات فولازية متداخلة ،وفوق القبر نفسه صندوق من الخشب المصفح بالذهب عليه اسم الشاه عباس . ويحيط به المشبك الأول،وهو من الفولاز الاعتيادى ، حوله أسلاك نحاسية لالقاء الهدايا التى يأتى بها الزوار . والعادة أن يجمع المتولون هذه الهدايا قبل عيد النيروز ببضعة أيام فيتزاحم الناس على شرائها .أما المشبك الفولاذى الثانى فمزين بالذهب والجواهر وتدل الكتابة عليه على انه هدية من الشاه حسين الصفوى ، والمشبك الخارجى أو الثالث من الفولاذ أيضا . وقد نقشت عليه (سورة الانسان) من القرآن الكريم . ولكل من المشبكين الثانى والثالث كرات ذهبية عند الزوايا . وفوق القبر سقف خشبي مبطن بطبقة رقيقة من الذهب علق تحته بعض المعلقات الذهبية المطعمة بالجوهر .

ويطوف الزائر بالقبر مبتدئا من نقطة تقع عند الجنوب توصف بأنها امام الوجه الشريف (١) فيقرأ دعاء السلام ويدعوه بالغريب والشهيد والمظلوم والمعصوم والمسموم والمهضوم الحق والهادى والحامى لأتباع طريق الحق . ثم يمر إلى الشرق « عند القدم الشريفة » فيسلم ثانية ويلعن قائلا : لعن الله أمة قتلتك ! لعن الله أمة ظلمتك بأيديها وألسنتها ! ثم يذهب وراء الرأس الشريف

---

(١) من عادة المسلمين فى الدفن أن يضعوا الجثة على جانبها الايمن أمام القبلة

ويسلم على الامام ويدعوه بوارث آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد. ويدعو أخيرا فوق الرأس الشريف : فكن لى شفيعا شافعا الى الله تعالى وحاميا من نار جهنم وسندا فى الدنيا وذخرا للآخرة ووليا ونصيرا فى القبر وعليك رحمة الله وبركاته .

ويقع مسجد جوهر شاه وراء الحضرة الرضوية . ومساحته بما فى ذلك صحنه (١٨١ × ١٦٤ قدم) وتعلوه قبة زرقاء جميلة ، على كل من جانبيها منارة . وطول المسجد من الداخل ١١٦ قدم وعرضه ٤١ قدما وارتفاعة ٨٧ قدما. وعلى كل جانب من الرواق غرف داخلية تعرف (بشبخانه) . فطرف البناء مشابه لبناء الكاندرائيات إلا فى الفسحة المكشوفة العظيمة والطاق والمنائر ، وهى مزوقة بنقوش جميلة من الكاشانى تؤلف وحدها توافقا بديعا بالالوان . ونقرأ كلمة الشهادتين على القبة الزرقاء التى كأن لونها يتغير مع نور السماء . وكتب عند اسفل القبة الآيات الـ ٣٩ الاولى من سورة يس التى يعلق عليها الشيعة أهمية كبيرة .

وتتوسط الصحن دكة مساحتها نحو ٣٧ قدما مربعا . وعند كل زاوية منها شاذروان، وتسمى بمسجد العجوز ، ويقال انها لذكرى عجوز رفضت ان تبيع هذه القطعة مدة طويلة .

ويقع الصحن الجديد شرق بناء المشهد الاصلى . وقد شيد فى زمن فتح على شاه ،ويتوسطه حوض ماء . وللماء قيمة كبيرة عند الزوار فيستعملونه للشرب والوضوء فى الصحون الثلاثة . وتنار الروضة ليلا بانوار باهرة طول شهر رمضان والاعياد والعطلات، وعلى القباب والمنائر أضواء كهربائية تظهر بهما فى شكلها البهى والوانها الخلابة كل ليلة ، لا بالمدينة وحدها بل يراها الزوار القادمون من الجبال على بعد ١٥ ميلا .

وزاد الشارع الذى شق حول المشهد فى أهمية الساحة الواقعة إلى شمالى الشارع المركزى . فالبناء القديم الواقع خلف بوابة عباس كانت تشغله مدرسة

من أقـدم المدارس الدينية وهى مدرسة المرزا جعفر . ويجرى ترميم هـذا البناء ليكون مكتبة ومتحفا يتمكن السائحون من غير المسلمين من زيارته ، إذ سيكون مـدخله من الشارع . فاذا كمل هذا البناء فسيعرض به السجاد القديم المشهور والجواهر التى لا تحصى والمخطوطات الاخـرى من الكتب النادرة ، وقد حفظت كلها سنين طويلة فى أروقة الروضة .وستنقل المكتبة التى تشغل فى الوقت الحاضر ٣ غرف من بناء المشهد الرئيس ، إلى هذا البناء ، ويشاع بانه سيضاف عـدد كبير من الكتب التى تعالج المواضيع الاخرى ، فتكتسب المكتبة صفة المكتبة العامة (١) .

واردات الروضة

نشر أعظم الدولة (سنة ١٩٠٠) نشرة عن ممتلكات مشهد الامام الرضا وارداته المختلفة وكانت النسخ المطبوعة قليلة جدا لا يمكن الاطلاع عليها الا بعد تجشم صعوبات كبيرة وكان الكتمان مقصودا . وقد أهـدى امراء إيران وملوكها المتعاقبون هـدايا عظيمة كانت تسجل فى طوامير . وتجبى الواردات كل سنة نقـدا و بالعين من الاوقاف الكثيرة التى تصعب معرفة تفاصيلها من أراض وبساتين ودكاكين وحمامات وطواحين وغـيرها . وليس فى هذه النشرة خلاصة تبين مجموع الدخل السنوى من هذه الاملاك .فكان من الضرورى تلخيص ما سجل ، فظهر ان الدخـل السنوى حينئذ يقدر بـ ٠٠٠ ر ٢٣٥ دولارا ، ونشرت بعد هذا الحدس ، إحدى جرائد مشهد (٢) الايرانيـة بيانا بواردات الروضة ومصروفاتها لسنة ١٨٧٨ فكان المجموع

---

(١) رتب الكاتالوغ الجديد (١٩٣٠) حسب المواضيع ، ويستفاد منه أسرع مما يستفاد من قائمة الكتب المذكورة فى نهاية الجزء الثانى من مطلع الشمس .

(٢) جريدة جن فى نشرة خاصة سنة ١٩٢٣ بمقال تحتج فيه على سوء تصريف العمال أموال الحضرة .

ربع مليون دولار . وقد تمكن شاه إيران الحالى رضا مؤسس الأسرة البهلوية ، من ضبط إدارة اراضى الاوقاف وغيرها جميعا فى إيران كافة ، فاصبح المصرف الوطنى الايرانى هو المشرف على واردات الروضة ، ويقال ان الدخل السنوى قد ازداد كثيرا عما كان عليه .

موظفو الروضة وخدمها

يعتبر سقوط الثلج لاول مرة مصدر فرج عام فى المشهد ، لأن انقطاعه وانحباس المطر معناهما القحط والمجاعة . فصار من عادتهم عند سقوط الثلج لأول مرة ان يخرج كبار السدنة فى الروضة الرضوية وبأيديهم المجارف لجرف الثلج عن السطح الذى عليه القبة الذهبية . وبهذه الصورة يعبر الناس عن شكرهم للامام عند ظهور علامات الخير والرخاء . وأعظم الموظفين منزلة هو (المتولى باشى) ويعينه الشاه لتولى أعمال الروضة. وكان المنتظر عادة أن يدفع للحكومة المركزية عشر مجموع واردات الروضة . ثم يأتى بعده نائب التولية ، وهو من السادة الرضويين ، ومركزه ارقى كالقائمقام الذى يعتبر رئيسا للجنة الامناء . ويوجد بالاضافة إلى هؤلاء ستة أو ثمانية من الموظفين يؤدون خدمات اجرائية أو كتابية ويتقاضون رواتب وهدايا كبيرة ، حتى أصبح عدد منهم من ذوى اليسار والغنى لادارتهم ممتلكات الروضة .

ويخصص القسم الاكبر من مصروفات الروضة لرواتب عدد كبير من الخدم وغيرهم . وقد بلغ عدد المسجلين من البوابين فى قائمة الرواتب ، حتى اوقت قريب ، نحو ٧٠٠ يدفع لكل منهم سنويا ٢٥ دولارا و ١٠٠٠ رطل من الحبوب . وينقسم البوابون إلى جماعات تتناوب العمل ، نوبة كل جماعة منهم ٢٤ ساعة فى كل يوم خامس ، فيقومون بحراسة الروضة والمراقبة . ويوجد إلى جانب هولاء نحو الف خادم يتقاضون ضعف ما يتقاضاه البوابون لهم خمس نوبات . ولكل جماعة فى نوبتها ليلا عشاء لذيذ من البلاو ،

أى الرز ولحم الغنم ، وهو طعام مشهور فى الشرق الادنى ، ويوزع عليهم عند البوابة الذهبية. وواجبات هؤلاء الخدم تطهير الصحن أو الاروقة وغيرها مما علق بها من النجاسة بالماء (١) وإيقاد الشمع أو القناديل والكنس وغير ذلك. وللبواب (دربان) والخادم الحق فى دفن خمسة من أقاربه فى مقبرة الروضة. اما اليوم فقد أنقص عدد هؤلاء بأمر الشاه الحالى من ١٧٠٠ إلى نحو ثلث ماكان عليه قبل خمس سنوات.

وعدا هؤلاء الموظفين المسجلين نجد عددا ممن اتخذ ساحة الروضة مرتزقا لهم . فهناك صنف من الوعاظ يعظون الناس من المنابر الكثيرة المنفرقة فى الصحن والاروقة . وهناك الحفاظ يقرءون القرآن ، جزءا كل يوم من أيام الشهر عن انفسهم أو عن كثير من الناس مقابل دريهمات . وهناك أيضا نحو اربعين أو خمسين مطوفا (زيارت خونان) يتقدمون الزوار فيستأذنون لهم بالدخول عند الضريح ويقرءون السلام عند اماكن معينة من القبر . ويدفع اليهم الزوار بعض المال على سبيل الهدية .

وكان إلى زمن قريب نساخ للأدعية والزيارات يجلسون فى الصحن القديم فيبيعون الادعية للجهال من الناس ليربطوها حول زنودهم أو زنود أطفالهم دفعا للمرض أو جلبا للحظ . وهناك بعض الفقهاء لعقد المتعة ويتظاهرون بكتابة الادعية . والطريقة للراغب فى التمتع أن يذهب إلى غرفة صغيرة مجاورة للزاوية الشمالية الشرقية للضريح ، ويعرف بمسجد النساء ، فيخبر القيمة برغبته : (زن متعت يا زن صيغت) فيتفق معها على مقابلة البنت التى تختارها له فى اليوم التالى ، ويقوم أحد طلبة العلم بالعقد ليوم أو أسبوع أو شهر أو قدر مايرغبان، ويزودهما بشهادة فى ذلك . ولا ينظر الناس إلى المتعة بانها عمل

---

(١) ان مقدار الماء اللازم لتطهير بقعة ما من النجاسة هو ملء سطل مكعب طول كل ضلع منه ٣ اذرع .

غير اخلاق ، فهى حلال عندهم بالقرآن والحديث .

ويتجول بائعو الطلاسم المختلفة بكثرة فى صحون الروضة يبيعون ما يحملونه منها إلى مئات الالوف من الزوار الوافدين على المدينة كل سنة . ولابد من التنويه بفضل الادارة الحالية للروضة ، التى قامت اجابة للشعور العام المتزايد بمنع هذه الطفيليات — كتاب الادعية ، والذين يعقدون المتعة ويبيعون الطلاسم — من ممارسة مهنتهم علنا فى الجوار المباشر للروضة .

المشهد مدينة مستقلة عن الروضة

كان لتقدم المعـارف فى إيران تأثير فى تقليل نفوذ مشهد الرضا شيئا فشيئا . وليس فى زيادة الدخل السنوى ازدياد لأهميته عن ذى قبـل ، بل ذلك لقيام الحـكومة نفسها باستغلال الواردات والاملاك باعتباره مؤسسة عامة ، فى سبيل غايات مفيدة . فشيدت مستشفى جديدا واسـعا ، ومدارس عصرية للبنين والبنات ، وشاركت فى فتح شوارع جديدة ومتحف ومكتبة — وكلها تدل على وجهة نظر مختلفة من جانب الحـكومة فى صرف أموال الروضة . وليس هذا مصادرة بل صرف فى سبيل الخير والفائدة . ولم تعـد فـكرة معيشة آل النبى والأئمة فى رخاء على نفقة الأمة مما يرضاها الـكل . وكان للامر الذى يقضى على الايرانيين كافة بلبس القبعة الوطنية أثر فى نفوس الطبقات الممتازة التى تتميز عن غيرها بلبس العمائم .

وربما كان أكثر أهل المشهد يميلون قلبيا إلى وجهة النظر هذه ، ويجد المعارضون صعوبة متزايدة فى مقاومة تطور الافـكار التى بدرت بوادرها فى جميع الطبقات . فالحق الالهى لطبقات الاشراف ، بصرف النظر عن المزايا العقلية أو الخلقية ، يقابله الناس اليوم بالهزء والسخرية . وقـد لاحظ كثير من السائحين الذين زاروا المشهد فى القرن الماضى ان الروضة هى التى كونت المدينـة ، لـكن كون المشهد عاصمة خراسان ومدينـة تجارية مناسبة ،

مما لا يمكن غض النظر عنه . وقد أخذت تنمو فى السنوات الاخيرة شيئا فشيئا مستقلة عن الروضة ، فابنيتها الجميلة فى القسم الجنوبى ومطارها فى الشرق ومسكن الموظفين الجديد قرب دار الحكومة ومئات الابنية الجديدة على الشوارع الرئيسة ووسائل النقل الحديثة فيها إلى المدن الرئيسة فى المقاطعة وإلى روسيا وبلاد الافغان والهند ، ومستشفياتها ومدارسها ودور السينما فيها وحدائقها ومكتباتها ومطاعمها واسالة الماء فيها وحافلاتها وملهاها الجديد الواسع ، هذه كلها جعلت المشهد الجديد فى الحق مدينة ، ويبلغ عدد سكانها حسب الاحصاء الجديد ٠٠٠ ر ١٣٠ نسمة ، فهى أكبر المدن المقدسة فى الاسلام ورابعة المدن فى إيران .

الباب السابع عشر

الامام محمد التقى

الذى رعاه الخليفة المأمون

لم يكن السلام سائدا على أطناب المملكة الاسلامية عند ما عاد المأمون إلى بغداد . فان نصر بن شبث كان مستقلا ببلاد الشام ، وكانت مصر ثائرة ، وبابك الخرمى ينشر الفزع فى اذربيجان ، هذا ولم تخل مناطق خليج البصرة من العيث والفساد على يد الزط ، وهم من قبائل الجاط بالهند ،والذين يقال انهم اصل النور (١) أضف إلى ذلك وثوب الحرورية فى خراسان عند ما كان المأمون فى طريقه إلى بغداد .

وكان دخوله بغداد دخول الفاتح لادخول المتوسل . ولكنه أظهر كرما فى العفو عمن قاومه أو غدر به ، وميلا إلى أن يرضى جهده مختلف الطوائف والفرق فى المملكة ، وعفا عن الفضل بن الربيع الوزير الاسبق لاخيه القتيل الامين وتركه وشأنه . وكان الذين يشاركون الخليفة فى مشايعته آل على قد شهدوه وهو يدخل بغداد « ولباسه ولباس قواده وجنده والناس كلهم الخضرة » (٢) . ولكنه لم يلبث ان أعاد لبس السواد ، شعار بنى العباس ، قبل أن ينقضى على ذلك شهر . وخلع على قواده وأعيان البلاد ورؤساء الدولة الخلع السوداء . وبذلك أظهر أنه عندما كان فى خراسان قد أخطأ

---

(١) عصر المأمون للرفاعى (ج١ ص ٢٧٠) ولسترنج - Lands of the Eastern Caliphate— (ص ٢٤٥ - ٣٣١)

(٢) تاريخ اليعقوبى طبعة هوتسم (ج ٢ ص ٥٥١)

فى اختيار اللون . فهل كان هذا التغير قد حدث بعد مغادرته مرو بقليل فادى إلى اشتراكه فى القضاء على حياة الامام الرضا ، كما يتمسك به الشيعة من الرأى ، أو لوفاة الامام الفجائيــة و نفور الناس الشديد من الشيعة فى بغداد ، فرأى ان علائم الزمن تشير نحو السواد ، لونا محظوظا ، فهذه امور لايمكن البت فى الجواب عنها .

وكان وزيره الفضل بن سهل قد قتل وهو فى الحمام ، اثناء سفر المأمون من مرو إلى بغداد . وكان مجوسيا فأسلم ، وهو يتعصب للفرس ويميل إلى الشيعة . وله الفضل الاكبر فى التأثير على المأمون فى تعيين الامام الرضا وليا للعهد وتزويجه ابنته أم حبيب منه . ويتراءى لنا سؤال آخر فيما يتعلق بقتل الفضل بن سهل ، وهو :هل قتل بمعرفة المأمون وتحريضه أم هل فعل الحزب العربى ذلك ليتخلص من هــذا الوزير المكروه ؟ وقــد يكون من المهم أن نعرف ما كان من الحسن بن سهل وهو عامل المأمون على العراق وبلاد العرب عنــدما سمع بمقتل أخيــه وتسلم الرءوس الثلاثة للمتهمين بقتله . هذا وقد أرسل له الخليفة كتابا يعزيه فيه ويعده بتوليته الوزارة بعد أخيه . غير أن كل ما نعلمه هو أن الحسن بن سهل أصابه خبل وقتى ، أو اعتبر كذلك مدة من الزمن . ثم نسمع بعد ذلك انه شفى وزوج ابنته للمأمون .

وكان من سياسة المأمون فى إرضاء الرجال الاقوياء فى مملكته والاحتفاظ بهم بقدر الامكان أن عين الحسن بن سهل حاكما على العراق ، فادى خدمات جلى فى الاغراض العلمية والثقافية لدار الخلافة . فانه رغم الحروب والاختلافات السياسية فى كافة الاتجاهات على زمن المأمون ، فان هذا الدور ربما كان غاية ما وصلت اليه النهضة العلمية فى الشرق . وهو عصر تسوده حرية الرأى والمناقشة . وكان الاقبال فيــه على ترجمة الــكتب المشتهرة من اليونانيــة وتشجيع الشعر والفن والعلم شديدا .

والأهم لحياة الأمام محمد التقى هو أن المأمون بقى يميل الى التشيع حتى بعد أن أبدل الخضرة بالسواد . وقد فعل ذلك لضرورة سياسية ضد رغبته الشخصية. فانه لم يكتف بتعيين الشيعة البارزين من الفرس فى الوظائف المهمة بل أظهر عطفا شديدا نحو بيت الامام الرضا المتوفى . فاختار أحد اخوته ليحج بالناس ، ولم تمض مدة طويلة حتى زوج ابنته أم الفضل إلى محمد التقى ابن على الرضا ، ويقول اليعقوبى انه أمر له بالفى الف درهم ، وقال: انى أحببت أن أكون جدا لمرء ولده رسول الله وعلى بن أبى طالب .

وكان عمر محمد التقى ، ويلقب حينا بالجواد ، تسع سنين (أو سبعا على قول آخرين) عند وفاة أبيه . وكان بالمدينة آنئذ ، وكان صغر سنه سببا فى شك كثير من الشيعة بامامته ، فلما جاء موسم الحج ذهب عدد من رجالهم البارزين وعلمائهم من مختلف البلاد إلى الحج ، فلما رأوه زال الشك عن قلوبهم . وروى الكلينى أن المتولى سأله ثلاثين الف مسألة يمتحنه بها فأجاب عنها جميعا ودام ذلك ثلاثة أيام (١) . وأمه ليست أم حبيب بنت المأمون بل أم ولد مشكوكا فى أصلها ، ويقول الكلينى إنها نوبية واسمها سبيكة ، وقيل أيضاً إن اسمها كان خيزران وهى رومية . وروى أنها كانت من أهل بيت مارية أم ابراهيم بن رسول الله ﷺ (٢)

ويروى الشيعة قصة طريفة عن أول لقاء بين الخليفة المأمون ومحمد التقى وهو صبى . فيظهر انه جاء إلى بغداد بعد وفاة أبيه بمدة قصيرة (٣).

وصادف أن خرج المأمون يوما إلى الصيد ومعه بزاته ، فاجتاز بطرف البلد فى طريقه والصبيان يلعبون ومحمد التقى واقف معهم وعمره إذ ذاك نحو ١١ سنة . فلما أقبل الخليفة انصرف الصبيان هاربين ووقف محمد فلم يبرح

---

(١) خلاصة الاخبار (الفصل ٢٧ المعجزة ١٥).

(٢) اصول الكافى للكلينى (ص ٢٠٣).

(٣) بحار الانوار للمجلسى (ج ١٠ ص ٩٥) وخلاصة الاخبار (الفصل ٣٧ المعجزة ١٦).

مكانه ، فنظر اليه المأمون ثم سأله ، ياغلام ، مامنعك من الانصراف ؟فقال : يا أمير المؤمنين ، لم يكن الطريق ضيقة فأوسعه لك بذهابى ولم يكن لى جريمة فاخشاها، وظنى بك حسن أنك لاتضر من لاذنب له فوقفت . فاعجب المأمون كلامه وساق جواده الى وجهته ، فلما بعد من العمارة أخذ بازيا فارسله على دراجه فعاد وفى منقاره سمكة صغيرة ؛ فأخذها المأمون فى يده فسأل الغلام وهو لايزال فى مكانه مافى يدى ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، الله تعالى خلق بمشيئته فى بحر قدرته سمكا صغارا يصيدها بزاة الملوك والخلفاء ، وهم يأخذونها فى أيديهم فيختبرون بها سلالة أهل النبوة .

وجمع المأمون بعد ذلك بقليل مجلساً ليمتحن الامام ، ودام المجلس أياماً عديدة ، وقداجاب الامام على كل المسائل ، فاندهش الناس من ذلك . فزوجه المأمون بابنته وأمر له بمال كثير . ويروى أن الامام أطرق عند ذلك برأسه ومات بنو العباس غيظا وكمدا (١)

وبذلك أظهر المأمون اهتمامه المستمر وعطفه على الشيعة . وجعل ابن الامام الرضا المتوفى تحت رعايته ، وكان الامام الفتى يأتى قصر المأمون بين آن وآخر للدرس ومحادثة العلماء الذين يجتمعون هناك . غيرأن من سوءالحظ أن الرواة قد أكدوا الاعجاز فى ماقدبلغه من العلم، بصرف النظر عن الحوادث التى قد تظهر دراسته . فمما يخيب الأمل مثلا أن نقرأ شهادة يحيى بن أكثم ، وهو من الناس الذين أرادوا امتحان الامام ، فسأله مسائل كثيرة قبل أن يعترف بامامته ، فنجد أن كل ماذكره هو أنه سأله :من الامام ؟ قال : أنا . قال:ومابرهانك ؟ فتكلمت عصا محمد التقى وقالت ، ان صاحبى هذا هو امام العصر وحجة الله (٢)

---

(١) بحار الانوار للمجلسى (ج ١٢ ص ٩٢) وتذكرة الأئمة (ص ١٥٥) .
(٢) خلاصة الاخبار (الفصل ٣٧ المعجزة ١٠) .

وبعد سنة أو نحوها من زواج الامام سمح له الخليفة أن يأخذ زوجته الصغيرة ويذهب الى المدينة ، وقد سر بنو العباس بذلك لكراهتهم أن يروا تفضيله عليهم فى بغداد . فعاش فى المدينه عيشة بسيطة كمن تقدمه من الأئمة ، مدة ثلاث سنوات ، يقابل من يأتى لزيارته ويكرم الفقراء ويتحاشى التدخل فى القضايا العامة . وقد صنع معجزات عدة تشبه تلك المعجزات التى صنعها باقى الأئمة ، كاخباره بأن جارية معينة ستحمل بغلام لرجل ، وجعل شجرة تحمل فاكهة ، بينما صلى عدة ركعات عند قبر النبى ، وأفرح عجوزا باحيائه بقرة ميتة لها . أما حياته مع زوجته زينب بنت الخليفة ، وتعرف بام الفضل ، فيقال إنها لم تكن حياة سعيدة ، لأن سلوك هذه الزوجة الشرعية لم يكن يتفق والصداقة والحب المتبادل الذى يجب أن يكون بين الزوج وزوجه، فكانت تكتب إلى أبيها تتهم زوجها وتذكر أنه يعاشر الجوارى ، وذلك لتخلق العداء ضده . وقد نبهها لهذه الأقوال ولأنها تحرم ما أحل الله (١) .

وعادت زوجته من المدينة إلى بغداد بعد سبع سنوات من زواجها لحضور زواج الخليفة المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل، البالغة من العمر ثمان عشرة سنة ، ذلك الزواج الذى لم تشهد بغداد مثله . وكانت فرصة جميلة يشهدها الامام ، فقد نثر على العريس اللؤلؤ بدل الرز ، فيجمع ويعطى الى العروس ، وقد البستها زبيدة زوج الرشيد ثوبا من الجواهر واللؤلؤ، وأوقدت غرفة العروس بشموع العنبر ، وبذل أبو العروس وهو من أغنى الفرس وأعظمهم شأنا ، اعترافا بامتنانه لهذا الشرف العظيم ، مبالغ لاتعد ولاتحصى ، وأعطى من الهدايا مالا يوصف ، فنثر على الناس بنادق مسك فيها أسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك ،فكانت البندقة اذا وقعت بيد الرجل فتحها فقرأ مافيها وقبضها ، وخلعت على الناس خلع سنية

(١) سل ، اثنى عشرية ، مدراس ١٩٣٥ عن تحفة المتقين(ص ٦٦)

وهكذا انتهى العرس الذى لم يسبق له مثيل (١)

ونشأ خلاف واحد فى بغداد بين الامام التقى وأم الفضل سبب للأسرة المالكة انزعاجا كبيرا . فيروى عن حكيمة اخت الامام الرضا أن أم الفضل أخبرتها بأن امرأة اتتها كأنها قضيب بان أو غصن خيزران ، وقالت : أنا زوج الامام التقى . فدخل على أم الفضل من الغيرة مالم تملك نفسها ، فنهضت من ساعتها وصارت إلى المأمون ، وقد كان ثملا من الشراب وقد مضى من الليل ساعات ، فأخبرته بحالها وقالت له : يشتمنى ويشتمك ويشتم العباس وولده . قالت: فغاظه ذلك منى جدا ولم يملك نفسه من السكر وقام مسرعا وضرب بيده إلى السيف وحلف أنه يقطعه بهذا السيف مابقى فى يده . وصار اليه .. فدخل اليه وهو نائم فوضع فيه السيف فقطعه قطعة قطعة .. فلما أفاق من السكر ندم ندما شديدا وأرسل من يأتيه بخبره ، فعاد وأخبره أنه وجده يصلى صلاة الصبح وقد استوهبه ثوبه الذى عليه ليرى آثار الجرح فلم يجد. فارسل الخليفة إلى الامام يسأله الركوب اليه . قالت أم الفضل : « ووبخنى وحلف ان شكوت زوجى اليه مرة أخرى لا يرى وجهى ما دام حيا » (٢)

واشتغل الامام مدة بقائه فى بغداد ، وهى ثمان سنوات ، بالتدريس . ويذكر ابن خلكان (٣) انه كان يروى مسندا عن ابائه آل على بن أبى طالب (رض) أنه قال : « بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال لى وهو يوصينى: يا على ، ما خاب من استخار الله ولا ندم من استشار . يا على ، عليك بالدلجة فان الارض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار . يا على : اغد باسم الله فان الله بارك لامتى فى بكورها ». وكان يقول : « من استفاد أخا فى الله فقد استفاد بيتا فى الجنة » .

---

(١) موير The Caliphate , Rise ,Decline and Fell (ص ٥٠٣).

(٢) خلاصة الاخبار (الفصل ٣٧ المعجزة ١٧).

(٣) ابن خلكان ترجمة دى سلان (ج ٢ ص ٥٨٠).

وكان فى الزمن الذى يدرس فيه الامام التقى فى بغداد ان صار المـأمون تحت نفوذ المعتزلة شيئا فشيئا وعـلى الاخص رئيسهم القاضى احمـد بن أبى داود . حتى أظهر المأمون سنة ٢١٢ (٨٢٧) فـكرة خلق القرآن . « وكان الفرس يتولون إدارة المقاطعات . وكان أشد نـكاية من ذلك أن أمر المأمون بسب معاوية على المنابر (٨٢٦) . وفى السنة التالية أمر بتقديم ذكر عـلى على المنابر . وأعلن أن التلاوة مخلوقة ، فـكان ذلك ضربة للاسلام فى أساسه ، كان لها تأثير طويل لهم .

« ويروى انه ورد إلى المأمون من كابل كتاب اسمه العقل الخـالد يحاول كاتبه هدم الاسلام بدعواه ان العقل هو المنبع الوحيد للدين ،وان الوحى لايكون الاساس الثابت الذى يبنى عليه السلوك العـام . فاصبح البحث عن دين العقل والضمير هذا وترقيته بعد ذلك همة الدائم . فاظهر الشك بواسطة الجدل ولم يكن يسمح لاحد ان يبرهن بالنقل بل العقل.وبذلك بدأ المأمون دون ان يشعر بالسير فى طريق من شأنه ان يزعزع الايمان الذى كان مرة أساس الاسلام ووحيه ، وهو الذى بعث فى المجاهدين روحا وعزيمةفىقتالهم الشديد ، واخرج ملك الامة من ظلمات الجـاهلية إلى مقدمة شعوب العالم ونزعه منها » (١) .

وكما أشرنا سابقا فان المعتزلة ذوى الافـكار الحرة كانوا متشددين جـدا فى معاملتهم لباقى المسلمين (٢) وكانوا يميلون إلى اجبارهم عـلى قبول فـكرة خلق القرآن . وأصاب القضاة والفقهاء على يدهم محنة عظيمة ، فجلدوا وسجنوا لاجبارهم عـلى ذلك القول . اما العلويون فـكانوا معززين مكرمين (٣) . ونلاحظ انه لم يتعرض أحد خاصة إلى الامام التقى ، فلم يوقف

---

(١) The Sareceus, Jilman ـ ـلة Storyo the Nation

(٢) Moore ,of History ot Religion (ج ٢ ص ٤٣٨ ، ص ٢٨٤ ، ٢٨٥)

(٣) دائرة المعارف الاسلامية مادة : مأمون

أو يزعج طول مدة حكم المأمون . إن مركزه يجعل من الصعب ان نفترض أنه تمكن من تحاشى الجدل فى هذا الموضوع الكلامى ، واقرب تفسير محتمل لذلك هو أنه كان يتظاهر بموافقة رأى الحزب الذى فى الحكم ، وهى طريقة لا يجد اتباعه من الشيعة صعوبة بتفسيرها بالتقية (١) .

واضطر المأمون إلى مغادرة بغداد سنة ٢١٥ (٨٣٠) فى حملته العظمى ضد ثيوفيل . والسبب المباشر لهذه الحرب مجهول ، ويظن أن ملك الروم كان يمد بابك الثائر سرا وانه شجع الألوف من نصارى الفرس على الهجرة من بلاد الخليفة (٢) . ويقول بعضهم ، ان السبب هو رفض ملك الروم ذهاب ليون السلانيكى الفيلسوف إلى بغداد (٣) بدعوة من الخليفه المأمون ومهما كان السبب ، فان الحرب دامت سنتين وتوفى المأمون فجأة فى مدينة قرب طرسوس ، مولد الرسول بولس فى كليكيا ، وصلى على الخليفة المأمون. المفكر الحر ، حسب وصيته ، واوقد الشمع والبخور تقليدا لما كان يتبعه النصارى حينئذ (٤) .

وبعد وفاة المأمون عاد الامام محمد التقى مع أهله إلى المدينة وبقى ما يزيد على السنة حتى دعاه المعتصم الخليفة الجديد ، وهو أخ المأمون، إلى بغداد ، وكان ذلك فى أول السنة التى مات فيها الامام وهى سنة ٢٢٠ (٨٣٥)وليس هناك دليل على ان العلاقة مع الخليفة الجديد كانت غير حبية ، إلا أن بعض الروايات المذكورة فى الكتب التى يقرؤها الشيعة (٥) تقول انه مات مسموما

---

(١) اصول الكافى للكلينى (ص ٣١٦).

(٢) Every man's Library ,History of the Bye autine Empire
Jeorge Fiulay , (ص ١٤١ ، ١٤٢).

(٣) The Saraceus , Dilmaw سلسلة Story of the Nations (ص ٣٨٦)

(٤) دائرة المعارف الاسلامية مادة « مسجد » (ج ٣ ص ٣٤٤).

(٥) عقائد الشيعة ، مشكاة ، وتحفة المتقين (ص ٦٣) وما بعدها .

سمته زوجته أم الفضل بتحريض المعتصم . ولا تتفق هذه الروايات على تفاصيل هذه التهمة ، فيقول بعضها انها سمته بمنديل يتمسح به فى الفراش ، وتقول الروايات الاخرى انها اعطته عنبا مسموما . وأخرى تذكر ان المعتصم أرسل له شرابا مسموما بيد خادم ، أو يقال انه دعاه إلى قصره ووضع له السم بالطعام . ويروى مصنف كتاب بحار الانوار (١) عن بعض الكتب المعتبرة المتقدمة لكتاب ارشاد المفيد وكشف الغمة فيقول : « وقيل انه مضى مسموما . ولم يثبت عندى بذلك خبر فأشهد به » .

قال الكلينى (٢) : ودفن بمقابر قريش فى ظهر جده أبى الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام ، وصلى عليه الواثق ابن الخليفة المعتصم .

---

(١) بحار الانوار للمجلسى (ج ١٢ ص ٧٨) وما بعدها .
(٢) أصول الكافى للكلينى (ص ٢٠٣) .



الباب الثامن عشر

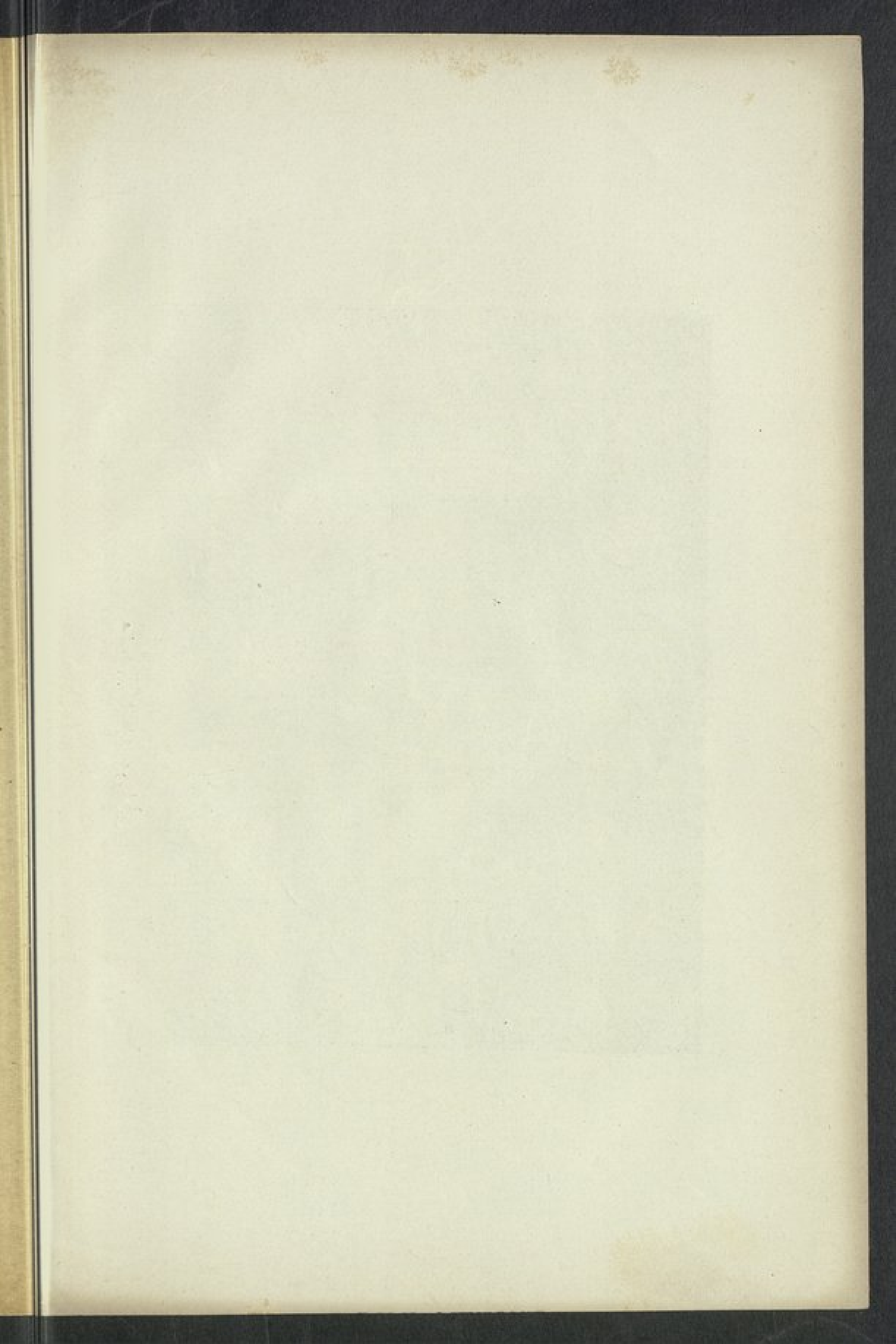
مشـــهد الـكاظمين

لابد للقادم إلى بغدادمن الشمال أو الغرب أن يتأثر بمنظر المآذن الذهبية الاربعة فوق مشهد الـكاظمين ، موسى بن جعفر ومحمد التقى .وهما الامامان السابع والتـاسع من الأئمة الاثنى عشر ، ويقصدهما الشيعة من المسلمين طلبا لدفع الامراض عنهم والاستشفاع بهما من الذنوب . وعلى كل باب من الأبواب المقدسة لهذا المشهد سلسلة كبيرة تشير إلى حدود الحرم الذى لايسمح لغير المؤمنين باجتيازه . ويستطيع من لا يجوز له الدخـول ان ينظر من الأبواب فـيرى النقوش الدقيقة التى تزين واجهة البناء ، أو أن يصعد إلى سطح بيت قريب ، كما فعل المؤلف وزوجه ليفوزا بنظرة اشمل . وقد أصبح من الميسور فى السنوات الاخـيرة التقرب جوا من المشهد . وهـو سبيل مفتوح لاهل الاديان كافة. وترى من التصوير الجوى تخطيط المشهد بأجمعه.

ويرجع عهد البناء الحالى إلى بداية القرن السادس عشر ، وقـد أجريت فيه الترميمات بصورة مستمرة وبعناية تامة . والبناء الحالى هو على ما جدده الشاه إسماعيل الأول (١٥٠٢ — ١٥٢٤) ، وقد بقى على حاله رغم استيلاء السلطان سليمان الـكبير على بغداد وبقائه فيها مدة أربعة أشهر فى سنة ١٥٣٤ فزار مشاهد الشيعة المقدسة وأمر باضافة نقوش وتزيينات أخرى إلى مشهد الـكاظمين. أما تذهيب القبتين فأمر به الشاه أغا محمد أول الشاهات القاجاريين سـنة ١٧٩٦ . واصلحت إحـدى القباب وكسيت المنـائر بالذهب . بامر



مشهد الكاظميين من الجو



ناصر الدين شاه . وتجد تاريخ كل ترميم أو اصلاح مكتوبا فى وضوح على البناء نفسه (١) .

وإذا ما تذكرنا أن الامامين المدفونين هنا توفيا فى ابتداء القرن الثامن عشر ظهرت لنا فترة تقدر بنحو ٧٠٠ سنة تقريبا فى تاريخ القبرين قبل أن يأمر الشاه إسماعيل الأول بتجديد البناء . وقد عاش الامامان فى أوائل عهد بغداد عندما كانت أسوار المدينة المدورة لا تزال قائمة على الجانب الغربى من دجلة . وكان إلى شمال المدينة وغربها مقابر تعرف بأسماء مختلفة ، وهى مقبرة باب الشام ومقبرة العباسيين ومقبرة باب التبن (٢) .وقددفن الامامان فى غرب المقبرة الاخيرة مباشرة .

وعلى زمن اليعقوبى كانت الجهة الشمالية كلها تعرف عامة باسم مقبرة قريش (٣) . ويؤكد الشيعة ان الامامين ماتا مسمومين أو قتلا بصورة من الصور . ومما يلفت النظر ان الامام محمد التقى ،عندما توفى صلى عليه أحد امراء بنى العباس (٤) . وهذا يدل قطعا على خطر مركز الامام ، فكان لابد من ان يبنى فوق قبره ضريح .

والمعلومات الوحيدة الميسورة لدينا عن أهمية زيارة هذا القبر فى أول الامر ، هى الاحاديث المشكوك بصحتها والتى تنسب إلى الامامين الثامن والعاشر . وهذه الاحاديث عبارة عن أجوبة ، كما يقال ، عن اسئلة وجهتها اليهما الشيعة عن فضل زيارة الكاظمين .

فيروى عن الامام الرضا انه اخبر بعض شيعته بأن يسلم على أبيه الامام موسى الكاظم من وراء الجدار أو من مسجد قريب ان خاف ان يفعل

---

(١) دائره المعارف الاسلامية ماده « كاظمين » .

(٢) طبقات ابن سعد (ج٧(٢)ص٦٨، ١-١٨، ٩٩، ١-١٣، ٦٩، ١-٢١و٨٠، ١-٩١)

(٣) تاريخ اليعقوبى طبعة هوتسما(ج ٢ ص ٤٩٩).

(٤) أصول الكافى للكلينى (ص ٢٠٢).

ذلك عند القبر نفسه ، فيما إذا حالت السلطات السنية فى بغـداد أو تشددت دون ذلك . وقال: ان فضل زيارته كفضل من زار قبر الحسين فى كربلاء أو زار قبر الرسول ﷺ فى المدينة أو قبر على بالنجف . فنستدل من ذلك على وجود بناء ما حينذاك فوق قبر موسى الكاظم ، وان هذا البناء كان مسورا.

وروى عن الامام عـلى التقى — الذى عاش فى زمن المتعصم وقـد تمتع بعطف كبير كان الخلفاء يظهرونه للشيعة ، حتى كان له رد فعـل ضدهم وضد المعتزلة فى زمن المتوكل — صورة الزيارة التالية :

إذا اردت زيارة قبر موسى بن جعفر وقبر محمد بن على بن موسى فاغتسل أولا وتنظف وتعطر والبس ثوبيك الطاهرين ثم قل عند قبر الامام موسى :

السلام عليـك يا ولى الله ، السلام عليك ياحجة الله ، السلام عليك يانور الله ، يانور الله فى ظلمات الليل ، السلام على من بدا لله فى شأنه ، اتيتك زائرا عارفا بحقك ، معاديا لاعدائك ، مواليا لأوليائك فاشفع لى عند ربك يامولاى»

قال الامام على التقى : « ثم سل حاجتك ثم صل مسلما على الامام عـلى التقى بمثل ذلك ».

ثم أوضح المجلسى ، الذى اورد هذه الاخبار فيما يجب على الزائر القيام به عنـد زيارة هذا المشهد ، السبب فى اختصار هذا الدعاء بقوله « كان من الضرورى عندئذ استعمال التقية لئلا يصيب الشيعة ضرر» . (١)

وتروى قصة يرجع عهـدها إلى القرن الذى توفى فيه الامامان عن رجل اسمه الحسن بن جمهور قال :

« وفى سنة ٢٩٦ هـ . على زمن وزارة على بن احمـد بن الفرات ، رأيت احمد بن ربيع ، وكان أحد كتاب الخليفة ، وقد ظهر جرح فى إحدى يديه ولم تزل تزداد العلة حتى اسودت يده ونتنت وظهرت منها رائحة كريهة ،

---

(١) تحفة الزائرين للمجلسى (ص ٨ ٣٠) ومابعدها .

وامر المعالج بقطعها ، ولم يشك من رآه بأنه ميت ، فنام فرأى أمير المؤمنين فيما يرى النائم فلجأ اليه وسأله الخلاص . فقال له : يا أحمد ، انى لمشغول عنك . اذهب إلى ولدى موسى بن جعفر وسله حتى تبرأ من علتك . فلما انتبه اغتسل وتطيب وأمر أن يحملوه فى محمل إلى موسى بن جعفر ، ففعلوا ذلك وجاءوا به إلى القبر الشريف.فرمى بنفسه على القبر وجعل يبكى ويتضرع ويتمسح بتراب القبر ويطلب الشفاء ،ثم شد يده. فلما أصبح جاءوا وكشفوا عنها فاذا الجلد واللحم قد تناثر وظل العظم والعروق والاعصاب ، وانقطعت الرائحة الكريهة . فلما سمع الوزير بذلك استدعاه ليروى له ما حدث . وبعد مدة قصيرة عاد اللحم والجلد وتمكن من العودة للكتابة . واضاف المجلسى قائلا : « وفى كل زمن يظهر عند قبرى هذين المعصومين من المعجزات والكرامات مالا حاجة لذكر ما حدث منها فى الماضى ففى زمننا هذا يتكرر كثير من هذه الحوادث التى يطول سردها » (١) .

وبعد ان أصبح خلفاء بنى العباس العوبة بايدى القادة من مرتزقة الاتراك ظهر البويهيون فى إيران ، وفى سنة ٩٤٦ م . سملت عينا الخليفة المستكفى بأمر من الامير معز الدولة البويهى ، وعين ابنه المقتدر للخلافة بالاسم ،بينما كانت السلطة الحقيقية بيد الامير البويهى .

وذكر ابن الاثير « ان البويهيين كانوا يتحزبون للعلويين ويعتقدون ان العباسيين قد غصبوا ملكا يعود لغيرهم » (٢) ولكنهم لم يتعرضوا للخلافة بل اكتفوا بالاحتفاظ بالسلطة وجباية الاموال لانفسهم . وأمروا باقامة المناحات على الحسين فى العشرة الاولى من محرم كل سنة (٣). وبذلوا الهدايا الاموال على مشهد الكاظمين . ويذكر أن الخليفة الطائع اقام صلاة الجمعة

---

(١) تحفة الزائرين للمجلسى (ص٣٠٩).

(٢) الكامل لابن الاثير (ج ٨ ص ١٧٧) .

(٣) براون Persian Literature in Modern Times (ص ٣١)

فى مسجد الكاظمين (٢) ومن ذلك نرى ان هـذا المشهد أصبح فى زمن عز الشيعة بحكم البويهيين ، محط رحال الزوار الوافـدين « والمكان الذى تلتف حوله الطائفة الشيعية » .

وفى خلال هذا الدور صنفت أمهات كتب الحديث عند الشيعة . وقـد مات الكلينى فى بغداد سنة ٩٣٩ م . بعد أن صنف « الكافى فى علم الدين » وربما كان أهم المصادر الشيعية . وجاء ابن بابويه إلى بغـداد من خراسان سنة ٩٦٦ وانـكب على الدرس والتأليف وصنف كتابه (مالايحضره الفقيه) وهو من امهات كتب الشيعة فى الفقه والحديث . ثم جاء الطوسى بعد وفاة ابن بابويه ، من خـراسان وجلس للتدريس فى بغـداد وصنف الكتابين الاخيرين من الكتب الاربعـة فى الحـديث وهما (التهذيب والاحكام والاستبصار) .

ولم تنقطع الاضطرابات فى هذا الزمن الذى كانت فيه للشيعة اليد الطولى فكانت تنشب بين آن وآخر بين الشيعة وأهل السنة.وحدث فى سنة١٠٥١م اضطراب كبير بين الطائفتين كان سببه تعليق الشيعة بعض الكتابات على أبواب المدينة فى تفضيل على ، وقتل أحد رؤساء السنة ، واجتمع خلق كثير منهم فىجنازته ثم هجموا علىمشهدالكاظمين وخربوا قبرى الامامين،ونهبوا قناديل الذهب والفضة والستائر المعلقة عليهما . وعادوا فى اليوم واحرقوا القبتين اللتينمن الساج واللتينكانتا على قبرى الامامين، فلم يبق لهما اثر (٢) .

ولم تمض على احراق المشاهد سنة ١٠٥١ مدة طويلة حتى حل السلاطين السلاجقة محل البويهيين ، فاستولوا على إيران وصاروا حماة الخلفاء فى بغداد وقـد تعلموا الاسـلام فى محيط بخارى السنى ، ولما جاءوا بغداد لم يتعرض

---

(١) براون Baghdad during the Abbasid (ص ١٦٢)

(٢) كذلك (ص ١٦٤) Calidhate

أحد منهم بسوء إلى مشهد الكاظمين ، وزار السلطان ملكشاه ذلك المشهد سنه ١٠٨٦ وأمر بترميم البناء الذى تخرب كما يظهر بحريق قبل ٣٥ سنة (١) .

وذكر ابن جبير فى رحلته (٢) ، عند وصفه بغداد ذلك الوصف الدقيق، قبر موسى بن جعفر ، ولم يذكر اسم الكاظمين ولا قبر الامام محمد التقى . مما يدل على إدبار الأمر عن الشيعة حتى لم يعد الناس يزورون هذا المشهد المجاور لبغداد بصورة منتظمة .

ولم تمض ١٥٠ سنة على ذلك حتى أصابت النار قباب هذا المشهد فأحرقتها. وكان ترميمها من الأمور المهمة التى جعلته العمل الوحيد المهم الذى أمر به الخليفة الظاهر فى خلافته القصيرة . وذكر ابن الطقطقى ذلك فى كتابه الفخرى (٣) وكان قد تولى — كما هو المعروف — بعد أبيه نظارة المدن المقدسة عند الشيعة فى جوار بغداد ، فنستدل على ان هذه الطائفة الصغيرة كانت تتمتع ببعض الحقوق المعينة المحدودة، وان لم تكن كلها . وقد انتقل مركزها من بغداد إلى الحلة . وازدادت أهمية النجف وكربلا كمدن للزيارة .

وجاء المغول بجيوشهم الجرارة سنه ١٢٥٨ م وأوشكوا أن يخربوا ظاهر بغداد وداخلها تخريبا تاما . وكان يقال بوجود اتفاق على عدم التعرض للمدن المقدسة الشيعية ، وكان مشهد الكاظمين ، الوحيد منها الذى أصابته بعض الاضرار ، وربما يعزى ذلك إلى أن تخريب الجانب الغربى من بغداد كان قد تم أولا . وربما حدث فى اثناء محاصرة القلعة التى فى الجانب الشرقى ان جاء وفد الشيعة من الحلة واتفق مع هولاكو على حماية النجف وكربلا بصورة خاصة . ومهما كان الامر فان المغول خربوا بغداد تخريبا فظيعا واحرقوا قبرى الكاظمين « وكاد ان يقضى على سكانها جميعا البالغ عددهم

---

(١) كذلك (ص ١٦٣).

(٢) رحلة ابن جبير ، متن Wright وتلخيص دى غويه (ص ٢٢٦).

(٣) كتاب الفخرى لابن الطقطقى (ص ١٦٣).

٨٠٠ ر ٠٠٠ نفس حسب قول رشيد الدين أو (٢ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠ على قول المقريزى) قتلا . وهكذا قضى على أنبل مدينة افتخر بها الشرق . وكانت مطمع انظار العالم الاسلامى حيث اجتمع رغد العيش والمال والعلم خمسة قرون . . . وكان ما سلب منها عظيما إلى درجة ان الجنود من الكرخ والتتر كانوا ينوءون بحمل الذهب والفضة والجواهر واللؤلؤ والأقمشة الثمينة وأوانى الفضة والذهب وغيرها . . ولم يكن لأوانى الصينى والكاشانى التى تستورد إلى بغداد من الخارج قيمة فى نظرهم ، فكانوا يحطمونها أو يلقون بها جانبا . وبلغ الغنى بالجند ان رصعوا سروج دوابهم وأدواتهم بالأحجار الثمينة واللؤلؤ . وكسر بعضهم السيوف الفضية وحشو أغمادها بالذهب ، وأفرغ آخرون أحشاء قتلاهم من البغداديين وملأوها بالذهب والأحجار الثمينة وحملوها معهم من المدينة » (١) .

اما كيفية موت آخر الخلفاء العباسيين فقد كتب عنه الكثيرون ولم تعرف حقيقته. فقال بعضهم :ان هولاكو اشمأز من بخل الخليفة وهو يملك هذا المقدار من الذهب ولم يبذله فى سبيل الدفاع عن مدينته أو ينفقه للاتفاق معه . فيروى ماركو بولو ان هولاكو لما دخل بغداد أدهشته كثرة الذهب فيها فاشمأز من بخل الخليفة وأمر به ان يسجن بتلك المدينة ويمنع عنه الطعام والشراب حتى يموت فى وسط ثروته ميتة شنيعة (٢) . وتستند هذه القصة على ما رواه ميرخوند وجوانفيل ومكا كيا المؤرخ الارمنى . وكانت كما قال هوارث أساسا لقصيدة رائعة فى وصف هذه المأساة نظمها Longfellow قال :

I said to the Caliph, Thou art old
Thou hast no need of so much gold
Thou should, st not have heaped and hidden it there

---

(١) Howarth' History of the Mongols (ج ٣ ص ١٢٦ و ١٢٧)

(٢) Travels of Marco Polo' the Venetian (الفصل ٨)

Till the breath of battle was hot and near
But have sown through the land these useless hoards
To spring into shining blades of swords
And Keep thine honour sweet and clear ..

◎ ◎ ◎

Then into his dungeon I locked the drone
And left him there to feed all alone
In the honey of his golden hive
Never a prayer' nor a cry' nor a groan
Was heard from those massive walls of stone
Nor again was the Khaliph seen alive

وتدل الروايات الأخرى على حدوث نقاش حول جواز قتل الخليفة . فذكر المنجم حسام الدين وقوع حوادث جسام إذا سفك دم الخليفة . وروى ان منجما آخر وهو شيعي اسمه نصير الدين الطوسي قال: ان مثل هذه الحوادث لم تقع عند قتل يحي بن زكريا ولا عند وفاة النبي ولا عند قتل الحسين . ويذكر في الحقيقة « انه كان من المحتمل ان يعفو هولاكو عن الخليفة فلا يأمر بقتله ، وقد أثر فيه ما رأى من مظاهر الحزن والكرب على وجوه المسلمين من السنية حوله ، لولم يحوله عن رأيه رجال الشيعة الذين كانوا معه ، وكانوا يشعرون بالبغض الشديد للعباسيين ».

والحقيقة التي تلفت النظر بهذه المناسبة هي أن وزير الخليفة في بغداد لم يتعرض أحد لحياته، وهذا الوزير هو مؤيد الدين بن العلقمي وهو من الشيعة ، ويقال انه خابر هولاكو وزين له فتح البلاد . ومهما كان الأمر فان الخليفة أعدم يوم ٢١ شباط ١٢٥٨ . (ويذكر وصاف والنويري انه لف في بساط وداسته الخيل لئلا يسفح دمه وذلك حسب ما جاء في الياسا لجنكيز ، التي تمنع سفك دم الملوك) .

ولكن الوزير بقي حيا « واحتفظ بوزارته ، مكافأة له على ولائه المشكوك به » وتولى المناصب الكبيرة في الدولة عدد من الفرس البارزين

دون العرب والترك ، وكان من بين الابنية التى تجدد بناؤها مشهد الكاظمين (١)
ولم تسترد بغداد مكانتها بعد سقوط بنى العباس . وحكمها الايلخانيون
من بيت هولاكو ٨٢ سنة على أنها مدينة العراق الرئيسة لا العاصمة .
وزارها المستوفى فى أواخر أيامهم سنة ١٣٣٩، ويذكر أنه رأى مشهد الكاظم
وحفيده التقى الامامين السابع والتاسع ، ويقول عن الكاظمين : إنه وحدها
مدينة يبلغ طول محيطها نحو ٦٠٠٠ خطوة (٢) .

واستولى الجلائريون على الحكم من الايلخانيين واتخذ رئيسهم الشيخ
حسن الكبير بغداد مقاما له سنة ١٣٤٠ وكانت خير مدينة تصلح لمقره القبلى .

ونزل تيمور بغداد بعد ذلك بنحو ٥٠ سنة أى سنة ١٣٩٣ اثناء قيامه
بفتوحاته العظيمة ، وبقى فيها نحو ثلاثة أشهر ، فقد حاصرها فى صيف تلك
السنة وافتتحها ، ويذكر مؤلف كتاب ظفر نامه الفارسى « ان الحر كان
شديدا حتى مات السمك فى الماء ، وغلى اللعاب فى الفم ، وسقطت الطيور
ميتة بعد ان احترقت أكبادها من الحر » .

ويصف الفظائع التى جرت فى المدينة وصفا دقيقا . فقد سدت سبل النجاة .
ولما أخذت النيران تلتهم ما وجدته كان الناس يلقون بانفسهم فى الماء للنجاة
من النار والسيف ، وامتلأ سوق الرقيق وبيع ابن الثمانين بقيمة ابن الاثنى
عشرة . وشبت نيران الاحقاد حتى احرقت ثياب التاجر الغنى واسمال المكدى
العليل على السواء . وأمر الجنود بان يجلب كل منهم رأسا ، فلم يكتف
بعضهم بذلك فجاءو بما قدروا على حمله . واستجار بعض العلماء والرؤساء
بتيمور فأجارهم وأشركهم فى الغنائم ، واستحر القتل فى الناس حتى كاد ان
يقضى عليهم ، ولم تسلم الا المساجد والمدارس والتكايا . ويقال ان تيمور

---

(١) كتاب حوادث الآنف الذكر (ص ١٢٧ – ١٣١)
(٢) نزهة القلوب للمستوفى ، الترجمة الانكليزية ، تذكار جب (ج ٢٣ (٢) ص ٤٢)

غادر بغداد « هاربامن الرائحة النتنة التى كانت تنبعث من جثث القتلى » (١)

ولما غادر تيمور بغداد ، أمر باعادة بنائها . ولـكن مشهد الـكاظمين بقى على حاله فلم يعمره أحد . وعاد الجلائريون بعد وفاة تيمور وبقوا فى بغداد مدة قصيرة حتى أخرجوا منها على يد التركمان القره قويونلية ، وحل هؤلاء بها من سنة ١٤١١ — ١٤٦٩ عند ما أخرجهم منها التركمان الآق قويونلية . وهكذا مر عـلى بغداد دور طويل من الاهمال حكمتها خلاله اجيال متعاقبـة من قبائل شبه متوحشة . ولما أخذ الشاه اسماعيل الصفوى مدينة بغداد سنة ١٥١٩ اكمل بناء مشهد الـكاظمين على الصورة التى نشاهدهبها اليوم .وبقيام الشاه اسماعيل يبدأ دور بارز فى الأحياء الشيعية فى إيران . وسنبحث تاريخ اردبيل فى آذربيجان بدلا من ذكره فى وصف مشهد الـكاظمين فى بغداد .

ويقدر عدد الـكاظمين الآن بين ٦٠٠٠و٨٠٠٠ ويبلغ عدد الزوار احيانا على ما يقال بين ٠٠٠ ر ٢٥و٠٠٠ ر ٣٠ فى اليوم . وإذا نظرنا إلى الـكاظمين من الوجهة الأخرى فان هذا المشهد بقبابه المزدوجة المـكسوة بالذهب يؤلف منظرا من أجمل المناظر فى بغداد ، وإذا ما درسناه من الوجهة التاريخية خلال ١٢٠٠ سنة فانه يمثل خلاصة تقلبات الزمن على مدينة الف ليلة المشهورة .

---

(١) ظفرنامه لشريف الدين عـلى اليزدى طبعة كلـكتا (١٨٨٧ - ١٨٨٨) ج ٢ ص ٢٦٣ - ٢٦٩)

الباب التاسع عشر

الامام على النقى عليه السلام

السجين عشرين عاما

فى النصف الأول للقرن التاسع الميلادى كانت كل من الرومية والقسطنطينية وبغداد قد استسلمت للقوى الناهضة للشعوب الاجنبية . ففى يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ وضع البابا لثو الثالث تاج الامبراطورية على رأس شارلمان ملك الفرنجة العظيم. وفى سنة ٨٤٣ «انقسمت أراضى الامبراطورية» وفق معاهدة فردون إلى ثلاث ممالك منفصلة . فالفرنج الغربيون الذين يتكلمون بلغة مشتقة من الرومانية قدر لهم ان يؤلفوا فى المستقبل الذى كان لا يزال بعيدا الدولة القومية التى ندعوها فرنسا ، أما الفرنج الشرقيون ويتكلمون بلغة تيوتونية فقدر لهم ان يصبحوا المانيا التاريخية، والمملكة الوسطى التى شملت لمدة قصيرة برغندية واللورين وايطاليا (١) .

اما فى أمبراطورية بوزنطية فقد اضطر ثيوفيل (٨٢٩—٨٤٢) للاحتفاظ بسلطته للتعرض إلى مخاطرة عظيمة فى استخدام جيوش من الفرس والارمن وحدث مثل ذلك فى بغـداد فى هذه الفترة ، فان الخليفة المأمون والمعتصم وخلفاءهما الاقربين وضعوا جل اعتمادهم على جنود الاتراك المأجورين ، خوفا من المؤامرات والدسائس من العناصر المتنازعة القومية فى الاسلام، فأسسوا زيادة فى حماية انفسهم مدينة عسكرية جديدة فى سامرا على بعد ٦٠ ميلا إلى

---

(١) Christianity in the Light of Modern Knowledge, a colleetive Work publ. Hagecourt, Brace & Coy 1929, p. 532.

شمال بغداد ، واتخذوها مقرا لهم . ولم تمض مدة طويلة حتى أخذ القادة الاتراك الذين قضت جيوشهم على الثورات المتكررة فى البلاد الاسلامية ، من فرض سلطانهم واصبحوا هم السادة الحقيقيين ، وصار الخليفة سجينا فى مدينته التى أسسها ليس له من الخلافة الا مظاهرها . ففى هذا العصر الذى كانت السلطة تنتقل سريعا إلى ايدى الاتراك ، عاش الامام العاشر على النقى عليه السلام .

ويختلف فى سنة ولادته فمن قائل انها سنة ٨٢٧ ومن قائل انها سنة ٨٢٩ (١) . فاذا أخذنا بالتاريخ الأول فان عمره كان قد جاوز السبع بقليل عندما توفى والده . وأمه ، حسب الرواة الذين نقلنا عنهم ، أم ولد اسمها سمانة المغربية ، الا أن صاحب كتاب عقائد الشيعة (المشكاة ٤) يقول بان اسمها كان سوسن ويقال لها الدرة المغربية (درة مغربيه) وهذا يدل على انها كانت من سبايا بعض الامم النصرانية .

ونشأ الغلام فى المدينة حتى بلغ مبلغ الرجال وكان يشتغل فى التعليم ، فقصده كثيرون للاخذ عنه ، من البلاد التى يكثر فيها شيعة آل محمد ، وهى العراق وايران ومصر . ولا نسمع خلال السنوات السبع أو الثمان الباقية من ملك المعتصم بعد وفاة الامام محمد النقى عليه السلام والسنوات الخمس الأولى من حكم الواثق ، ان احدا تعرض للامام الشاب . وكان من الاحاديث التى رواها انه قد كتب فى الصحيفة التى عند على بن أبى طالب (ع) باملاء رسول الله ﷺ ويتوارثها الأئمة (ع) صاغرا عن كابر ، ان النبى ﷺ قال : الايمان ما وقرته القلوب وصدقته الاعمال ، والاسلام ما جرى به اللسان وحلت به المناكحة » (٢) .

---

(١) اصول الكافى للكلينى (ص ٢٠٦) وبحار الانوار للمجلسى (ج ١٢ ص ١٠٠)
(٢) مروج الذهب للمسعودى (ج ٧ ص ٣٨٢) .

إلا أن فى خلافة المتوكل قامت حركة ضد المخالفين يصحبها اضطهاد أسلوبى للمعتزلة والشيعة . ولم ينج من ذلك إلا من كان صحيح الاعتقاد . وفى سنة ٨٥١ عند ماكان عمر الامام نحو ٢٥ سنة منع المتوكل زيارة قبرى الامامين على والحسين (ع) ثم أمر أخيرا بهدم قبر الحسين .

وارتاب الخليفة فى هذه الفترة أيضا بالامام محمد التقى الشاب . وانقذ الامام نفسه مرة على الاقل حسب قول المسعودى ، بجواب يدل على الدهاء على سؤال ماكر وجهه اليه الخليفة . قال المتوكل : « ما يقول ولد أبيك فى العباس بن عبد المطلب ؟ » قال : « وما يقول ولد أبى أمير المؤمنين فى رجل افترض الله طاعة بنيه على خلقه وافترض طاعته على بنيه ؟ » فسر الخليفة بالجواب وأمر له بمئة الف درهم (١) .

وينقل المسعودى حادثة أخرى رواها عن المبرد وقد ذكرها ابن خلكان عند وصفه الامام على النقى (أبى الحسن العسكرى) (٢) . قال : « وقدكان سعى بأبى الحسن (ع) إلى المتوكل وقيل له ، ان فى منزله سلاحا وكتبا وغيرها من شيعته ، فوجه اليه ليلا من الاتراك وغيرهم من هجم عليه فى منزله على غفلة ممن فى داره فوجده فى بيت وحده مغلق عليه وعليه مدرعة من شعر ولا بساط فى البيت إلا الرمل والحصى وعلى رأسه ملحفة من الصوف متوجها إلى ربه يترنم بآيات القرآن فى الوعد والوعيد . فاخذ على ما وجد عليه وحمل إلى المتوكل فى جوف الليل . فمثل بين يديه والمتوكل يشرب وفى يده كأس . فلما رآه أعظمه ، وأجلسه إلى جنبه ، وقال من أتى به : ياأمير المؤمنين ، لم يكن فى منزله شىء مما قيل فيه ولا حالة يتعلل عليه بها . فناوله المتوكل الكاس الذى فى يده فقال : يا أمير المؤمنين ، ماخامر لحمى ودمى قط فاعفنى منه . فعافاه ، وقال انشدنى شعرا أستحسنه . فقال : إنى لقليل الراوية للاشعار . فقال : لابد أن تنشدنى . فأنشده :

---

(١) كذلك (ص ٢٠٦)

(٢) ابن خلكان . ترجمة دى سلان (ج ٢ ص ٢١٤) .

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم — غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم — وأودعوا حفرا يابئس مانزلوا
ناداهم صارخ من بعد دفنهم — أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التى كانت منعمة — من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم — تلك الوجوه عليها الدود ينتقل
قد طال ما أكلوا قدما وما شربوا — وأصبحوا بعدطول الأكل قدأكلوا

واشفق من حضر على أبى الحسن الهادى ، وبكى المتوكل بكاء شديدا حتى بلت دموعه لحيته ، وبكى من حضر ، ثم أمر برفع الشراب . ثم قال : يا أبا الحسن ، أعليك دين ؟ قال : نعم . أربعة الاف دينار . فأمر بدفعها اليه ورده إلى منزله مكرما من ساعته » .

وحدث يحيى بن هرثمه قال : « وجهنى المتوكل الى المدينة لاشخاص على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر لشىء بلغه عنه ، فلما صرت اليه ضج أهلها وعجوا ضجيجاً وعجيجاً ماسمعت مثله ، فجعلت اسكنهم وأحلف لهم أنى لم أومر فيه بمكروه ، وفتشت بيته فلم أجد فيه الامصحفا ودعاء وماأشبه ذلك ، فاشخصته وتوليت خدمته وأحسنت عشرته .

«فبينا أنا نائم يوما من الأيام والسماء صاحية والشمس طالعة اذ ركب وعليه ممطرة وقد عقب ذنب دابته .فعجبت من فعله .فلم يكن بعدذلك الاهنيهة حتى جاءت سحابة فأرخت عز اليها ونالنامن المطر أمر عظيم جداً ، فالتفت إلى وقال :أنا أعلم أنك أنكرت مارأيت وتوهمت أنى علمت من الأمرمالا تعلمه. ليس ذلك كما ظننت ، ولكن نشأت بالبادية فانا أعرف الرياح التي يكون وفي عقبها المطر . فلما أصبحت هبت ريح لاتخلف وشممت منها رائحة المطر فتأهبت لذلك .

«فلماقدمت مدينة السلام بدأت باسحاق بن إبراهيم الطاهرى —وكان على بغداد— فقال: يايحيى، ان هذا الرجل.قدولده رسول الله ﷺ،والمتوكل من

تعلم ،وان حرضته على قتله كان رسول الله ﷺ خصمك. فقلت : والله ماوقفت له الاعلى كل أمر جميل . فصرت إلى سامراء فبدأت بوصيف التركى وكنت من أصحابه فقال : والله لئن سقطت من رأس هذا الرجل شعرة لايكون المطالب بها غيرى . فعجبت من قولهما . وعرفت المتوكل ماوقفت عليه وما سمعته من الثناء عليه ، فأحسن جائزته وأظهر بره وتكرمته »(١).

وقال المسعودى أيضاً :«وقد ذكرنا خبر على بن محمد بن موسى رضى الله عنه مع زينب الكذابة بحضرة المتوكل ونزوله إلى بركة السباع وتذللها له ورجوع زينب عما ادعته من أنها ابنة الحسن بن على بن أبى طالب ، وأن الله تعالى اطال عمرها إلى ذلك الوقت ، فى كتابنا (أخبار الزمان) » (وقد فقد هذا المؤلف العظيم)(٢)

وبالرغم من كل ذلك فان عدة وشايات بلغت مسامع المتوكل عن الامام على النقى فجعله اسيرا بسامراء . وكانت هذه المدينة تعرف بالعسكر لان المعتصم بناها لتكون معسكرا لجنده خارج بغداد ، فصار الامام يعرف بالعسكرى لسجنه فى مدينة العسكر عشرين سنة .

أما معجزاته التى رواها اصحابه وشيعته فمعظمها يرجع إلى حياته فى سامراء . فقد روى أبو هاشم الجعفرى أنه رأى مرة جماعة من الناس قادمين من المدينة إلى سامراء لخرج الامام على النقى من المدينة للقائهم وقد امتطى جوادا عليه مرج مذهب ، فلما بلغ مكانا فى الصحراء ترجل وتوسد الرمل . واغتنم أبوهاشم الفرصة ليشكو اليه حاله وضيق ذات يده . فقال الامام : «لاتحزن فسأزيل عنك همك » ثم تناول حفنة من الرمل والحصى ودفعها اليه

---

(١) مروج الذهب للمسعودى (٧ ص ٢٧٩ - ٢٨٢) و صول الكافى للكلينى (ص٢٠٦) وبحار الانوار للمجلسى (١٢ص ١٠٠)

(٢) المسعودى كذلك (ص ٢٨٣) . خلاصة الاخبار فصل ٣٨ المعجزة الخامسة .

قائلا « أيكفيك هذا ؟ » فارتبك أبو هاشم . ولما فتح يده بعد ذلك ليرى، وجد ذهباً أحمر . وتحسنت حال أبي هاشم بذلك مدة طويلة .

وروى انه ركب مرة مع محمد بن الخصيب فحثه هذا على الاسراع بجواده. فأجابه الامام: « ستقيد فى السجن قبلى » . ولم تمض أربعة أيام حتى قيد محمد الخصيب وقتل بعد ذلك بأيام قليلة .

وروى أن جماعة من المماليك عرفوا الامام على النقى بحضور الخليفة فسجدوا أمامه وقبلوا يديه ورجليه . فسأل المتوكل بلتان رئيسهم عن فعلهم فقال : انه لايعلم عنه شيئاً . فسأل الخليفة المماليك: « لم فعلتم هذا ؟ » فقالوا : « إن هذا الرجل يأتينا من البحر كل سنة فيعلمنا أمور ديننا ، وهو وصى خاتم النبيين وقد شاهدنا منه المعجزات » . فلما سمع الخليفة كلامهم قال لبلتان : « اقتل هؤلاء المماليك » . فقال بلتان : فقتلتهم ودفنتهم . فلما جن الليل أردت زيارة الامام فقمت وذهبت اليه مسرعا لايقافه علي الخبر . فأخبرنى خادم الباب أن الامام يطلبنى. فاخذنى معه إلى (الاندرون) . فوجدت الامام قاعداً فقال لى : « كيف حال المماليك ؟ » فقلت: « لقد قتلتهم جميعاً » . فسألنى : « أقتلتهم جميعاً ؟ » فأجبته : « أقسم لك بذلك » . ثم سألنى: « أتريد أن تراهم ؟ » قلت : نعم. ولكنى أخبرك بأنى قتلتهم ودفنتهم . فأشار إلى أن أدخل الاندرون ففعلت فرأيت المماليك جميعاً . ويذكر مؤلف خلاصة الأخبار أن هذا الخبر موجود فى كتابين أو ثلاثة ، والله وحده أعلم بصحته . (١)

وتدل هذه الاخبار على أن الامام على النقى كان يتمتع فى أكثر الاحيان بحرية شخصية كبيرة فى حياته بسامراء — فيلقى أصحابه ويركب خارج المدينة ويجلس بحضرة الخليفة ، إلا أنه كان محاطا بالجواسيس . ويقال ان المتوكل أمر أخيرا بقتله . فجلس يوما فى الدار وأمر حاجبه بادخال الامام ودعا باربعة

---

(١) خلاصة الاخبار فصل (٢٨ المعجزات ٢ ، ٣ ، ٤) .

من الخدم وسيوفهم مسلولة وأمرهم بقتله عند الاشارة ، فلما خرج الامام كان الخدم الاربعه عند الباب بسيوفهم المسلولة ، ولكنهم عندما رأوه القوا سيوفهم وخروا سجدا مذعورين. فسأل المتوكل عن سبب فعلتهم هذه. فقالوا: إنهم رأوا رجلا بيده سيف مسلول وهو يقول لهم : إن مسستم الامام بسوء قتلتكم جميعا . فلم يجرءوا على إطاعة أمر الخليفة بقتله ، وبذلك يقال بان الامام نجا بعون الاهى .

وبعد مدة أصاب المتوكل دمل وخراج من القعود والقيام ، فاستدعى الاطباء لفتحه، فامتنع الخليفة ، ولم تنجع فيه الادوية الأخرى . فأرسلت أم المتوكل سرا إلى الامام لتستشيره ، فوصف لها لبخة من بعر العنز . فلما قرئت الوصفة على الاطباء ضحكوا منها ورأوا عدم فائدتها . ولكن الفتح بن خاقان أشار بتجربتها . فما كادت أن توضع على الدمل حتى انفجر وشفى الخليفة (١) .

وقتل الخليفة بعد سنة ٨٦١ بيد جنوده الاتراك الذين أخذوا يسيطرون على أمور بغداد ويتحكمون خاصة في الخلفاء فى سامراء . ومات ابنه المنتصر بعده بسنة وحكم المستعين ٣ سنوات ومات سنة ٨٦٥ . ولكن الامام على النقى عاش سجينا مكرما فى سامراء .« وقد وفى مؤرخو الشيعة البحث فى مناقبه . وإذا ما ألقينا بالمبالغات العظيمة ، التى تتصف بها بحوثهم عن الامام ، جانبا ظهر لنا بانه كان هادىء الطبع كريم النفس ، عانى طول أيامه من بغض المتوكل كثيرا، واحتفظ رغم كل ذلك بكرامته وأظهر مقدرة على الصبر (٢) .

---

(١) Sell اثنى عشرية CLS ١٩٢٥ (ص ٤٤) وخلاصة الاخبار فصل (٣٨ المعجزة ٢١).

(٢) Sell كذلك (ص ٤٧)

ويقول اليعقوبي انه « توفي (١) . . لثلاث بقين من العشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٤ (٨٦٨ م) وبعث المعتز باخيه أبي احمد بن المتوكل فصلى عليه في الشارع المعروف بشارع أبي احمد . فلما كثر الناس واجتمعوا وكثر بكاؤهم وضجتهم رد النعش إلى داره فدفن فيها . وكانت سنه أربعين سنة . وخلف من والذكور الحسن جعفرا »

---

(١) تاريخ اليعقوبي طبع هوتسما (ج ٢ ص ٦١٤) ومروج الذهب للمسعودي (٧ ص ٣٧٩) .

الباب العشرون

الامام الحادى عشر

الحسن العسكرى

لايعلم بالضبط المكان الذى ولد فيه الامام الحادى عشر الحسن العسكرى، وهل هو المدينة أو سامراء. وقد جاء إلى الدنيا سنة ٢٣٠هـ أو بعدذلك بسنة أوسنتين. ويقول الكلينى: انه ولدسنة ٢٣٢، ولكنه لم يذكر محل ولادته(١) وقد أورد المجلسى فى المجلد الثانى عشر من بحار الانوار اراء مختلفة عن المتقدمين من الرواة دون ان يوضح هذه النقطة (٢). الا اننا نعلم ان الامام عليا النقى لم يؤخذ سجينا إلى سامراء حتى سنة ٢٣٤ هـ. وعلى ذلك فان المدينة كانت مسكن هذا البيت حتى ذلك التاريخ، ويحتمل ان يكون الامام ولد فيها. وهو كاغلب الأئمة أمه أم ولد يقال لها حديث، وقد سماها بعضهم سوسن أو غزالة أو سليل أو حربته. اما ألقابه فكانت الصامت والهادى والرفيق والزكى والنقى، ولكن اللقب الغالب عليه هو العسكرى لسكناه العسكر. اما كنيته فهى أبو محمد. وقد يعجب القارىء الاجنبى عند قراءته الكتب الفارسية أو العربية، ويرى طريقة استخدام الكنية بكثرة عند وصف أعمال الصبيان كقولهم مثلا: «ولما كان عمر أبى محمد سنتين».

وعلى كل حال فان ابا محمد لما كان عمره سنتين (أو ربما ثلاثاً أو أربعاً) حمل أبوه الامام على النقى (انظر الباب ١٨) إلى سامراء بأمر الخليفة المتوكل

---

(١) اصول الكافى للكلينى (ص ٢٥٨)

(٢) بحار الانوار للمجلسى (ج ١٢ ص ١٢٢). انظر ابن خلكان طبعة بولاق (ج ١ ص ١٤٧)

وسجن هناك بتهمة اشتراكه فى بعض المؤامرات . وقد سمح له بالسكنى فى داره كما سمح لاهله بالمجىء الى سامراء . فنشأ الصبى هناك وقضى معظم وقته بالدرس . وربما اهتم بدراسة اللغات فضلا عن الدراسة الاعتيادية التى يحصل عليها صبيان المسلمين فى القرآن والشريعة . فنرى بعد سنين بأنه كان يتكلم بالهندية مع الزوار الهنود والتركية مع الاتراك والفارسية مع الفرس (١) . وكانوا يدعونه وأباه وجده « بابن الرضا » فقد كانت طائفة كبيرة من الشيعة تعرف بالوقفية تقول بوقف الامامة عند الامام على الرضا ولا يسوقونها فى أولاده.

ومن المعجزات التى تروى عن الحسن العسكرى مايذكر بأنه سقط وهو طفل فى بئر، فصاح نساء البيت وركضن الى أبيه وكان يصلى، فلم يلتفت وأخبرهن بأن لا ضير على الصبى . ثم ذهب إلى البئر فرأى الصبى يلعب فوق سطح الماء. ثم ارتفع الماء إلى السطح فأخرج (٢) .

ولما بلغ من العمر السابعة عشر أو الثامنة عشر على زمن المستعين تمكن من ركوب بغل غير مروض للخليفة .وقد أشيع بأن الخليفة كان يأمل أن يقتله البغل . وقد اندهش عندما رأى أن الامام تمكن من البغل تمكنا تاما وهناك حكاية ظريفة عن الصعوبات التى تجشمها أبوه فى سبيل الحصول على جارية نصرانية . وقد طلب من صديقه بشر بن سليمان أن يؤدى له هذه المهمة ، فكتب له كتابا « بخط رومى » وطبع عليه خاتمه الشريف وأخرج شقة حمراء فيها مائتان وعشرون دينارا وقال : خذها وتوجه بها إلى بغداد وأحضر معبر الفرات ضحوة يوم كذا، فاذا وصلت إلى جانبك زوارق السبايا رأيت الجوارى فيها ستجد طرائف المبتاعين من وكلاء قواد بنى العباس وشرذمة من فتيان العرب . فاذا رأيت ذلك فأشرف من البعد على المسمى

---

(١) خلاصة الاخبار (الفصل ٣٩ المعجزة ١٧)

(٢) » » » (٣٩ » ١٩)

عمر بن يزيد النخاس عامة نهارك إلى أن يبرز للمبتاعين جارية صفتها كذاوكذا لابسة حريرين صفيقين تمتنع من العرض ولمس المعترض والانقياد لمن يحاول لمسها وتسمع صرخة رومية من وراء ستر رقيق فاعلم أنها تقول: « واهتك ستراه » . فيقول بعض المبتاعين : على بثلثمائه دينار، فقد زاد بى العفاف فيها رغبة. فتقول له بالعربية : « لو برزت فى زى سليمان بن داود وعلى شبه ملكه مابدت لى فيك رغبة ، فأشفق على مالك . فيقول النخاس . فما الحيلة ولا بد من بيعك ؟ فتقول الجارية : وما العجلة ولابد من اختيار مبتاع يسكن قلبى اليه والى وفائه وأمانتـه . فعند ذلك قم إلى عمـر بن يزيد النخاس وقـل له إن معك كتابا لبعض الاشراف كتبه بلغة رومية وخط رومى ووصف فيه كرمه ووفاءه ونبله وسخاءه ، فناولها لتتأمل منه اخلاق صاحبه، فان مالت اليه ورضيته فانا وكيله فى ابتياعها منك .

قال بشر: فامتثلت جميع ماحده لى مولاى أبو الحسن (ع) فى أمر الجارية. فلما نظرت فى الـكتاب، بكت بكاء شديداوقالت لعمر بن يزيد : بعنى من صاحب هذا الـكتاب وحلفت بالمحرجـة والمغلظة أنه متى امتنع من بيعها منه قتلت نفسها . فما زلت اشاحه فى ثمنها حتى استقر الامر فيه على مقدار ما كان اصحبنيه مولاى (ع) من الدنانير . فاستوفاه منى وتسلمت الجارية ضاحكة مستبشرة، وقد أخرجت كتاب مولانا (ع) من جيبها وهى تلثمه وتطبقه على جفنها وتضعه على خـدها وتمسحه على بدنها . فقلت تعجباً منها : تلثمين كتابا لاتعرفين صاحبه فقـالت : أيها العاجز الضعيف المعرفه بمحل أولاد الانبياء ، أعرنى سمعك وفرغ لى قلبك :

« أنا مليكة بنت يشوعا بن قيصر ملك الروم ، وأمى من ولد الحواريين تنسب إلى وصى المسيح شمعون . أنبئك بالعجب . ان جدى قيصر أراد أن يزوجنى من ابن أخيه ، وأنا من بنات ثلاث عشرة ، فجمع فى قصره من نسل الحواريين من القسيسين والرهبان ٣٠٠ رجل . ومن ذوى الأخطار منهم

٧٠٠ رجل . وجمع من أمراء الأجناد ، وقواد العسكر ، ونقباء الجيوش ، وملوك العشائر ٤٠٠٠ ، وأبرز من بهى ملكه عرشاً مصاغاً من أصناف الجوهر إلى صحن القصر ، ورفعه فوق أربعين مرقاة . فلما صعد ابن أخيه وأحدقت الصلبان قامت الأساقفة عكفاً ونشرت أسفار الانجيل ، تسافلت الصلبان من الأعلى فلصقت بالأرض وقوضت أعمدة العرش ، فانهارت إلى القرار ، وخر الصاعد من العرش مغشياً عليه . فتغيرت ألوان الأساقفة ، وارتعدت فرائصهم ، فقال كبيرهم لجدى : أيها الملك ، اعفنا من ملاقاة هذه النحوس الدالة على زوال دولة هذا الدين المسيحى والمذهب المليكانى . فتطير جدى من ذلك تطيراً شديداً . وقال الأساقفة : أقيموا هذه الأعمدة وارفعوا الصلبان وأحضروا أخا هذا المدبر العاهر المنكوس جده لأزوجه هذه الصبية فيدفع نحوسه عنكم بسعوده . فلما فعلوا ذلك حدث على الثانى مثل ما حدث على الأول ، وتفرق الناس وقام جدى قيصر مغتما . فدخل منزل النساء وأرخيت الستور .

« ورأيت فى تلك الليلة كأن المسيح وشمعون وعدة من الحواريين قد اجتمعوا فى قصر جدى ونصبوا فيه منبراً من نور يبارى السماء علوا وارتفاعاً فى الموضع الذى كان نصب جدى فيه عرشه . ودخل عليهم محمد ﷺ وختنه ووصيه وعدة من أبنائه (ع) فتقدم المسيح إليه فاعتنقه . فيقول له محمد ﷺ : يا روح الله ، إنى جئتك خاطباً من وصيك شمعون فتاته مليكة لابنى هذا ، وأومأ بيده إلى أبى محمد (ع) ابن صاحب هذا الكتاب . فنظر المسيح إلى شمعون ، وقال له : « قد أتاك الشرف ، فصل رحمك برحم آل محمد (ع) . قال : قد فعلت . فصعد ذلك المنبر ، فخطب محمد ﷺ وزوجنى من ابنه ، وشهد المسيح عليه وشهد أبناء محمد (ع) والحواريون . فلما استيقظت أشفقت أن أقص هذه الرؤيا على أبى وجدى ، مخافه القتل ، فكنت أسرها ولا أبديها لهم . وضرب صدرى بمحبة

أبي محمد (ع) حتى امتنعت من الطعام والشراب ، فضعفت نفسى ودق شخصى ، ومرضت مرضاً شديداً . فما بقى فى مدائن الروم طبيب إلا أحضره جدى وسأله عن دوائى . فلما برح به اليأس . قال : يا قرة عينى ، وهل يخطر ببالك شهوة فأحققهالك فى هذه الدنيا ؟ فقلت : يا جدى ، أرى أبواب الفرج على مغلقة ، فلو كشفت العذاب عمن فى سجنك من أسارى المسلمين ، وفككت عنهم الأغلال ، وتصدقت عليهم ، ومنيتهم الخلاص ، رجوت أن يهب لك المسيح وأمه عافيتك » . فلما فعل ذلك تجلدت فى إظهار الصحة من بدنى قليلا وتناولت يسيراً من الطعام . فسر بذلك وأقبل على إكرام الأسارى وأعزهم . فرأيت أيضاً بعد أربعة عشر ليلة كأن سيدة نساء العالمين فاطمة (ع) قد زارتنى ومعها مريم بنت عمران . . . فأخبرتنى أن أبا محمد لن يزورنى مالم أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فتكلمت بهذه الكلمة ... وفى الليلة القابلة رأيت أبا محمد (ع) .

قال بشر : فقلت لها وكيف وقعت فى الأسر ؟ فقالت : أخبرنى أبو محمد (ع) ليلة من الليالى : ان جدك سيسير بجيش إلى قتال المسلمين يوم كذا وكذا ثم يتبعه . فعليك باللحاق بهم متنكرة فى زى الخدم مع عدة من الوصائف من طريق كذا . ففعلت ذلك فوقعت علينا طلائع المسلمين . حتى كان من أمرنا ما رأيت وما شاهدت .

وروى بشر أنه لما انكفأ بها الى سامرا دخل على الامام على النقى . فأحسن استقباله ، ثم سأل الجارية : ما اذا كان أحب اليها عشرة آلاف دينار أو بشرى لها ؟ فاختارت الثانية . فبشرها بأنه سيعطيها الى ابنه الحسن كما رأته فى المنام ، وأنها ستلد ولداً يملأ الدنيا قسطاً وعدلا . ثم أودعها عند حكيمة أخت الامام على النقى لتعلمها الفرائض والسنن .

ذلك ما رواه المجلسى عن شراء نرجس خاتون بصورة أكثر تفصيلا

نقلا عن الشيخ الطوسى (١) . ولكنه لايصف الزواج . فالفتاة إنما هى جارية مملوكة مشتراة ، وكل ما فى الأمر أن يهبها الأب إلى ابنه . وروت حكيمة كيف أنها زينت الفتاة وأرسلتها إلى الحسن العسكرى . قالت : فمكثا فى بيتى أياماً ثم أرسلتهما إلى بيت أخى . وكان إذ ذاك قد انتقل عن العالم فصار الحسن العسكرى مكانه إماماً (٢) .

وبعد وفاة الامام على النقى أمر الخليفة أحد حراسه الأتراك بحمل الحسن العسكرى الى بغداد . فأودع السجن هناك وبقى كذلك مدة خلافة المهتدى القصيرة . غير أن أكثر ما أصابه من الأذى فى السجن كان على زمن الخليفة المعتمد الذى ولى الخلافة بعد المهتدى . وتصفه كتب الشيعة الخاصة بترجمة حياة الحسن العسكرى (٣) ، بأنه كان أشد الناس إيذاء له . فقد منع عنه حتى ماء الوضوء . ورمى مرة بين السباع فلم يهبها ، بل انه مسح رءوسها وفرش سجادته وقام يصلى والسباع حوله واقفة ، فأخبر الخليفة عما جرى .

وحسب كتاب عقائد الشيعة (٤) لم تكن له زوجة شرعية . وأن إحدى جواريه حملت بابنه محمد القائم (ع) وهى نرجس خاتون بنت يشوع بن قيصر الروم . ولم يكن له من الأولاد سوى ابنة واحدة منها أيضاً .

وقد قال بعضهم : انهم يسمون مماليكهم بأسماء محببة . كنرجس وسوسن وخمط (اللبن الطيب الرائحة) . وربما كانت للفكرة قيمتها الشعرية ، ولكن الحقيقة تبدو أن هذه الأسماء كانت شائعة لدى الشعوب النصرانية التى كانت تسبى منها الجوارى . وأن قصة نرجس خاتون وأنها كانت أميرة

---

(١) بحار الانوار للمجلسى (ج ١٣) (النسخة الفارسية ص ٤)

(٢) كذلك (ص ٧) .

(٣) العسكرى (ص ٣٠) (و Sell اثنى عشرية (ص ٤٩) .

(٤) عقائد الشيعه (ج ٤ فصل ٢) .

قـد تـكون من وضع الخيال زيادة فى تعظيم الامام الثـانى عشر . الا أنه من المحتمل أن تـكون مملوكة حقا سبيت من ناحيـة من نواحى البلاد البوزنطية . فبيعت للنخاسين الذين يقـدمون الجوارى الى قصور أعيـان المسلمين وسراتهم . وقـد نبه ويفل الى وجود هذه التـجارة فى مكة سنة ١٩١٢ (١) .

ووقع قحط عظيم فى بغداد لانحباس المطر . وكان الامام حسن العسكرى اذ ذاك سجيناً . ويقال ان جاثليق النصارى خرج للاستسقاء فرفع يديه إلى السماء يدعو ، فسقى الناس . وخاف الخليفة أن يشك النـاس فى دينهم فبعث الى الامام . فطلب أن يخرج الناس للاستسقاء فيزيل شكهم . وأخرج من السجن . فلما رفع الجاثليق يده . قال الامام: امسكوها . ففعلوا فوجدوا فيها عظما أسود . وقد قال الامام : ان هذا العظم لنبى من الأنبياء ولا يكشف الا وتمطر . وبذلك أزال شك الناس ، فعفاعنه الخليفة ، وأطلقه من السجن وأعاده الى داره فى سامرا (٢) .

ويروى أيضاً أن سائلا وقف عـلى الامام وحلف أنه لا يملك شـيئاً ، فزجره الامام ليمينه الـكاذبة ثم أعطاه مائة دينار على أن لا يحلف كذباً وقال له : ولفعلتك هـذه ستطلب المئتى دينار التى خبأتها فى بيتك فلا تجـدها . وقد أخبر السائل بعدئذ أنه طلب ذلك المـال الذى كان قد خبأه ، فوجد أن ابنه العاق قد سرقه وهرب .

وقصة أخرى أن رجلا ذهب الى زيارة الامام الحسن العسكرى . فلما جلس بحضرته تذكر أنه قد صر خمسين ديناراً فى كمه . فتحسسها ، فلم يجدها فخاف أن يكون فقدها . ولحظ الامام ارتباكه ، فقال له : لا تخف فقد أسقطتها

---

(١) Wavell, AModern Pilgrim in Mecca (ص ١٤٢) . أما مايختص بتسمية الجوارى فانظر Friedlauder, J. A. O. S. (Vo 129 p. 64)

(٢) خلاصة الاخبار الفصل (٢٩ المعجزة ١٤) و Sell اثنى عشرية (ص ٥٠)

فى بيت أخيك وقد وجدها فاحتفظ بها لك . فلما عاد وجد الأمر كما قال الامام ودفعها له أخوه (١) .

وروى أحد زائرى الامام أنه عند ماجلس عنده قال له الامام : « انظر الى ماتحت قدميك فانك على بساط قد جلس عليه كثير من النبيين والمرسلين والأئمة الراشدين » . فقال الرجل فى نفسه (وكان أعمى) : ليتنى أرى هذا البساط . فعلم الامام مافى ضميره ، فأدناه منه ومسح بيده على وجهه فصار بصيراً . فرأى فى البساط اقداما وصورا ، فاراه الامام اثار اقدام آدم وهابيل وشيث ونوح وقيدار بن إسماعيل ، جد العرب المستعربة ، والعزيز وانوش ومتوشالح واثر هود وإبراهيم ولوط واسحاق ويوسف ويعقوب وموسى وداود وسليمان والخضر واليسع والاسكندر ذى القرنين ، وأخيرا أثر عبد المطلب وعبد مناف ومحمد ﷺ وعلى والأوصياء من بعده إلى الحجة القائم . ثم قال الامام : اخفض طرفك . « فرجعت محجوبا كما كنت » (٢) .

وازعج الامام الحسن العسكرى كثيرا فى السنوات الاربع أو الخمس الاخيرة من عمره بمنع الخليفة الخمس عن آل محمد . وكانت لهم قبل ذلك فدك بعد ان أقرهم عليها عمر بن عبد العزيز ، ثم انتزعها الخلفاء أخيرا منهم إلى بيت المال .

واتفق المؤرخون على أن الامام الحادى عشر أبا محمد الحسن العسكرى (ع) توفى سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣) فى بيته فى سامرا ، فدفن مع أبيه (٣) . أما الكتب التى بين أيدى الناس فتذكر أنه مات مسموما ، سمه المعتمد العباسى (٤) .

---

(١) كذلك المعجزتان (١٢ و ٢٠) .

(٢) خلاصة الاخبار الفصل (٣٩ المعجزة ٢٤)

(٣) مروج الذهب للمسعودى (ج ٨ ص ٤٠) وبحار الانوار للمجلسى (ج ١٢ ص ١٤٠)

(٤) تذكرة الأئمة (ص ١٥٨) وعقائد الشيعة (ج ٤ فصل ٢) .

الباب الحادى والعشرون

الامام الغائب المنتظر

المهدى عنـد أهل السنة شخص يخرج فى آخر الزمان ، (١) بشر بمجيئه الرسول ﷺ . والمهدى ، صيغة المفعول به من هدى ، وهو من يهديه الله. غير أنها تعتبر فى هذا الموضع بمعنى الفـاعل ، وتعنى المختار لهداية الناس . ولم ترد هذه الصيغة فى القرآن بل وردت فى صيغة الفـاعل ، قال تعالى : (وإن الله لهـاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) . (سورة الحج الآية ٥٣) وقال : (وكفى بربك هاديا ونصيرا) (سورة الفرقان الآية ٣٠) . ولاشك ان هذه الايات لا عـلاقه لها فى انتظار المهدى ، لـكن بعضهم اتخـذ من هاتين الآيتين أساسا لموضوع واسع حول انتظار مجيئه ، مستندين على بعض الاحاديث المنسوبة للرسول ، واليك أهمها (٢) :

« لا تذهب الدنيـا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتى يوافق اسمـه اسمى » .

« ثم تطلع الرايات من قبل المشرق . . . فاذا رأيتم أميرهم فبايعوه . . فانه خليفة الله المهدى » .

« يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هاربا إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام ويبعث اليه بعث الشام فيخسف بهم بالبدء بين مكة والمدينة،فاذا رأى

---

(١) ماكدونالد ، دائرة المعارف الاسلامية (ج ٣ ص ١١٢)

(٢) Dictionary of Islam تأليف Hughes (ص ٣٠٥) مترجمة عن مشـكاة المصابيح الجزء (٢٣ فصل ٣) .

الناس ذلك اتاه ابدال الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه . ثم ينشأ رجل من قريش اخواله كلب،فيبعث اليهم بعثا فيظهرون عليهم ، فيقسم المال ويعمل بسنة نبيكم . ويلقى الاسلام بجرانه إلى الارض فيلبث سبع سنين » .

« تتنعم أمتى فى زمن المهدى نعمة لم يتنعموا بمثلها قط ، ترسل السماء عليهم مدرارا،ولاتدع الارض شيئا من نباتها الا أخرجته، والمال اكداس. يقوم الرجل فيقول : يا مهدى ، أعطنى . فيقول : خذ » .

ان من المحتمل جدا ان الفشل الظاهر الذى أصاب المملكة الاسلامية فى توطيد اركان العدل والتساوى على زمن دولة الامويين (٤١ — ١٣٢ ﻫ كان من الاسباب لظهور فكرة المهدى آخر الزمان . وقد أطلق لقب المهدى سنة ٦٦ ﻫ على محمد بن الحنيفة وسمى المهدى ابن الوصى ، فلما مات ودفن عند جبل رضوى بالحجاز قال أصحابه برجعته فأصبح « المهدى المنتظر » (١) . ومما هو جدير بالملاحظة ان استعمال هذا المصطلح سبق تدوين الحديث بنحو مئتى سنة ، وهى فترة كافية لتبلور فكرة المهدى واتخاذها شكلا قطعيا . ولما كان القرآن نفسه لم يرد فيه ما يؤيد هذه الفكرة كان من الضرورى الالتجاء إلى الحديث لاثباتها (٢) .

وقد فند ابن خلدون فى مقدمته جميع الاحاديث الواردة بهذا الخصوص فاشار إلى عدم ورودها فى صحيح البخارى ومسلم واشار إلى أن الاحاديث الواردة فى الترمذى وأبى داود مأخوذة عن عاصم ، وعاصم هذا فى حديثه اضطراب . وقد تكلم فيه ابن علية فقال : « كل من اسمه عاصم سيء الحفظ » . وعلى هذا فبالنظر إلى عدم ذكر القرآن شيئا عن المهدى وان الاحاديث الواردة بشأنه كلها ضعيفة أو مشكوك بها فان عقيدة المهدى

---

(١) ماكدونالد ، كذلك (ص ١١٢) .

(٢) A Handbook of Early Mohammedan Traditions تأليف Wensinck (ص ١٢٠)

لا تدخل فى اعتقادات أهل السنة والجماعة .

إلا أن المشهور ، كما ذكر ابن خلدون ، بين الكافة من أهل الاسلام على ممر الاعصار انه لابد فى آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولى على الممالك الاسلامية ويسمى بالمهدى (١) .

اما عند الشيعة فان انتظار مجىء المهدى من الاعتقادات الاساسية ، ويفسرون بأن الهداة الوارد ذكرهم فى القرآن هم الأئمة . ويؤكد الكلينى وغيره من محدثى الشيعة ما يروى عن الامامين الصادق والباقر فى تفسير قوله تعالى : (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) (سورة الاعراف الآية ١٨٠) بأن المقصود بالأئمة هم الأئمة من آل محمد . ويروى عن على أنه قال : ستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة اثنان وسبعون منها فى النار وواحدة فى الجنة ، وهى الفرقة التى أشار اليها تعالى فى هذه الآية (٢) وقد وردت آيات كثيرة فى القرآن عن البعث والقيامة (٣) . ويفسر الشيعة كلمة القائم الواردة فى سورة الرعد الآية ٣٣ (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) بأنه هو المهدى (٤) .

ولم يكتف الشيعة بما جاء فى القرآن بل أيدوها بأحاديث عن النبى ﷺ وقد أورد المجلسى الحديث التالى : قال ﷺ :

« معاشر الناس ، انى نبى وعلى وصى ، الا وان خاتم الأئمة منا القائم المهدى صلوات الله عليه ، الا انه الظاهر على الدين ، الا انه المنتقم من

---

(١) مقدمة ابن خلدون طبعة كاترمير (ج ٢ ص ١٤٢) . ترجمة مكدونالد فى دائرة المعارف الاسلامية (ص ١١٣) The traditions of Islam تأليف Guillame (ص ٨٩-٩٣)

(٢) حياة القلوب للمجلسى (ج ٣ ص ٢٩٠) .

(٣) مكدونالد ، دائرة المعارف الاسلامية (ج ٢ ص ١٠٤٨) .

(٤) R. Strothmann دائرة المعارف الاسلامية مادة : القائم (ج ٢ ص ٦٤٢) وحياة القلوب للمجلسى (ج ٣ فصل ٢٥) .

الظالمين ، الا انه فاتح الحصون وهادمها ، ألا وانه قاتل كل قبيلة من أهل الشرك ، ألا إنه مدرك كل ثأر لاولياء الله عز وجل ، الا وانه ناصر دين الله عز وجل ، الا انه الغراف من بحر عميق ، الا انه يسمى كل ذى فضل بفضله وكل ذى جهل بجهله ، الا انه خيرة الله ومختاره ، الا انه وارث كل علم والمحيط به ، الا انه المخبر عن ربه عز وجل والمنبه بامر إيمانه ، الا انه الرشيد السديد . . . معاشر الناس قد بينت لكم وافهمتكم وهذا على يفهمكم بعدى » (١) .

وأمل الشيعة سواء فى قلوب سوادهم أو مايقول به علماؤهم أن مجيء المهدى يتم برجعة الامام الغائب . ولا بد لنا من فهم أمور ثلاثة : الأول . معرفة ماورد عن الامام الثانى عشر وآخر الأئمة قبل غيبته ، والثانى الحكمة من غيبته استناداً على أوثق المصادر . والثالث وصف طبيعة ما ينتظره الشيعة عند الظهور .

فيقال ان الامام الثانى عشر وهو صاحب الزمان ولد فى سامرا سنة ٢٥٥ أو ٢٥٦ هـ . أى قبل وفاة أبيه الامام الحسن العسكرى بأربع أو خمس سنوات . ونلاحظ أن ماروى عن الطفل كان قد جعل لينطبق على ما كان منتظراً من المهدى ، وأن الحقيقة نفسها تلقى شكا على الأخبار التى تهيء الدليل الوحيد على حياته ، فقد أخبر الرسول قبل ذلك بأكثر من مئتى عام ، أو قيل عنه بأن « اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى والقابه المهدى والحجة والمنتظر وصاحب الزمان » فلا عجب إذا ما سمعنا بتكرر اطلاق هذه الاسماء عليه فى الاخبار (٢) .

---

(١) حياة القلوب للمجلسى ، ترجمة Merrick الجزء الثانى (ص٢٤٢) و Dictionary of Islam تأليف Hughes . (٢) كمال الدين لابن بابويه (المتوفى سنة ٣٨١ هـ طبعة طهران سنة ١٣٠٧ هـ . (ص ٢٤٠) وكتاب حق اليقين للمجلسى (ص ١٤٦)

فقد روى ابن أحد مواليه انه «لما ولد دعا الامام العسكرى أبى بان يفرق عشرة الاف رطل خبزا وعشرة الاف رطل لحما على بنى هاشم وغيرهم وان تذبح ثلاثمائة شاة . وهذه عقيقة » وهى عادة كانت موجودة فى زمن الجاهلية وتعق فى اليوم السابع من ولادة الطفل. وروت نسيم ومارية جاريتا العسكرى بانه عندما ولد حضرة القائم كان ساجدا لوجهه رافعا سبابتيه للشهادة ثم عطس وقال: « الحمد لله رب العالمين و الصلاة على محمد وآله » « زعمت الظلمة ان حجة الله داحضة ، لو اذن لنا فى الكلام لزال الشك » . وروت نسيم أيضا بانها دخلت على الحجة بعد مولده بليلة فعطست عنده فقال : رحمك الله . قالت نسيم : ففرحت بذلك . فقال : الا ابشرك فى العطاس ؟ « قلت : بلى يامولاى . قال : هو امان من الموت ثلاثة أيام » .

وروت عمته حليمة (حكيمة) بانه عند ولادته قال : « اشهد ان لا إله إلا الله وان جدى محمد رسول الله وان أبى أمير المؤمنين. ثم عدهم اماما اماما إلى أن بلغ نفسه فقال :(اللهم أنجز لى ماوعدتنى واتمم لى أمرى وثبت وطأتى واملأ الارض بى عدلا وقسطا) . وروت انه لما طلب اليها الامام الحسن العسكرى ان تأتيه بالمولود تناولته فرأته طاهرا مطهرا مختونا مكتوبا على عضده الايمن (جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا).

وتلقاه الامام حسن العسكرى ، على رواية حليمة وتلمسه ، وكلم المولود أباه بلسان عربى فصيح وشهد الشهادتين وصلى على الأئمة ، ثم هبطت طيور من السماء وخفقت باجنحتها عند رأسه . فنادى الامام العسكرى واحدا منها ودفع اليه المولود وقال :« خذوه وارضعوه وردوه الينا كل أربعين يوما ». فأخذه الطائر وصعد به إلى السماء . ثم أمر الامام باقى الطيور بمثل ذلك ، فطاروا وراءه . وقال: « استودعتك الذى استودعت أم موسى » . فبكت نرجس خاتون فقال (ع): اسكتى، فان الرضاع محرم عليه الامن ثديك وسيعاد اليك كما رد موسى إلى امه. « قالت حليمة: فسألته عن الطائر الذى استودعه . فقال:

« انه روح القدس يهدى الأئمة ليؤدوا رسالته عز وجل ويعصمهم ويؤتيهم العلم ». واستطردت حليمة بانهاذهبت بعد مرور اربعين يوما إلى زيارة (ابن) أخيها فاذا بالصبي يمشي بين يديه ، فتعجبت وسألت أخاها فقال لها بأن الصبي من الأئمة كلما أتى عليه شهر كان كمن اتت عليه سنة ، وانه يتكلم فى بطن أمه ويقرأ القرآن ويعبد ربه عز وجل وتعلمه الملائكة وتنزل عليه صباحا ومساء.

وكانت حليمة تزور اخاها كل أربعين يوما حتى قبل وفاته بايام قلائل، فرأته حينئذ رجلا كاملا بالغا لم تعرفه بأنه ابن أخيها ، لكن أخاها أكد لها أنه هو ابنه الذى ولدته نرجس لاغيره وانه الامام من بعده لأنه ذاهب إلى ربه قريبا . وقال : « نخذوا بكلامه واطيعوا امره » . ولم تمض سوى ايام معدودات على ذلك حتى توفى أخوها . وكانت ترى صاحب الزمان كل صباح ومساء ، فيجيب على كل ما كانت تسأله ، وكان يخبرها فى أكثر الاحيان بما تريد السؤال عنه قبل ان تنطق (١) .

وعند قرب وفاة الامام حسن العسكرى أوصى لولده الذى سمى محمدا بالامامة . فقد روى (أبو) إسماعيل (بن على النوبختى) قال: «دخلت على أبى محمد الحسن بن على فى المرض الذى مات فيه وبينما انا عنده إذ قال لخادمه عقيد : ياعقيدا . اغل لى ماء بمصطكى (٢) . « فاغلى له ثم جاءت به (صيقل) الجارية أم الخلف . فلما صار القدح فى يديه وهم بشربه ، جعلت يده ترتعد حتى ضرب القدح ثنايا الحسن فتركه من يده وقال لعقيد ، « ادخل البيت

---

(١) بحار الانوار للمجلسى (ج ١٣) الترجمه الفارسية (ص ٢ - ٤) وحق اليقين (ص ١٤٦) وكمال الدين لابن بابويه القمى (ص ٢٤٠) وكتاب اثبات الوصية لعلى بن أبى طالب (ع) للمسعودى (ص ١٩٥ - ٢٠٠) .

(٢) « المصطكى وهو باليونانية Kaotixy ويوجد على شواطىء البحر الشامى من بلاد الشام إلى الاندلس . . . واشتهر المصطكى خلال القرون ١٥ و ١٦ و ١٧ فى عالم الطب فيدخل فى تركيب كثير من الادوية ، وقد بطل استعماله اليوم كدواء ، ويستخدم على الاكثر لصنع الورانيش » (دائرة المعارف البريطانية الطبعة ١١ ج ١٧)

فانك ترى صبيا ساجدا فأتنى به » قال عقيد: « فدخلت اتحرى فاذا انا بصبي ساجد رافع سبابته نحو السماء فسلمت عليه ، فأوجز فى صلاته ، فقلت : ان سيدى يأمرك بالخروج اليه . وجاءت أمه صيقل فاخذت بيده واخرجته إلى أبيه الحسن. فلما مثل الصبى بين يديه سلم، وإذا هو درى اللون وفى شعر رأسه قطط منبلج الاسنان. فلما رآه الحسن بكى وقال: ياسيد أهل بيته ، اسقنى الماء فانى ذاهب إلى ربى . وأخذ الصبى القدح المغلى بالمصطكى بيد وحرك شفتيه بيده الأخرى ثم سقاه. فلما شربه قال: هيئونى للصلاة. فطرح فى حجره منديل . فوضأه الصبى واحدة واحدة ومسح على رأسه وقدميه . فقال له أبو محمد: « أبشر يابنى فانت صاحب الزمان وأنت المهدى وأنت حجة الله على أرضه وأنت ولدى ووصيي وأنا ولدتك وأنت (م ح م د) ابن الحسن بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ولدك رسول الله وأنت خاتم الأئمة الطاهرين وبشر بك رسول الله وسماك وكناك. بذلك عهد إلى أبى عن أبائك الطاهرين صلى الله على أهل البيت ربنا انه حميد مجيد. ومات الحسن بن على من وقته » هذا مارواه أبو إسماعيل عن عقيد الخادم. وقد ورد فى عدة كتب مشهورة استنادا على الشيخ الطوسى (١).

ويظهر ان الصبى اختفى نحو هذا الوقت أو غاب . وورد فى كتاب جنات الخلود (٢) أنه غاب فى داره التى ورثها عن أبيه فى سرداب بسامرا بذلك البيت يوصل اليه بدرجات وكان ذلك السرداب المكان الذى يختفى به هو وأبوه من أذى الطغاة إذا ارادا التعبد . وكان عمره عند غيبته نحو ست أو سبع أو تسع سنوات وبضعة أشهر وبضعة أيام على اختلاف الروايات . ولا يذكر كتاب عقائد الشيعة (المشكاة الرابع) الصورة التى غاب فيها إلا انه يذكر بان « القول بعدم ولادة الامام خطأ وكذلك القول بانه ولد ومات

---

(١) حق اليقين للمجلسى (ص ١٤٦) وكمال الدين لابن بابوية (ص ٢٤٠)

(٢) جنات الخلود (الفصل ١٩).

فى حياة أبيه خطأ أيضا ، لذلك وجب أن نعتقد بانه ولد وانه حى إلا أنه غائب وانه سيظهر فى آخر الزمان إنشاء الله »

وبينما نرى ان الاعتقاد العام عند الشيعة اليوم ، وهو يتفق على ما ذكره الاقدمون ، بانه ، غاب فى سامراء . الا أنه فى القرن السابع أو الثامن الهجرى (نحو ٤٠٠ سنة بعد الغيبة) قيل بانه غاب فى الحلة . وقد كان ابن خلدون وابن خلكان وابن بطوطة على هذا الرأى (١) فيذكر ابن خلدون بانه « عندما حبس مع أمه دخلا سردابا أو حفرة فى الدار التى سكنها أهله بالحلة واختفى هناك وانه سيظهر آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا ».

ان الفكرة القائلة بانه اختفى بعد وفاة أبيه بمدة قصيرة ، ان كان قد خلق حقيقة ، تؤيدها بعض الاخبار التى تنسب اليه ظهوره بصورة معجزة عند الصلاة على جنازة أبيه وللدفاع عن حقه عند توزيع الميراث . فيروى مثلا بان عمه « جعفرا الكذاب » لما اراد الصلاة على جنازة الامام الحسن ظهر «صبى وجهه سمرة بشعره قطط باسنانه تفليج فجذب رداء عمه واصر على ان يصلى هو بالجنازة . وقدم بعد أيام نفر من قم لزيارة الامام فاعلموا بموته فسألوا عن الامام والحجة من بعده فاشار لهم بعض الشيعة إلى أخيه جعفر فسلموا عليه وعزوه وهنؤوه وقالوا : ان معنا كتبا ومالا . فيقول : ممن الكتب وكم المال؟ فقام ينفض أثوابه ويقول : يريدون منا ان نعلم الغيب : فخرج خادم القائم وقال : معكم كتب فلان وفلان . وعين مقدار المال . فارسلوا الخادم ليخبر بأنهم

---

(١) مقدمة ابن خلدون طبعة كاترمير (ج ١ ص ٣٥٩) وابن خلكان ترجمة deSlane (ج ٢ ص ٥٨١) وابن بطوطة طبعة وترجمة C. Defremery & R. B. G. puinette (ج ٢ ص ٩٨)

Encyacopeodia of Religion& Ethics (ج ٨ ص ٣٣٨ ، ويظهر منها ان الشهرستانى (طبعة Cureton ص ١٢٨) وتاريخ كزيدة (طبعة براون ص ٢٠٨) لا يربطان المهدى بالحلة .

قبلوه اماما . ولمـا أراد جعفر غصب الميراث ظهر صاحب الزمان فى جانب الدار وقال : « مالك تعرض لحقوق » فتحير جعفر وبهت ثم غاب عن عينه . فطلب جعفر بعد ذلك فى النـاس فلم ير . فلما ماتت الجـدة أم الحسن أمرت أن تدفن فى الدار .فنازعهم جعفر وقال:هى دارى لاتدفن فيها .فخرج الحجة وقال له :« يا جعفر . دارك هى ؟ » ثم غاب فلم يره بعد ذلك (١) .

والاخبار عن ظهوره للمؤمنين بعد الصلاة أو عند الحاجة كثيرة . وقد ناب عنه مدة ٧٠ سنة وكلاء أو سفراء كان أولهم عثمان بن سعيد . فلما مات أوصى إلى ابنه أبى جعفر وأوصى هذا بها بعـده إلى أبى القاسم (الحسين) ابن روح وأوصى هذا بها إلى أبى الحسن السمرى . ولمه سئل هذا الاخـير قبل موته ان يوصى بالامر قال:« لله أمر هو بالغه ». (٢) فتعرف هذه الفترة بالغيبة الصغرى وتمتد من سنة ٨٦٩ — ٩٤٠ وتبدأ الغيبة الـكبرى لمهدى الشيعة أو الامام المختفى ولا يظهر إلا فى نهاية الوقت .

اما عقيدة الغيبة فهى أن الله حجبه عن عيون الناس وانه حى باذن الله . وقد رآهمنهم البعض بين وقتوآخر .ويكاتب غيرهمويتصرف بامور شيعته(٣) . ونجد خير مثال فى الطريقة التى يشجع بها الناس فى الاستعانة بالامام الغائب بكتابة الرقاع له . فيذكر المجلسى فى الـكتاب الذى يبين فيـه ما يجب عـلى الزائر وماله ، صورة معينة بالعربية لرقعة يكتبها من يريد إلى صاحب الزمان ويرسلها . ويمكن وضعها عند قبر أحد الأئمة أو طيها وختمها وجعلها فى طين نظيف ثم تلقى فى البحر أو بئر عميقة . فتصل الامام الغائب فينظر فيها (٤) .

ويبرز محدثو الشيعة فى وصف رجعة الامام الغـائب . ويعلقون أهميـة

---

(١) حق اليقين للمجلسى (ص ١٥٢ و ١٤٦).

(٢) كمال الدين لابن بابويه (ص ٢٤١) وبحـار الانوار للمجلسى الترجمة الفارسية (ج ١٣ ص ٨) (٣) ماكدونالد ، دائرة المعارف الاسلامية مادة ،الغيبة (ج٢ ص١٣٥).

(٤) تحفة الزائرين للمجلسى (ص ٢٩٦).

كبرى فى بحث عقيدة رجعة الامام الغائب على الآيات التاليـة من القرآن : (سورة القصص ٢ — ٦)

« نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . ان فرعون علا فى الارض وجعل اهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحى نساءهم انه كان من المفسدين . ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . وأوصينا إلى أم موسى أن ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ، ولا تخاف ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » .

سئل الامام زين العابدين عن تفسير هذه الآية فقال: « والذى ارسل محمدا بالحق ، الصالحون نحن أهل البيت وشيعتنا كمثل موسى وقومه واعداؤنا وحزبهم كفرعون وقومه » ( ) ويوضح المجلسى عقيدة الرجعة بقوله « ويرجع للدنيا يوم ظهور حضرة القائم (ع) من محض الايمان محضا أو محض الكفر محضا فيرجع اعداؤه لينتقم منهم فى هذا العالم ويشاهدون من ظهور كلمة الحق وعلو كلمة أهل البيت ما انكروه عليهم . فتكون رجعة الكفار لينالهم عقاب شديد . اما باقى الناس فيبقون فى قبورهم إلى يوم القيامة. وقد وردت احاديث كثيرة تؤيد رجعة من محض الايمان محضا أو محض الكفر محضا ويبقى غيرهم على حالهم » (٢) فالرجعة عبارة عن حساب تمهيدى يثاب فيها الامام الغائب وشيعته وينال اعداءهم الذين انكروا حقهم فى الخلافة عقاب شديد . فيرجع مثلا بين الاولين الحسين بن على ومن استشهد معه ويرجع معه يزيد اللعين بن معاوية وانصاره فينتقم منهم الحسين وجيشه انتقاما مريعا (٣) .

---

(١) حياة القلوب للمجلسى (ج ٣ فصل ٣٥ ص ٣٠٢)

(٢) حق اليقين للمجلسى (ص ١٦٠) وبحار الانوار له الترجمة الفارسية (ج ١٣ ص ٣٢٥)

(٣) بحار الانوار للمجلسى الترجمة الفارسية (ج ١٣ ص ٢٤١)

وفى مناقشة قضية رجعة المؤمنين فان هنـاك تميزا بين من مات منهم فى الماضى أو قتل ،فيروى عن الامام على الرضا (ع) قوله« ليس أحد من المؤمنين قتل الا سيرجع حتى يموت ولا أحد من المؤمنين مات الا سيرجع حتى يقتل. فلا يبقى لمن قتل بالسيف فضل عـلى من مات فى فراشه فيرجع الأول ليموت ويرجع الثانى ليقتل » . ويرجع الانبياء الذين قتلوا حسب قول الامام الباقر ويسكنون بيوتهم ويأكلون الطعام ويتزوجون ويعيشون ما شـاء الله ان يعيشوا ثم يموتون بين أهلهم (١) .

وإذا رجع على إلى الدنيا تـكون معه عصا موسى وخاتم سليمان فيـلاقى أصحابه قرب الـكوفة فيذهب معهم لقتال الشيطان ويكون مع الشيطان جيش عظيم ممن أغواهم فتبعوه منذ زمن آدم فيجرى بينهم قتال يشيب لهوله الولدان وتتراجع جيوش أمير المؤمنين مئة خطوة حتى تبتل أقدام بعضهم فى النهر . وفى ذلك الاثناء ترتفع غمامة فى السماء ويكون أمامها جيش من الملائـكة وعلى رأسهم محمد ﷺ وبيده رمح من نور . فاذا رأى الشيطان محمدا ﷺ هرب هو وجنوده فيقتله محمد ﷺ برمحه ويفنى جيشه (٢).

ومن أغرب الشخصيات التى سترجع الصائف بن صائد أو كما يقول بعضهم ابن الـكاهن الشق . فيقاتله الرسول وبصحبته عمر والصحابة الآخـرون فى مكان يعرف برهطون كما جاء فى رواية البخارى واحمد بن حنبل والترمذى (٣) وهم كمحدثى الشيعة ينسبون الحـديث إلى الرسول ويقولون ان صائف بن صائد هو المسيخ الدجال (٤) الذى ينتظر رجوعه قبل المهدى . وقد راج فى

---

(١) كذلك (ص ٢٣٦)

(٢) حق اليقين للمجلسى (ص ١٦٠) .

(٣) صحيح البخاري طبعة ليدن (٢٢ : ٨٠) مسند احمد بن حنبل طبعة القاهره ١٣١٣ (ج ١ ص ٣٨٧ ، ٤٥٧) .

صحيح الترمذى طبعة القاهره ١٢٩٢ (٣١ : ٦٣) . انظر كـذلك .

Handbookof EarlyMohammedan Traditions تأليف wensinck (ص١٠٣)

(٤) صحيح البخارى (٩٦ : ٢٣) ومسند ابن حنبل (ج ٣ ص ٧٩ و ٩٧)

إيران كتاب حديث بالفارسية (طهران ١٣٢٨) اسمه نور الانوار يصف فيه ابن صائد كما كان معروفا فى الحياة ويوضح كيف يؤمل ظهوره (١).

« قام محمد باصحابه حتى أتى باب دار يقال ان صائف سكنه . فطرق الباب عمر فخرجت اليه امراة عجوز وادخلتهم الدار . وقد بلغ محمدا من افتتان اليهود به وانه يدعى النبوة ، فاراد ان يمتحنه بسورتين من القرآن (الصف والاعلى). فلما دخلوا فاذا هو يروح نفسه وكان يكبر كلما روح . فقال له النبى ﷺ : أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله (صحيح البخارى ٢٣ : ٨٠) قال : فما جعلك الله بذلك باحق منى » ثم ادعى أنه هو الله . فتركه الرسول لما شعر به نحوه من الاشمئزاز ، ولكن صائف أخذ يتلو السورتين اللتين كان يفكر بهما الرسول . فقال الرسول : « خسأت » . فسحب عمر سيفه دون أن يأذن له الرسول وضرب رأس صائف ضربة شديدة فلم يصبه شىء بل رجع السيف على رأس عمر بقوة ، فانشق رأسه شقا كبيرا يسع أربعة أصابع وسال الدم على وجهه . فقال الرسول ﷺ : « إن يكنه فلا تسلط عليه وان لم يكنه فلا خير لك فى قتله » . ثم وضع يده الشريفة على رأس عمر فشفى الجرح حالا .

ثم ان الرسول ﷺ سار إلى المدينة فقام صائف وانتعل وأخذ عصاه لاحقا به . فلما رأى الناس ذلك أرادوا قتله إلا أنه هرب إلى جبل ووضع حجرا كبيرا بينه وبين طالبيه . فجاء النبى ﷺ إلى الجبل ودعا قائلا : « اللهم اقطع شر هذا الفاسق » . فجاء طير كبير من السماء وحمل صائفا اللعين بمخالبه إلى بحر طبرستان (بحر قزوين) والقاه فى جزيرة لا يزال مسجونا فيها .

وجاء فى بعض الكتب ان الله سجنه مع الدابة التى يركبها فى جزيرة مساحتها أكثر من مئتى ميل مربع . وان الله ينبت العشب فى هذه الجزيرة كل يوم ويفيض فيها الماء فلا تبقى الدابة على شىء .

---

(١) نور الانوار تأليف على أصفر البروجردى طبع طهران سنة ١٣٢٨ (ص ١٢٦)

وحدث تميم الدارى ( ) رسول الله ﷺ قال « انه ركب سفينة مع ثلاثين رجلا فلعب بهم الموج شهرا فى البحر ثم أنتهوا إلى جزيرة فى البحر فلقيتهم دابة هلباء لا يدرون قبلها من دبرها لها رأس جمل ووجه انسان وظهر بقرة أرقش لم ير مثلها فقالت: ان الدجال الذى يركبنى أعظم منى. فسألنا اين هو ؟ فقالت :فى هذا الحصن. فدخلنا الحصن فاذا فيه أعظم انسان رأيناه خلقا عينه اليمنى ممسوخة والعين الأخرى فى جبهته تضىء كأنها كوكب الصبح (ابن بابويه فى كمال الدين) وله ست شعرات كالرماح فى حاجبه وقد كتب على جبينه كافر . وقد شد وثاقه ويداه مجموعتان إلى عنقه، فلما رآنى عرفنى وسألنى : هل أعرف محمدا ؟قلت: وأى محمد ؟ قال: نبى العرب الذى ولد فى مكة وهاجر إلى المدينة » .

ان هذا اليهودى المعاصر للنبى محمد ﷺ هو الذى تروى الاخبار أنه هو الدجال الذى سيخرج قبل قيام الساعة وهو من علامات القيامة. ويظهر فى قرية تعرف باليهودية باصفهان أو الكوفة أو خراسان (٢) وسيتبعه من أعمى الله قلبه. وان دابته التى يركبها ستعزف كل شعرة نغمة وتهتز طربا مع الريح فيتبعها الناس ويكون روثها تمرا لتغوى به الصغار .

وكلمة الدجال مشتقة من الدجل. وربما كان هذا الاسم لشخصية مكروهة فى الاقاصيص العربية القديمة وقد استعملها الرسول للتعبير عن احتقاره لصائف ابن صائد، فعاشت شخصية الرجل الخرافية وتطورت إلى قصة مجىء الدجال المنتظر . اما الشيعة فيروون أحاديث كثيرة عن الأئمة عن علامات مجىء الدجال . فيقال ان عليا (ع) أخبر بان علامة ذلك إذا أمات الناس الصلاة وأضاعوا الامانات واستعلن الفجور وقول البهتان والاثم واستحلت الفروج

(١) مسند احمد بن حنبل (ج ٦ ص ٣٧٣) وصحيح الترمذى (٣١ : ٦٥) ومسند الطيالسى (رقم ٦) .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية (ج ١ ص ٨٨٦) .

وتشبه النساء بالرجال وركبت ذوات الفروج السروج (١) .

فاذا ظهر الدجال وتبعه خلق كثير سار إلى بيت المقدس . ويكون المهدى قد خرج . وينزل عيسى (ع) من السماء فى مكان يقال له (افيق) مستندا على ملكين . فيقتل الدجال وبعد ان يطهر سيفه من الدم يأتى بيت المقدس فيصلى وراء المهدى . ثم يقتل الخنزير ويكسر الصليب ويهدم الكنائس ويذبح من لم يؤمن باسلامه من النصارى ، فانه بعد ان يقتل المسيخ الدجال لا يبقى أحد من أهل الكتاب لا يؤمن به ويصبح الناس ملة واحدة وهى ملة الاسلام . ويأمن الانسان والحيوان ويعيش عيسى بعد ذلك أربعين سنة ثم يموت فيصلى عليه ويدفن (فى المدينة كما هو الاعتقاد العام إلى جانب النبى بين أبى بكر وعمر (٢)) .

---

(١) كمال الدين لابن بابويه (ص ٢٩٠) .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية (ج ٢ ص ٥٢٥) القرآن الكريم وتفسير البيضاوى طبعة Fleischer (ج ٢ ص ٢٤١) .



الباب الثانى والعشرون

سامراء ، مدينة أواخر الأئمة

عليهم السلام

انتقل المعتصم بجيشه من الاتراك سنة ٨٣٩ م بعد اضطرابات كثيرة فى بغداد دامت نحو السنتين إلى سامراء التى « أسسها واتخذها مقرا له ومعسكرا (١) وحكم فيها ثمانية خلفاء فى فترة قصيرة دامت ٥٦ سنة (٢) والمسافة بين سامراء وبغداد ستون ميلا : ويذكر ابن رسته فى كتاب الطرق. ان بين سر من رأى ومكة ٩٩ مرحلة كل منها ١٢ ميلا (٣) ويقال ان المعتصم هو الذى سماها سر من رأى وقد اشترى الارض وهى بستان لبناء مدينته ب ٢٠٠٠ جنيه (أربعة الاف دينار) من أهل دير نصرانى . وقد حور اسمها من اسم سامراء الارامى وهو اسم مدينة كانت فى ذلك الجوار قبل الفتح العربى . وتعرف تلك الطسوج بالطرهان (٤) وقد اختار بقعة جميلة فى وادى دجلة الخصيب فبنى فيها عاصمته الجديدة فصارت تعرف « بمدينة خلفاء بنى هاشم الثانية » . ويمتد شارع واسع بمحاذاة النهر وإلى جانبه دور السكنى . وبنى فى بستان الدير قصره المعروف بدار العامة واصبح الدير بيت المال .

---

(١) الاخبار الطوال للدينوري طبعة Cmrgass (ص ٣٩٦)

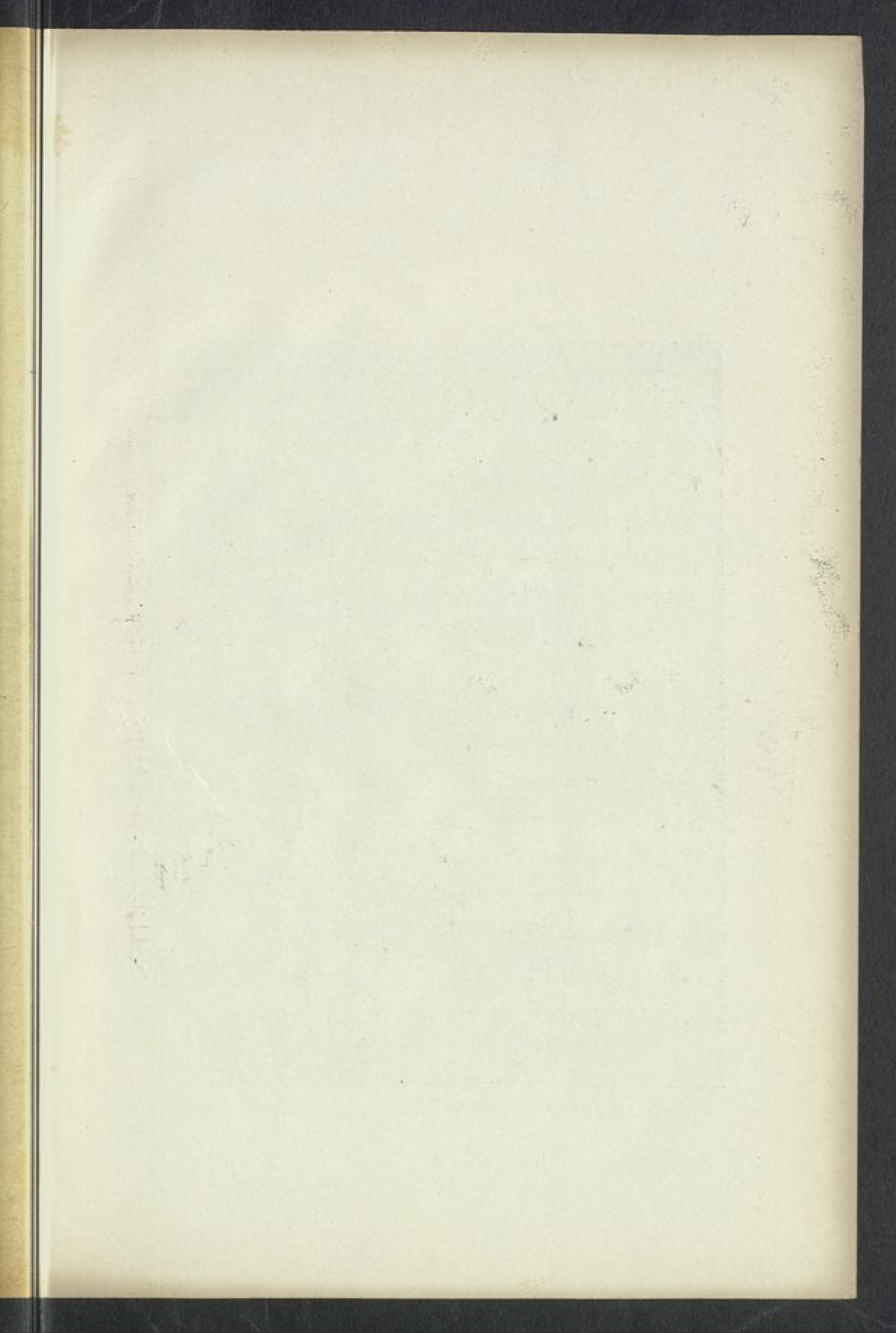
(٢) كتاب البلدان لليعقوبى (٨٩١ م) طبعة de goeze (ص ٢٥٥) ، ونزهة القلوب لمستوفى الترجمة الانكليزية الى لسترينج (ص ٤٠)

(٣) كتاب الاعلاق النفيسة لابن رسته طبعة de goete (ص ١٨٠)

(٤) البلدان لليعقوبى (ص ٢٥٥) ولسترينج Lands of the Eastern Caliphaze (ص ٥٣ و ٥٤)



أسوار مسجد المستعصم القديم — والى الخلف مدينة سامراء الحديثة



وبنى المعتصم مسجدا جامعا، لا زالت جدرانه قائمة قرب مدينة العسكر . ويذكر المستوفى أنه بنى منارة للجامع ارتفاعها ١٧٠ ذراعا يصعد اليها من ظاهرها بدرج ولم تبن منارة على هذا الشكل قبل ذلك (١) . وهذه المنارة التى تظهر فى مقدم الصورة المقابلة عظيمة بدرجة يقال ان الفارس يصعدها بحصانه . ويدعى الادعاء نفسه لمنارة جامع طولون التى ربما بنيت على طرازها (٢) .

ولم تمض مدة طويلة حتى أصبح الجنود المرتزقة من الاتراك الذين كان المعتصم وأولاده يعتمدون عليهم المسيطرين الحقيقيين على الموقف . وهم فى الوقت الذى كانوا يعتبرون أنفسهم حراسا للخلفاء، فتركوهم يعيشون وسط الترف والامان ، كانوا يستغلون ظروفهم للربح باستعمال القسوة والظلم حتى انحطت سلطة المملكة الاسلامية فى أمور الادارة الداخلية إلى الحضيض، وكان ذلك حسب قول الدينورى فى الزمن الذى حازت جيوش الخلافة انتصارات أكثر من أية خلافة سبقتها (٣) .

واشغل الخلفاء انفسهم فى سامراء ببناء القصر بعد القصر على كلا الجانبين من النهر حتى بلغ ما صرفوه على ذلك حسب تقدير ياقوت بمئتى الف الف وأربعة الاف الف درهم أو مالا يقل عن ثمانية ملايين جنيه إسترلينى (٤) . وهناك شجرة عظيمة من السرو وقد اطنبت فى ذكرها الشاهنامة على انها نمت من غصن جاء به زرادشت من الجنة . ويقال ان هذه الشجرة كانت فى قرية كشمر قرب ترزيش وغرسها زرادشت هناك لتخليد ذكرى دخول الملك كشتاسب فى الدين المجوسى . وكان لهذه الشجرة مآثر عجيبة حتى ان

---

(١) المستوفى ، نزهة القلوب (ص ٤٩)

(٢) دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الحادية عشرة) (ج ٢ ص ٤٢٤) .

(٣) الاخبار الطوال للدينورى (٣٩٦) .

(٤) لسترينج Lands of the Eastern Caliphate (ص ٥٥) .

الزلازل التى خربت البـلاد المجاورة كافة لم تمس كشمر باذى . وحسب قـول القزوينى ان الخليفة المتوكل أمر سنة ٢٤٧ (٨٦١) بقلع هذه الشجرة وحملها من إيران إلى العراق عـلى ظهور الجمال فى بعض المراحـل يتخذ من خشبها سقفا لقصره . وجرى ذلك رغم توسل المجوس واحتجاجهم . إلا أن هـذه الشجرة عنـدما وصلت شاطىء دجلة كان المتوكل قد قتله ابنه (١) . ويذكر المستوفى وهو أحـد كتاب القرن الرابع عشر وله ميول شيعية ان الخليفة المتوكل وسع مدينة سامراء وبنى بها قصرا عظيما لا يوجد مثله فى إيران كلها سماه بالقصر الجعفرى (وكان اسمه جعفرا). ولـكن سوء الحظ الذى حل به لهدمه قبر الإمام الحسين بن على (فى كربلاء) ومنع الناس من زيارته ، ادى إلى هدم هذا القصر بعد وفاته بمدة قصيرة ، ولم يبق له أثر اليوم . ولم يبق اليوم فى الحقيقة من سامراء الا جزء صغير مسكون (٢) .

ان هذا الجزء المحـدود الذى كان لا يزال مسكونا فى القرن الرابع عشر هو نفسه تقريبا مدينة سامراء الحاليـة وكان جزءا من « عسكر المعتصم » وهنا اسكن الامامان على النقى وابنه الحسن فسميا بالعسكريين . وقد دفنا فى هـذا المكان أيضا (٣) ولا تبعد سامراء الحديثـة الا بضع خطوات من الجامع الـكبير ويتفق ذلك مـع المستوفى فى قوله « ويقع امام الجامـع قبر الامام على النقى حفيد الامام على الرضا وكذلك قبر ابنه الامام حسن العسكرى » . ان مدينة الخلفاء كانت أوسع بكثير مما هى عليه الآن ، فتشير المشاهدات الحديثة ان « التصميم الارضى لـكثير من الثكنات والقصور

---

(١) كذلك (ص ٣٥٥)

(٢) نزهة القلوب للمستوفى (ص ٤٩) .

(٣) ومما يجدر ذكره ان الشهرستانى (طبعة Cureton ص ١٢٨) يذكر ان الامام على النقى دفن فى قم وربما كان ذلك خطأ . انظر نزهة القلوب للمستوفى (ص ٤٩) ودائرة المعارف الاسلامية مادة « عسكر سامرا » لهرتزفلد .

والبساتين يمكن رؤيتها بكل وضوح لمن طار فوق المنطقة بطيارة » (١) وان الوصف الطبوغرافى لعاصمة الخلفاء كما وصفها الجغرافيان العربيان اليعقوبى وياقوت ، قد حققه حديثا علماء الآثار حتى امكن تحديد الشوارع الرئيسة وكثير من القصور . كما اثبتت الآثار المكتشفة أهميـة خاصة لطلاب الفن الاسلامى لانها تمثل الدور الذى كانت به الخلافة العباسية تبعث نورها على العالم » (٢) .

وكان فى هذا القسم من سامراء الذى لايزال باقيا ما يقال ان الامام المهدى — محمد بن الحسن العسكرى — قد اختفى عن أنظار العالم . ويقول المستوفى ان ذلك كان سـنة ٢٦٤ (٨٧٨) فى سامراء (٣) . ان حقيقة كون الطائفة الشيعية قد سمح لها ان تتخذ مقرها بعد سقوط البويهيين فى مدينة الحلة القريبة ، والتى قاموا منها بمفاوضاتهم فى زمن غزو هلاكوخان ، أدى إلى وجود الاخبار فى ان ظهور الامام المختفى فى تلك المدينة . وجامع « آخر الأئمه » بالحلة يشير إلى مكان ظهوره المنتظر ؛ ولـكن مكان غيبته كان فى سامراء . وقد وجد ابن بطوطة فى الحلة ذلك المسجد وعلى بابه ستر حرير مسدول . وكان من عادتهم ان يخرج فى كل ليلة مئة رجل من أهل المدينـة عليهم السلاح وبايديهم السيوف مشهورة . . . ويأتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب ويقولون « باسم الله يا صاحب الزمان باسم الله اخرج قد ظهر الفساد وكثر الظلم وهـذا أوان خروجك فيفرق الله بك بين الحق والباطل . ولا يزالون كذلك . . . إلى صلاة المغرب فيرجعون إلى بيوتهم » . وكانت سامراء حينئذ خـرابا رغم ذكر ابن بطوطة ان « فيها أيضا مشهد صاحب

---

(١) Historical Mesopotamia دليل طبعته جريدة الاوقات البغدادية فى بغداد سنة ١٩٢٢ (٥١) .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة « سامرا » مع الاشارة الى تحقيقات H . Herzfeld

(٣) نزهة القلوب للمستوفى (ص ٤٧) .

الزمان تتخذه الرافضة » (١) وربما كان خراب المدينة سببا لعدم الاهتمام بالتأكد أن المشهد قد شيد لذكرى الامامين على النقى والحسن العسكرى ، وان هناك مكانا آخر قريبا منهما يعتبره الكثيرون بانه المكان الذى غاب فيه آخر الأئمة (٢) .

ومدينة سامراء الحديثة بنظر الشيعة اليوم ذات أهمية عظمى لاحتوائها على المشهدين اللذين احتفظا برونقهما فى السنوات الاخيرة بفضل الترميمات المتواصلة المتقنة . وأمر ناصر الدين شاه ببناء قبة ذهبية على مشهد العسكريين وتم بناؤها فى زمن مظفر الدين شاه سنة ١٩٠٥ (٣) . وتظل هذه قبور أربعة ، وهى للامامين على النقى وابنه الحسن العسكرى ، وامرأتين اقترنت اسماؤهما بأسماء الامامين حسب الاخبار ، وهما حليمة (حكيمة) اخت الامام على النقى التى رويت عنها أخبار ولادة الامام الغائب ، ونرجس خاتون الجارية المسيحية التى قيل انها أم الغلام الذى اختفى فى سن الخامسة أو التاسعة . اما المشهد الثانى فهو محل غيبة الامام المختفى . وعلى هذا المشهد قبة صغيرة مغطاة بالكاشانى الازرق وتحتها السرداب الذى يقال ان الامام الطفل غاب فيه . وينزل الزوار إلى السرداب بدرج .

وتبين كتب الزيارة ما يجب على الزوار عمله فى كل من هذين المشهدين فى سامراء فاذا أردت زيارة قبرى الامامين على النقى والحسن العسكرى . . .

---

(١) الروافض : يذكر السيد المرتضى فى علم الهدى (الفصل ١٩) « وتسمى الفرقة الثانية من الاسلام نفسها بالشيعة ويسميهم غيرهم بالروافض » لتحقيق الاسم انظر مقال الدكتور فريد لاندر فى J . A . O . S . (ج ٢٩ ص ١٣٧ — ١٥٩) .

(٢) ابن بطوطة طبعة باريس ص ٩٨ ترجمة Lee الانكليزية (فصل ٨ ص ٤٨) Dr . Herdelot Ann. Mosl Tom ii (ص ٧١٦) و Encyclohaedia of— —i Reli gion & Ethics مادة مهدى (ج ٣ ص ٣٣٨)

(٣) يعتبر الدكتور هرتزفلد خطأ ان القبة المذهبة فوق السرداب انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة « عسكر سامراء » .

وتقول بعد الغسل ان وصلت إلى قبريهما والا أو مأت بالسلام من عند الباب الذى على شارع الشباك « وبعد الدعاء الخاص » تجتهد فى الدعاء لنفسك ولوالديك وتخير من الدعاء ، فان وصلت اليهما فصل عند قبريهما ركعتين فاذا دخلت المسجد دعوت الله بما احببت انه قريب مجيب . « وتستحسن كتب الزيارة زيارة قبر أم صاحب الامر نرجس خاتون » وكذلك قبر حليمة خاتون بنت الامام محمد التقى فى المشهد المقدس (تحت القبة المذهبة) فتقرأ الدعاء عند قبرها أيضا ، وكان الامامان يعظمانها وكان صاحب الامر يزورها فى حياة الامام العسكرى وبعده ، وقد حضرت ولادته فخدمت أربعة أئمة . وتفضل زيارة قبرى العسكريين أيام ولادتهما ووفاتهما .

وعند السرداب يدعو الزائر ويسلم على الامام الغائب فيناديه بخليفة الله ووصى الاوصياء الماضين وحافظ أسرار رب العالمين وبقية الله من الصفوة المنتخبين وباب الله الذى لا يؤتى الا منه ونور الله الذى لا يطفأ وحجة الله على من فى الارض والسماء » . ثم يخاطبه بما يلى :

أشهد انك الحجة على من مضى ومن بقى وان حزبك هم الغالبون وأوليائك هم الفائزون واعداءك هم الخاسرون . وانك خازن كل علم وفاتق كل رتق ومحقق كل حق ومبطل كل باطل . رضيته يا مولاى اماما وهاديا ووليا ومرشدا ، لا ابتغى بك بدلا ولا أتخذ من دونك وليا .

أشهد انك الحق الثابت الذى لا ريب فيه وان وعد الله فيك حق . لا ارتاب لطول الغيبة وبعد الامد ، ولا اتحير مع من جهلك وجهل بك ، منتظر متوقع لايايك وأنت الشافع الذى لا تنازع والولى الذى لا تدافع . ذخرك الله لنصره واعزاز المؤمنين والانتقام من الجاحدين المارقين .

أشهد أن بولايتك تقبل الاعمال وتزكى الافعال وتضاعف الحسنات وتمحى السيئات فمن جاء بولايتك واعترف بامامتك قبلت أعماله وصدقت أقواله وتضاعفت حسناته ومحيت سيئاته ومن عدل عن ولايتك وجهل معرفتك

واستبدل بك غيرك كبه الله على منخره فى النار ولم يقبل الله له عملا ولم يقم له يوم القيامة وزنا .

أشهد الله وأشهد ملائكته وأشهدك يا مولاى بهذا ظاهره كباطنه وسره كعلانيته وأنت الشاهد على ذلك وهو عهدى اليك وميثاق لديك . .

وبذلك أمرنى رب العالمين فلو تطاولت الدهور وتمادت الاعمار لم ازدد فيك إلا يقينا ولك الا حبا وعليك إلا متكلا واعتمادا ولظهورك إلا توقعا وانتظارا ولجهادى بين يديك مترقبا فابذل نفسى ومالى وأهلى وجميع ماخولنى ربى بين يديك والتصرف بين أمرك ونهيك . مولاى فان أدركت أيامك الزاهرة وأعلامك الباهرة فها أنا ذا عبدك المتصرف بين أمرك ونهيك ارجو به الشهادة بين يديك والفوز لديك . مولاى فان أدركنى الموت قبل ظهورك فاتوسل بك وبآبائك الطاهرين إلى الله سبحانه وتعالى وأسأله ان يجعل لى كرة فى ظهورك ورجعة فى أيامك لابلغ من طاعتك مرادى وأشفى من اعدائك فؤادى .

« مولاى وقفت فى زيارتى اياك موقف الخاطئين النادمين الخائفين من عقاب رب العالمين وقد اتكلت على شفاعتك ورجوت بموالاتك وشفاعتك محو ذنوبى وستر عيوبى ومغفرة زللى فكن لوليك يامولاى عند تحقيق أمله واسأل الله غفران زلله فقد تعلق بحبلك وتمسك بولايتك . . . »

ثم يطلب من الزائر ان يأتى سرداب الغيبة ويقف بين البابين ماسكا جانب الباب بيده ثم يتنحنح ويسمى وينزل وعليه السكينة والوقار ويصلى ركعتين فى عرصة السرداب ثم يقول :

الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد ، الحمد لله الذى هدانا لهذا وعرفنا أولياءه واعداءه ووفقنا لزيارة أئمتنا ولم يجعلنا من المعاندين الناصبين ولا من الغلاة المفوضين ولا من المرتابين المقصرين . السلام على ولى الله وابن أوليائه ، السلام على المدخر لكرامة أولياء الله وبوار اعدائه

اللهم كما جعلت قلبي بذكره معمورا فاجعل سلاحي بنصرته مشهورا ، وان حال بيني وبين لقائه الموت الذى جعلته على عبادك حتما ، وقدرت به على خليقتك رغما فابعثنى عند خروجه ظاهرا من حفرتي مؤتزرا كفني حتى أجاهد بين يديه في الصف الذى اثنيت على أهله فى كتابك كأنهم بنيان مرصوص (سورة الصف الآية ٤) .

اللهم طال الانتظار وشمت بنا الفجار وصعب علينا الانتصار . اللهم أرنا وجه وليك الميمون فى حياتنا وبعد المنون . اللهم انى أدين لك بالرجعة بين يدى صاحب هذه البقعة ، الغوث ، الغوث ، الغوث .

« يا صاحب الزمان قطعت فى وصلتك الخلان وهجرت لزيارتك الاوطان واخفيت أمرى عن أهل البلدان ، لتكون لى شفيعا عند ربك وربى وإلى أبائك وموالى فى حسن التوفيق لى واسباغ النعمة على وسوق الاحسان إلى »

تلك هى عقيدة وأمل الاثنى عشرية ، الشيعة الذين يعتقدون باثنى عشر إماما، ويقولون بأن الامامة انتقلت من على إلى ولديه الحسن والحسين ثم من الحسين إلى ابنه على زين العابدين ثم إلى ابنه محمد الباقر ثم إلى ابنه جعفر الصادق ثم إلى ابنه موسى الكاظم ثم إلى ابنه على الرضا ثم إلى ابنه محمد التقى ثم إلى ابنه على النقى ثم إلى ابنه الحسن العسكرى ، واخيرا حسب الروايات التى يصعب البرهان على صحتها ، إلى محمد المهدى « الذى اختفى وسيظهر فى آخر الزمان قرب قيام الساعة فيملأ الارض عدلا » (١)

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية : ماده « اثنى عشرية »

الباب الثالث والعشرون

الوكلاء الأربعة للامام الغائب

روى ان مولد الامام الثانى عشر كان لثمان خلون من شعبان سنة ٢٥٦ هـ (٨٦٩ م) « ووكيله عثمان بن سعيد ، فلما مات عثمان بن سعيد أوصى إلى أبى جعفر محمد بن عثمان ، وأوصى أبو جعفر إلى أبى القاسم الحسين بن روح ، وأوصى أبو القاسم إلى أبى الحسن على بن محمد السمرى » (١) وأولهم نصبه الامامان العاشر والحادى عشر وهو الثقة الامين لديهما ، وكان ما قاله فعنهما يقوله . وخاطبه الامام العسكرى بأنه « الوكيل والثقة المأمون على مال الله » وكانت الأموال تحمل اليه فيقبضها ويحملها إلى الامام .

وروى ان أربعين رجلا من الشيعة اجتمعوا إلى الامام العسكرى قبيل وفاته ، يسألونه عن الحجة من بعده . فغاب عنهم ساعة وعاد يحمل غلاما كانه قطع قمر وقال « هذا امامكم من بعدى وخليفتى عليكم . . وانكم لاترونه من بعد يومكم هذا حتى يتم له عمر ، فاقبلوا من عثمان ما يقوله وانتهوا إلى أمره واقبلوا قوله فهو خليفة امامكم . . . » ويروى عن العسكرى أيضا أنه قال عنه: « انه وكيلى وابنه محمد وكيل ابنى محمد » . ولما مات الحسن العسكرى حضر غسله وتولى جميع أمره فى تكفينه وتحنيطه ودفنه .

وسئل هل رأى ابن أبى محمد (الامام العسكرى) الذى قيل بأنه ولد له قبيل وفاته. فبكى ثم قال: « نعم رأيته وعنقه هكذا » يريد أنها أغلظ الرقاب حسنا وتماما . ولم يشأ أن يذكر اسم الغلام خوفا عليه من اعدائه لئلا يترصدوه .

---

(١) بحار الانوار للمجلسى ، الترجمة الفارسية (١٣ ص ١٣٩) .

ويقال ان قبر عثمان بن سعيد فى شاوع الميـدان ببغداد فى مسجد قرب باب المدينـة . وفى سنة ٤٠٨ كان بنى فى وجهه حائط وبه محـراب المسجد وإلى جنبه باب يدخل إلى موضع القبر وقد نقض ذلك الحائط بعـد ٣٢ سنة وابرز القبر إلى براه فيزوره من اراد (١) .

فلما مضى عثمان بن سميد قام ابنه أبو جعفر محمد بنص أبيه عليـه بأمر القائم . وقام بتغسيل أبيه رتـكفينه ودفنه . واجتمعت شيعة العراق عليه . وله كتب مصنفة فى الفقه مما سمعها من أبيه وسمعها أبوه من الأئمة ، وقد أقسم مدة قيـامه بالوكالة للامام بان صاحب الزمان يحضر الحج فى البيت الحـرام فيرى الناس ولا يرونه .

ومن كراماته ما يروى أن بعض أصحابه وجده وبين يديه ساجة و نقاش ينقش عليها ويكتب آيا من القرآن واسماء الأئمة على حواشيها، فسأله عنها. فقال: « هذه لقبرى » ثم أخبر بيوم وفاته . وقد أخبره غيره بذلك فـكان كما قال به. وتوفى سنة خمس وثلثمائه (٩١٧) بعـد أن خدم الأئمـة عليهم السلام نحو خمسين سنة . ودفن جنب والدته فى شـارع باب الـكوفة فى الموضع الذى كانت دوره ومنازله فيه وهو الان فى وسط الصحراء (٢) .

وكان لابى جعفر من يتصرف له ببغـداد نحو من عشرة أنفس فاختـار أبا القاسم الحسين بن روح منهم وكان يقوم له بمثل ما كان يقوم أبوه للامام حسن العسكرى ، فلما مات أبو جعفر (رض) وقـع الاختيار عليـه وكانت الوصية اليه . فـكان النائب الثالث .

روت أم كلثوم بنت أبى جعفر قالت: « كان أبو القاسم الحسين بن دوح وكيلا لابى جعفر سنين كثيرة ينظر له فى املاكه ويلقى باسراره لرؤساء من

---

(١) كذلك (ص ١٣٠) وما بعدها .

(٢) بحار الانوار للمجلسى (ص ١٣٢) وما بعدها .

الشيعة وكان خصيصا به حتى انه كان يحدثه بما يجرى بينه وبين جواريه لقربه منه وأنسه » ورغم ما كان لجعفر بن احمد من الخصوصية مع أبى جعفر فقد وقع الاختيار على أبى القاسم (النوبختى) فلم ينكر أحد .

وكان لأبى القاسم مقام عظيم عند الشيعة والسنة لفضله وعلمه. ومما روى أنه حضر مجلسا عند المقتدر فزعم أحدهم أن أبا بكر أفضل الناس بعد رسول الله (صلعم) ثم عمر ثم على وقال الآخر: « بل على أفضل من عمر » فزاد الكلام بينهما فقال أبو القاسم: « الذى اجتمعت عليه الصحابة هو تقديم الصديق ثم بعده الفاروق ثم بعده عثمان ذو النورين ثم على الوصى. وأصحاب الحديث على ذلك وهو الصحيح عندنا » . فبقى من حضر المجلس متعجبين من هذا القول. وكان العامة (السنة) الحضور يرفعونه على رءوسهم وكثر الدعاء له والطعن على من يرميه بالرفض . ويذكر الراوى بانه وقع عليه الضحك فلم يزل يتصبر ويمنع نفسه ويدس كمه فى فمه فخشى ان يفتضح فوثب عن المجلس. ونظر اليه أبو القاسم ففطن به فلما حصل فى منزله وافاه ابو القاسم (وعاتبه فى ذلك) .

وتظهر لنا قوة حجته ما يروى أن عشرة إذا دخلوا عليه: تسعة يلعنونه وواحد يشكك، خرجوا من عنده: تسعة يتقربون إلى الله بمحبته وواحد واقف.

وسئل مرة عن المتعة . وكلمة المتعة مشتقة من التمتع وحسب فقه الشيعة الزواج عقد كباقى العقود يقع فى إيجاب وقبول ، وأن يدل كلاهما على القصد دون غموض أو التباس ، فيقال زوجتك وانكحتك، أما كلمة متعتك فهناك بعض الشك بانها كافية من الوجهة الشرعية ، إلا ان الرأى الذى يقول بشرعيتها هو المقبول اليوم (١) . اما الحنفية فيقولون بان كلمة المتعة أو مشتقاتها لا تكفى لوقوع الزواج . وينظر السنة إلى المتعة بالازدراء وهى موضوع جدال طويل بينهم وبين الشيعة الذين يحللونه (٢) .

---

(١) A Digest of Mohdm Law, Baillie (ج ٢ ص ٢) .

(٢) الاستبصار للطوسى (ج ٢ ص ٦٧) .

فقد سئل أبو القاسم « لم كره المتعة بالبكر » ؟ قال « قال النبي ﷺ وعلى آله : الحياء من الايمان والشروط بينك وبينها فاذا حملتها على ان تنعم فقد خرجت عن الحياء وزال الايمان » فقال له « فان فعل فهو زان؟ » قال « لا » .

وأنفذ كتاب التأديب إلى قم وكتب إلى جماعة بها وقال لهم انظروا فى هذا الكتاب وانظروا هل فيه شىء يخالفكم؟ فكتبوا إليه : إنه كله صحيح وما فيه شىء يخالف إلا قوله فى الصاع فى الفطرة نصف صاع من طعام والطعام عند مثل الشعير من كل واحد صاع .

ومات أبو القاسم سنة ست وعشرين وثلثمائة كاروت أم كلثوم بنت أبى جعفر ومن قرب دار على بن أحمد النوبختى وراء قنطرة الشوك فى الدرب النافذ إلى باب المدينة ، ويذكر المجلسى فضل زيارة قبر أبى القاسم الحسين بن روح (١) .

وكان النائب الرابع أبو الحسن على بن محمد السمرى ، وقد مر على وفاة الامام الحسن العسكرى (ع) سبعون سنة ولم يظهر الامام المختفى رغما انتظار الشيعة له . وقد مات فى هذه المدة كل من شاهد الامام بعينيه . ولم يبق خلال هذه المحنة من الشيعة إلا بقية معدودة استترت بالتقية . وذلك خلال اضطراب سياسى واجتماعى زعزع إيمان الناس . وبلغ الظلم والجور حداً جعل أكثر الناس يتوقعون ظهور الامام المنتظر حتما . فليست الشيعة وحدها منقسمة على بعضها تتعاورها أيدى الاضطهاد ، بل ان دولة الاسلام كانت قد فقدت الكثير من هيبتها بتكالب القبائل المجاورة وغزواتها المتكررة . والانكسارات الشنيعة التى أصابت جيوش المسلمين فى حروبهم المستمرة مع الروم .

ففى نفس السنة التى مات فيها الامام حسن العسكرى (ع) قتل الخليفة

---

(١) المجلسى كذلك (ص ١٣٦) وما بعدها . انظر تحفة الزائرين له (ص ٤٢٤)

المهتدى ، ذلك الخليفة الطيب القلب ، بعد تعذيب شديد على أيدى قادة الأتراك . وتوالت النكبات فى عهد خلفه المعتمد فقد أخذ الزنج البصرة وقتل فيها كما يروى ٣٠٠٫٠٠٠ نسمة فى يوم واحد ، وامتدت محنته إلى العراق العجمى كالبلاء . وكانوا حيثما حلوا حل معهم الموت والخراب . وقد ادعى صاحبهم على الخبيث النبوة وكان لايتردد فى اعدام من لايصدق رسالته . وقد نصب له منبرا يسب عليه أبطال الاسلام . وله لذة خاصة فى سبى النساء العلويات يدفعهن كالاماء إلى أصحابه . فكانت العلوية تباع بثمن بخس فى الاسواق كما تباع الجوارى . ودامت محنته أربع سنوات حتى قتل وحمل رأسه إلى بغداد محمولا على رمح ففرح الناس بذلك فرحا عظيما (١) .

وحل الوباء فى البلاد وظهرت الزلازل . وانقضت السنوات الاخيرة من حكم المعتمد حتى سنة ٢٧٩ (٨٩٢) فى اضطرابات داخلية وحروب شديدة مع الروم . ونامت الفتنة على عهد المعتضد للرهبة منه . فقد بعث الرعب فى القلوب (٢) لكثرة من قتلهم ظلما ، فاعاد للبيت العباسى نفوذه ولقب بالسفاح الثانى .

وبعد بضع سنوات حدثت ثورة القرامطة وفى سنة ٣١٧ (٩٢٩) قتلوا الحاج وحملوا الحجر الاسود من الكعبة . وكان دعاء الاسماعيلية الذين اسسوا الدولة الفاطمية ووطدوا أركانها فى مصر يعملون فى كل مكان ضمن مؤامرة واسعة تكتنف الامبراطورية (٣) جمعاء . وتمكن الديالمة وهم من الشعوب الشديدة المراس فى كيلان وكانوا يعملون فى الجيش العباسى من الاستيلاء على اصفهان وأخذوا يتقدمون نحو العراق .

فكان مجىء الوكيل الرابع فى زمن شدة . فربما شعر ان السنوات التى

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى (ص٣٧٦ - ٣٨٣) .

(٢) كذلك (ص٣٨٦) .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية (ج ٢ ص ٢٦٧) .

مرت منــذ أواخر الأئمة (ع) كانت كلها مليئة بالظلم والجور وسفك الدماء ، وان الامام لابد أن يظهر . او ربما أدرك الخيبة فشعر بتفاهة منصبه وعــدم حقيقيته كوكيل معتمد للامام المفترض . ومهما كان الامر فانه عندما سئل أن يعين وصيه من بعده قال: « لله أمر هو بالغه »، وكانت وفاته سنة ٣٢٩ (٩٤٠). ولم يوص أحد بعده . وانتهت الغيبة الصغرى التي تمتد من سنة ٢٥٦ إلى سنة ٣٢٩ . وقد مر نحو الف عام على الغيبة الــكبرى . وقبر النائب الاخير بشارع الخلبخي قريبا من شاطىء نهر أبي (عتاب) (١) .

(١) بحار الانوار للمجلسي الترجمة الفارسية (ج ١٣ ص ١٤٨) .



الباب الرابع والعشرون

فى

زيارة قبور أبناء الأئمة

ويقصد بابناء الأئمة الذين من عقبهم، مهما كان البعد والقرب بينهم. ويشك المجلسى بوجود حديث عن الأئمة (ع) ينص على زيارة قبور أبناء الأئمة جميعا ، إلا انها عادة أقرها العلماء ، ودفعا للشك يستحسن زيارة كل من هذه القبور لعلاقتها الظاهرة بالأئمة وما فى زيارة قبورهم من البركة (١) .

قم

وقد وردت أحاديث فى وجوب زيارة مشهد فاطمة (ع) فى قم . وتعرف بالمعصومة، وهى ابنة الامام موسى الكاظم وأخت الامام على الرضا ، وكانت قم من مدن الشيعة المشهورة فى العراق العجمى . ويقال ان أخت الامام الرضا لما أرادت اللحاق باخيها فى خراسان وقفت فى قم فمرضت وتوفيت هناك. وهناك من يقول بانها سمت (٢) .

وقد وجد المستوفى عندما زار قم فى القرن الرابع عشر انها كانت خرابا . ولا يذكر شيئا عن قبر فاطمة (ع) الا انه يذكر ان أهل قم من الشيعة الاثنى عشرية (٣) . ويروى ابن بابويه (٩١١) عن سعد بن سعد قال : سألت

---

(١) تحفة الزائرين للمجلسى (ص ٤٢٠) .

(٢) لسترينج Lands of the Early Caliphate (ص ٢٠٩) .

(٣) نزهة القلوب للمستوفى طبعة لسترينج (ص ٦٧) الترجمة الانكليزية (ص ٧١) .

الامام الرضا عن زيارة قبر اخته بنت موسى بن جعفر ، فقال: « من زارها فله الجنة » (١) ويروى المجلسى أحاديث أخرى بذلك عن الامامين الرضا وابنه محمد التقى (ع) فى زيارة قبرها قال: « إذا أتيت القبر فقم عند رأسها مستقبل القبلة وكبر أربعا وثلاثين تكبيرة وسبح ثلاثا وثلاثين تسبيحة واحمد الله ثلاثا وثلاثين تحميدة » وبعد السلام على آدم ونوح وإبراهيم وموسى ومحمد ﷺ وعلى على وفاطمة والحسن والأئمة أجمعين يسلم الزائر على فاطمة بنت موسى بن جعفر إلى باقى النسب الشريف (٢) .

وفى قم قبران آخران تدل احجارهما على انهما قبرا على بن جعفر الصادق ومحمد بن موسى . والتاريخ على الحجر يشير إلى نحو ٤٠٠ سنة قبل زمن المجلسى ، أى نحو سنة ١٣٠٠ مما يدل على أنه وضع هناك بعد الزمن المغولى فى محاولة إعادة بناء القبر . ولكن المجلسى يضيف قائلا : « جلالة قدره أجل من ان يذكر ، إلا أنه لم يثبت بان قبره هو هذا فان الكتب المختلفة لاتذكر انه لم يأت إلى هذه البلاد . وأغلب الاعتبار أنه مدفون فى وادى العريض (قرب المدينة) والكتابة على قبره هناك واضحة فالاحسن زيارته هناك » .

ومدينة قم اليوم مدينة مسورة يدخلها الداخل من باب على الطراز الفارسى لمثل هذه الأبواب ، زين بنقوش بالكاشانى ، ويرجع الفضل فى زيادة اهميتها إلى الشاه عباس الصفوى الكبير وقد اهتم اهتماما خاصا بتشجيع زيارة القبور الموجودة داخل المملكة الايرانية منعا لتسرب الاموال إلى خارج البلاد . وللسبب عينه يعزى دفن المتأخرين من الملوك الصفويين فى قم . والمشهد نفسه خير مثال للزيارة فى ذلك الدور .

---

(١) عيون الاخبار لابن بابويه فصل (٦٨ ص ٣٧١) .

(٢) تحفة الزائرين للمجلسى (ص ٤٢٠) ومفتاح الجنان له (ص ٤٢٥) .

الشاه عبد العظيم

ومن أشهر المشاهد فى إيران قبر الامام زاده شاه عبد العظيم . ويتصل نسبه بالحسن فى الجد الرابع .وكان محدثا عالما بامور الدين ذا ورع وزهد، كان ملازما للامام محمد التقى وابنه الامام على النقى وكان متفانيا فى خدمتهما .

وكان قبره خارج مدينة الرى . ولما خرب المغول هذه المدينة انحاز من بقى من أهلها إلى قرية طهران التى أصبحت فيما بعد عاصمة إيران الحديثة . وزاد قرب هذا المشهد من العاصمة فى أهميته كثيرا فى السنوات الأخيرة. ولكن ما ورد فى الكتب القديمة يدل على أنه كان من الاماكن المهمة للزيارة .

ويذكر ان (الشاه) عبد العظيم هرب من الخليفة وجاء متخفيا إلى الرى فاختبأ فى سرب فى دار أحد الشيعة، وكان يعبد الله فى ذلك السرب ، ويصوم النهار ويقوم الليل ويخرج مستترا فيزور القبر الذى يقابل الآن قبره ، وبينهما الطريق. ويقول: هو قبر رجل من ولد موسى بن جعفر . وكان يقع خبره إلى الواحد بعد الواحد من الشيعة حتى عرفه أكثرهم ،فرأى رجل من الشيعة فى المنام كأن رسول الله ﷺ قال :ان رجلا من ولدى يحمل غدا فى سكة الموالى فيدفن عند شجرة التفاح فى باغ عبد الجبار بن عبد الوهاب » فذهب الرجل ليشترى الشجرة. وكان صاحب الباغ رأى أيضا رؤيا فى ذلك ، فجعل موضع الشجرة مع جميع الباغ وقفا على أهل الشرف والتشيع يدفنون فيه .

فرض عبد العظيم (رح) الذى يسكن فى سكة الموالى ومات . فلما جرد ليغسل وجد فى جيبه رقعة فيها ذكر نسبه، فاذا فيها: أنا أبو القاسم عبدالعظيم

ابن عبد الله بن على بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب (ع)(١)

ويروى انه دخل بعض أهل الرى على الامام على النقى فى المدينة فقال: اين كنت؟ فقال: زرت الحسين ﷺ. فقال: أما انك لو زرت قبر عبد العظيم عندكم لكنت كمن زار الحسين (ع)(٢).

ومما يدعى عند قبره: «اسألك ان تشفع فى عتق رقبتى ورقبة والدى ورقاب إخوانى وجميع المؤمنين رجالا ونساء من النار، ودخول الجنة مع اتباعك» (٣) وكان أول خط حديدى، وهو الخط الوحيد الذى كان فى إيران، لمدة طويلة بين طهران ومشهد الشاه عبد العظيم ويؤمه عدد عظيم من الناس للزيارة يوم الجمعة. وعلى مقربة من قبره قبر يقال انه لحمزة أحد ابناء الامام موسى. ويظن المجلسى ان هذا القبر ربما هو القبر الذى كان عبد العظيم يزوره مستترا، ولذلك فهو ينصح بزيارة قبر حمزة والسلام عليه.

اردبيل فى اذربيجان

يدعى أن الشيخ صفى الدين (توفى سنة ٧٣٥ - ١٣٣٤) الاردبيلى جد الصفويين يرجع بنسبه إلى الامام موسى الكاظم (ع) وبينهما اثنان وعشرون ظهرا. ويشمل نسبه أربعة باسم محمد مجردا عن الكنية واللقب

---

(١) وقد أخطأ لسترينج بظنه ان الحسين بن على الرضا (كتابه المار ذكره ص ٢١٧) المدفون حسب قول المستوفى فى قزوين (نزهة القلوب الترجمة الانكليزية ص ٦٤) وقد صحح هذا الخطأ فى ملحوظة للمؤلف على نفس ترجمة المستوفى تبين حسب (هفت اقليم) ان صاحب القبر، المعروف بعبد العظيم وله مشهد مشهور قرب طهران «هو ابن الحسن بن زيد ابن الحسن بن على بن أبى طالب» الذى كان أميرا على المدينة زمن الخليفة المنصور، وتوفى بالرى).

(٢) تحفة الزائرين للمجلسى (ص ٤٢٣).

(٣) مفتاح الجنان للمجلسى (ص ٤٣٠).

ولذلك يشك فى انه من ابناء الأئمة . الا ان ذلك لا يمنع اعتباره من الشيوخ الصالحين بحق . وله منزلة و نفوذ عظيمين . وكانت اردبيل أول عاصمة للصفويين . وقد دفن عدد من ملوكهم الاوائل فى مشهد الشيخ صفى الذى وصفه أحد المعاصرين بانه تقدس سره قطب سماه : الحق والمتبحر فى بحار الشريعة والسالك فى مضمار السلوك شيخ الاسلام و المسلمين وحجة القاصدين مثال مسند الصفاء والنض الزاهر فى حديقة الولاء » . وقد وصف حياته وتعاليمه وخاصة كراماته أحد مريديه توكل بن إسماعيل المعروف بابن البزاز فى كتاب ضخم يبلغ ٦٠٠ ر ٢١ كلمة سماه بصفوة الصفا . وقد طبع هذا الكتاب بالحجر فى بمبى سنة ١٣٢٩ – ١٩١١ وقد وضعه ولخصه الاستاذ براون ( ) .

واردبيل مدينة ذات اهمية تاريخية فعند فتح المسلمين إيران جعل الامويون اردبيل عاصمة لاذربيجان . ويبلغ مستواها نحو ٥٠٠٠ قدم . ومن الجبال التى تكاد تحيط بها من كل جانب جبل يبلان الشاهق وهو فى الأصل بركان خامد . وبقيت هذه المدينة الجبلية المركز الادارى لمقاطعة اذربيجان حتى قبيل الفتح المغولى . ويذكر ياقوت بانها كانت « مدينة كثيرة الاهل والسكان » وذلك سنة ٦١٧ – ١٢٢٠ . فلما جاء المغول خربوها عن اخرها وقتلوا أهلها بدون رحمة . وفى القرن الرابع عشر نشأ على زمن خلفاء الشيخ صفى فى اردبيل نوع من الحكومة الدينية تعتمد فى قوتها العسكرية على ابناء المماليك من الاتراك الذين اعتقهم الشيخ صدر الدين والمعروفين بالقزلباش » (٢) وكان امراء هذه الدولة من المرشدين (٣) الروحيين الوارثين من ابناء الشيخ صفى . وفى القرن السادس عشر أسس اسماعيل من احفاد الشيخ صفى ، وبينها ستة أظهر ، دولة الصفويين المشهورة فى إيران . والشاه اسماعيل

---

(١) Persian Literature in Modern Times تأليف براون (ص ٣٣) وما يليها

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة اردبيل .

(٣) Sir T. Wolseley Haig مادة ، الصفوية .

هو الذى اتخذ المذهب الشيعى مذهبا رسميا فى ايران. ولما كان هو وخلفاؤه الاقربون مدفونين فى أردبيل فى صحن مشهد الشيخ صفى امكننا ان ندرك مغزى زيارة هذا المشهد من قبل الشيعة . ولما أخذ الروس هذه المدينة عنوة سنة ١٨٢٦ نقلوا مكتبة الشيخ صفى إلى المكتبة القيصرية فى لنينغراد وهدمت الزلازل أيضا أكثر الابنية . ويجد الزائر حتى غير المسلم إذا ذهب إلى المشهد فجرا عند عدم وجود من يعارض فى دخوله من الزوار أو بتخويل من دائرة المعارف ، نفسه إذا ما دخل فى غرفة طويلة تحوى قبور عدد من الشاهات الصفويين ، ويرى عددا من الالواح الحجرية المهمة والسجاد الثمين ومجموعة من الخزف الايرانى والصينى القديم .

ويذكر الشاه طهماسب (١٥٢٤ — ١٥٧٦) فى مذكراته الزيارة التى قام بها لمشهد اردبيل . وكان شاكا فى نتيجة معركة معينة فى حروبه الطويلة مع العثمانيين قال: «فنذرت اثنى عشرة شمعة كما أمرت (وقد شاهد عليا (ع) فى المنام فامره بذلك) ونذورا أخرى عينتها بنفسى . فزرت قبور الصالحين وصليت فى صحن المشهد ثم نمت عند قبر الشيخ حيدر (أبو الشاه اسماعيل) فرأيت الشيخ صفى الدين فى المنام فاخبرنى :« ان امرك اما ظهور أو خروج بعد عشرين يوما » . فلم أدر أى الكلمتين قالها فلما افقت قلتِ لنفسى إذا كان ما قاله هو الظهور فانه ربما أشار إلى الامام وعلى يديه الفرج من الله. وقامة ممثل آل محمد . اما إذا كانت الكلمة الثانية وهى الخروج فما عسى ان يكون معناها ؟ » (١) .

---

(١) « Memoirs of Shah Tahmasp» D C. philipott Indica Bib رقم (١٣١٩ ص ٣٨) .

قبور ابناء الائمة الآخرين

قال المجلسي: « وفي جميع البلاد قبور كثيرة تنسب لابناء الأئمة وأقاربهم. وان قبور بعضهم غير ظاهرة ولا يعرف شيئا عن حياتهم . وتستحب زيارة من ظهرت قبورهم جميعا . فان في تعظيمهم تعظيم الأئمة . اما كيفية زيارتهم فلم يرد فيها خبر على الخصوص، ويجوز زيارتهم بما ورد في زيارة سائر المؤمنين، ويجوز تخصيصهم بالخطاب بما جرى على اللسان من ذكر فضلهم ،وكذا يجوز قراءة اى دعاء مكتوب مما كتبه العلماء المجتهدون » ( ) .

وهناك مشهد في مكان مدينة قوجان القديمة في خراسان لذكرى إبراهيم احد ابناء الامام الرضا (٢) وقد تخربت هذه المدينة واصاب المشهد اضرار كبيرة بسبب زلزال وقع سنة ١٨٩٥ كما شرحه لي سكان القرية البسطاء الذين يسكنون الآن في بساتين الكروم. فقالوا : ان الامام مزادة ابراهيم صادف ان ذهب في ليلة الزلزال لزيارة والده في المشهد فبقي المكان خاليا ممن يحميه والا لما حدث هذا الخراب .

وآخر من ابناء الأئمة محمد بن محمد بن زيد بن الامام زين العابدين ، وهو مدفون في بستان خارج نيسابور وقبره عليه قبة مشهورة بجمال نقوشها الكاشانية . ويقال ان الشاه صفي أمر بترميمها سنة (١٠٤١ - ١٦٣١) وفي ايوان ملاصق لهذا المشهد يرى السائح قبرا بسيطا جدا يضم رفات الشاعر الفارسي عمر الخيام . ويذهب عدد كبير من الزوار كل جمعة أو عيد من نيسابور الى هذا البستان، ومعظمهم لايعرفون عن عمر الخيام الا قليلا .

---

(١) تحفة الزائرين للمجلسي (ص ٤٢٢) .

(٢) محمد تقي خان حكيم « كنج دانش » طبع ١٣٠٥ - ١٨٨٧ (ص ٣٧١)

فيـذهبون إلى المشهد لطلب الشفاعة من ابن الامام . فيخبرونه بدعائهم بحاجاتهم الشخصية ومخاوفهم ومصاعبهم وأمراضهم فى هذه الحياة راجين منه ان يتوسـط بالعون . ويتضرعون اليـه ان يشفع لهم بالمغفرة والسعادة فى الآخرة ، وانه لابد فاعل ذلك ما داموا قد قصدوه ودعوا عند قبره - وان تعظيمه تعظيم للائمة وتعظيم الأئمة تعظيم لله .

الباب الخامس والعشرون

المزارات الشيعية الصغرى

بالرغم من التوحيد المصرح به فى القرآن فان الأمم الاسلامية لازالت تحتفظ بكثير من العادات الوثنية ، فان من أهم الصفحات فى الحياة الدينية للعوام فى جميع البلاد الاسلامية هو : تقديسهم قبور الصالحين . وفى هاتين القضيتين ساير العلماء والمحدثون اندفاع الرأى العام . فان تعظيم الشيعة لا يقتصر على قبر الرسول ﷺ فى المدينة وقبور الأئمة وغيبة الامام المختفى ، وقبور وكلائه الأربعة ، بل إن هناك أماكن مقدسة أخرى كثيرة ينصح للزوار بزيارتها . وقد أصبح لكل قوم أئمة محليون يزورون قبورهم أو آثارهم ، فيفرح ذلك الامام ، ويشفع لهم وينجيهم من الفقر والمرض .

الأحجار التى عليها آثار أقدام الأئمة

« ومن بين المعجزات التى تعزى إلى محمد أنه عند ما داس على صخرة ، ارتسم أثر قدمه عليها . . . وأهم هذه الآثار أثر قدمه فى المسجد الأقصى فى القدس على الصخرة التى ركب فيها محمد البراق للعروج إلى السماء » (١) . ويريك الناس آثار أقدام مشابهة ينسبونها إلى محمد فى دمشق ، والقاهرة ، واستانبول ، والهند » فنرى مثل هذه الأحجار فى طول البلاد وعرضها . أما فى إيران : فكان من الأنسب للفكرة الشيعية أن تنسب آثار الأقدام

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة « قدم شريف » بقلم ت . و . ارنولد .

المزعومة على مثل هذه الصخور إلى بعض الأئمـة المعينين . فعـلى مسافة غير بعيدة من نيسابور ، وعلى طريق المشهد قرية قديمة محصنة على قمة تل ، وعلى سفح هـذا التل مزار جميل تـكتنفه الأشجار الـكثيفة ، وتحت القبة الزرقاء حجر عليـه أثر كبير ، يزعم أنه للامام الرضـا . وأن الزوار الذين يذهبون إلى المشهد حسب الطريقـة العصرية بسيارات اللورى يصرون كل مرة تقريباً على السائق بالوقوف عند القدماء (أى مكان القدم) ليتمكنوا من زيارة المزار . ونقرأ عن مكان آخر مثله فى أذربيجان عند قرية جولدار حيث يوجد «قدماه» ، ويقال إن الامامزادة السيد أمير أحمد مدفون هناك (١) .

قبور أصحاب الرسول

ينصح المجلسى بزيارة قبور أصحاب الرسول الذين والوا علياً ، وعلى الأخص من عرف فضله ، للسلام عليهم . ومنهم سلمان الفارسى الذى أشار على الرسول بحفر الخندق للدفاع عن المدينـة . واشتهر فى السنوات الأخـيرة من عمره ببساطة معيشته مما أثر على الناس ، وصار موضوعاً لأقاصيص كثيرة مشتهرة . ويزور كثير من الشيعة قبره عند عودتهم من كربلا ، وهو فى قرية اسبندور من المدائن . ويقول بعضهم إنه دفن فى جوار اصفهان (٢) .

وقبر أبى ذر من القبور التى توجب زيارتها ، فهو ثالث من آمن بالرسول وذهب إلى إيران داعياً إلى الدين الجـديد . وقد اشتهر خاصة بصـدقه فى القول ، فيروى أن الرسول قال عنه : « ما أظلت السماء ، ولا ضمت أرض أصـدق من أبى ذر » . وكان لا يهاب أحـداً ، فيقال : إنه كان يطعن فى

---

(١) آثار العجم للشيرازى طبعة ١٣١٤ هـ (ص ٢٤٥) .

(٢) مقال سلمان الفارسى بقلم دو تلدسن فى مجلة العالم الاسلامى (ج ١٩ ص ٣٥١)

الخليفة عثمان ، فنفاه إلى الربذة على مسيرة أربعة أيام من المدينه . وتوفى بها سنة ٣٤ هـ (١) .

ومن الصحابة الصادقين الموالين لعلى ، والذين تزار قبورهم إن أمكن ، المقداد الذى توفى فى مصر ، ودفن بالمدينة (٢) . وعمار بن ياسر الذى آخاه الرسول ، وقال عنه « إن عمارا حضر كل غزوة ، وأبدى رجولة ، وأصيب بجروح عديدة » (٣) ، وعدى بن حاتم الذى اشتهر بكرمه ، وغيرته على الاسلام ، وخدم فى « ركاب على » (٤) ، وجابر بن عبد الله ، أحد أنصار على وكان آخر من مات من الصحابة (٥) . وحذيفة بن اليمان الذى قتل مع أبيه وأخيه فى غزوة أحد ، ودفن فى المدينة (٦) . وحجر بن عدى الذى أسلم فى طفولته ، وقاتل مع على فى حرب الجمل وصفين (٧) ، وأخيراً قنبر المولى الصادق لعلى (٨) . وقد ذكر المجلسى جميع هؤلاء ونصح بزيارة قبورهم (٩) .

قبور العلماء والشعراء والصالحين

يقال : إن قبور أكابر علماء الشيعة والمحدثين يقتضى زيارتها كلما أمكن ذلك . وهم كالشيخ المفيد ، والسيد المرتضى اللذين درس عليهما المحدث

(١) آثار العرب للشيرازى (ص ٧٧) وطبقات ابن سعد (ج ٤(٢) ص ١٦١ - ١٧٤)
(٢) طبقات ابن سعد (ج ٣(١) ص ١١٤ و ١١٥)
(٣) كذلك (ج ٤ ص ٧) وآثار العجم (ص ٧٤) .
(٤) « (ج ٤ ص ١٣) « « (« ٧٣) .
(٥) « (« ٣ (٢) ص ١١٤) « « (« ٧٣) .
(٦) « (« ٦ ص ٨) و (ج ٧ ص ٨٤)
(٧) « (« ٦ : ١٥١ - ١٥٤) ودائرة المعارف الاسلامية مادة « حجر » .
(٨) « (« ٦ : ص ٥٦) وتاريخ اليعقوبى (ج ٢ ص ٢٥٠ و ٢٥٣) .
(٩) تحفة الزائرين للمجلسى (ص ٤٢٣) .

الشهير الطوسى ، ودفنا فى بغداد (١) . وقبر الشيخ الطوسى فى النجف. مع أن اسمه يشير إلى أنه جاء من طوس فى خراسان النائية . والفقيه الكبير العلامة الحلى الذى يدل اسمه على أنه من الحلة ، وكانت له شهرة كبيرة فى مدرسة بغداد ، واعترف بخدمته الكبيرة ، وأن قبره يقتضى زيارته (٢) . وكما ذكر المجلسى ان كثيراً من العلماء والمحدثين مدفونون فى قم . فمن الذين يقتضى زيارة قبورهم على ابن بابويه ، ومحمد بن قلويه ، والقلب الراوندى وزكريا بن آدم ، وزكريا بن إدريس ، وآدم بن إسحاق (٣) .

والفضل المحتمل لزيارة قبور الشعراء كشفعاء لا يمكن غض النظر عنه . فقد رأى مؤلف الكتاب قبل بضع سنوات ثمانية من العميان ، وكلهم من الشيوخ جالسين عند قبر الشيخ عبدالله الأنصارى ، وهو فى بستان خارج مدينة هراة فى بلاد الأفغان . والأنصارى : هو صاحب الرباعية فى التحذير من التكبر (٤) :

عار عظيم أن تضع نفسك
موضعاً عليا أو تترفع على غيرك
كن كبؤبؤة عينك
ترى كل شىء إلا نفسك

---

(١) قصص العلماء لمحمد بن سليمان التنكابونى القصص (٩٧ و ٩٨ و ٩٠) انظر Persian Literature in Modarn Times لبراون (ص ٤٠٥ و ٤٤٩) .

(٢) قصص العلماء القصة ٨٨ وكتاب براون السابق الذكر (ص ٤٠٦) والترجمة الانكليزية للباب الحادى عشر للحلى ، بقلم القس وليام م ملر ، الدراسات الشرقية (ج ٢٩) .

(٣) تحفة الزائرين للمجلسى (ص ٤٢٢) .

(٤) Literary History Of Gersearn

لبراون (ج ٢ ص ٣٦٩ ــ ٢٧٠) .

وفى بستان آخر من بساتين هراة التى تكثر فيها أشجار الصنوبر ، قبر مبنى بالرخام الأبيض ، وهو قبر الملا نور الدين عبد الرحمن الجامى ، وقد دفن بالسنة التى اكتشف فيها كولومبوس القارة الأميركية . وقد نمت شجرة من القبر نفسه ، وذلك غير نادر عند قبور الشعراء ، وتليق بذلك الرجل الذى قال : «الحياة ثوب جميل جدا و نقصه خفته» وهو الذى قال: « ياجامى امسك فمك عن الكلام فى هذا البستان ، فان غناء البلبل ونعيق الغراب كله واحد . وليت شعرى كم من الزوار الذين يمرون بالقبر يذكر ماسماه الأستاذ براون بصلاة جامى لغذاء الروح (١) :

« يارب ، يارب ، ابعدنا عن الاشتغال بسفاسف الأمور وأرنا الاشياء على حقيقتها وارفع عن عيون افهامنا حجاب عدم الانتباه وارنا كل شىء على حقيقته ، ولا ترنا عدم الوجود بصورة الوجود ولاتضع حجاب عدم الوجود على جمال الوجود . واجعل هذه الاشباح مرآة لمظهر جمالك ، لاسببا للحجب والبعد . واجعل هذه الصور الشبحية وسيلة لمعرفتنا ورؤيتنا لاسببا للجهل والعمى فكل حرماننا وابعادنا من انفسنا فلا تتركنا مع انفسنا واعطنا الخلاص من انفسنا . وزدنا معرفة بك » .

وهناك جامى آخر هو الشيخ شهاب الدين احمد ، وهو مدفون فى بلدته جام وهى قرية كبيرة بخراسان وعلى قبره شجرة كبيرة يستظل بظلها المسافرون وزار تيمور قبره فى القرن الرابع عشر . وزاره أيضا ابن بطوطة وذكر ان أكثر الارض هناك يمتلكها احفاد الشيخ ، وتعرف المدينة فى الوقت الحاضر بتربة شيخ جامى (٢) .

---

(١) PersianLieleruta under Tartar Dominion ابرون [ص ٥٤٧ و ٥٤٨] .

(٢) لسترينج Lands of tho Early Caliphate (ص ٣٥٧) .

الزيارة بالنيابة

بين المجلسى اداب زيارة النيابة عن الغير قال: « اعلم ان زيارة كل واحد من النبي المختار والأئمة الاطهار يمكن اهداء ثوابها لكل واحد منهم ولكل واحد من المؤمنين والمؤمنات، وبهم يمكن الزيارة بالنيابة» وأوضح ذلك بذكره الحديث التالى (١):

عن داود الصرمى قال: قلت للامام على النقى: «إني زرت اباك وجعلت ذلك لك» قال «لك من الله أجر وثواب عظيم ومنا المحمدة» ويروى ان الامام على النقى ارسل رجلا إلى الحائر إلى قبر الامام الحسين». ليزور ويدعو له عنده.

وعن الامام موسى انه قال: «إذا أتيت قبر النبي ﷺ فقضيت ما يجب عليك فصل ركعتين ثم قف عند رأس النبي ثم قل: «السلام عليك يانبي الله من أبي وأمي وزوجتي وولدي وحامتي ومن جميع أهل بلدي حرهم وعبدهم وأبيضهم وأسودهم» فلا تشاء ان تقول لرجل انى قد قرأت رسول الله ﷺ عنك السلام الا كنت صادقا».

وروى آخر انه سأل عدة أئمة قال: «إذا صلى رجل ركعتين أو صام نهارا كاملا أو حج أو زار قبر النبي أو قبر امام معصوم ثم جعل ثواب ذلك لوالديه أو اخوته المؤمنين فهو يؤجر أو يثاب»؟ فكان الجواب: نعم ولا يقلل ذلك من اجره أو ثوابه بما اهداه لغيره.

وقال الشيخ الطوسى: من خرج زائرا عن أخ له فليقل عند فراغه من غسل الزيارة، وفى بعض النسخ من عمل الزيارة»: اللهم ما أصابنى من تعب أو نصب

---

(١) تحفة الزائرين للمجلسى (ص ٤٢٣) وكمال الدين لابن بابويه (ص ٢٤١) وبحار الانوار للمجلسى، الترجمة الفارسية (ج ١٤ ص ٨).

أو شعث أو لغوب فأجر فلان بن فلان فيه وأجرني عن قضائي عنه . فاذا سلم على الامام فليقل فى آخر التسليم : « السلام عليك يامولاى عن فلان بن فلان . اتيتك زائرا عنه فاشفع له عند ربك » ثم يدعو له بما أحب ان شاء الله أو دعا بدعاء ذكره الشيخ الطوسى فى تلك المناسبة [١] .

---

[١] تحفة الزائرين [ص ٤١٨ — ٤٢٠] .



الباب السادس والعشرون

ظهور البويهيين

كانت ثغور المسلمين اثناء فتحهم إيران جنوب بحر قزوين على خط زنجان — قزوين — الرى — دامغان العام . والمنطقة الواقعة إلى شمال هذا الخط، وتمتد حتى سواحل بحر قزوين تشملها ايالتا كيلان ومازندران اليوم. وهى بمستنقعاتها وجبالها المكسوة بالغابات الكثيفة تؤلف منطقة شديدة الوعورة لا يمكن اجتيازها ، وقد تحصنت فيها القبائل المجوسية أو الوثنية سنوات عديدة . وعندما حل القرن العاشر كانت هذه المنطقة مؤلفة من مقاطعات طبرستان وجرجان وقرمس التى تشملها بلاد الديلم (١) وكان الديلم حينذاك من أشد القبائل مراسا وأقواهم نفوذا .وقد ظهر منهم بنو بويه الذين نجحوا فى بسط سلطانهم على إيران الغربية جميعها ، وكان لهم الحكم المطلق على الخلفاء لمدة تزيد على القرن .

وكان دخول الديلم والاتراك فى الجيوش المرتزقة الجرارة التى حاربت الروم فى سبيل الخلافة ، سببا فى تغلغل الاسلام إلى قلوبهم . ثم صارت طبرستان بعدئذ إلى ناصر الحق أبى محمد « فأسلم على يديه عدد عظيم من المجوس فى الديلم » (٢). ويذكر المسعودى ما جرى على يد الحسن بن على الاطروش فى نشر كلمة الاسلام « وقد أقام فى الديلم والجبل سنين وهم جاهلية ومنهم مجوس، فدعاهم إلى الله فاستجابوا وأسلموا » وبنى فى بلادهم مساجد . وفى سنة

---

(١) لسترينج Lands of the Eastern Caliphate (ص ١٧٣) .

(٢) ت . و . ارنولد The Peachiug of Islam (ص ٢١٠) .

٣٠١ ظهر هناك وأخرج « المسودة » أى العباسيين عن بلاد الديلم (١) .

وبذلك وجد زعماء البلاد بعد إسلامهم فرصة للتقدم فى خدمة الأمراء المسلمين المجاورين . ولا ننس أن أول اتصالهم بالاسلام كان عن طريق الشيعة، فتشيعوا لآل على المضطهدين . وقد برهن ولاء هؤلاء الرؤساء الجبليين ، الذين دخلوا فى الاسلام حديثا، على أهمية هذا الولاء ، ففى مدة حكم البويهيين الذى دام نحو ١٥٠ سنة دونت أحاديث الشيعة وتكونت عقائدهم المميزة. والغريب انه لا يعرف الشىء الكثير عن أصل هذا البيت الديلمى .

والقصة التى يرويها ابن الطقطقى فى كتابه الفخرى ، خبر لا قيمة تاريخية كبيرة له . فيذكر عن مبدأ دولة البويهيين ما حدث به شهريار بن رستم الديلمى قال : « كان أبو شجاع بويه فى مبدأ أمره صديقا لى فدخلت عليه يوما وقد ماتت زوجته أم أولاده الثلاثة الذين تملكوا البلاد ، وهم على والحسن وأحمد ، وقد اشتد حزن أبى شجاع بويه على زوجته ، فعزيته وسكنت قلقه ونقلته إلى منزلى وأحضرت له طعاما وجمعت اليه أولاده الثلاثة. فبيناهم عندى إذ مر بالباب شخص يقول : المنجم ، المعزم ، مفسر المنامات ، كاتب الرقى والطلسمات . فاستدعاه أبو شجاع بويه وقال له : قد رأيت البارحة رؤيا ففسرها لى : رأيت كأنى أبول ويخرج من ذكرى نار عظيمة ثم إنها استطالت وعلت حتى كادت تبلغ السماء ثم انفرجت فصارت ثلاث شعب وتولد من تلك الشعب عدة شعب فأضيئت الدنيا بتلك النيران . فقال المنجم : هذا منام عظيم ولا أفسره إلا بخلعة أو فرس . قال له بويه : والله لا أملك الا الثياب التى على جسدى وإن أعطيتك إياها بقيت عريانا . قال المنجم : فعشرة دنانير. قال بويه : والله ما أملك دينارين فكيف بعشرة . ثم إنه أعطاه شيئا يسيرا.

---

(١) مروج الذهب للمسعودى (ج ٨ ص ٢٨٠) و (ج ٩ ص ٤ — ٦) وكذلك Muhammadanische Studin لنولدتسيهر القسم الاول (ص ٥٩) وكتاب ارنولد المار الذكر (ص ٢١٠) .

فقال المنجم : اعلم أنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ومن عليها ويعلو ذكرهم فى الآفاق كما علت تلك النار ، ويولد لهم جماعة ملوك بقدر ما رأيت من تلك الشعب المتفرقة . فقال له بويه : اما تستحى ؟ تسخر بنا . انا رجل فقير مضطر وأولادى هؤلاء فقراء مساكين ، فمن أين لهم الملك ؟ فقال له المنجم : فأخبرنى عن وقت ولادة أولادك واحدا واحدا . فاخبره بويه بذلك . فجعل ينظر إلى اصطرلابه وتقاويمه . ثم نهض المنجم وقبل يد على وقال: هذا والله الذى يملك البلاد ثم يملك هذا من بعده . وقبض على يد أخيه الحسن . فاغتاظ منه أبو شجاع وقال لأولاده : اصفعوه ، فقد أفرط فى السخرية بنا . فصفعوه ونحن نضحك منه . فقال المنجم : لا بأس بهذا اذ ذكرتم لى هذا الحال عند ولايتكم . فاعطاه أبو شجاع عشرة دراهم وانصرف (١) .

وبقدر ذلك ما يمكن البت به عن البويهيين ، هو انهم كانوا فى خدمة مرداويج بن مزيار ، الامير الديلمى البارز آنذاك ، والذى استولى على طبرستان وجرجان واستقل بهما ، ثم أخذ اصفهان وهمدان . وفى سنة ٩٣١ م بلغت جيوشه حدود العراق (٢) وكان أبناء أبى شجاع من مقدمى عسكره ، وقد قاموا له بخدمات بارزة خلال انتصاراته الباهرة ، فولى أحدهم ، وهو أبو الحسن ، على مدينة (كرج) المهمة الحصينة الواقعة إلى جنوب شرق همدان . فقام هذا القائد الشاب بعد توليته بالتوسع على حسابه كما يظهر ، فأخذ أصفهان . ويقال إن مرداويج أخذ يخشى التقدم السريع لهذا البويهى الشاب ، فأمره باعادة أصفهان إلى الخليفة . فغضب الزعيم البويهى وانشق على رئيسه وأخذ بتوسيع بفتوحاته وتمكن هو وإخوته بعد حروب طويلة من فتح بلاد مهمة كثيرة . ولم تمض مدة طويلة حتى كان على يحكم بلاد فارس ، والحسن يحكم المدينة ،

---

(١) كتاب الفخرى لابن الطقطقى طبعة Ahlwardt (ص ٣٤) وما يليها .

(٢) ستانلى لين بول MuhammdananDynasties (ص ١٣٦) ، ومروج الذهب (ج ٩ ص ١٠) وما يليها .

وأحمد يحكم كرمان . وتقدم أحمد غربا فدخل بغداد سنة ٩٤٥ « فجعله الخليفة المستكفى امير الأمراء ولقبه بمعز الدولة ولقب عليا بعماد الدولة والحسن بركن الدولة ، فأصبح ذلك من القاب بنى بويه » (١) .

وعلق البيرونى على هذه الالقاب الفخمة التى كان الخلفاء يمنحونها قال : « لما لقب بنو العباس عمالهم ومحبيهم واعداءهم على السواء بالالقاب الفارغة المضافة إلى الدولة (كعضد الدوله وسيف الدولة الخ) ذهب ملكهم ، لأنهم تجاوزوا بها كل حد معقول ، واستمرت الحال على هذا المنوال ، حتى أخذت بطانتهم تطالب بما يميز بعضها عن بعض . ومنحهم الخلفاء القابا مزدوجة ، فطالب غيرهم بمثلها وبذلوا المال فى سبيلها ، فاستوجب الامر مرة أخرى منح القاب ثلاثية تضاف إلى لقب شاهنشاه ، تمييزا لهم عن حاشية الخليفة . وأصبح الامر مخالفا لكل ذوق سليم وقبيحا جدا ، فاذا اراد أحدهم ذكرها عجز عن ذلك قبل أن يبدأ ، ومن أراد كتابتها أضاع وقته ، ومن رغب فى تعدادها فربما فاته وقت الصلاة » (٢) .

ولم يمض وقت طويل على دخول معز الدولة أحمد بن بويه بغداد حتى سمل عينى الخليفة المستكفى . ويقال إن سبب ذلك هو خوفه من عودة الاتراك الذين هربوا إلى الموصل ، ولكن الدافع المباشر إلى ذلك العمل هو الوليمة التى أولمتها قهرمانة الخليفة للقواد الاتراك والديلم الذين بقوا فى بغداد ، فظن أنها فعلت ذلك للتأثير عليهم وتحريضهم على الفاتح الذى دخلوا فى خدمته (٣) . فجاء معز الدولة بعد أيام من ذلك ، ودخل على الخليفة وهو يستقبل بعض الرسل والوفود ، فقبل يده ثم « تقدم اثنان من الديلم

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة البويهيين .

(٢) ساخاو Chronolgy of Ancient Times (ص ١٢٩) .

(٣) موير The Caliphate, Rise, Decline & Fall (٥٧٥) .

إلى الخليفة ، فمد يديه اليهما ظانا أنهما يريدان تقبيلها، فجذباه من السرير حتى طرحاه إلى الارض وجراه بعمامته . وهجم الديلم دار الخلافة إلى الحرم ونهبوها ، فلم يبق فيها شيء (١) ومضى الامير البويهي إلى داره وسيق الخليفة ماشيا اليها ، فخلع وسملت عيناه . ذلك هو انتقام أول بويهي، وهو فظيع بقدر ما هو محزن .

وانهم وان استخلفوا بعد الخليفة المخلوع ابن عمه ، فان الخلفاء بقوا مدة ٢٠٠ سنة من بعد ذلك وليس لهم من الخلافة إلا اسمها ، وذلك أيضا لا يتم الا بأمر من أسيادهم البويهيين وموافقتهم . مع العلم أن البويهيين والديلم كانوا من الشيعة وأنهم لم يبقوا على الخلافة الا لتسهيل حكم اتباعهم من السنة . وهم معز الدوله بنصب خليفة علوى، لولا ان صرفه عن ذلك احد أصحابه فقال له : « انك تطيع الآن خليفة لو امرت اتباعك بقتله لفعلوا ، لكنك لو وليت الخلافة علويا ، يرى هو واتباعه ان الخلافة حق له ، فلو أمر اتباعك بقتلك فعلوا » (٢) .

ومن أعظم ما استحدثه معز الدولة هو امره باقامة التعازى والنوائح فى عاشوراء (٣) وكان ذلك سنة ٩٦٣ م . احياء لذكرى مقتل الحسين (البابان ٧ و ٨) . ولا زالت هذه العادة حتى اليوم من أبرز عادات الشيعه وأشهرها، فيقيمون فى يوم عاشوراء المناحات ومواكب اللطم وتعذيب انفسهم بالجروح وغيرها اظهارا لولائهم لآل على .

وأشهر أمراء البويهيين عضد الدولة ، وقد تولى الامارة بعد أخيه عماد الدولة بن حسن بعد دخوله بغداد بأربع سنوات . وحكم مدة ٣٠ سنه من ٩٤٩ ـ ٩٨٢ بلاد فارس والعراق والاهواز وكرمان . ويكثر ذكره فى تاريخ

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى (ص ٤١٧) The Caliphate تأليف . و . ارنولد (ص ٦٢)

(٢) الامويون والعباسيون لجرجى زيدان (ص ٢٧٥) نقلا عن ابن الاثير (ج ٨ ص ١٧٧)

(٣) براون Tersian Literatnre in Modern Times (ص ٣١) .

إيران لتشجيعه الشعراء والعلماء . ويعتبره الشيعيون من اعظم من انتفعوا به، فقد بذل أموالا طائلة لتعمير مشاهدهم وبناء المساجد ورعاية المدارس الدينية. وأمر مرة بقطع الخطبة للخليفة ثم أعيدت بعد شهرين . ولما بلغ أوج مجده وأصبح الحاكم المطلق للبلاد الواقعة بين بحر قزوين والخليج وبين اصفهان وبلاد الشام ، نسمع بان الخليفة خلع عليه مالم يخلع على أحد من قبله . فخلع عليه خلعة السلطنة وتوجه بتاج مجوهر وعقد له لوائين أحدهما على رسم الامراء والآخر على رسم ولاة العهد ، وصار من الخلافة على قاب قوسين ، فطلب ان يذكر اسمه فى خطبة الجمعة مع الخليفة .

قال الاستاذ ارنولد : « ان فرض مثل هذه الاهانات على الخليفة يخالف تماما ما كان يظهره له من الاحترام والاكرام كلما اقتضت السياسة ان يقدمه بصفته رئيسا أعلى للدين ، ففى السنة التى خلع بها على عضد الدولة ما ذكرناه آنفا قدم رسول من العزيز بالله الفاطمى بمصر إلى بغداد سنة ٩٨٠ واستقبل الرسول استقبالا فخما ، ووقف الاشراف وأصحاب المراتب من الجانبين ، وضربت الستارة ، وكان الخليفة جالسا على السرير وحوله مائة بالسيوف والزينة ، وبين يديه مصحف عثمان وعلى كتفه البردة وبيده القضيب وهو متقلد بسيف رسول الله ﷺ ، فقبل عضد الدولة الارض . فارتاع الرسول المصرى وسأل : ما هذا ؟ أهذا هو الله ؟ فقيل له : هذا خليفة الله فى الارض . ثم استمر يمشى ويقبل الارض سبع مرات ، فامر الطائع (وهو الخليفة) خادما له ان يستدنيه. ومازال عضد الدولة يصعد ويقبل الارض والخليفة يقول له « ادن إلى » حتى قبل رجله . وثنى الطائع يمينه عليه وأمره بالجلوس وهو يستعفى ، حتى أقسم عليه . فجلس . فقال له الطائع : « قد رأيت أن أفوض اليك ما وكل الله لى من أمور الرعية فى شرق الارض وغربها وتدبيرها من جميع جهاتها سوى خاصتى وأسبابى فتول ذلك » . فقال عضد الدولة : يعيننى الله على طاعة مولانا امير المؤمنين وخدمته . « وانتهى الاحتفال بعد ان خلع على عضد الدولة سبع خلع ، كان

يقبل الارض بعد كل خلعة . ثم استأذن وخرج فخرج وراءه الناس » (١)

إن قواد الترك الذين تحكموا بالخلافة عدة سنوات مضت، أعقبهم البويهيون فلم يبقوا من الخلافة إلا اسمها ، وحدثت نهضة أدبية مستمرة فى زمن حكمهم ، فكان لكل اسرة حاكمة متعاصرة من ترعاه وتختص به من العلماء والشعراء والفقهاء . وكان أشهر الشعراء فى ذلك العصر المتنبى والثعالبى (فى اللغة) ، ونسمع بذكر الماجن الشيعى ابن الحجاج الذى أوصى ان يدفن عند قدمى الامام موسى الكاظم . واوقف الشاعر مهيار بن مرزويه الديلمى ، شعره فى إظهار عقيدته الشيعية ، مما انقم عليه أهل السنة حتى عيره أحدهم باصله المجوسى، فقال له .« يامهيار انك لم تفعل بدخولك الاسلام شيئا سوى انتقالك من ركن من النار إلى آخر » (٢) .

وبرز من هذا الدور ثلاثة من أشهر جغرافى العرب وهم الاصطخرى وابن حوقل والمقدسى عاشوا كلهم زمنا فى بغداد . لكن أشهر من نبغ من الكتاب جميعا فى هذا الدور هو المؤرخ الشهير المسعودى الذى فصل فى كتابه مروج الذهب مجىء البويهيين إلى الحكم فجأة . (٣) والمسعودى نفسه شيعى . وربما كنا مدينين إلى عطف البويهيين فى حرية رواياته عن الخلفاء حتى سنة ٩٤٧ .

---

(١) كتاب الخلافة تأليف ت . و . ارنولد (ص ٦٥ – ٦٧) .

(٢) a History of Arabic Literatue تأليف Huart طبعة نيويورك سنة ١٩٠٣ (ص ٨٦) .

(٣) مروج الذهب للمسعودى (ج ٩ ص ١ – ٣٤) .

الباب السابع والعشرون

أوائل جمع الحديث لدى الشيعة

كان للتقلبات السياسية تأثير بارز على تطور تدوين الحديث يمكن تتبعه بسهولة خلال التاريخ الاسلامى جميعه . ومما تجدر ملاحظته أن الحديث لم يجمع أو يدون حتى بعد العصر الأموى . وكان مالك بن أنس الرجل الوحيد الذى ولد خلال ذلك الدور ، وقد عاش السنوات الخمس والأربعين الأخيرة من حياته وتمثل نشاطه الأدبى على زمن العباسيين .

وكان أحد شيعة العلويين الذين بايعوا المنصور . وقدفعلوا ذلك إكراهاً . ثم أرادوا سنة ٧٦٢ م أن يبايعو محمد بن عبد الله . وأفتى مالك وهو من أوائل واضعى التشريع الاسلامى أن اليمين إذا كان تحت الاكراه لاتقيد صاحبها . وقد جلد علنارغم كل استشهاد جاء به من الحديث . وقد علمه ذلك درساً ، وهو أن الاعتراف بالسلطة السياسية القائمة واجبة حتى على القضاة ، فقد بقى بعد ذلك ثلاثا وثلاثين سنة محتفظاً بمركزه فى المدينة . وحضر هارون الرشيد حلقة درسه فى السنة الأخيرة من عمره . ورغم أن اهتمامه بجمع الحديث كان لاستنباط الاحكام الفقهية ، وأن الموطأ لا يعتبر من الصحاح الستة بالنظر لغايته المحدودة ، فقد كان من اللازم عليه أن يراعى رغبات السلطة السياسية .

ومع ذلك توجد أحاديث فى الصحاح عما دون على زمن الأمويين . وكانت مصيبة كربلاء قد أثرت فى أفكار الناس حتى إن أمراء دمشق غير المحبوبين اهتموا كثيراً بأمر القصاصين والشعراء الذين يميلون إلى البيت العلوى . وكان هؤلاء الشعراء على زمن أمية . مثل كثير ، وكان كيسانيا ،

يستقبلون استقبالا حسناً فى دمشق ويكرمهم بنو أمية إكراماً زائداً ، وكان غيرهم كالفرزدق ، وهو كثير التدين ، غير أنه كان هجاء مقذعا . وكان متشيعاً لآل البيت . وقد مدح زين العابدين بقصيدة فسجنه الخليفة سليمان (١) كما أن الذين كانوا يجمعون الحديث ويروونه وجدوا أن عليهم رقابة شديدة من الدولة . وكما أشار الأستاذ Guillaume أن الطبرى يذكر أن معاوية أمر بعدم رواية الأحاديث التى بها مدح للعلويين ، ونشر الأحاديث الخاصة بمدح عثمان . وتظهر يد الأمويين واضحة فى وضع الأحاديث فى بيان فضل بيت المقدس مقابل مكة والمدينة (٢) ، وإذا رجعنا إلى الفصول الخاصة « بعثمان » و « القدس » من كتاب

Handbook of Early Mohammadan Traditions

تأليف Wensinck ظهرت لنا ماهية هذه الدعاية . وقد قال الزهرى عن الأمويين : « إن هؤلاء الأمراء قد أجبرونا على كتابة الحديث (٣) .

وجمع أحمد بن حنبل (المتوفى سنة ١٤١ هـ) ، وهو الذى يذكر عادة بمقاومته للمعتزلة حتى إنه جلد بأمر الخليفة المعتصم لامتناعه عن القول بخلق القرآن ، مسنده فى الحديث ، ولم يفعل ذلك إرضاء للعباسيين ، فقد ذكر أحاديث فى مناقب بنى أمية مما كان منتشراً بين الشاميين ، كما ذكر أحاديث كثيرة تؤيد ما يدعيه الشيعة . وعلى العكس من ذلك : البخارى ومسلم ، فانهما لم يذكرا مثل هذه الأحاديث إرضاء للعباسيين ، فقد جمعت الصحاح (للبخارى ومسلم وأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجة)

---

(١) Arabic Literature تأليف Huart (ص ٥١)

(٢) The Traditions of Islam تأليف Guillaume (ص ٤٧) والطبرى (ج ٢ ص ١٦٢)

(٣) كذلك (ص ٥٠)

فى زمن قوة العباسيين عندما كانوا يبذلون جهودا كبيرة للقضاء على ذكرى الامويين ، حتى انهم ازالوا أسمائهم عن المبانى وغيرها (١) .

وكان للراى العام نفوذ قوى فى تعيين ما تجب روايته من الاحاديث ، كما نستدل على ذلك بما رواه النسائى عن نفسه بالشام ، فقد جاء من خراسان وعاش فى الفسطاط حتى سنة ٩١٤ ثم انتقل إلى دمشق لجمع الحديث فى فضائل على (ع) فثار عليه العامة فى المسجد حتى كادوا ان يسحقوه باقدامهم ، ولولا بعض أصحابه لقتله الناس عندئذ . وقد مات بعد ذلك فى الرملة بفلسطين مما أصابه فى دمشق . (٢) غير اننا نرى أن اقبال الناس فى أوائل العصر العباسى على سماع الاحاديث فى مدح على (ع) وآل بيته الذين استشهدوا ، كان عظيما دون أن يبدو عليها أقل اعتراض ، وقد خصص الترمذى الفصل الاخير من الـ ٤٦ فصلا من صحيحه لذكر « فضائل أهل البيت » ويتناقل الشيعة اليوم احاديث كثيرة فى مدح على وردت فى الصحاح الستة (٣) .

وتغيرت الاحوال كثيرا عما كانت عليه عندما تنكر الزمن للعباسيين وابتسم الحظ للشيعة على يد البويهين . فنسمع بمدح الأئمة بدرجة تفوق التصور الاعتيادى ، وبالحط من قدر الامويين والعباسيين. ودونت احاديث جديدة بصورة أسلوبية، وكان ذلك لأول مرة فى التاريخ تظهر فيه أسرة مالكة ممالئة للشيعة . وتدلنا كثرة التصانيف من الكتب الدينية التى انتشرت فى الدور البويهى (٩٣٢ — ١٠٥٥) كيف أن طائفة مضطهدة احتمت بالتقية واغتنمت الفرصة للاستفادة من حريتها الجديدة استفادة كبرى .

---

(١) كذلك (ص ٣٧) .

(٢) هوارث كذلك (ص ٢٢١) ،

(٣) السيوطى فى كتاب تاريخ الخلفاء ترجمة Gerret (ص ١٧٢) ، صحيح الترمذى (ج ٢ ص ٣٠٨) ، وكتاب Hanbl look of Early Mohammadan Traditions — تأليف Wensinck الفصول الخاصة بعلى ، والحسن ، والحسين الخ .

وتنقسم القائمة التى وضعها بروكلمان باسماء كتاب الشيعة فى الحديث والفقه إلى قسمين : كتاب الزيدية وكتاب الشيعة الفرس (١) . والقسم الثانى هو الاهم لدرس عقيدة الامامة، وان نشاط هذا القسم هو الذى ادى إلى ظهور أمهات كتب الحديث لدى الشيعة . ولا يعزب عن بالنا ان طائفة الزيدية السائدة فى اليمن كانت سائرة على الطريق نفسه (٢) وتجد معلومات واسعة عن حياة مشاهير محدثى هذا الدور بين الشيعة الفرس فى فهرست الطوسى وفى قصص العلماء لمحمد بن سليمان التنكبونى وفى فهرست ابن النديم . ومن غريب الصدف ان ثلاثة باسم محمد كتبوا الكتب الاربعة التى تعتبر امهات كتب الحديث عند الشيعة :

الكلينى : (٣) وأول هؤلاء المحدثين واعلاهم منزلة هو محمد بن يعقوب الكلينى الذى الف كتاب (الكافى فى علم الدين) وهو مصنف عظيم يحتوى على ١٦٠٠٠ حديث صنفها إلى : صحيحة ٥٠٧٢ ، وحسنة ١٤٤ ، وموثقة ١١١٦ ، وقوية ٣٠٢ ، وضعيفة ٩٤٨٥ . وقد طبع هذا الكتاب طبع حجر فى طهران سنة ١٣٠٧ هـ فى مجلدين ، يعرف الاول منهما باصول الكافى

---

(١) Brockelmann Gechichte der Arabischen Litteratur ألف الجلد الاول (ص ١٨٧ و ٤٠٤) :

(٢) كتاب هوارت المار ذكره (ص ٢٤١) وقد جاء فيه « ان الطائفة الزيدية التى ثبتت اقدامها فى اليمن منذ القرن الثانى للهجرة ولا تزال كذلك حتى اليوم ، يعد من علمائها : القاسم بن ابراهيم الحسنى المتوفى سنة ٨٦٠ وحفيده الهادى الى الحق أبو الحسن يحيى (٨٥٩ - ٩١٠) وآخر من اعقابه وهو المهدي لدين الله الحسين بن القاسم المتوفى سنة ١٠١٣ والامام المؤيد بالله احمد بن الحسين (٩٤٤ - ١٠٢٠) وكانت تصانيف هؤلاء العلماء مجهولة لدى الغربين حتى جاء بها غلازر وهى اليوم فى متحف برلين » .

(٣) يذكر كتاب قصص العلماء (٦٦ ص ٣٠٧) الكلينى بضم الكاف وفتح اللام وسكون الياء ، وليس بفتح الكاف وكسر اللام كما فى القاموس .

(الابواب ١ — ٧) ويعرف الثانى بفروع الكافى (ويحتوى الابواب ٨ — ٣٠) . والفه فى عشرين سنة وقد لقب بثقة الاسلام لانه كان اثبت الناس فى الحديث . ومات فى بغداد سنة ٣٢٩ أو ٣٢٨ هـ (٩٣٩) ودفن بالكوفة وبالنظر إلى القول بان اجساد العلماء لا تبلى يقال ان قبره فتح فوجد فى ثيابه وعلى هيئته لم يتغير وإلى جانبه طفل كان قد دفن معه . فبنى على قبره مصلى (١)

الصدوق أو القمى (٢) : وثانى كبار المحدثين هو محمد بن على بن الحسين بن بابويه (المتوفى سنة ٩٩١) ويعرف بالصدوق أو القمى . ويصعب فى بعض الاحيان تمييزه عن أبيه ،وكان عالما أيضا .صنف عدة كتب فى الدين وله نفس الالقاب التى لابنه . ومات أبوه سنة ٣٢٩ هـ أى قبل انتهاء الغيبة الصغرى بعشر سنين . وله حديث مع أبى القاسم حسين بن روح ثالث الوكلاء للامام الغائب خلال تلك الفترة البالغة ٧٣ سنة (٢٥٦ — ٣٣٩) فقد سأل نائب الامام عددا من الأسئلة فلما خرج سأل على بن محمد بن جعفر بن الاسود ان يسأل أبا القاسم الروحى أن يسأل صاحب الزمان (ع) ان يدعو الله ان يرزقه ولدا . فأخبر بعد ذلك بثلاثة أيام أنه قد دعى له . ويظهر ان دعاءه استجيب بأكثر من المأمول قال: « فرزقنى الله ولدين محمدا والحسين ». وكان الصدوق يذكر دائما أنه ولد بدعاء صاحب الزمان ومهما كان الامر فانه ولد فى خراسان اثناء زيارة والده لمشهد الرضا . وفى عام (٣٥٥) أى بعد وفاة والده بست وعشرين سنة جاء بغداد واستفاد من الحرية السائدة على زمن البويهيين واشتغل بالتصنيف نحو ٣٠ سنة . ويقال انه صنف نحو ٣٠٠ كتاب خلال تلك المدة . وعدد صاحب قصص العلماء منها ١٩٠ نقلا عن النجاشى فى كتاب الرجال . وكتابه (كمال الدين) يبدأ بآدم ويشمل ٦٢ فصلا وينتهى بظهور صاحب الزمان (ع) . ويقال انه صنف كتابه بأمر من الامام نفسه ،وقد رآه

---

(١) كذلك (ص ٢٠٧) فهرست الطوسى (رقم ٧٠٩) .

(٢) كذلك (رقم ٩٤ ص ٢٠٠ - ٢٠٧) وفهرست الطوسى (رقم ٦٦١) .

وخاطبه فى الرؤيا بمكة . اما مصنفه العظيم فى الحديث باعتباره اساسا للتشريع الاسلامى فهو كتاب (من لا يحضره الفقيه) وهو من الكتب الاربعة ويضم ٤٤٩٦ حديثا . وقد طبع هذا الكتاب بالحجر فى إيران سنة ١٣٢٦ﻫ طبعا واضحا خلاف طبع الكتب الاخرى . وليس لهذا الكتاب فهرست بل ان صفحاته مرقمة ، وقد كتب على الحاشية منها اسماء الكتب المختلفة والمواضيع بصورة واضحة .

الطوسى : (٦) وثالث المحدثين الثلاثة فى هذا الدور هو محمد بن الحسن الطوسى . وجاء بغداد من خراسان أيضا . ويقال إنه كان له تأثير نافذ بنشر المذهب الشيعى ، فقد كان عدد تلامذته يزيد على الثلثمائة . ووقع على تقدمه وفضله الاجماع ، وصنف فى جميع علوم الاسلام . وتتلمذ على الشيخ المفيد والسيد المرتضى من أفضل رجال الشيعة ، الذى لما مات شيعه ثمانون الفا (٢) . اما السيد المرتضى الملقب بعلم الهدى فهو من احفاد الامام موسى الكاظم ، ورئيس الطائفة الشيعية فى بغداد . وقد أشيع أن الخليفة اتفق مع السيد المرتضى على اعتبار المذهب الشيعى مذهبا خامسا من مذاهب أهل السنة والجماعة كالحنيفية والشافعية والمالكية والحنبلية ، فلا تبقى حاجة للتقية وذلك مقابل مئتى الف تومان (؟) فلم يتمكن السيد المرتضى من جمع اكثر من نصف المبلغ (٣) .

ولد الطوسى سنة ٣٨٥ ﻫ . فى طوس بخراسان وجاء بغداد وعمره ثلاث وعشرون سنة ثم هاجر بعد ذلك الى النجف . وعاش اثنتى عشرة سنة فى بغداد بعد انتهاء حكم البويهيين . وقد أحرقت كتبه كراساته ، وظن ذلك من عمل اعدائه الذين اشتكوه الى الخليفة وادعوا انه لعن الصحابة فى احد مصنفاته

---

(١) كذلك رقم ١٠٠ (ص ٣١٩ — ٣٢١) وفهرست الطوسى رقم ٦٢٠ .
(٢) « « ٩٧ (ص ٣٠٧ — ٣١٤) « « « ٦٨٥ .
(٣) « « ٩٨ (ص ٣١٤ — ٣١٧) .

بقوله « الظلمة الاوائل الذين لعنوا » . فلما جيء به أمام الخليفة انكر ذلك وقال: يا أمير المؤمنين ، ان الظالم الأول هو قابيل لقتله هابيل وهو أول من قتل من البشر ، والثانى هو قاتل قيدار بن سام ، والثالث هو قاتل يحي بن زكريا ، والربع ابن ملجم قاتل على (ع) . وبذلك دفع التهمة عن نفسه ، وتوفى بعد ذلك بقليل فى النجف بعد أن بلغ الخامسة والسبعين من العمر . وكانت وفاته سنة ٤٦٠ هـ .

وصنف فضلا عن تآليفه العديدة فى أصول الدين والعبادات والفقه والتراجم : كتاب « الفهرست » فى كتب الشيعة التى يرجع اليها . لكن أهم ما صنفه هما الكتابان الباقيان من « الكتب الاربعة » وأولهما كتاب تهذيب الاحكام ، وقد طبع بالحجر فى إيران بمجلدين سنة ١٣١٦-١٣١٧ هـ . والثانى كتاب (الاستبصار) . واحسن طبعة له هى طبعة لكنو بالحجر فى مجلدين مع فهرست واف لكل منهما .

إن حقيقة كون هذه الكتب الاربعة فى احاديث الشيعة قد صنفت فى الدور البويهى (٩٣٢ — ١٠٥٥) بينما جمعت صحاح السنة قبل ابتداء هذا الدور بجيل كامل ، يعوض عنه بعقيدة الشيعة بعصمة الأئمة . إذ بينما نجد محدثى السنة يتبعون الاسناد لكل حديث إلى سبعة أو ثمانية أجيال لمدة تبلغ نحو القرنين إلى ان يصلوا إلى رجل عاصر الرسول وروى عنه ، فان محدثى الشيعة لا يحتاجون الا إلى ذكر ثلاثة أو أربعة أشخاص من الثقات سمعوا عن أحد الأئمة ثم يرفعونه إلى حيث يريدون . وعمدتهم فى ذلك إلى الرسول هم الأئمة .

ويمتاز المجلد الأول من كتاب الكافى فى علم الدين للكلينى والمعروف باصول الكافى ، عن الكتب الاخرى بكونه يختص بعلم الكلام مبدئيا . فابوابه السبعة لا تدخل فى مصنفات لا تدخل فى مصنفات الصدوق (ابن بابويه) أو الطوسى ، وهذه الأبواب باستثناء واحد منها موجودة فى كتاب

أو أكثر من صحاح السنة كما نرى من الجدول التالى ، وهذا الاستثناء هو بطبيعته ما يختص بالحجة فى حق الأئمة .

ابواب اصول الكافى

١ . فضل العلم (ص ٥)
يقابله فى البخارى (ك٣) ومسلم (ك٤٧) والترمذى (٣٩)

٢ . التوحيد (ص ١٢)
البخارى (ك ٩٧)

٣ . الحجة (ص ٥٨)

٤ . الايمان والكفر (ص ٢٣١)
البخارى (ك ٢) مسلم (ك ١) الترمذى (ك ٣٨)

٥ . فضل الدعاء (ص ٣٩٢)
مسلم (ك ٢٨) النسائى (ك ٣٨)

٦ . فضل القرآن (ص ٤٤٠)
البخارى (ك ٦٦) الدارمى (ك ٢٣)

٧ . كتاب العشرة (ص ٤٥٤)
النسائى (ك ٣٦) .

اما الكتب الاخرى من امهات كتب الحديث عند الشيعة فكثيرة التشابه فيما تحتويه بدرجة يمكن انطباقها على بعضها . فاذا اتخذنا أبواب كتاب فروع الكافى ، وهو القسمان الثانى والثالث من الكافى فى علم الدين ، اساسا اظهرت لنا سهولة انطباق أبواب الكتب الثلاثة الاخرى عليها للمقارنة . وقد ذكرت أرقام الصفحات فى النسخ المطبوعة بالحجر والتى نوهنا عنها آنفا ، وهى المنتشرة بين أيدى فقهاء الشيعة ومجتهديهم فى إيران اليوم .

مقارنة بسيطة بين امهات كتب الحديث لدى الشيعة

	الكليني (الكافي)	الصدوق (من لايحضره الفقيه)	الطوسي (التهذيب)	الطوسي (الاستبصار)
الطهارة	(٢)—٢	١	(١) — ١	(١)—١
الحيض	(٢)—٢٢	—	—	(١)—٦٤
الجنائز	« —٣١	—	—	« —٩٨
الصلاة	« —٧٣	٣٩	(١)—١٣٤	(١)—١١٠
الزكاة	« —١٣٩	١١٤	« —٢١٦	(٢)—٢
الصوم	« —١٧٧	١٢٦	« —٢٦٢	(٢)—٣٦
الحج	« —٢١٤	١٥١	« —٣١٥	« —٦٧
(الزيارة)	(٢)—٣١٤	٢٢٠	(٢)—٢	—
الجهاد	« —٣٢٧	—	« —٤١	(٣)—٢
المعيشة	« —٣٤٥	٢٥٨	« —٩٨	« —٢٨
(التجارة)	« —٤٠٢	٢٧٢	« —١١٩	« —٤٠
الخمس والحقوق	« —٤٢٣	٢٢٤	—	—
النكاح	(٣)—٢	٣١١	(٢)—١٨٣	(٣)—٧٣
العقيقة	« —	—	—	—
الطلاق	« —٩٦	٣٣٧	(٢)—١٩٥	(٣)—١٣٤
العتق	(٣)—١٣٣	٢٦٢	(٢)—٢٥٣	(٣)—١٩٩
(التدبير)				
(الكتابة)				
الصيد	(٣)—١٤٠	٢٩٩	(٢)—٢٨٣	(٣)—٢٢٧

	الـكلينى (الـكافى)	الصدوق (من لايحضر الفقيه)	الطوسى (التهذيب)	الطوسى (الاستبصار)
الاطعمة	« —١٥٠	—	—	« —٢٤٣
الاشربة	« —١٨٥	—	—	« —٢٤٣
الزى والتجمل	« —٢٠٢	—	—	—
دواء الجن	« —٢٢٨	—	—	—
الوصايا	« —٢٣٤	٤٠١	(٢)—٣٣٢	(٣)—٢٥٣
المواريث	« —٢٥٤	٤٢١	« —٣٤٦	« —٢٦٨
الحدود	« —٢٨٥	٣٦٢	« —٣٨٩	« —٢٩٦
الديات	« —٣١٥	٣٧٥	« —٤٣٢	« —٣٢٧
الشهادات	« —٣٤٨	٣٤٦	—	—٨
القضاء والاحكام	« —٣٥٧	٢٣٧	(٢)—٦٨	(٣)—٢٢
الايمان والنذور والـكفارات	« —٣٦٦	٣٠٧	« —	« —٢١٧

الباب الثامن والعشرون

مجتهدو الشيعة وعلماؤهم المتأخرون

اتخذت شعوب أسيا الوسطى التى انضم ابناؤها إلى الجيوش الاسلامية، دين اسيادهم فدخلت فى الاسلام، غير انهم فى الحالات التى اكتسحوا البلاد الاسلامية فاتحين كانوا يفضلون عادة اعتناق المذهب المخالف لمذهب الحكام المسلمين الذين دكوا عروشهم. فالبويهيون الشيعيون مثلا هم الذين قضوا على حكم الاتراك من السنة، والسلاجقة السنيون قدموا من بخارى وتغلبوا على البويهيين: ثم جاءت موجه المغول الجارفة بميولهم الشيعية، ثم بنو تيمور بميولهم السنية. وعندما استولت الاسرة الصفوية فى ابتداء القرن السادس عشر على الحكم، جعلت بدورها المذهب الشيعى المذهب الرسمى للدولة، ولم يكن سبب الحركة الصفوية حب الفتح والاجتياح، إنما هى فى الحقيقة عبارة عن اتحاد الشعوب الايرانيـة لمقاومة استغلال بلادهم واخضاعها من قبل الشعوب الاجنبية. وكان تمسك الصفويين بالشيعية مما يتفق اتفاقا تاما مع تقاليد الايرانيين الغريزية وميولهم.

وقـد اضطر مجتهدو الشيعة خلال ادوار الحكم السنى الطويل إلى التستر بستار التقية، ونراهم يبرزون كلما تحطمت سيطرة المذهب المناوىء العسكرية والسياسية، وان كان ذلك عـلى يد عدو أجنبى، وهم ينظرون إلى الغزاة نظرهم إلى المنقذين الذين أرسلتهم العناية الالهية، ويغتنمون كل فرصة لنشر الكتب التى تؤيد مذهبهم. وقـد رأينا فى البـاب السابق كيف تم تدوين أحاديث الشيعة فى ابتداء الامر على زمن البويهيين، وسنبحث فى هذا الفصل الاحياء الواضح لتدوين كتب الدين الشيعية الذى تم أولا خلال فترة التسلط المغولى ثم على زمن الصفويين.

كان سقوط البويهيين على أيدى السلاجقة ، النهاية للمعاملة التفصيلية التى خص بها الشيعة ، فالسلاجقة من القبائل التركمانية التى هجرت سهول القرغز وتوطنت بلاد بخارى ، وكانوا متمسكين بمذهب أهل السنة والجماعة تمسكا شديداً . وامتازوا بحسن إدارتهم ، وتدبير أمور الجيش فى مملكتهم تدبيراً حكيما ، واهتمامهم الشديد بالمشاريع العمرانية كافة ، وتشجيع الدراسة العربية تشجيعاً كبيراً ، وكانوا ينظرون إلى الشيعة بأنهم أعداء الدولة . وقد خصص نظام الملك ، أعظم مشجع للادب والعلم ٦٧ صحيفة من كتابه (سياسة نامه) للطعن فى الروافض المارقين (١) . فلم يبرز بنتيجة ذلك فى القرن الثانى عشر من مجتهدى الشيعة سوى الشيخ الطبرسى الذى ترك التدريس فى المشهد ، واعتزل فى مدينة سيزوار الهادئة حيث صنف بعد الستين من عمره تفسيره المشهور « بكتاب جامع الجوامع : فى فى تفسير القرآن » (٢) .

وحدثت فى هذه الفترة الحروب الصليبية ، والتقى الصليبيون بهؤلاء السلاجقة الذين لم ينتقلوا إلا حديثاً من حياة البساطة فى البادية والجبل ، وهم قبائل بالفطرة ، شديدة التمسك فى دينها ، لم تفسدها حياة المدن ، ونظرة المتمدن الخالية من النخوة الدينية (٣) . واستتر الشيعه فى هذا الدور بالتقية ، لكن كثيرين منهم انضموا إلى الجيوش ، فتشتتوا فى طول البلاد وعرضها . ومما يروى أن الشيخ على الهرانى كان يدعى « أن ملك انكلترة أخذ منه فى الحروب الصليبية كتاباً ألفه عن زيارة المشاهد

---

(١) براون Literary History of Persia (ج ٢ ص ٢١٤ – ٢١٦) سياسة نامه طبع Schefer فى باريس سنة ١٨٩١

(٢) بروكلن (ج ٢ ص ٤٠١) وقصص العلماء رقم ١١٠ (ص ٢٢٧) .

(٣) ستانلى لين پول Mohammaden Dynasties (ص ١٥٠)

الشيعية (١) . وكان الشيعة الذين اتصل بهم الصليبيون من الشيعه الفاطمية المارقة الذين كانوا فى مصر . أو من الاسماعيلية الذين عرفوا بالحشاشين ، حتى اشتهر بهم جبل الموت (٢) . ومن المحتمل اشتراك طوائف شيعية أخرى ضمن جيوش المسلمين فى الحروب الصليبية . إذ لا نزال نرى حتى اليوم بعض القرى المارقة فى آسيا الصغرى يجتنب أهلها الاختلاط والتزاوج مع السنة المحيطين بهم (٣) . وهناك الأتراك العلويون ، الذين لا يزالون يسكنون آسيا الصغرى ، ويوصفون « بالبساطة المتناهية والجهل والمكر ، فهم متكتمون غشاشون محتالون » . وان كونهم يعترفون بالأئمة الاثنى عشر . وينظرون إلى على نظرة التألية ، يدل على أن أصلهم لا يمت إلى الاسماعيلية بنسب ، بل هم من العلى اللاهية الغلاة من الشيعة الذين يعتقدون بربوبية على (٤) .

ومهما كانت درجه اشتراك الشيعه فى الحروب الصليبيه ، فان هذه الحملات تجاه العرب بقيادة السلاجقة ما كادت أن تنتهى حتى « احتاجت الجيوش المغولية بجحافلها الضخمة ، بلاد خوارزم وخراسان والأفغان من جهة ، وأزربيجان وبلاد الكرج ، وجنوبى روسيا من الجهة الثانية ، بينما سار

---

(١) رحلة ابن بطوطة . المقدمة ص (ى ه) ولسترينج
Palestiue under the Moslems (ص ٣١٦)

(٢) Un grand maitredes assassions au tempsqe Saladin
بقلم Stan . Guyard فى Jouanal Asiatipue السلسلة ٧ (ج ٩)
و History of Persia — تأليف السير بيرسى سايكس (ص ١٩٠–١١٠)

(٣) السير وليم رمزى The Intermixture of Races in Asia Minor
فى AcademyProeeding oftheBritish
المجلد السابع (ص ٣ – ٤)

(٤) Aleur Tiurks of Asia Minor تأليف Rev . G . E White
فى مجلة Contemporery Review عدد تشرين الثانى ١٩١٣

جيش لاخضاع الصين » (١) . ثم انقسمت الامبراطورية العظيمة الجديدة بين أولاد جنكيزخان ، وصارت ايران أخيراً من حصة هولاكو ، فحكمها وحلفاؤه ايلخانيو ايران مدة قرن تقريباً .

أعاظم علماء الشيعة فى الدور المغولى

اشتهر بين علماء الدين من الشيعة فى الدور المغولى عدد كبير من العلماء البارزين . نذكر منهم أولا الفيلسوف الفلكى والمجتهد الشيخ نصير الدين الطوسى (توفى سنة ٦٧٢ - ١٢٧٤) وكان حتى اجتياح المغول بلاد كيلان أسيرا لدى زعيم الاسماعيلية ركن الدين فى ميمون ديز . فلما سقط هذا الحصن بيد المغول كان نصير بين الرجال البارزين الذين رافقوا ركن الدين عند ما سلم نفسه إلى هولاكو . فأكرمه القائم المغولى ، وصار من أقرب المقربين له . ولما تم فتح بغداد حرضه نصير الدين على قتل الخليفة المستعصم . ثم اقترح فى مراغة على هولاكو بعد أن صار له وزيراً ان القائد المنتصر يجب أن لا يقنع بالتخريب فقط . فأدرك المغولى المغزى وخوله بناء مرصد عظيم على تل شمال مراغة . وتم هذا العمل فى ١٢ سنة . وقد جمع خلال ذلك الزيج الذى أتمه بعد وفاة هولاكو وهو الزيج الايلخانى . وقد أظهر خطأ أربعين دقيقة فى موضع الشمس فى اول السنة على حساب الأزياج السابقة .

ويمتاز نصير الدين بميله إلى البحث العلمى ، فلكى يبرهن مثلا ان الحوادث لا تسبب خوفا واضطرابا عند سبق المعرفة بها « جعل بالاتفاق مع هولاكو أن يقذف بقدر كبيرة من النحاس من مرتفع فيحدث صوتاً هائلا

---

(١) ستانلى لين بول . كتابه الانف الذكر (ص ٢٠٤)

وفزع الجنود بما بوغتوا به وضحك من كان يعلم بدخيلة الامر » (١)

وجمع مكتبة عظيمة ضم اليها ما نهب من الكتب فى بغداد ، وصنف رسالة فى الاخلاق بالفارسية سماها (اخلاق ناصرى) لازالت تدرس فى المدارس الحكومية فى إيران . وقد جمع فى هذا الكتاب حسب قول ابن العبرى « اراء افلاطون وارسطو فى الفلسفة العملية مؤيدا اراء الاقدمين ومزيلا شكوك المحدثين والانتقادات التى يوجهونها فى كتاباتهم » (٢) وأهم مصنفاته بالعربية « تجريد العقائد فى الفلسفة » ويذكر كتاب قصص العلماء عدة تعليقات عليه (٣) .

ومما يروى عنه انه ذهب مرة إلى شيراز فزاره الشاعر سعدى ، فعاتبه نصير على قصيدته التى يرثى بها المستعصم والتى مطلعها :

آسمانرا حق بود كرخون ببارد برزمين برزوال ملك مستعصم أمير المؤمنين

أى يحق للسماء ان تمطر دماً على الارض لزوال ملك المستعصم اميرالمؤمنين .

فاعتذر سعدى بانه إنما كتبها تقية فقال « عندما قتلنا المستعصم العباسى هل خفت منه لتستعمل التقية ؟ » فسكت سعدى . فامر نصر الدين بتفليقه فجلد جلدا شديدا كما فى الحكاية حتى غطى جسده بالعصى المكسرة . فحملوه إلى داره على الاكتاف . فعاش بعدها سبعة أو ثمانية أيام . ويقول بعضهم : إن عمره إذ ذاك كان ١١٠ سنة (٤) .

وفى كتب الزيارة دعاء مطول للأئمة الاثنى عشر كتبه نصير الدين الطوسى يقول : ان الرسول ﷺ املاه عليه فى المنام . وعندما كتبه نسى قسما منه فنام ثانية فظهر له الرسول ﷺ واعاد له ما نسيه (٥) .

---

(١) History of the Mongols ' Howarth (ج ٣ ص ١٣٧ ـ ١٣٩).

(٢) كتاب براون المار الذكر (ج ٢ ص ١٨).

(٣) قصص العلماء (القصة ٩٠ ص ٢٩٧). طبع حجر سنة ١٢٩٠ ه).

(٤) كذلك (« « ٢٩١).

(٥) « (« « ٢٨٦) .

ومن علماء الشيعة الاخرين من ذوى النفوذ خلال فترة المغول نجم الدين جعفر بن يحيي (المتوفى سنة ٧٢٦ - ١٣٢٥) وهو مؤلف كتاب شرائع الاسلام وهو من أهم مصادر كتاب : Droit Musulman : Recueil de Lois concernant les Musulmans Sckyites فى التشريع الشيعى تأليف M. Amedee Querry. ويقال ان نجم الدين كان ينظم الشعر فى صباه لكن أباه أعلمه بان الشعراء يتبعهم الغاوون وانه لا يتمكن من التوفيق بين سلوكه كشاعر والتدين ونصح له أن يكون فقيها (١)

واشهر المجتهدين فى العهد المغولى هو حسن بن يوسف بن على المطهر الحلى (توفى سنة ٧٢٦ - ١٣٢٥) وامه أخت نجم الدين المار ذكره ويعرف عادة بالعلامة الحلى . وكانت الحلة مركز الشيعة زمنا طويلا عندما كانت بغداد تحت سلطان الامراء من السنة . وكان كثير التنقل ودرس مدة مع نصير الطوسى . وكان كثير التأليف والدرس . وكانت كثرة تآليفه اعجوبة لكافة من عرفه . وقد عدد صاحب كتاب قصص العلماء (٢) له خمسة وسبعين كتابا . وكذلك فى كتاب الامل الآمل . واهم تصانيفه : (٣)

١ — كشف اليقين فى فضائل أمير المؤمنين

٢ — منهاج الصلاح فى اختصار المصباح

٣ — منهاج الكرامة فى معرفة الامامة . ويتألف من عشرة فصول . وقد أضيف اليها فصل آخر ، وهو الباب الحادى عشر من اصول الدين ، ترجم للانكليزية وطبعته الجمعية الآسيوية الملكية مؤخرا (٤) .

---

(١) كذلك (القصة ٨٩ ص ٢٨٣) انظر كتاب براون الانف الذكر (ص ٤٠٥) .

(٢) « (« ١٠٠ ص ٣٢٠ - ٣٢١) .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية (ج ٢ ص ٢٧٧) .

(٤) Oriental Translation Fund, N.S. Vol XXIX ترجمة Rev. William M. Miller فى المشهد بايران .

٤ — منهاج اليقين فى أصول الدين .

٥ — تذكرة الفقهاء . وهو ثلاثة مجلدات عن الفقه الشيعى.

وعاش العلامة الحلى خمسا وسبعين سنة وكان فقيها ومجتهدا كبيرا . ولما مات حمل نعشه إلى المشهد فدفن هناك .

ولما تمزقت أوصال المملكة الايلخانية فى إيران والعراق للتحاسد والتباغض بين البيوتات المتنافسة كانت تلك البلاد مدة ١٥٠ سنة أى من ١٣٤٩ حتى قيام الصفويين سنة ١٥٠٢ تتداول بين أيدى حكومات متزعزعة لدول قبيلية متعادية . وأخيرا ارتفع صوت نفير التحرير فى زاوية نائية فى الشمال الغربى من إيران فى مقاطعة اذربيجان الجبلية فى مدينة قديمة كانت عاصمة المقاطعة على زمن العباسيين وهى اردبيل . وتقع هذه المدينة النائية على نقطة سوقية (ستراتيجية) فى شبكة الطرق التى أسسها المغول إلى الحدود الغربية ، وكانت هذه الحركة دينية وهى ذات أهمية عظمى لايران ، وقدقام بها أحد شيوخ المتصوفة وهو الشيخ صفى الدين ، وكان عمره عندما جاء هولاكو إلى إيران أول مرة ، وخمس سنوات ويدعى انه من نسل الامام موسى الكاظم (انظر الباب الرابع والعشرين) ولما توفى سنة ١٣٣٤ عن عمر يبلغ الخامسة والثمانين ، دفن فى اردبيل ، وفى الظهر الرابع ، أضاف زعيم هذا البيت وهو الشيخ حيدر «دور المحارب إلى دور شيخ الطريقة »(١) ولكنه اعدم بعد مدة قصيرة . فقام ابنه اسماعيل من حليمة ابنة اوزون حسن أحد ملوك التركمان فى ارمينية ، وهو لا يزال فى التاسعة عشر من عمره ، بنشر المذهب الشيعى بالسيف . ولم يكن معه فى أول الأمر الا عدد قليل من المناصرين لا يزيد على عدد الاصابع ، فازدادوا إلى ٣٠٠ ، وقام بغزوات ناجحة فى إيران حتى تمكن من تجهيز جيش كبير واستولى على تبريز ثم اعلن نفسه الصوفى الاكبر فى إيران . وليست كلمة صوفى من (سوفوس) اليونانية

---

(١) ستانلى لين بول فى كتابه الانف الذكر .

التى تعنى العقل بل مأخوذة من الصوف . وقد البس اتباعه تيجانا فيها ١٢ عقدة مختلفة الالوان تشير إلى الأئمة الاثنى عشر . وكان لون هذه التيجان أحمر فسمى جنوده بالقزلباش أى ذوى الرؤوس الحمرا . (١) وكان اسماعيل هو الذى وحد سبع قبائل إيرانية تحت رايته واسس حكم الاسرة الصفوية فى إيران .

وبلغ التشيع بين هذه القبائل ، التى اتخذت اردبيل مركزا لها ، درجة عظيمة من القوة خلال اجيال عديدة ، ومنه اقتبست الحركة قوتها الدافعة للاستيلاء ، وكان شعارهم لا اله الا الله على ولى الله . وهى حركة خالية من كل تسامح فقد أعلن الشاه اسماعيل وجوب سب الخلفاء الراشدين الثلاثة ، وان لايقبل من أحد غير التشيع . ولكنه كما قال دون جوان بعد ذلك «اننا تخلصنا من هؤلاء الملوك والخلفاء الاجانب من العرب والتركمان والعثمانيين الذين حكموا إيران مدة طويلة فى الماضى » (٢) .

وفى دور الصفويين الطويل (١٥٠٢ — ١٧٣٦) الذين كانوا من الشيعة الخالصين المتعصبين ، انتشرت المدارس الدينية التى تأسست فى المشاهد ومدن الزيارة فى العراق وإيران . وشجعوا بكافة الوسائل ، الكتاب الذين يعملون على توحيد الفرق تحت الراية الامامية الاثنى عشرية ، فظهر بنتيجة هذه الحركة الوطنية للقيام بحملة دينية ، عدد كبير من المصنفات الدينية للعلماء الذين عاشوا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد ذكر الاستاذ براون قائمة باسماء أهم هؤلاء العلماء مع ملحوظات مختصرة عن كل واحد منهم اقتبسها من كتاب قصص العلماء وروضات الجنات (٣) .

---

(١) Relaciones of Don Juan Revolution – ترجمة لستريتج (ص ١٠٧ - ١١١) وانظر تأليف كروسينسكى طبعة Dn Cerseau (ج ١ ص ٤)

(٢) كذلك (ص ١٠٠) .

(٣) براون ، كتابه الانف الذكر (ج ٤ ص ٤٠٦ - ٤٦١) .

والعلماء الذين ذكرتهم هنا فى الدور الصفوى، نقلت المعلومات المختصرة عن كل منهم من كتاب قصص العلماء.

علماء الدور الصفوى

نور الدين على بن عبد العالى: (الكركى العاملى الملقب تارة بالشيخ العلائى — المعرب) (الرقم ٨٤) (١) المعروف بالمحقق الثانى. ومن مصنفاته كتاب جامع المقاصد شرح به القواعد للعلامة الحلى فى ستة مجلدات، ورسالة الجعفرية، صنفها عند ما كان لا يزال فى خراسان وعظم قدره فى إيران وزاد فى اكرامه الشاه طهماسب ورفع منزلته. توفى سنة ٩٤٠–١٥٣٣

احمد بن محمد (رقم ٨٣) المشهور بالمحقق الاردبيلى، يذكر بتوسطه للناس لدى الشاه عباس الكبير وحل مشاكلهم. وكان شديد الورع والتقوى حتى قيل انه «لم يمدد رجليه فى النوم» مدة أربعين سنة. ويروى أنه أدلى مرة بدلو فى بئر بمشهد النجف فاذا بالدلو قد ملىء ذهبا فرده إلى البئر وقال: «يا ربى ان احمد يريد منك ماء لا ذهبا» وكان من عادته ان يلبس عمامة كبيرة جدا فاذا مر بفقير عار من الملابس قص من عمامته ذراعا أو ذراعين ودفعها له. وربما عاد إلى بيته ولم يبق من عمامته الا شبر أو شبران. ومن أشهر مصنفاته كتاب مجمع القاعدة والبرهان. شرحه على الارشاد للعلامة الحلى وكتاب حديقة الشيعة. وينسبه بعضهم إلى المجاسى، لكن مؤلف كتاب قصص العلماء يؤكد نسبته إلى احمد بن محمد نفسه. توفى سنة ٩٩٣ – ١٥٨٥

مير محمد باقر الداماد (الرقم ٧٧) وكان أبوه صهرا للمحقق الثانى فسمى بالداماد وانتقل اللقب إلى ولده. وكانت له منزلة كبيرة لدى الشاه عباس. واهم مصنفاته الصراط المستقيم. ويروى ان الشاه عباس أراد منه ان يبين له

(١) يشير الرقم المبين بين القوسين الى رقم القصة فى كتاب قصص العلماء.

كيف تصنع النحل الشمع والعسل فهيأ له صندوقامن زجاج وضع فيه النحل ليراها الشاه . فسودت النحل بيت الزجاج أولا وقامت ببناء خلاياها وصنع العسل . والداماد ككاتب يعتبر كثير الغموض والتكتم فيذكر المولى صدر الدين انه رآه فى المنام فقال له : ان الناس يتهموننى بالمروق وانا اعتقد مثلما كنت تعتقد . « فاجابه الداماد » السبب هو اننى كتبت فى الفلسفة باغة لا يفهمها رجال الدين ولا يدركها الا الفلاسفة ، أما انت فكتبت باغة سلسة يفهمها اى كاتب فيتهمك بالزندقة » ويذكر صاحب قصص العلماء نحو ٦ أو ٧ تصانيف له فى الشروح والفلسفة . توفى سنة ١٠٤١ - ١٦٣١ .

الشيخ محمد بهاء الدين العاملى (٣٧) صنف الجامع العباسى . وهو كتاب مشهور فى فقه الشيعة باللغة الفارسية. وقد طبع طبعة واضحة جيدة بالحجر فى اصفهان سنة ١٣٢٩هـ. وله مجموعة فى النوادر بالعربية سماها الكشكول طبعت فى بولاق وبالحجر فى إيران . وله مجموعتان شعريتان الاولى نان وحلوى ، والثانية شير وشكر . ومما يذكر أنه جاء مرة إلى اصفهان ليلا ففكر فى حالة المدينة وانتشار الخمور فيها ، فقال لاتباعه : « لنغادر المدينة قبل أن يحل بها العذاب فنحترق معها » وحمل اتباعه وركب هو بغلته وغادر المدينة ، وقبل ان يطلع الصباح فكر فى حالة اصفهان الحقيقية فعاد إلى اتباعه وقال: «لنرجع فان فى هذه المدينة الوفا من المصلين يقومون ليلا وهم يريدوننى » وكان شيعيا متعصبا يكثر من سب عثمان . مات وعمره ثمان وسبعون سنة وذلك فى ١٠٣١ - ١٦٢٢ . ويقال انه دفن فى المشهد .

محمد بن مرتضى القاشانى المعروف بالمحسن الفيض (رقم ٧٦) ويوصف بالفلسفة والتصوف أكثر منه بامور الدين . صنف كتاب أبواب الجنان . ويلذ للقارىء العربى أن يجد قصة طريفة عن مجىء سفير اجنبى إلى الشاه عباس يريد ان يجادل علماء إيران . فان افحموه واقنعوه بصحة دين الاسلام اسلم والا وجب عليهم ان يقروا بالنصرانية . وكان هذا السفير حاذقا

بالكشف عن المخفيات . فاحضر المولى محسن فلما رأى السفير سأله عن السبب في عدم انفاذ ملك النصارى من هو أعلم منه وهو هذا الجاهل ؟ فقال النصراني « انك لا تتملص بهذا مما اتفقنا عليه فامتحن قولى » فادخل المولى محسن يده في جيبه وأخرجها مقبوضة على تربة من طين أرض كربلا ففكر السفير ساعة . فقال المولى محسن ما أظهر جهلك . فقال السفير « ان مافي يدك هي تربة من تراب الجنة ولكنى اتفكر في وجه وصولها اليك » فقال المولى محسن : « صدقت فان مافي يدى تربة من تراب الجنة وهى من قبر ابن بنت نبينا وهو احد الأئمة وبذلك ترى صحة ديننا وانحراف دينكم » فيقال ان السفير اسلم بين يديه .

وكان يرى جواز الغناء فيشاهد في أكثر الاحيان راكعا بخشوع في بستانه وجارية تغنيه وهو يبكى ، وتمثله بعض القصص انه كان بسيط التفكير فيروى أنه فقد مرة مدية في السوق ثم تذكرها بعد سنة فاراد ارسال من يفتش عنها . ولما قيل له ان ايجادها بعد هذه المدة أمر غير ممكن قال أليس الناس بمسلمين فكيف يجوز لهم أخذها دون استئذان . ومع ذلك فقد صنف نحو ٢٠٠ مصنف. ذكر صاحب كتاب قصص العلماء اسماء ٦٧ منها. وتوفى سنة ١٠٩١ — ١٦٨٠ .

مير أبو القاسم الفندرسكى : ورد ذكره في قصص العلماء مع الشيخ بهاء الدين (رقم ٣٧) واصله من استراباد في ما زندران . وعندما كان في الهند سأله أحد امرائها عن سبب سبه معاوية فقال: « لو ان جيش على (ع) كان يحارب جيش معاوية فمع من تكون ؟ « قال السلطان » أكون مع جيش على » فسأله « فاذا أمرك على بضرب عنق معاوية فما تفعل ؟ » قال « اضربها » فقال الفندرسكى « فاذا جاز لك قتله افلا يجوز لك سبه ».

وكان الناس يعتقدون ان لجسد الفندرسكى خاصيه الكيمياء فاذا حك به حديد أو نحاس انقلب ذهبا . فلما مات اراد الهنود الذين يعرفون ذلك ان

ينبشوا قبره ليأخذوا جسده إلى بلدهم . ولذلك بنى قبره بناء رصينا .

ويقال ان الشاه عباس كان يجله كثيرا ولكنه لا يرضى تبذله مع العامة وخاصة حضوره معاركة الديكة . ومات فى اصفهان سنة ١٠٥٠ – ١٦٤٠ .

المولى صدر الدين محمد بن إبراهيم : ذكر مع المولى محسن (رقم ٧٦) فى قصص العلماء وكان يعتبر من « اعظم فلاسفة العصور الحديثة فى إيران » وربما كان ذلك سبب اختلافه مع مجتهدى الشيعة ، وان معظم نفوذه كان مع الشيخية . غادر شيراز إلى اصفهان حيث درس على الشيخ بهاء الدين ثم على الامير الداماد فاجازاه بالتدريس . واقام مدة فى جوار قم . وحج سبع مرات ومات بعد عودته من الحجة السابعة فى البصرة نحو سنة ١٠٥٠–١٦٤٠

ومن مصنفات المولى صدر الدين شرحه على الكافى للكلينى بثلاثة مجلدات ، وكتابان من اشهر كتبه فى الدين وهما « الاسفار الاربعه » و « شواهد الربوبية » وله فضلا عن ذلك عدة شروح وتفاسير لبعض سور القرآن ، وتعليقه على كتاب الشفاء لابن سينا وغيره (١) .

عبد الرازق اللاهجى : درس مع المولى صدر الدين وصنف كتابين مشهورين بالفارسية وهما « سرماية إيمان » و « كوهر مراد » . وهو يتفق مع الشيخ الطبرسى فى اعتقاده الغريب بعلاقة صوت الكلمة بالمعنى الحقيقى — أى إذا سمع الصوت وجب ادراك المعنى .

المولى محمد تقى المجلسى : (برقم ٣٦) أوقف نفسه لجمع عدد كبير من الروايات من مختلف المصادر ورتبها على دور الصفويين . ويرى بعضهم أنه كان يميل إلى التصوف ، وربما كان ذلك لاختلاطه مع مختلف الطبقات من الناس لجمع الاخبار . ويذكر انه أخذ يميل إلى أحد تلامذته وهو الاخوند المولى محمد صالح ، وكان رث الثياب فكساه ثم شعر انه راغب فى الزواج فادخله

---

(١) براون : كتابه الانف الذكر (ص ٤٢٧ – ٤٣٢) .

إلى حرمه وطلب منه اختيار احدى بناته ، فزوجه اياها . ثم درس بعد ذلك فى مكتبة المولى محمد تقى . مات سنة ١٠٧٠ - ١٦٥٩ حسب رواية روضات الجنات .

المولى محمد باقر المجلسى (٣٣) وهو آخر علماء العهد الصفوى . كان دقيقا فى درسه ويمتاز بكونه يرى وجوب إفهام الناس أمور دينهم بلغتهم . فألف كتابه العظيم فى الاخبار وهو بحار الانوار باللغة العربية تمكن من ترجمة معظم ماجاء فى الكتاب عن الرسول والأئمة إلى الفارسية ، فنجح ايما نجاح فى تيسير منابع المذهب الشيعى للايرانيين بلغتهم ، فازداد قدره وعظم شانه على علماء الشيعة كافة . توفى سنة ١١١١ - ١٦٩٩

وصنف فضلا عن كتابه الشهير « حق اليقين » الذى يقال انه كان سببافى تشيع ٠٠٠ ر ٧٠ سنى ودخولهم فى « المذهب الحق » ، الكتب التى اهمها :

عين الحياة
مشكاة الانوار
حياة المتقين
حياة القلوب
تحفة الزائرين
جلاء العيون
زاد المعاد
تذكرة الأئمة

الباب التاسع والعشرون

عقيـــدة الامامة

لقد كانت أهم قضية واجهها المجلسى عنـد ما كان الصفويون يشجعون علماء الشيعة عـلى التبكير بعقائدهم الغريزية . فيكتبوا كتباً لتعليم الناس أمور دينهم هى قضية الامامة . وقد سببت هذه النظرية انشقاقاً وتصدعاً فى الاسلام . وأدت إلى سفك دماء كثيرة . وكانت الأفـكار المتزنة متهيئة للنظر جـدياً فى ضرورتها للايمـان . وقد أوضح ابن خلدون « الامامة التاريخية » مبيناً كيف أدت قضيه الخلافة المرة بعد الأخرى إلى ظهور فرق ونحل جـديدة ، ووصف الشهرستانى (١) كل فرقة من هذه الفرق وصفاً دقيقاً . ويستحيل علينا أن نقدر شدة تمسك علماء الشيعة بفـكرة الأهمية المطلقة لهـذه القضية ، مالم ندرس أقـوالهم نفسها ، ولذلك فسأدرج فيما يلى الاعتبارات الـكلامية التى أوردها المجلسى فى بيـان وجـوب الامامة مترجمة (٢) :

---

(١) مقدمة ابن خلدون Extratts des Manuscrite de la Bibliotheque Lmqeriale ـ النص العربى (ج ١٦ ق ٢ ص ٣٥٥) و Tradnction (ج ١٩ ص ٤٠٠) انظر الترجمة الانـكليزية لهذا الفصل بقلم المؤلف فى Moslem Word (ج ٢١ ع . د . ١) . الملل والنحل للشهرستانى طبعة Cureton (ص ١٠٨ - ١٤٥) . والفصل فى الملل والنحل لابن حزم . ترجمة بحث الشيعة بقلم Friedlander فى J.A.O.S (ج ٢٨ و ٢٩) .

(٢) حياة القـلوب للمجلسى (ج ٣ ص ١ ـ ٢٣) . وهو كتاب مفيد جداً فى ٢٤٥ صفحة بدون فهرست . ويتألف من بابين : الاول « فى ضرورة وجود الامام » ويبحث الموضوع من الوجهة الكلامية . وينقسم إلى تسعة فصول :

فى وجوب الامامة

« اعلم أن علماء الأمة قد اختلفوا فى قضية نصب الامام وهل إن نصبه واجب بعد انقراض زمن النبوة أم لا ؟ وفى تقدير وجوبها هل هى واجبة على الله أم على الأمة ؟ أم فى كلا الحالين هل هى واجبة عقلا . أى إنها وجبت بحكم العقل ، أم علم وجوبها بالدلائل النقلية ؟

« إن علماء الامامية قاطبة يعتقدون بأن نصب الامام واجب على الله تعالى عقلا ونقلا ، ويقول الأشاعرة وأصحاب الحديث وأهل السنة وبعض المعتزلة : أن نصب الامام واجب على الخلق بالدليل السمعى وليس العقلى . ويعتقد بعض المعتزلة أن نصب الامام واجب على الخلق إذا لم تؤمن الفتنة وليس خوفاً (١) .

والامام لغة : المقتدى به ، ومعناه فى اصطلاح الفرقة الناجية فى باب الصلاة غالباً من يؤمها . أما فى علم الكلام : فالمراد بالامام ، هو : الشخص المعين من الله للخلافة . ونيابة حضرة صاحب الرسالة . وقد تطلق فى بعض الأحوال على النبى ﷺ نفسه . وتدل بعض الأخبار المتيسرة التى سنذكرها فيما بعد إن شاء الله أن مرتبة الامامة أعلى حتى من مرتبة النبوة فان الله تعالى

١ـ فى ضرورة الامامة وأن الزمان لايخلو من امام ـ٢ـ عصمة الأئمة ـ٣ـ الامامة بنص من الله والرسول ، وأن كل إمام ينص على خلفه ـ٤ـ ضرورة الاعتراف بالامام ـ٥ـ اذا كان إمام واحد كان الأئمة جميعاً ـ٦ـ ضرورة إطاعة الأئمة ـ٧ـ فى أن الاهتداء لا يكون الا بامام ـ٨ـ فى الثقلين : القرآن . وأهل البيت ـ٩ـ فى النص على الأئمة .
أما الباب الثانى فيختص بتفسير الايات من القرآن فى الامامة . ويشتمل على ٢٥٩ صفحة ويتألف من ٤٢ فصلا . ويصعب أن تجد كتاباً يوضح التفسير الشيعى للقرآن بمثل هذه الصورة المختصره الوافية كهذا الكتاب

(١) غولد تسيهر Vorlesumgen الباب ٣ الفصل ٥

بعد أن أعطى النبوة لابراهيم خاطبه بقوله (إنى جاعلك للناس إماماً) . وقال بعض المحققين : إن الامام شخص عينه الله للحكم بين الناس فى أمور دينهم ودنياهم كالنبى ، إلا أن النبى يتكلم عن الله دون وساطة بشر . أما الامام : فيتكلم بوساطه النبى .

ويقول المؤلف (المجلسى) « إن هذا التعريف صعب ، فان كثيراً من الأنبياء من غير أولى العزم (١) كانوا تابعين للأنبياء من أولى العزم فكانوا شرائعهم للخلق . وقد وردت أحاديث كثيرة بأن الأئمة صلوات الله عليهم كانوا يستمدون علمهم من الله الحى القيوم بواسطة الملائكة وروح القدس. وتذكر الأحاديث عدة فروق بين النبى والامام سنوردها فى مكانها إن شاء الله . . . وتعظيما لحضرة صاحب الرسالة ﷺ ، وأنه خاتم الأنبياء ، وجب الامتناع عن إطلاق اسم النبى مجرداً عليه . . .وظاهر أن كل فائدة تترتب على وجود الرسول والنبى تترتب على وجود الامام، كدفع الفساد وحفظ الشريعة ومنع الناس من الظلم والجور والمعاصى .

« أما وجوب نصب الامام على الله ففيه دلائل عقلية كثيرة مبسوطة فى الكتب : ككتاب الشافعى للسيد المرتضى ، والتلخيص للشيخ الطرسى ، قدس سره، وغيره . وسنكتفى بايراد بعضها .

الدليل الأول :

الامامة لطف من الله « إن اللطف واجب على الله . فهو لا يفعل إلا ما هو الأصلح لعباده . فالعقل يحكم بأن أفعال الكريم الأزلى مبنية على الحكمة والمصلحة . وأينما كان الأصلح ، وهو الراجح الأكثر نفعاً ، غير

---

(١) أولو العزم من الرسل ، هم نوح . وابراهيم ، وداود ، ويوسف ، وأيوب وموسى ، وعيسى ، ومحمد (أنظر قاموس الاسلام تأليف Hughes ص٦٥٠) ولكن أهمهم خمسة ، وهم . نوح ، وابراهيم ، وموسى . وعيسى . ومحمد

ممنوع فان تركه وتبديله بغير الأصلح ، أى ترجيح المرجوح، قبيح عقلا عند الفاعل المختار الغنى الكريم الأزلى . فاذاثبت وجوب الأصلح وجب كذلك ثبوت اللطف على الله ، فاللطف من الأمور التى يسهل على المكلف فعل الأمر بها وترك المنهى عنه منها بشرط عدم الالتجاء والاضطرار ، وان علةاستحقاق الثواب والعقاب فعل اختيارى . فالقائلون بالحسن والقبح العقلى ووجوب الأصلح يرون وجوب اللطف على الله . ودليل ذلك : أن التكليف يشتمل على منافع ومصالح كثيرة فى الدنيا والآخرة . . ويعلم من ذلك أن وجود الامام لطف ، وضرورة ذلك واضحة لجميع الناس . إذ كلما اجتمع الناس وانتظموا وجب وجود من يقوم بمنع الفساد والظلم ، والتعدى على بعضهم البعض ، وارتكاب المعاصى،ومن يدفعهم إلى الطاعة،والعبادة ، والانصاف والمروءة ، وبذلك تنسق أمور الناس وتنتظم وتكون أقرب إلى الصلاح وأبعد من الفساد.

الدليل الثانى . حفظ الشريعة . وهو ضرورة حفظ شريعة الرسول ﷺ من التحريف والتغيير والزيادة والنقصان . فان آيات القرآن مجملة ، وان أكثر الأحكام غير معلومة من ظاهر القرآن . لذلك وجب وجود مفسر من جانب الله لاستنباط الأحكام من القرآن ، وذلك خلاف لرأى عمر ، فانه عند ما كان رسول الله ﷺ على وشك الارتحال إلى عالم القدس طلب دواة وقلماً ليكتب كتاباً لا يضل بعده أحد ، فقال عمر : (إن الرجل ليهجر . حسبنا كتاب الله) فانه كان لا يعرف تفسيرات واحدة من القرآن . وكلما عرضت عليه أو على صاحبه مسألة صعبة ذهب إلى حضرة أمير المؤمنين عليه السلام سرا ، وينقل أهل السنة أنفسهم أن عمراً قال سبعين مرة « لولا على لهلك عمر » .

فاذا كان كتاب الله كافياً فلم حدث هذا الاختلاف بين الأمة . وفى ضمن تفسير الآيات وترجمة الأحاديث دلائل كثيرة على ذلك سنذكرها إن شاء الله : قوله تعالى (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) فيقول بعض

المفسرين ان كلمة «المنذر» معطوفة على كل «هاد»، أى أنت منذر وهاد لكل قوم. ويقول البعض الاخر: ان المقصد هو انت منذر للكفار والفجار من العذاب الالهى وان لكل قوم هاد، وفى هذه الحالة عطفت احدى الجملتين على الاخرى. وتدل أيضا على انه لايخلو عصر من إمام أو هاد.. وجاء فى كتاب بصائر الدرجات بالسند الصحيح عن الامام الباقر(ع) ان رسول الله هو المنذر وان بعده لكل زمن هاد منا، يهدى الناس إلى ما انزل على الرسول. وكان الهادى بعده على بن أبى طالب والأئمة من بعده الواحد بعد الاخر إلى يوم القيامة... وبالسند الصحيح عن الامام الباقر فى تفسير اية (ولكل قوم هاد) المراد بالهادى هو الامام وفى كل زمان هاد للقوم الذين بينهم الامام».

واية اخرى قوله تعالى:(ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) (سورة ٢٨ اية ٥١) ان أكثر المفسرين يفسرون ذلك بان الله انزل عليهم الاية بعد الاية والقصة بعد القصه والوعد بعد الوعيد والنصح بالنصوص الموجبة للعبرة لعلهم يتذكرون. الا ان هناك احاديث كثيرة وردت عن طريق أهل البيت بان المراد بها هو نصب الامام بعد الامام..

وروى ابن بابويه (الصدوق) فى المجالس وفى كمال الدين ان الامام زين العابدين (ع) كان يقول: نحن أئمة المسلمين وحجج الله على سادات المؤمنين وقادته الغر المحجلين وموالى المؤمنين وساداتهم، ونحن امان لاهل الارض، كما ان النجوم امان لاهل السماء، ونحن الذين بنا تمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه، وبنا تمسك الارض ان تميد باهلها، وبنا ينزل الغيث وتنشر الرحمة وتخرج بركات الارض، ولولا مافى الارض منا لساخت الارض باهلها. ولم تخل الارض منذ خلق الله ادم من حجة لله فيها ظاهر مشهور أو غائب مستور، ولاتخلو إلى ان تقوم الساعة من حجة لله، ولولا ذلك لم يعبد الله.

٣. الانتفاع بالامام الغائب: ولما سئل الامام زين العابدين: كيف ينتفع الناس من الحجة الغائب المستور؟ اجاب. «اننا ننتفع به كما ننتفع بالشمس

المحجوبة بالفيوم ، فنعلم من هذا أن فيوضه وبركاته تعم الخلق حتى فى زى الغيبة . فاذا اشتبه الأمر على بعض العامة فهو يهديهم وهم لا يدرون . وقد عم الانتفاع ببركة غيبته فى أكثر الأحيان ، فان الله تعالى يعلم أن الامام لو ظهر فان أكثر الناس لا يؤمن به . . وأن بحضور حضرته تترتب تكاليف شديدة على الناس ، كجهاد أعداء الدين وغيرهم . وإن كثيراً ممن عميت أبصارهم وبصائرهم لا يقدرون على النظر إلى نور حضرته ، كما أن كثيرين لا يقدرون على النظر إلى نور الشمس . وإن من السلاطين والمتكبرين من يؤمنون بمجيئه فى أثناء غيبته ، فاذا ظهر وساوى بين الشريف والوضيع ، والملك والفقير ، لايقدر كثيرون على تحمله فيكفرون . كما أن طلحة والزبير عند ما ساواهما بالعطاء مع غلام له أعتقه فى اليوم السابق كفرا به .

« وإذا نظرنا إلى لطف الامام فى زمن غيبته كفى أن نقول إن الاعتقاد بوجوده وإمامته موجب لحصول الثواب غير المتناهى . وقد أجاب السيد المرتضى فى كتاب الشافى بعدة أجوبة على الاعتراض بعدم انتفاع الناس بالامام الغائب .

الأول : ان احتمال ظهوره فى كل وقت وأنه ذلك نفسه باعث على الانزجار عن عمل القبائح ، وهذا وحده هو الفرق على الأقل بين عدم الامام وغيبته .

الثانى : ان وجود الامام لطف من الله تعالى ، وأن السبب فى اختفائه هو لوجود أعدائه بين الناس كما أن الرسول ﷺ عند ما كان فى مكة ، منع كفار قريش الناس من الانتفاع به ، خصوصاً فى السنوات التى كان فيها مختفياً فى شعب أبى طالب مع سائر بنى هاشم . . . وفى أيام اختفائه فى الغار ، حتى حل المدينة المشرفة . فليس من شك أن ذلك لم يكن منافياً للطف فى وجود النبى .

الثالث : إن من الممكن أن الله تعالى يعلم أن للامام أثناء غيبته أولياء ، فاذا ظهر أنكروه فيكون ظهوره باعثاً لكفرهم .

الرابع : ليس من اللازم أن يكون الانتفاع متساوياً فقد يراه عدد مختار من الناس فيحصل لهم النفع ، كما يقال : إن مدينة يسكنها أحد أولاد الأئمة ،

وان الامام سيشرف تلك المدينة ، فان أهل المدينة وإن لم يروه فانهم يعرضون عليه مسائلهم من وراء حجاب .

وبعد أن ذكر السيد المرتضى رحمه الله الوجوه المتقدمة . قال : إن انتفاع الأمة بالامام إلا بعدة أوامر من الله يقتضى العمل بها ، وتبلغ هذه الأوامر من جانب الامام فعلينا العمل بها . أما من جانب الله فقد كان الأمر بوجود الأئمة وتمكينهم من القيام بلوازم الامامة — بالعلم وشرائط الامامة والنص على إمامتهم — ما يكفى للدلالة على أنهم أئمة، وإن من الضرورى من جانبهم تنفيذ أوامر الله ، فواجب الامام هو قبول ذلك التكليف والقرار بالقيام به . أما ماهو راجع للأمة فتمكين الأئمة من تدابير أمورهم ودفع الحوائل والموانع بيننا وبينهم ، والطاعة لهم والانقياد والعمل بأوامرهم .

الامامة للأمة كالقلب للجسد : روى الكلينى وابن بابويه (الصدوق) عن هشام بن سالم أحد أصحاب الامام جعفر الثقاة . قال هشام للامام « بلغنى ما كان فيه عمرو بن عبيد (وهو من الصوفية من أهل السنة) وجلوسه فى مسجد البصرة . وعظم ذلك على ، فخرجت اليه ، ودخلت البصرة يوم الجمعة وأتيت مسجد البصرة فاذا أنا بحلقة كبيرة وإذا بعمرو بن عبيد عليه شملة سوداء مؤتزرا بها من صوف وشملة مرتديا بها والناس يسألونه. فاستفرجت الناس فافرجوا لى ، ثم قعدت فى آخر القوم على ركبتى ثم قلت : أيها العالم ، أنا رجل غريب أتأذن لى فأسألك عن مسألة ؟ . قال : سل . قلت له : ألك عين ؟ . قال : يابنى ، أى شيء هذا السؤال الذى تسأل عنه ؟ . فقلت : هذه مسألتى . قال : يا بنى ، سل و إن كانت مسألتك حمق . قلت : أجبنى فيها . قال لى : سل ، فقلت الك عين ؟ قال نعم : قال : فقلت ، فما تصنع بها ؟ قال : أرى بها الألوان والأشخاص . قال : قلت : ألك أنف ؟ قال : نعم . قلت : فما تصنع به ؟ قال : أشم به الرائحة . قال : قلت : ألك لسان ؟ قال : نعم . قال: قلت : فما تصنع به ؟ قال : أتكلم به . قال : قلت ألك أذن ؟ قال : نعم .

قلت: فما تصنع بها . قال : أسمع بها الأصوات . قلت :ألك يدان ؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع بهما ؟ قال: أبطش بهما وأعرف بهما اللين من الخشن . . قلت : ألك قلب ؟ قال : نعم . قلت : فما تصنع به ؟ قال . أميز به كل ماورد على هذه الجوارح . قلت . أفليس فى هذه الجوارح غنى عن القلب . قال: لا. قلت : وكيف ذاك ، وهى صحيحة سليمة ؟ قال : يا بنى : إن الجوارح إذا شكت فى شىء أو رأته أو ذاقته ردته إلى القلب فيتيقن بها اليقين ويبطل الشك .قلت : فانما أقام الله عز وجل القلب لشك الجوارح . قال : نعم . قلت : لا بد من القلب والالم تستيقن الجوارج ؟ قال: نعم . قلت: يا أبا مروان ،إن الله لم يترك جوارحكم حتى جعل لها إماماً يصحح لها الصحيح و ينفى ما شكت فيه و يترك هذا الخلق كله فى حيرتهم وشكهم واختلافهم لايقيم لهم إماماً يردون إليه شكهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك ترد إليك حيرتك وشكك ؟ قال: فسكت؟ ولم يقل شيئاً ، ثم التفت إلى ، فقال: أنت هشام؟ قلت:لا. قال لى: أجالسته ؟فقلت :لا . قال :فمن أين أنت ؟ قلت: من أهل الكوفة . قال: فأنت إذا هو . ثم ضمنى إليه وأقعدنى فى مجلسه وما نطق حتى قمت.

٥ — الانسان عالم صغير ينطوى فيه العالم الأكبر . قال أمير المؤمنين :

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فالعظام من الجسد بمنزلة الجبال ،واللحم بمنزلة التراب،و الشرايين والأوردة بمنزلة الانهار ، والرأس مركز القوى والمشاعر ، وهو الجزء المشرف من البدن، أى بمنزلة السماء التى هى محل الكواكب النيرة التى تشع بنورها على الأرض . والقوى الدماغية التى تتصل بسائر البدن بواسطة النخاع بمنزلة أشعة الكواكب التى تؤثر على الأرض ، وكما أن على الأرض أمراء وسلاطين وحكام ، وأن بعضهم أقوى أو أعظم قدراً من البعض الآخر ، كذلك السلطان الأعلى للبدن هو النفس الناطقة التى تتحكم فى القلب ، وكما أن المعمور من الدنيا يقع فى جانبها الشمالى كذلك القلب يقع فى القسم المعمور من البدن فى جانب

الشمال ». وكما أن للملوك وزراء يقسمون الأرزاق على الرعايا ، فان الكبد يطبخ الطعام ويوزعه على البدن جميعاً ، وكما أن الأرض تلقى بفضلاتها إلى البحر كذلك البدن يقصى عنه مالا يحتاجه .

وأنقل فيما يلى ترجمة فصل آخر من الكتاب نفسه لنرى ماهية فكرة الشيعة عن السلطة الالهية للأئمة (١) :

« فى أن الامامة تكون بنص من الله والرسول »

« إن الامامة تكون بالنص من الله والرسول ، لا بالبيعة والاختيار من جانب الناس ، وان من الواجب أن ينص كل إمام على خلفه . . قال العباسيون : إن الامامة تكون إما بالتعيين أو الميراث . . . ويقول أهل السنة كافة: أن الامامة تكون : إما بالنص أو بالاختيار وبيعة أهل العقد والحل . ولكن الدلائل العقلية على أحقية مذهب الامامية كثيرة .

الدليل الأول: وجوب كون الامام معصوماً ، والعصمة أمرخفى لايعلمه إلا الله ، فوجب أن يكون النص من جانب الله لأنه وحده يعلم بالعصمة .

الدليل الثانى : لقد ظهر للعاقل بحكم تتبع عادات البشر وملاحظة طبائع خلق العالم ، أن المكان الذى لايكون فيه حاكم زاجر وسلطان قاهر يمنع من الظلم والغضب واتباع الشهوات وارتكاب المنهيات ، فان أكثر الناس يتبعون داعى الغلبة والقهر الخ . فيكثر قتل النفس بغير حق ، ولهذا السبب يسود الهرج والمرج فى انتظام العالم . و يحدث الخلل فى سلسلة بنى آدم . وان الله تعالى لايرضى بذلك لقوله : « إن الله لا يحب الفساد » . فنعلم من ذلك أن من الواجب على الله دفع الفساد ، ولا يتم ذلك فى أى زمان إلا إذا فوضت الحكومة والرياسة إلى شخص يسير فى جادة الصلاح وطريق الفلاح

---

(١) نزهة القلوب للمجلسى (ج ٢ ص ٣٩) وما بعدها .

ويحكم بمقتضى الشريعة وضبط مصالح المعاش والمعاد ، ومثل هذا الشخص هو الامام ، فان لم يعين الله تعالى فى زمن ما إماما كان معناه أنه يرضى بالفساد ، والرضى بالفساد قبيح وهو محال على الله.

الدليل الثالث : لقد ثبت بالعدل والنقل أن شفقة الله ورفقه بعباده وهدايتهم إلى طريق السداد وإرشادهم إلى ما فيه صلاح المعاش والمعاد بلا حد وغاية . فقد ورد فى القرآن الكريم فى عدة مواضع مايدل على كمال رأفته ونهاية شفقته بعباده كافة ، فلم يهمل إصلاح حتى جزئيات أعمالهم ، فحلاقة الشعر وقص الشارب ، وكيفية الدخول إلى بيت الخلاء ، والخروج منه ، والاستنجاء ، واستعمال الحجر ، وآداب الجماع وأمثالها من الأمور الجزئية وردت كلها على لسان الرسول بالتفصيل ليفهمها عباده كافة .

« فتيقن لدينا أن تعيين خليفة للرسول بعده ليظهر ضبط الشريعة ونسق قاعدة الدين والملة ، ويحفظ الناس من الشر والفساد والمخالفين وأمثالهم ، وهى أمور لا شك فى أنها أهم من الجزئيات المذكورة بعدة مراتب ، فاذا كان إهمال هذه الأمور الجزئية لايجوز على البارى فكيف يجوز مثل ذلك فى مثل هذا الأمر الخطير الذى هو أعظم أركان الدين . فنرى من ذلك أن تعيين الخليفة الحاكم لجميع العباد ، وأن الله أوحى الى رسوله بتعيين الامام من الأمور اليقينية . وقد أجمع المسلمون على أن غير حضرة أمير المؤمنين عليه السلام لم ينص على تعيينه . فوجب أن يكون على (ع) هو المنصوص عليه من قبل الرسول .

الدليل الرابع : وهو باعتراف أهل السنة أن الله أوجب على النبيين من لدن آدم إلى خاتم النبيين أن يعينوا قبل رحيلهم من العالم خليفة لهم . وكان من سنة رسول الله إذا خرج فى غزوة أن يعين من يقوم مقامه الشريف فى المدينة . وكان يفعل مثل ذلك فى كل قرية من قرى الاسلام بها عدد من المؤمنين ، وكذلك فى السرايا والجيوش . ولم يترك ذلك الى اختيار الرعية

بل كان ينتظر فى ذلك أمراً من الله . ففى هذا الأمر الذى هو غاية فى الأهمية وله علاقة وثيقة بالشرائع والأحكام لأهل الاسلام كافة إلى يوم القيامة ، لا يحتمل أن يحمله الرسول أو يتركه إلى اختيار الناس .

الدليل الخامس : إن منصب الامامة نظير منصب النبوة فى أن لكل منهما الرياسة العامة على المكلفين فى جميع الأمور فى الدين والدنيا . وأن الناس غير قادرين على اختيار الشخص اللائق لهذا المنصب الكبير . وهم على اختلاف آرائهم هذه ، ولو قدرنا إمكان اتفاقهم فى هذا الآمر ، فانه لا يتم إلا على قدر أفهامهم المحدودة وأغراضهم الباطلة . ولا يكون ذلك موافقاً للمصلحة الكلية والحكمة الالهية . فيختار كل منهم ما هو أصلح لنفسه فلا يتم ذلك إلا بالقهر والغلبة ، وهذه سلطة الجبابرة ، وليست إمامة أو إمارة شرعية . إذ لو كان بامكان الرعية أن تختار الامام لاختارت النبى أيضاً ، وهذا أمر باطل بالاجماع .

وقضية أخرى ، وهى : أنه إذا عزل أحد الملوك حاكماً من الحكام ولم يعين غيره بدلا منه ، أو أن أحد رؤساء القرى خرج من قريته ولم يعين أحداً محله لمباشرة الرتق والفتق فى أمور الرعية وترك الأمر إلى اختيار الناس ، فكيف يجوز لمن يقول بعدم وجوب نصب الامام على الله والرسول أن يقبح عمل هذا الرئيس أو الملك ؟ وهل يعتبر هذ العمل غير مستحسن من جانب الملك أو الرئيس ، وحسناً من جانب الله والرسول ؟ وهناك من يقول : إن رسول الله خرج من الدنيا ولم يعين خلفاً له ، بل ذلك إلى اختيار الرعية .

الدليل السادس : لو فرضنا ان الامة منزهة عن كل غرض وهوى نفس ، وانها توجهت باهتمام إلى اختيار الامام ، غير انه لما كان عمل كل فرد من افرادها جائز الخطأ ، فقد يجوز عليها الخطأ فتتخلى عن المستحق وتختار غيره ، كما نرى فى اختيار الملوك والسلاطين وغيرهم . ويظهر لهم فى أول الامر انهم من الامناء الثقات ثم يظهر خلاف ذلك .

الدليل السابع : ولو قدرنا صحة اختيار الامة ، لكن الواضح هو ان عالم السر والخفيات أكثر من عباده ويعلم ما يناسب كل منهم من الاعمال ، فمن الانسب ان لا يترك هذا العمل أو يفوضه إلى غيره ، فان فى ذلك كمال الاشكال وترجيح ومرجوح ،وصدوره من القادر الحكيم قبيح ومحال.

الدليل الثامن : لو تركت الامامة إلى اختيار الامة كان لذلك نتيجتان محتملتان الأولى : خطأ الاختيار ، ولما كان الله يعلم منذ الازل بهذا الخطأ فهو رغم علمه وقدرته وحكمته يفوض تمشية أمور الدين وتربية المسلمين إلى جماعة تخطىء وتختار حاكما ظالما — وهذا أمر فى غاية القباحة وصدوره من الله محال . والثانية إذا كان فى علم الله انهم سيختارون اماما لائقا فان امر الاعتراف به وواجب جعله معروفا عند الناس عامة وواجب الجاء الناس إلى طاعته ورفع نزاع المتنازعين ودفع حسد الحاسدين ، علم فى نهاية الاشكال على الناس وفى نهاية السهولة على الله . فنرى ان تخصيص اعمال بمثل هذه الصعوبة إلى الآخرين ، وفرض امر بهذه العظمة على جماعة من الضعفاء ، فعل فى نهاية القبح ولا يليق بالله تعالى . وقد قال عز وجل : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) .

والخلاصة ان بعد النبوة لايحتاج الدين إلى شىء بقدر حاجته إلى امام ، ولا يحتاج المسلمون إلى نعمة ضرورية بقدر وجود الامام ، فلو لم يكن امام ذهب اثر الدين ولم يبق له اثر بعد مدة قصيرة . وان فى عدم وجوده لايتم احتياج الدين والمسلمين ويختل النظام . فلو لم ينصب الله تعالى الامام ولو لم يقرر الامامة كان ذلك بمثابة رفع نفوذ انبيائه من العالم . وفى ذلك لا يكمل الدين ولا تتم النعمة.ومن قال ذلك فقد كذب القرآن والرسول، ومن كذبهما كان كافرا .

الباب المتم الثلاثين

عصمة الأنبياء والأئمة

يقدر المسلمون عدد الانبياء والرسل الذين ارسلهم الله فى الماضى بنحو ٠٠٠ ر ١٢٤ ، ومعظم هؤلاء الانبياء لا نعرف عنهم الا اليسير . وفى كتاب عقائد الشيعة بحث لخصه الاستاذ براون فيما يلى :

« اختلف الناس فى عـدد الانبياء الصادقين الذين جاءوا قبل محمد خاتم الرسل وآخرهم ﷺ فمن قائل انهم ١٤٠ ومن قائل انهم ٠٠٠ر١٢٤ ومن قائل بين ذلك ، وعلينا ان نعتقد ان هؤلاء الانبياء مهما اختلفوا فى عـددهم ، صادقون معصومون ، أى لا يرتـكبون من الذنوب صغيرة أم كبيرة ، طول عمرهم ، وان كل ما جاءوا به هو الحق وان ما انزل عليهم من الوحى متشابه فى اساسه ، وان المتأخر منه نسخ المتقدم فى التفاصيل ، فالقرآن والانجيل والتوراة والزبور وصحف إبراهيم هى أهم ما أنزل . ويقدر عدد ما انزل على الانبياء من الـكتب والصحف بـ ١٠٤ ، وقال بعضهم انهـا ١٢٤ اما الرسل فاربعة منهم سريان ، وهم آدم وشيث وادريس ونوح ، وخمسة من العرب وهم هود وصالح وشعيب واسماعيل ومحمد ، والباقون من بنى إسرائيل . اما اولو العزم فخمسة وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد » (١)

ويتفق علماء الشيعة على عصمة الانبياء والأئمة . قال المجلسى : —

« وهم معصومون من الذنوب صغيرها وكبيرها ، فـلا يقع منهم ذنب صلا لا عمدا ولا نسيانا ، ولا سهوا ، ولا غير ذلك . ولا يقع عنهم ذنب قبـل

---

(١) براون Persian Literature in Modern Times (ص ٢٨٨) .

نبوتهم حتى ولا فى دور طفولتهم . ولم يختلف عن هذا الاابن بابويه والشيخ محمدبن الوليد فقد جوزا وقوع النسيان عليهم من الله فى وقت من الاوقات لحكمة جليلة منه أو لامر غير ضرورى لواجبهم . الا ان الجميع متفقون على الايمان بعصمة الانبياء وانه من الاعتقادات الضروريه عند الشيعة » (١)

وبرهن على ذلك بتسعة براهين اليك خلاصتها :ـ

١ — لما كان الانبياء قد بعثهم الله وامر بطاعتهم وجب حتما ان يكونوا معصومين من الذنوب .

٢ — لا يمكن ان نتصور اطاعة الرسل فى بعض الامور دون بعضها .

٣ — إذا اذنب الرسول وجب ان نطيعه فان لم نفعل آذيناه وايذاء الرسل حرام ، لقوله تعالى (ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة) (سورة الاحزاب ٥٧) .

٤ — إذا اذنب النبي وجب على الذين تبلغهم رسالته ان يرفضوها .

٥ — إذا جاز الذنب على النبي كانت مرتبته دون مرتبة باقى الناس .

٦ — إذا اذنب النبي استحق اللوم واللعنة والعذاب من الله .

٧ — أمر الأنبياء الناس بطاعة الله فاذا هم انفسهم عصوا الله جاز عليهم قوله تعالى « أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » (البقرة) .

٨ — وفى خطات الشيطان لله « قال فبعزتك لاغوينهم اجمعين . الاعبادك منهم المخلصين » (سورة ص ٨٢ ـ ٨٣) فاذا جاز ارتكاب الذنب

---

(١) حياة القلوب للمجلسى (ج ١ ص ١١) ـ ١٢) ويتألف هذا الكتاب من ٣ مجلدات الاول عن الانبياء قبل محمد والثانى عن حياة محمد (وقد ترجم هذا الجزء من الانكليزية Merrick بعنوان The Life &Religion of Mohamad بوستن ١٨٥٠) والثالث ن الامامة .

على الانبياء كانوا من الذين اغواهم الشيطان ، ولم يكونوا من عباد الله المخلصين .

٩ ــ إذا ارتكب الانبياء ذنبا كانوا من الظالمين وقد قال تعالى « لا ينال عهدى الظالمين »

ففيما مر من كلام المجلسى كان يبرهن به على عصمة الانبياء ولكنه فى المجلد الثالث من حياة القلوب ، يخص بحثه على الامامة وعقيدة عصمة الأئمة ، ويعتبرها من العقائد الاساسية . قال :ــ

« اعلم ان اجماع علماء الامامية قد انعقد على ان الامام معصوم من جميع الذنوب صغيرة كانت أم كبيرة من أول العمر إلى آخره ، لا عمدا ولا سهوا . ولم يخالف ماجاء فى هذا الباب غير أن بابويه واستاذه ابن الوليد رحمهما الله قد جوزا السهو فى غير تبليغ الرسالة واحكام الله كالسهو فى الصلاة وسائر العبادات وسائر الامور بغير تبليغ احكام أو تبليغ رسالة فلا يجوز أى نوع من السهو . وان سائر الفرق الامامية عدا الاسماعيلية لا يضعون شرط العصمة الأئمة » (١) .

ويعتبر الشيعة ان اهم آية فى القرآن تبرهن على ضرورة الاعتقاد بعصمة الامام هى قوله تعالى لابراهيم « انى جاعلك للناس اماما » فسأله ابراهيم « ومن ذريتى ؟ » قال الله « لا ينال عهدى الظالمين » (سورة البقرة الآية ١١٨) قال المجلسى :

« فنعلم من ذلك ان كل مذنب فاسق ظالم حتى لنفسه . « وقد أوضح ابن بابويه فى كتابه الخصال تفسير هذه الآية فقال : « فلا يصلح للامامة من كان يعبد الاصنام او اشرك بالله لحظة واحدة ، حتى وان صار مسلما بعد ذلك . وقد قال تعالى « ان الشرك لظلم عظيم » وكذلك لا يمكن نسبة الامامة إلى من ارتكب حراما ، صغيرا كان أم كبيرا ، ان تاب بعد ذلك . فان الامر باقامة الحد لا يمكن أن يأمر به من وجب اقامة الحد عليه . فعلى ذلك وجب حتما ان يكون الامام معصوما .

---

(١) حياة القلوب للمجلسى (ج ٣ ص ٢٧) وما بعدها .

« ولا يمكن أن تعرف عصمة الامام إلا بنص من الله على لسان نبيه . والعصمة لا تظهر عليه بظاهر خلقته كالسواد والبياض وغيره من الصفات . إن العصمة هى من الصفات الخفية ، ولا يمكن معرفتها إلا باعلام عالم الغيب والخفيات » .

ثم يذكر المجلسى جملة من الأحاديث لاثبات هذه العقيدة . سئل هشام ابن الحكم ، وهو من رجالات الشيعة المعدودين ، عاش على زمن الامام جعفر الصادق « هل الامام معصوم ؟ قال : نعم . قيل : « فما صفة العصمة فيه ، وبأى شيء يعرف ؟ » قال : إن جميع الذنوب لها أربعة أوجه لاخامس لها : الحرص ، والحسد ، والغضب ، والشهوة . فهذه منفية عنه . ولايجوز أن يكون حريصاً على هذه الدنيا ، وهى تحت خاتمه (يشير بذلك إلى خاتم سليمان العجيب) لأنه خازن المسلمين . فعلى ماذا يحرص . ولا يجوز أن يكون حسوداً ،لأن الانسان إنما يحسد من فوقه ، وليس فوقه أحد ،فكيف يحسد من دونه . ولايجوز أن يغضب لشيء من أمور الدنيا ، إلا أن يكون غضبه لله عز وجل . فان الله عز وجل فرض عليه إقامة الحدود ، وأن لاتأخذه فى الله لومة لائم ، ولا رأفة فى دينه حتى يقيم حدودالله . ولا يجوز أن يتبع الشهوات ويؤثر الدنيا على الآخرة ، لأن الله عز وجل حبب إليه الآخرة كما حبب إلينا الدنيا . فهو ينظر إلى الآخرة كما ننظر إلى الدنيا . فهل رأيت أحداً ترك وجهاً حسنا لوجه قبيح ، وطعاماً طيباً لطعام مر ، وثوبا لينا لثوب خشن ، ونعمة دائمة باقية لدنيا زائلة فانية ؟

وسئل الامام الرابع زين العابدين عن معنى المعصوم .فقال: «المعصوم هو من اعتصم بحبل الله المتين ،أى القرآن، فلا يفترق الامام عن القرآن إلى يوم القيامة . والامام هو الذى يهدى الناس إلى القرآن ، والقرآن يهديهم إلى الامام . وذلك قوله تعالى:(إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم). (الاسراء ، الآية ٩) أى إن القرآن يهدى خير أمة إلى خير طريق ، وهى طريق متابعة أئمة الحق وولايتهم» .

ويعلق المجلسى على ذلك بقوله : « ان تفسير العصمة بالاعتصام بحبل الله اما باعتبار ان الله يعصم الأئمة من الذنوب بسبب اعتصامهم بالقرآن او ان المراد بالمعصوم ان الله عصمه بالقرآن فيعمل بما جاءبه ويعرف معانيه جميعها» .

والذى اجمع عليه المسلمون هو ان لكل شخص ملكين يحصيان عليه اعماله وهما « الكرام الكاتبون » وذكر الكراجكى فى كنز الفوائد ان رسول الله اخبر عن جبريل ان الكاتبين لاعمال أمير المؤمنين ذكرا انهما منذ اليوم الذى صحباه به حتى الساعة لم يكتبا ذنبا واحدا له . وروى عن عمار بن ياسر بطريق أهل البيت ان رسول الله قال ان الملكين الكاتبين لاعمال أمير المؤمنين افتخرا على سائر الكاتبين بصحبتهما له ، فهو لم يرتكب عملا يوجب غضب الله .

التفسير العقلى

ويحاول المجلسى فى هذا الموضوع ان يصحح ما يعتبره افكارا خاطئة فى عقيدة العصمة التى يراها صفة ضرورية للانبياء والأئمة ، قال : «واعلم ان القائلين بالعصمة قد اختلفوا فى المعصوم وهل هو قادر على فعل المعصية أم لا . فالذين قالوا بأنه غير قادر ، قال بعضهم : ان فى بدنه أو فى نفسه خاصة تقتضى ان يكون الاقدام على ارتكاب المعصية محالا . وقال البعض الآخر : ان العصمة هى القدرة على الطاعة وعدم القدرة على المعصية. ويقول أكثر علماء الامامية بأن للامام القدرة على المعصية . وفسر بعضهم العصمة بانها أمر يفعله الله بالنسبة إلى العبد لطفا منه فيدله على الطاعة فلا يقدم على المعصية . اما بشرط عدم الالجاء والاضطرار والجبر ، وعلى قول بعضهم ان العصمة ملكة نفسانية لا تصدر عن صاحبها أية معصية . ويقول غيرهم : ان العصمة لطف من الله بالنسبة إلى العبد فلا يجد العبد فى هذا اللطف داعيا لترك الطاعة وارتكاب المعصية . واسباب هذا اللطف أربعة : (الأول) وجود خاصة فى نفسه

أو بدنه تمنعه من الفجور بمقتضى الملكة . (الثانى) ان له العلم بالمعايب وقبائح المعاصى والمناقب والمحاسن . (الثالث) ان تأكيد هذا العلم بالوحى المتتابع والالهام من الله. (الرابع) ان يؤاخذه الله عما يجب تركه ومايقتضى فعله فيعلم دوما ما هو الصحيح . وكلما اراد ان يفعل ما هو غير واجب أعلمه الله به، فيعلم ان الله لا يترك هدايته لما هو واجب ومنعه عما هو محرم. فمن اجتمعت له هذه الامور كان معصوما وله القدرة على المعصية ولا ثواب له فى تركها لا يستحق المدح عليها ويكون خارجا عن التكليف . والا بطل ذلك باجماع النصوص المتواترة .

وليس للعصمة فضل أو كمال إذا كان الشخص معصوما بالجبر، وان تحقيقها فى ان الانسان بقوة العقل ووفور الفطنة والقابلية وكثرة العبادة والرياضة والهداية الربانية والتوفيقات السبحانية يصل إلى المرتبة ، وكان خاليا بالكلية من المراد والارادة الذاتية فيصل إلى مقام (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) أو يكون مصداقا لقوله ﷺ (بى يسمع وبى يبصر وبى يمشى) . وفى هذه الحالة يكون ترك الطاعة وصدور المعصية محالا .

« ومثل ذلك كالرجل أمام الملك فهو يعمل له مع كمال المحبة والشفقة والاحسان والامتنان، ويخشى منه نهاية السطوة وقدرة السلطان، مع مشاهدته منه غاية المحبة والشفقة . فيكون من المحال عليه فعل ما هو خلاف رضاه مهما كان ذلك سهلا ، لشدة محبته ، فالمحب لا يفعل ما يخالف رضا المحبوب . ثانيا: الحياء، فهو لمحبته يخجل ان يفعل فى غياب الملك مالا يصح فعله بحضوره . ثالثا :الخوف والرهبة، فانه إذا كان فى هذا القدر من الاختصاص والقدرة ولا يراعى رضاه ، يكون بالضرورة مستحقا لنهاية العقوبة . واية عقوبة لصاحب هذا المقام أشد من تغير المحبة والتنزيل من مرتبة القرب والعزة . فالظاهر الواضح ان يكون صدور المعصية فى مثل هده الحال مستحيلا . ولكن ليس بالجبر ، فالجبر يكون عندما تتجرد قدرة الشخص وإرادته عن

التأثير ، فلا تكون قدرة هذا الشخص وإرادته بأقل مما لدى الآخرين ، وان بامكانه ان يقدم على فعل يفعله الفساق كشرب الخمر وغيرها .

وروى أيضا عن الأئمة (ع) ان الانبياء والرسل أربع طبقات : (١) أنبياء نبوتهم لانفسهم لاتتعدى إلى غيرهم ، لا يرون فى المنام ويسمعون صوت الملك ولايرون الملك فى اليقظة ، ولايبعثون لأحد ولهم امام غيرهم ، كلوط وكان إبراهيم إماما (٢) ونبى يرى فى المنام ويسمع الصوت ويرى الملك ويرسل إلى قوم قليلين أو كثيرين ، كما قال الله ليونس (الصافات ١٤٧) (وأرسلناه إلى مائة الف أو يزيدون) وكان له مع ذلك إمام (٣) ونبى يرى فى المنام ويسمع صوت الملك وهو إمام للآخرين ، وكان إبراهيم نبيا أولا ولم يكن اماما حتى قال له تعالى (البقرة ١١٨):(إنى جاعلك للناس إماما). قال إبراهيم : (ومن ذريتى) .قال: (لا ينال عهدى الظالمين) أى من عبدة الاصنام والصور .

وروى الثعلبى عن الصادق (ع) ان الله أشار إلى طهارة أهل البيت من الرجس ، أى من الشك والذنب فى آية التطهير بقوله : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) (الاحزاب ٣٣) . وروى عن محمد بن عباس وما هيار فى تفسيره عن الامام الصادق: ان الله لم يتركنا وشأننا ولو فعل لكنا كغيرنا فى الذنب والخطأ ولكنه قال فى حقنا : « ادعونى أستجب لكم » .

ثم يرد المجلسى على الاعتراضات قائلا : « اعلم أن علماء الامامية اتفقوا على عصمة الأئمة من جميع الذنوب ، مع ان فى كثير من الادعية ما يعترف به بوقوع الذنب من الأئمة . وفى بعض الاحاديث ما يوهمنا بصدور المعصية منهم ، ويمكن تأويل ذلك فى عدة وجوه . (الوجه الأول) تركهم المستحب وفعلهم المكروه فسموا ذلك بالمعصية والذنب . وربما كان ارتكاب بعض هذه الامور بالنظر إلى جلالتهم ورفعة شأنهم ان اعتبروها ذنوبا بالنسبة

إلى سائر أحوالهم . وقال بعضهم : انه إذا كانت أوقاتهم مصروفة بذكر الله ومراقبة أوامره وخواطرهم متعلقا بالملأ الاعلى ، فنزلوا لحظة عن تلك المرتبة وشغلوا انفسهم بالاكل والشرب والجماع ، فقد يدعون مثل ذلك ذنبا يستغفرون عليه . ألم تر أن أكثر غلمان بعض أهل الدنيا إذا توجهوا لامورهم الخاصة عند حضور اسيادهم ، شعروا بالملامة فطلبوا العذر كانهم ارتكبوا ذنبا . (الوجه الثانى) إذا ارتكبوا احيانا أمورا فى معاشرتهم الخلق الذين أمرهم الله بهدايتهم، ثم يعودون إلى مقام القرب والوصال ومناجاة ذى الجلال ، وهذه المرتبة أعظم عندهم من الاخرى ، فهم يشعرون بتقصير فى حقها فيستغفرون ويتضرعون رغم كون ذلك بامر من الله ، وهى بلا تشبيه كملك أمر أحد مقربيه بالقيام بخدمة ما وكان ان حرم حضور مجلسه ، فاذا عاد إلى مقام الوصال شعر بجرم وتقصير بالنسبة إلى نفسه ، لحرمانه من مجلس الانس ومحل القرب . (الوجه الثالث) لما كانت علومهم وفضائلهم وعصمتهم لطف من الطاف الله وفضله – ولولاه لارتكبوا أنواع المعاصى – فاذا نظروا إلى ذلك اقروا بفضله تعالى وعبروا عن نقصهم وعجزهم بمثل قولهم « لولم تكن العصمة منك لاذنبت ولولم يكن التوفيق منك لأخطأت » . (الوجه الرابع) لما كانت مراتب المعرفة غير متناهية وكان الأنبياء والأوصياء والأولياء يرتقون فى حصول الكمال وصعود معارج القرب فانهم ساعة بعد ساعة بل لحظة بعد لحظة يرتقون درجة بعد درجة فى مدارج العرفان ، ومرتبة بعد مرتبة فى مراتب التيقن فيظهر لهم ان المرتبة السابقة قاصرة بالنسبة إلى المرتبة الحالية . وان عبادتهم فى الحالة الأولى قاصرة عن عبادتهم فى الحالة الثانية فيستغفرون ، وربما أشار رسول الله إلى ذلك فى قوله « انى لا ستغفر ربى فى اليوم والليلة سبعين مرة » (١)

---

(١) غولد تسيهر Vorlesungen الباب ٥ الفصل ٩ الملحوظة ٤ وقد روى على بن القارى فى كتابه شرح الفقه الاكبر هذا الحديث عن الرسول « انه ليغان على قلبى حتى استغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة » .

(الوجه الخامس) لما كانت معرفتهم بالمعبود قد بلغت مرتبة الكمال وكانت نعمة الله عليهم تامة ، فانهم مهما سعوا فى الطاعات والعبادات لا يعتبرون انفسهم إلا مقصرين نحو الله ، وان طاعتهم بنظرهم معصية فيستغفرون .

« ولقد اضفت فيما عدا الوجه الأول الذى قال به أكثر العلماء بعض الاراء التى طرأت على فكرى القاصر ، ومن ذاق قطرة واحدة من خمرة الحب تجرع الكل . قال تعالى : « ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور » (سورة النور الآية ٤٠). قال ابن بابويه فى رسالة العقائد : ان اعتقادنا فى الانبياء والرسل والأئمة هو انهم معصومون مطهرون من كل دنس ، ولا يصدر منهم ذنب صغيرا كان أم كبيرا ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ومن نفى العصمة عنهم بحال من الاحوال فهو لا يعرفهم ، واعتقادنا فيهم هو أنهم موصوفون بكمال العلم وتمامه من أوائل أمورهم إلى أواخر أحوالهم ، ولا يمكن بحال من الأحوال وصفهم بالنقص والجهل والعصيان » .

الباب الحادى والثلاثون

اصل الفكرة الاسلامية فى العصمة

لما كان الاعتقاد بعصمة الانبياء وخلفائهم الأئمة من العقائد الاساسية عند الشيعة كان من المهم أن نتحرى عن أصلها وتطورها . فهى لم تأت عن طريق الاسفار الدينية اليهودية، لأن دراسة العهد القديم، ولو بصورة سطحية، تدلنا بوضوح على ان نفوذ انبياء بنى إسرائيل لا يعزى إلى عصمتهم بل إلى العكس من ذلك ، فان كتب العهد القديم تذكر بحرية تامة اخطاء الانبياء كأنها أمور اعتيادية، فآدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وأيوب واشعيا وعزرا يظهر لنا ارتكابهم الخطيئة من الوهلة الأولى حسبما يذكره الكتاب المقدس ، وباعترافهم كما يظهر لنا فى عدة أماكن .

وكذلك لو فحصنا العهد الجديد ، ظهر لنا رأسا ان الذين كتبوا الاناجيل والرسائل لا ينسبون صفة العصمة إلا ليسوع وحده . وقد اتخذه الذين آمنوا به لاول مرة المسيح المنتظر ، فنسبوا تلك الصفة له باعتباره مسيحا لا نبيا . ولم تشر كتب العهد الجديد إلى تلاميذ المسيح أو الرسل بأنهم كانوا معصومين أو انهم لا يخطئون ، ولم يظهر فى كتاباتهم ما يشير إلى التبشير بفكرة عصمة الانبياء . فان الآية الثامنة من الاصحاح ١٥ من انجيل لوقا تشير على سبيل المثال إلى ان « ا كثر من تسعة وتسعين بارا لا يحتاجون إلى توبة » وهى لا تعتبر إلا اعترافا بادعاءات الفريسيين أكثر منه اعترافا بوجود مثل هؤلاء الناس بالحقيقة .

وذهب بعضهم إلى أن فكرة وصف الانبياء بالعصمة ربما جاءت إلى

الاسلام عن طريق بعض الكتب المشكوك بصحتها (١) . وقد ذكروا «صلاة منسى» وهو ملك يهوذا (٦٩٥ — ٦٤١ ق . م .) وقد أضل يهوذا سكان أورشليم ، فلما أسرته جيوش (أسرحدون) وأخذته مقيدا إلى بابل « تواضع جـدا امام اله ابائه » ولكن توبته لم يذكرها كاتب احبار الايام الثانى ، الاصحاح ٣٣) رغم الاشارة اليه فى آية ربما اضيفت اخيرا فى تاريخ الرواة History of the Seers . فصلاة منسى الواردة فى هذا الكتاب المشكوك بصحته ، يعتقد انها كتبت متأخرة فى عصر المسيح ، وتجد فى هذه الصلاة المختصرة ما اعتقده اقدم ما ذكرته اليهود لعقيدة العصمة للاباء Patriarchs اكثر منه للانبياء . فيقول كاتب الصلاه « فانت اذن يارب، اله الحق لم تفرض التوبة للعادل ، لابراهيم واسحاق ويعقوب الذين لم يخطئوا نحوك ، لكنك فرضتها على أنا المذنب » (٢) . و « عهد إبراهيم » أيضا يذكر إبراهيم وانه بدون خطيئة (٣) . ولا يستحيل ان يكون لهذه الروايات والتعاليم المشكوك بصحتها بعض العلاقة فى تطور العقيدة الاسلامية فى عصمة الانبياء ، بقدر حقيقة كون القرآن نفسه وعلم الكلام عند المسلمين المتقدمين والمتأخرين قد تأثر كثيرا بها . غير ان المؤلف يعتقد بوجود عامل آخر قد يعتبر سببا أقوى وأكثر مباشرة .

وقبل ان نناقش النظرية القائله بأن الفكرة الاسلامية فى العصمة ، إنما هى نتيجة مباشرة أو ملازمة لعقيدة الامامة عند الشيعة ، نرى ان من الاهم ملاحظة ان القرآن نفسه لا يؤيد عصمة الانبياء . ففى اماكن متعددة يشير

---

(١) TISDAL religion of the Crescent الملحق .

(٢) Apocrybha Prayer of Manasses. انظر مادة «Sin» فى Dictionary of the Bible تأليف HASTINGS بالاشارة الى Theol. jnd تأليف WEBEr (ص ٢٢ و ٥٤) .

(٣) Testrment ot Abraham الترجمة الانكليزية S. P. C k

القرآن إلى ذنوب آدم وموسى وداود . فآدم أخرج من الجنة لعصيانه ربه . ولا ننكر ان الشيطان هو المسئول، إلى حد ، عن سقوط آدم وحواء ، لكن الله عاقبهما لارتكابهما المعصية . قال تعالى :

« وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فازلهما الشيطان عنها فاخرجهما مما كانا فيه . وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر و متاع إلى حين »(البقرة ٣٥ — ٣٦) واعترافا بمعصيتهما أيضا ، نجد ان آدم وحواء يستعملان التعبير نفسه فى العربية كما استعمله الله فى تحذيرهما

« قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» . (الأعراف ٢٣) ويذكر القرآن أيضا أن موسى قتل رجلا وهرب إلى مدين ، واعترف هو بعدئذ :

« قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم » (سورة القصص ١٥ — ١٦) .

وأشار القرآن إلى معصية داود (سورة ص ٢١ — ٢٥) بذكر قصة رجلين اختصما عنده وادعى أحدهما أن الآخر اخذ نعجة واحدة له ، وله تسع وتسعون نعجة . فحكم داود . وقال تعالى : « وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب » (الآية ٢٤) .

ولا أجد بأسا بعد إيراد ما ذكره القرآن عن خطايا آدم وموسى وداود من مقارنة ذلك ببعض الكلمات والتعابير الواردة فى القرآن فى ذكر معصية غير الأنبياء . وقد وضعت خطا تحت هذه الكلمات ، وهى نفسها مما استعملها الأنبياء فى الاعتراف بمعصيتهم .

١ — (سورة العنكبوت ٣٩ — ٤٠) « وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين . فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة

ومنهم من خسفنا به الأرض . ومنهم من أغرقنـا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون »

٢ — (سورة النساء ٦٤) « وما أرسلنا من رسول إلا ليـطاع باذن الله ، ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفرلهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما » .

وفضلا عن حقيقة كون القرآن لم يذكر عقيدة عصمة الأنبياء ، ولم يؤيدها ، فان من الاهميـة بمكان أن نلاحظ أيضا أن علماء المسلمين الاوائل فى جدالهم ضد المسيحية ، لم يتطرقوا إلى ذكر هذه العقيدة ، وعلى الاخص فى رسالتين ، فى عقائد أهل السنة والجماعـة يرجع عهدهما إلى القرن الثالث الهجرى . والرسالة الاولى رسالة مختصرة كتبها عبد الله بن إسماعيل الهاشمى إلى عبد المسيح بن اسحاق الـكندى (١) . وقد صنفت هذه الرسالة فى زمن الخليفة المأمون (٨١٣ — ٨٣٣) . ورغم أن غاية الـكاتب الواضحة كانت اقناع صديقه بصحة دين الاسلام،فانه لم يشر فى رسالته أى إشارة إلى عقيدة عصمة الانبياء ، كما أن الرد على هـذه الرسالة المعروفة باحتجاج الـكندى رغم تخصيصه قسما كبيراً منها لبيان أسباب عـدم اعترافه بصحة نبوة محمد لم يتطرق إلى ذكر عصمة الانبياء أبداً مباشرة أو ضمنا . والرسالةالثانية : هى كتاب الدين والدولة (٢) . وقد ظهر فى خلافة المتوكل (٨٤٧—٨٦١ م) . ولم يذكر هذا الـكتاب أيضا هذه العقيدة ، ومؤلفه هو على الطبرى، وكان نصرانيا فأسلم ، وهو فى الوقت الذى يتـكلم عن الاختلاف بين تعاليم محمد . وما جاء فى التوراة والأنجيـل ، لا يتطرق إلى ذكر ما يدل على أن عقيـدة عصمة الانبياء ظهرت فى الاسلام عند مقارنته بالنصرانية .

وإذا نظرنا إلى القضية من الوجهة التاريخية ، فمن المحتمل : أن تـكون

---

(١) ت . و . أرنولد The Preaching of Islam الذيل الاول ، وكتاب احتجاج الـكندى ترجمة السير وليم موير .

(٢) كتاب الدين والدولة ترجمة mingana طبعة لندن سنة ١٩٢٦ فاتحة الكتاب

فكرة عصمة الانبياء فى الاسلام مدينة فى أصلها وأهميتها التى بلغتها بعدئذ إلى تطور علم الكلام عند الشيعة . فان الشيعة الناقمين لكى يثبتوا دعوة الائمة تجاه ادعاءات الخلفاء السنيين . أظهروا عقيدة عصمة الرسل بصفتهم أئمة أيضا أو هداة للناس . وقد فرض الله طاعتهم عليهم . وفى الاسلوب الذى يبرهن فيه علماء الشيعة على هذه العقيدة نجد كذلك أثر المناقشة العقلية التى امتاز بها المعتزلة (١) . ويعلق الشيعة أهمية كبيرة على قول الله تعالى لابراهيم (البقرة ١١٨) « إنى جاعلك للناس إماماً » . وقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »(الحجرات٦) . فكيف يأمر الله الناس باطاعة ابراهيم ، وهو نفسه من العاصين ؟ و يتساءل المجلسى قائلا : « كيف يجوز للعاقل أن يطيع هاديا أو إماما ، وهو نفسه من أبناء النار ، وقد جعل الله جهنم للفاسقين لقوله تعالى « وأما الذين فسقوا فمأواهم النار » (السجدة ٢٠)، ثم يقول: « أما علماء أهل السنة الذين لا يعتقدون بعصمة الائمة ، فهم أيضا لا يرون ان الظلم والفسق لا يليق بالامام ، ذلك هو السبب فى قبولهم إمامة خلفاء بنى أمية وبنى العباس مع ما أظهروه من الظلم والفسق (٢) .

والوراثة وحدها دون النص الالهى لا تكفى . فابن الامام يجب أن يعينه أبوه لينصبه الله . وإذا مابشر به جده كانت الحجة أقوى . والأحاديث التى تدل على نصب كل امام خلفه ، كثيرة حتى تجاوز النص عدة أجيال . والامر الاهم فى نصبهم من الله هو عصمتهم ، وعلى وخلفاؤه من الائمة مثل إبراهيم . فان الله لن ينصبهم أئمة ويأمر الناس بطاعتهم مالم يكونوا معصومين .

---

(١) غولد تسيهر Vorlesumgen الباب ٥ الفصل ٥

(٢) حياة القلوب للمجلسى (ج ٣ ب ا ف ٢) وينقل عن الملا سعد الدين ، وهو سنى قوله « ان الامامة تنعقد بالقهر والغلبة : فاذا تغلب أحدهم بالقوة والشوكة على الاخر كان المقهور معزولا وصار الغالب اماما » ويعلق المجلسى على ذلك بقوله « انها كلمات واهية لا تجوز على عاقل» .

وبعد أن وصلنا الى هذا الحد لا نجد صعوبة فى فهم كيفية تطور فكرة وجوب كون محمد والانبياء جميعا معصومين ، منزهين عن كل ذنب .

وكان نشوء هذه العقيدة عند الشيعة ، كما تشير الاحاديث الى ذلك بوضوح ، على زمن الامامة التاريخية ، أى الفترة بين وفاة الرسول واختفاء الامام الثانى عشر . ويذكر المجلسى أن الكلينى والشيخ المفيد ينسبان إلى الامام الصادق (سنة ٧٦٥ م) تفسير الآية ١١٨ من سورة البقرة ما يبين وجوب كون ابراهيم معصوما ليجعله الله إماما ، وأضاف الى ذلك قوله : « فلا يكون الفاسق اماما للصالحين » ، ولما كان الكلينى ، والشيخ المفيد ، وابن بابويه ، الصدوق من محدثى الشيعة الذين عاشوا فى زمن عز البويهيين ، يتضح أن عقيدة عصمة الانبياء والائمة نمت حينئذ نموا تاما عند الطائفة الشيعية .

ونجد هذه العقيدة أيضا فى كتاب تبصرة العوام ، وهو من أوائل الكتب التى كتبت بالفارسية فى الجدل الدينى تأليف السيد المرتضى علم الهدى فى هذا الدور نفسه . ويفسد هذا المؤلف أراء أهل السنة الذين يقولون بعكس الفكرة .

ولم ترد فكرة العصمة فى الصحاح veesinck The muslim Creed› (ص ٢١٧) وورد ذكرها بين معتقدات أهل السنة فى أواخر القرن العاشر فى الفقه الاكبر الثانى الذى صنف بعد أن جمع الكلينى أحاديثه كتاب الكافى ج ١ ص ٩٨ . ولا بد أن نتساءل عن سرعة قبول هذه الفكرة لدى السنة إذ نجد حتى عند الغزالى (المتوفى سنة ١١١١ م) ما يدل على عكس هذه الفكرة . قال :

« أما بيان وجوبها (أى التوبة) على الدوام وفى كل حال فهو أن كل بشر لا يخلو من معصية لم يخل عنها الانبياء ، كما ورد فى القرآن ، والاخبار عن خطايا الانبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم . فان خلا فى بعض الاحوال عن معصية الجوارح ، فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب ، فان خلا عنها فلا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله وصفاته وأفعاله ، وكل ذلك نقص . وله أسباب وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى

ضده ، والمراد بالتوبة الرجوع . ولا يتصور الخلو فى حق الآدمى عن هذا النقص ، وانما يتفاوتون فى المقادير . فأما الأصل . فلا بد منه . ولهذا قال عليه السلام « إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة » الحديث . ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال « ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر » . واذا كان هذا حاله فكيف حال غيره ؟ (١) .

وبعد الغزالى بنحو قرن ظهر الفخر الرازى (توفى سنة ١٢١٠ م .) من مشاهير علماء السنة . وكان كما قال غولد تسيهر « من أشد القائلين بعصمة الانبياء تمسكا بها ، وهو فضلا عن بحثها فى عدة أماكن من تفسيره ألف رسالة سماها « عصمة الانبياء » أخذ بها كل نبى على حدة وفند بها أوفسر ما جاء فيه من الاقوال الدالة على خلاف رأيه تفسيرا شاملا (٢) وكان شافعيا مثل سلفه الغزالى ، وهو مثله أيضا متأثر بأفكار الصوفية الذين كانوا كالمعتزلة قبلهم واسطة انتقال لتبادل الآراء بين السنة والشيعة . فان معظم الآراء التى انتقلت من طرف إلى آخر كان انتقالها إما بواسطة الصوفية أو المعتزلة . فالشعرانى مثلا ، وهو من أشهر المتصوفة . عاش قبل الرازى بمائتى عام . وقال : إن رسول الله يرى من خلفه مثلما يرى من أمامه ، ويبصر فى الظلام ، ويغير طوله كيفما أراد ، وليس لجسمه ظل لأنه ممتلىء بالنور . فمثل هذه الأفكار تنسب إلى الآراء التى كونها الشيعة فى أوائل عهدهم عن أئمتهم ، وعندهم أن النبى لا يمكن أن يكون أقل من الائمة فى ذلك طبعا (٣) وهى فكرة كما نرى ظهرت من فكرة نور محمد (٤) .

---

(١) احياء علوم الدين للغزالى (ج ٤ ص ٥ — ٦)

(٢) غولد تسيهر Der Islam (ج ٣ ص ٢٣٨) وبروكلمان (ج ١ ص ٥٠٧ رقم ١٤) .

(٣) غولد تسيهر (Vo'nesu ngen) (ب ٥ ف ٩)

(٤) انظر الباب ١٢) وكذلك مادة Incaanation فى — encyclopaedio of religein & Ehics

فكان لكتابات الرازى الاثر فى قبول عقيدة عصمة الانبياء باجماع أهل السنة . وقد ترك المعتزلة فكرة التميز بين الكبيرة والصغيرة من الذنوب . وحسب قول الرازى : إن أكثر المعتزلة قالوا بعدم جواز ارتكاب الكبيرة من الذنوب . ولكنهم قد يرتكبون الصغيرة ، بشرط أن تكون طفيفة وغير قبيحة .

ويقول الفضلى ، وهو من محدثى علماء السنة . وقد جاء بعد الرازى ب٦٠٠ سنة ، حسب عقيدته : « والشرط الثالث والاربعون من شروط الايمان ، وهو ضرورة الاعتقاد بأمانة الانبياء ، أى حفظهم من الوقوع فيما هو محرم أو مكروه (١) . أما النسفى الذى مات قبل الرازى بجيلين ، فيكتفى بالقول فى « أن الكبيرة لا تخرج فاعلها من الايمان ولا تكفره (٢) . وهو ما يميز به المعتزلة بين الذنوب . وهذ القول هو ما كان عليه الناس قبلهم . ولكن النسفى لا يتطرق أبداً الى ذكر عصمة الانبياء .

ومن المهم . أن نلاحظ أن من قواعد قراءة القرآن بعد قراءة « وعصى آدم ربه فغوى » (طه ١٣١) أن لا يقف القارىء ، بل يواصل قراءة الآية التالية « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » .

والفكرة هى أن آدم من الانبياء أولى العزم الستة فيقتضى أن يشدد فى أن غفران الله عن ذنب آدم لاعن عصيانه (٣) فنرى من ذلك أن آدم نفسه

---

(١) مكدونلد – Deu lelopem ent of moslem Theology Iurisprudence and Constition theonry (ص ٣٤٧)

(٢) كذلك (ص ٣١١)

(٣) Faitl of Islam SEll ص ٣٧٧

اشترك فى العصمة الضرورية للأنبياء والائمة (١) .

---

(١) قال غولد تسيهر فى مادة العصمة ، فى دائرة المعارف الاسلامية بأن علماء السنة يختلفون فى مدى عصمة الانبياء عن ارتكاب الخطأ أو الذنب وهل ان العصمة قبل النبوة أو بعدها وهل تشمل الذنوب جميعا أو الزلل . وتنسب بصورتها غير المحددة الى محمد خلافا لحكمه . وعند علماء السنة . وعلى الاخص فخر الدين الرازى تشمل العصمة الانبياء العظام كافة . ويقول الفيلسوف والطبيب ابن سينا (المتوفى سنة ١٠٣٧) ان الانبياء لا يجوز عليهم الخطأ أو النسيان بأى وجه من الوجوه « غولد تسيهر Vorlesungen ب ٥ ف ٩ الملحق ١ نقلا عن Die metaphgik ouicennas ترجمة m, Horten (ص ٨٨ و ١٩)
انظر كتاب Die Persson Muhamneds تأليف R.Anqru (ص ١٢٤ – ١٣٤)

الباب الثانى والثلاثون

شفاعة الانبياء والائمة

تطورت عقيدة شفاعة الانبياء عند الله لاممهم قديما بعد وفاة محمد بقليل ونستدل من قوله تعالى « ولا تكسب كل نفس الا ما عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى » (الانعام ١٦٤) على أن محمدا لم يقصد ان يفهم الناس بانه هو أو غيره من الانبياء لهم هذه المسؤولية . وتدل الآية أيضا على وجوب الاعتقاد بالمسؤولية الشخصية امام الله . وكان محمد يسفه اراء اليهود فى اعتمادهم الاعمى فى محو ذنوبهم على شفاعة انبيائهم أو لأنهم من أهل العهد . قال تعالى « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا اياما معدودات وغرهم فى دينهم ما كانو يفترون » (آل عمران ٢٢ ــ ٢٣) .

وقد قال البيضاوى فى تفسير هذه الآية « لن تمسهم النار الا اياما معدودات أو يشفع لهم أباؤهم الانبياء أو ان الله تعالى قد وعد يعقوب ان لا يعذب ابناءه خلافا للعهد » وقد قال تعالى « فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (آل عمران ٢٤) .

اما فى الاسلام الحديث فان أهل السنة والشيعة يعتبرون ان شفاعة محمد يوم القيامة من الاعتقادات اللازمة ، ويجب الاعتقاد بأنه (أى محمد) يشفع يوم القيامة فى الموقف حتى وفى النار . فيشفع لهم فى الحساب وله حق الشفاعة وحده » (١) وهذا القول القطعى للفضلى يستند على أحاديث وروايات

---

(١) مكدونلد Muslim theology (ص ٣٤٩) عن الفضلى ، النص العربى طبعة القاهرة سنة ١٣١٥ هـ وشرح البيجورى .

كثيرة تدل كلها على ان الشفاعة من خصائص محمد دون سائر الانبياء ،وهى من الاعمال التى قد يؤذن لباقى الانبياء والشهداء وبعض المسلمين بها (١) . وجاء فى الحديث ان « سبعين الفا يدخلون الجنة بشفاعة فرد من هذه الأمة»

ومن الروايات التى تبين الضرورة الشاملة لشفاعة محمد الرواية التالية (٢)

روى أنه عندما أخرج الله آدم من الجنة لمعصيته ، ندم آدم ندما شديدا وحزن وبكى فلم يقبل الله منه حتى تشفع بمحمد ﷺ وقال « اللهم اغفرلى بجاه محمد » فسأله الله تعالى « ومن أعلمك بمحمد ؟ » قال . عندما خلقتنى نظرت إلى قائمة العرش فاذا مكتوب عليها « لا اله الا الله محمد رسول الله » فعرفت انه أعز مخلوق لديك واحبهم اليك وقد قرنت اسمه باسمك فجاء النداء « يا آدم انه سيكون من نسلك وهو خاتم النبيين ، وقد خلقتك ليكون فى صلبك » ويقال ان الله أمر آدم يومئذ ان يتكنى بابى محمد .

وأوضح الاستاذ هرغرونيه باختصار وجهة نظر المسلمين عندما يريدون التوفيق بين اعتقادهم بشفاعة الانبياء وما يخالف ذلك من آيات القرآن (٣) . قال : « ان الله يحاسب كل فرد على أعماله . فاعمال المخلوقات يسجل كبيرها وصغيرها فاذا جاء يوم القيامة فتح الكتاب واعطى كل صحيفته بيده وفيها ما فعل من الذنوب والحسنات ثم وزنت الحسنات بالسيئات بالميزان وشهد الشاهدون قبل إصدار الحكم . ولكن الله غفور رحيم ، يغفر ذنوب الذين آمنوا به واتخذوا الاسلام دينا أى اعترفوا بسلطانه المطلق وحده لا شريك له وآمنوا برسالة رسله . ولهؤلاء الانبياء ان يشفعوا لامهم وليس لهم ان يمحوا الذنوب أو يرفعوا العقاب بل يدعون الله لتخفيف العقاب » .

---

(١) WenisnckH .E.m.t تحت عنوان الشفاعة .

(٢) Koəlla Muhammab end Muhammad amism Koəllə (ص ٢٣٠)

(٣) هرغرونيه Mohammadanism lectwes on (ص ٥٦) .

اما عند الشيعة فتتجاوز الوساطة أو الشفاعة حـدودها ، وعلى الاخص بالنسبة إلى الحسين ، ففى عاشوراء يحيي الناس ذكرى شهادته فى كربلا بالتعذيب الاختيارى ، ويقوم الرجال والصبيان بتلطيخ ثيابهم الناصعة البياض بالدماء السائلة من الجروح التى أوقعوها بانفسهم . (والشيعة لا يتصورون ان امامهم غلب أو قتل ضد إرادته ، بل جعلوا من المأساة جميعها قضية قدرها الله من الازل لتضحيته العظمى . وقد ضحى الحسين بنفسه فى سبيل الاسلام . وقد قال عنه جده الرسول حسب هذه الاقاصيص (انه سيقتل فى سبيل امتى) و « قصة شهادة الحسين » مليئة بما يدل على اختيار الحسين بالتضحية بروحه فى سبيل ذنوب المسلمين . والحسين نفسه يعلم منذ طفولته ما قدر له . فهو يقول « ان المخلوقات العاقلة كافة من انس وجن فى العالمين غارقون فى الذنوب وليس لهم الا الحسين لاخلاص منها » وعنـد ما يتـكلم على بحزن عما خبأ القـدر لاهـل بيته من المصائب يجيبه الحسين « يا ابتاه ، لا سبيل إلى تسمية هذه الامور بالمحن والمصائب ، فهى لخـلاص شيعتنا المذنبين . فانا واخى وامنا البتول سنتحمل من المصائب جهد طاقتنا » وعند ما يقف على قبر الرسول، قبل خروجه إلى كربلا يقول : كيف انسى شيعتى وانا سأضحى بنفسى مختارا فى سبيلهم ؟ فيقول له محمد : انه قد ازاح بذلك همه فى خير الناس . ثم يخرج الحسين وهو يخاطب نفسه بما تشم فيه رائحة التصوف « لقـد وجدت وراء هذا الحجاب ما تاقت اليه نفسى منذ زمن طويل . وحان موعد الخلاص وقد غسلت يدى من الحياة وعزمت على تنفيذ ما اراد الله » . وهكذا كان يردد، هو واتباعه طول سفرهم ، ذكر هـذه التضحية الاختيارية فى سبيل ذنوب امتهم . فيقتل فى سبيل هذه الفـكرة تنفيذا لارادة الله، وسيقوم يوم الحشر فيشفع لشيعته بما ضحى فى سبيلهم .

فقصة شهادة الحسين المجردة من التزويق والتنميق ، بدون إدخال هذا العنصر المهم من الشخصية التى تمثل شخصية الحسين بهيئة كمالية ، قد لا تجد

لها هذا العطف الشديد من الشيعة . فاذا مثل الحسين برجل ضحى بنفسه لخلاص الناس وتحمل العذاب والمصائب حبا فى الجنس البشرى ، فان المأساة تستدعى اهتماما جديدا وتكتسب نفوذا أوسع . ان الطوائف الايرانية كانت ولا تزال تظهر ميلا نحو التقشف وإنكار الذات – أو ما يعتقدونه كذلك – فهذه التضحية من الحسين تتفق واستعدادهم الطبيعى لقبولها حالا. وفوق ذلك فان قصة رجل ضحى بحياته فى سبيل الاخرين وهذا الاخلاص المؤلم من الحسين ، يثير شعورا كامنا فى كل قلب – فيبعث الاعجاب بانكار الذات ، فى أشد الناس انانية – ويبعث انعطافا نحو المثل العليا فى الاخلاق لدى اشد القلوب قساوة . انه استسلام المحزن وبذل الشهيد المعذب مايؤثر . فترى فيها وجهة مسيحية للاسلام . ففى الشدة الجافة للدين العربى لا تجد إلا النزر اليسير من حب التضحية الذى يطلق كل شىء حتى الحياة نفسها فى سبيل الاخرين ، وهناك الكثير من التباهى والزهو بالوصول إلى لذات الجنة بصورة مؤكدة . ان موت الحسين كما مثل بعد قرون يملأ هذا الفراغ فى الاسلام ، انه العنصر النسائى تجاه الرجالى ، والمسيحى تجاه اليهودى ما تزود به هذه القصة دين محمد » (١) .

وان كون محمد شفيعا لامته والحسين مضحيا فى سبيلها ، يسهل علينا أن نرى كيف جاء هذا الاعتماد العام على شفاعة الصالحين والشهداء ، نتيجة طبيعية لذلك ، وغريب كما قد يظهر على ضوء المنطق المتشدد فى الدين فى أوائل عهده انه ليس من الامور ، اكثر خلافا للعادة ربما ، أو أقل خلافا للطبيعة على شعب قوى الخيال ، من الاتجاه المتغير الذى اتخذه نحو محمد . والحقيقة هى ان كلا هذين التطورين يحيران من درسهما بشمولهما الاوسع . ان محمدا لم يرغب أن يكون فوق البشر من ولد آدم ، لكن أصحاب السير مثلوه

---

(١) ستانلى لين بول Stubien in a Mosgue (ص ٢١٨) وما يليها ،

« تجسد النور الالهى » وكما قال هرغرونيه « ان شفاعة الصالحين اصبحت من الامور التى لا يمكن فصلها عن أمة محمد ، الذى لعن اليهود والنصارى، حسبما جاء فى الحديث، لعبادتهم قبور أنبيائهم . ويكاد ان يكون لكل قرية مسلمة إمامها الخاص ، ولكل شعب مسلم إمامه القومى ، ولكل ناحية من الحياة الانسانية أمراؤها الانسانيون ،وهم الوسطاء بين الخالق والمخلوق » (١)

ان هذا القول وان كان ينطبق بصورة خاصه على الطائفة الشيعية فى اتخاذها الانبياء والشهداء والصالحين والشعراء المتصوفين ، شفعاء ، أو وسطاء بين الله وأوليائهم ، غير اننا نلاحظ فى الكتابات الاسلوبية لعلماء الشيعة ان هذا الاعتقاد العام فى الشفعاء قد تحور وانحصر فى القاعدة الرئيسة فى ان الأئمة هم الهداة الحقيقيون . وفى الفصل الذى ننقله عن حياة القلوب (٢) فيما يلى يوضح المجلسى ان الشفعاء الحقيقيين للبشر كافة هم الأئمة . قال :

فى بيان كون ان الهداية لا تكون الا بأئمة الحق

وهم الوسيلة بين الله والخلق، ولا تحصل النجاة من العذاب الالهى الا بمعرفتهم.

روى ابن بابويه وغيره بالسند المعتبر عن الامام الصادق (ع) انه قال : « ان بليتنا بالناس عظيمة ،ان دعوناهم الينا لم يجيبوا،وان تركناهم فلا هداية لهم بغيرنا ».وروى أيضا ان رسول الله ﷺ قال لأمير المؤمنين: « ثلاثة اقسم انها حق ، معرفتك أنت وأوصياؤك بأن الله لا يعرف الا بكم ، ولا يدخل أحدا الجنة الا بمعرفتكم ، ومن عرفكم وعرفتموه ، ولا يدخل أحدا جهنم إلا بعلمكم ،ومن لا يعرفكم ولا تعرفونه ».

وروى أيضا عن الامام الحسن العسكرى انه كتب كتابا إلى أحدهم

---

(١) كتاب هرغرونيه المار الذكر (ص ٨٥) .

(٢) حياة القلوب للمجلسى (ج٣ الفصل السابع من الباب الاول) .

قال فيه: «ان الله بعزته ومنته ورحمته عندما أوجب عليكم الفرائض، لم يوجب ذلك عليكم لاحتياج منه بل رحمة منه بكم، إذ لا رب لكم سواه، لتميزوا الخبيث من الطيب، وليمتحن ما فى صدوركم، ويطهر ما فى قلوبكم، فتسيرون برحمته. وتعلو منازلكم فى الجنة. ففرض عليكم الحج والعمرة وفرض عليكم الصلاة والزكاة والصيام وولاية أهل البيت، وهى الباب الذى يفتح إلى اداء الفرائض ولا مفتاح إلا بها. فلولا محمد وأوصياؤه من ولده لذهبتم كل مذهب، وكنتم كالبهائم حيارى لا تعرفون شيئا من واجباتكم. فهل تدخل مدينة الا من بابها؟ وكان من منته ان اختار لكم بعد نبيكم أئمه وأولياء، وقال يوم الغدير: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا» (المائدة ٣). وقد أوجب عليكم وعلى أوليائكم اداء بعض الحقوق، لحلل لكم ما تملكون من نساء واموال وما تأكلون وما تشربون. والله يذكركم ويبارك لكم، فيعلم من اطاعه بالسر. ثم قال تعالى: «قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى» (الشورى ٢٣). واعلم ان من بخل فقد بخل على نفسه، وعاد نفعه له والله غنى عنكم وأنتم الفقراء له. وبعد أن ظهر لكم الحق «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» (التوبة ١٠٥)

«والعاقبة للمتقين والحمد لله رب العالمين» (الصافات ١٨٢)

وروى عن الامام الباقر (ع) ان رسول الله ﷺ قال: يا على، إذا جاء يوم القيامة جلسنا أنا وأنت وجبريل على الصراط فلا يمر أحد عليه إلا وبيده براءة من نار جهنم بولايتك.

وروى الشيخ الطبرسى ان بصريا جاء إلى الامام الباقر (ع) وقال له: ان الحسن البصرى يقول: من أخفى علمه عن الناس نفر منه حتى أهل جهنم. فقال الامام: لو كان الامر كذلك لأهلك الله مؤمن آل فرعون الذى قال عنه: (ويكتم إيمانه) (سورة غافر الآية ٢٨). وكان العلم مخفيا مستورا منذ بعث

الله نوحاً بالنبوة . وللحسن البصرى ان يختار بين أهل الميسرة وأهل الميمنة، وأشهد الله أن العلم لا يحصل إلا عند أهل البيت عليهم السلام . ثم قال الامام الباقر : إن محنتنا بالناس عظيمة ، ان دعوناهم إلى الله لم يجيبونا ، ولو تركناهم لم يجدوا هاديا غيرنا .

ويروى بالسند الصحيح عن الامام الباقر انه قال : بنا يعبد الله وبنا عرف الناس التوحيد وان محمداً حجاب الله ، أى الوسيط بينه وبين الخلق . وروى عنه أيضا انه قال : من توسل إلى بنا نجا ، ومن توسل بغيرنا هلك واهلك) .

ويمكن تصوير هذا الاعتقاد الاساسى عند الشيعة فى شفاعة الأئمة بسهولة من أدعية الزيارة التى يقرأونها عند مشهد أى امام من الأئمة . ومن هذه الادعية (الزيارة الجامعة) انقلها عن المجلسى مع تعليقه عليها (١).

قال : ويصلح هذا الدعاء عند كل إمام فيستعان بهم وتعرض عليهم الحوائج وتطلب منهم البركة . وعندما سئل الامام الرضا عما يقوله الزائر عند قبر أبيه موسى الكاظم ، قال : عليك ان تصلى فى المساجد المجاورة وتقرأ الدعاء التالى لكل إمام :

السلام على أولياء الله وأصفيائه .
السلام على أمناء الله وأحبائه .
السلام على أنصار الله وخلفائه .
السلام على محال معرفة الله .
السلام على مساكن ذكر الله .
السلام على مظهرى أمر الله ونهيه .
السلام على الدعاة إلى الله .
السلام على المستقرين فى مرضاة الله .

---

(١) تحفة الزائرين للمجلسى (ص ٣٦٠) وما يليها .

السلام على المتمحصين فى طاعة الله .
السلام على الادلاء على الله .
السلام على الذين من والاهم فقد والى الله ، ومن عاداهم فقد عادى الله ، ومن عرفهم فقد عرف الله ، ومن جهلهم فقد جهل الله ، ومن اعتصم بهم فقد اعتصم بالله ، ومن تخلى عنهم فقد تخلى عن الله .

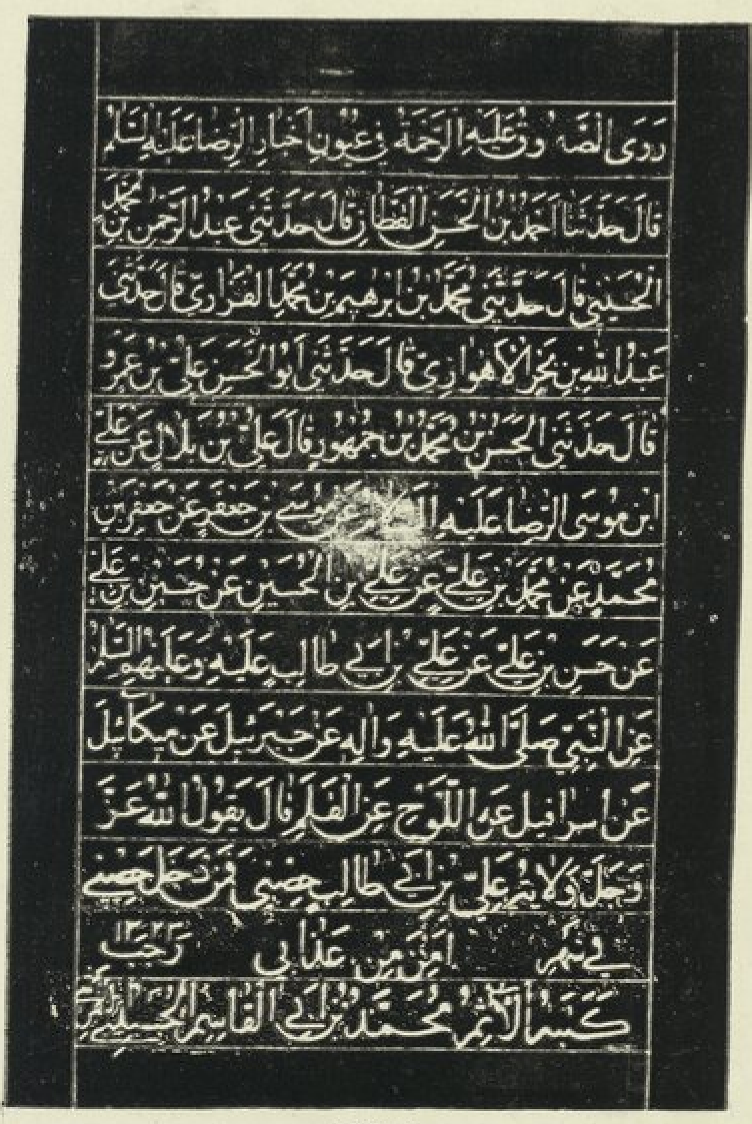
« أشهد الله أنى سلم لمن سالمكم ، وحرب لمن حاربكم ، ومؤمن بسركم وعلانيتكم ، مفوض فى ذلك كله اليكم . لعن الله عدو آل محمد من الجن والانس ، من الأولين والآخرين ، وابرأ إلى الله منهم ، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين .

وزيارة جامعة أخرى رواها ابن بابويه عن الامام على النقى . فقد سأله أحدهم قال : علمنى يا بن رسول الله قولا أقول بليغا كاملا ، إذا أردت ان أزور واحدا منكم . فقال : إذا صرت إلى الباب فقف وقل :

أشهد ان لا اله إلا الله وحده لا شريك له ،وأشهد ان محمدا عبده ورسوله . وأنت على غسل فاذا دخلت ورأيت القبر فقف وقل : الله اكبر . ثلاثين مرة . ثم امش قليلا وعليك السكينة والوقار وقارب بين خطاك ثم قف وكبر الله عز وجل ثلاثين ثم أدن من القبر وكبر الله أربعين مرة تمام المائة تكبيرة ثم قل :

السلام عليكم يأهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحى ومعدن الرحمة وخزان العلم ومنتهى الحلم وأصول الكرم وقادة الامم وأولياء النعم وعناصر الابرار ودعائم الاخيار وساسة العباد وأركان البلاد وأبواب الايمان وامناء الرحمن وسلالة النبيين وصفوة المرسلين وعترة خيرة رب العالمين ، ورحمة الله وبركاته .

السلام على أئمة الهدى ومصابيح الدجى وأعلام التقى وأولى الحجى وكهف الورى وورثة الأنبياء والمثل الأعلى والدعوة الحسنى وحجج الله على أهل الدنيا والآخرة والاولى ، ورحمة الله وبركاته .



روى الصدوق عليه الرحمة في عيون أخبار الرضا عليه السلام
قال حدثنا أحمد بن الحسن القطان قال حدثني عبد الرحمن بن محمد
الحسيني قال حدثني محمد بن ابرهيم بن محمد الفزاري قال حدثني
عبد الله بن بحر الأهوازي قال حدثني أبو الحسن علي بن عمرو
قال حدثني الحسن بن محمد بن جمهور قال علي بن بلال عن علي
ابن موسى الرضا عليه السلام عن موسى بن جعفر عن جعفر بن
محمد عن محمد بن علي عن علي بن الحسين عن حسين بن علي
عن حسن بن علي عن علي بن أبي طالب عليه وعليهم السلام
عن النبي صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عن ميكائيل
عن اسرافيل عن اللوح عن القلم قال يقول الله عز
وجل ولاية علي بن أبي طالب حصني فمن دخل حصني
في شهر أمن من عذابي رجب ١٣٢٣
كتبه الآثم محمد بن أبي القاسم الجيلاني

شفاعة الامام علي

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كما شهد الله لنفسه ، وشهدت له ملائكته ، وأولوا العلم من خلقه ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . وأشهد أن محمداً عبده المنتخب ورسوله المرتضى « أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » . (الفتح ٢٨) وأشهد أنكم الأئمة الراشدون المهديون المعصومون ، المكرمون المقربون المتقون ، الصادقون المصطفون المطيعون لله ، القوامون بأمره ، العاملون بارادته ، الفائزون بكرامته . اصطفاكم لعلمه ، وارتضاكم لغيبه ، واختاركم لسره ، واجتباكم بقدرته ، وأعزكم بهداه ، وخصكم ببرهانه ، واختصكم بنوره ، وأيدكم بروحه ، ورضيكم خلفاء فى أرضه ، وحججا على بريته ، وأنصارا لدينه ، وحفظة لسره ، وخزنة لعلمه ، ومستودعاً لحكمته ، وتراجمة لوحيه ، وأركانا لتوحيده ، وشهداء على خلقه ، واعلاما لعباده ، ومناراً فى بلاده ، وأدلاء على صراطه . عصمكم الله من الزلل ، وأمنكم من الفتن ، وطهركم من الدنس ، « ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » (الأحزاب ٣٣) . فعظمتم جلاله ، وأكبرتم شأنه ، ومجدتم كرمه ، وأدمتم ذكره ، ووكدتم ميثاقه ، وأحكمتم عقد طاعته ، ونصحتم له فى السر والعلانية ، ودعوتم إلى سبيله ، بالحكمة ، والموعظة الحسنة (النحل ١٢٥) وبذلتم أنفسكم فى مرضاته ، وصبرتم على ما أصابكم فى جنبه ، وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وأمرتم ونهيتم عن المنكر ، وجاهدتم فى الله حق جهاده (١) . . .

وبعد أن ينتهى الزائر من دعائه فى المكان المعين عند ضريح الامام يودع فيقول :

السلام عليك ، سلام مودع لا سائم ، ولا قال ، ولا مال ، ورحمة الله وبركاته عليكم يأهل بيت النبوة إنه حميد مجيد ، سلام ولى لكم غير

---

(١) تحفة الزائرين المجلسى (ص) ٣٦٣

راغب عنكم ، ولا مستبدل بكم ، ولا مؤثر عليكم ، ولامنحرف عنكم ، ولا زاهد فى قربكم ، لا جعله الله آخر العهد من زيارة قبوركم ، وإتيان مشاهدكم ، والسلام عليكم . وحشرنى الله فى زمرتكم ، وأوردنى حوضكم وجعلنى من حزبكم ، وأرضاكم عنى ، ومكننى فى دولتكم ، وأحيانى فى رجعتكم ، وملكنى فى أيامكم ، وشكر سعيى بكم ، وغفر ذنبى بشفاعتكم ، وأقال عثرتى بمحبتكم ، وأعلى كعبى بموالاتكم ، وشرفنى بطاعتكم ، وأعزنى بهداكم ، وجعلنى ممن انقلب مفلحاً منجحا ، غانما سالما ، معافا غنياً ، فائزاً برضوان الله وفضله وكفايته بأفضل ما ينقلب به أحد من زواركم ، ومواليكم ومحبيكم ، وشيعتكم . ورزقنى الله العود ، ثم العود أبداً ما أبقانى ربى ، بنية صادقة ، وإيمان وتقوى ، واجبات ، ورزق واسع وحلال طيب .

اللهم لا تجعله آخر العهد من زيارتهم وذكرهم ، والصلاة عليهم ، وأوجب لى المغفرة ، والرحمة ، والخير ، والبركة والتقوى ، والفوز ، والنور والايمان ، وحسن الاجابة . كما أوجبت لأولئك العارفين بحقهم ، الموجبين طاعتهم ، والراغبين فى زيارتهم ، والمتقربين إليك وباليهم .

ثم يتشفع الزائر لنفسه بأهل البيت قائلا :

بأبى أنتم وأمى ونفسى وأهلى ومالى : اجعلونى فى حماكم ، وصيرونى من حزبكم ، وأدخلونى فى شفاعتكم ، واذكرونى عند ربكم . اللهم صل على محمد وآل محمد ، وأبلغ أرواحهم وأجسادهم منى السلام ، والسلام عليه وعليهم ورحمة الله وبركاته ، وصلى الله على محمد وآله ، وسلم تسليما كثيراً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ويضيف المجلسى بعد هذا الدعاء قوله : وهذا خير دعاء للزيارة الجامعة بالنص ، والسند ، وبقرأة فى صبيحة كل يوم عزاء ، وزيارة مشهد من المشاهد (١) .

---

(١) تحفة الزائرين للمجلسى (ص ٣٦٣)

والمهم ملاحظة أن الأئمة الاثنى عشر لا يعتبرون شفعاء احتمالا أمام الله لشيعتهم ، بل هم الوحيدون الذين تقبل شفاعتهم . وإيضاحا لذلك أدرج فيما يلى ماذكره المجلسى فى الفصل الثانى من حياة القلوب .

فى وجوب معرفة الامامة (١)

« لا عذر للانسان فى ترك ولاية الامام الحق . ومن مات ولم يعرف إمام زمانه مات فى الكفر والنفاق . واعلم أن الاقرار بالامام من أصول الدين عند الشيعة . ومن ترك ذلك عد فى أحكام الآخرة شريكا للكافرين . وفى أكثر الأحكام الدنيوية يعتبر تاركها من المسلمين ، مالم يناصب العداء لأهل البيت ، كالخوارج الذين يجب اعتبارهم فى حكم الكفار فى الأحكام الدنيوية . ويظهر من بعض الروايات : أن فى زمن عدم استيلاء الامام الحق ، فان من الشفقة على الشيعة أن يظاهروا من يعتبر فى حكم الاسلام لئلا يصيبهم الأذى ، إلا أنه بعد ظهور دولة الحق وقيام القائم ، فان حكم الكفار يسرى على كل من لم يعتقد به . وإن أكثر علماء الشيعة يعتقدون أن باستثناء المستضعفين ممن أنكر الأئمة ، سيخلدون فى جهنم مثل سائر الكفار .

« ويقول البعض من علماء الشيعة : إن بعد المكث الطويل فى العذاب الالهى فان لهم أملا فى النجاة . والمستضعفون ، هم الذين فى عقولهم ضعف ولا يميزون بين الحق والباطل ، وليس هناك دليل على مسئوليتهم . وهم مثلا النساء الذين بين حرم ملك من ملوك السنة ، ولم يسمعوا باختلاف المذاهب ، أوأنهم سمعوا ، ولم يجدوا من يبين لهم حقيقة مذهب الامامية ، فلهم أمل فى النجاة بالآخرة . ومن رأى أنه لا أمل للنجاة لمنكرى الامامة ، وأنهم مخلدون فى العذاب الالهى ، إلا المستضعفين . فقد ورد عن طرق العامة

---

(١) حياة القلوب للمجلسى (ج ٣ الباب الاول ص ٤٩) ومايليها

والخاصة (أى السنة والشيعة) أن الرسول قال: « من مات ولم يعرف زمانه فقد مات ميتة جاهلية » . ويقول بعض المتكلمين والمتعصبين من أهل السنة أن المقصود بامام زمانه هو القرآن . ولكن أى عاقل يقبل ذلك ، فان إطلاق هذا التعبير وإن كان جائزاً ، إلا أن خلافه ظاهر . ثم إن باضافة كلمة زمانه يدل على أن لكل زمان إماما . والقرآن مشترك بين جميع الأزمنة . ويقول آخرون : إن المرادبه هو الرسول . ورد عليهم بمثل ذلك، فان الامام المتوفى ليس بامام الزمان . فيتضح من ذلك أن لكل زمان إماما يعرفه الناس ، ولا يقول المسلمون عدا الطائفه الامامية بأن لكل عصر إماما . ولايخلو العصر من إمام . . . وروى الكلينى والنعمانى بالسند الصحيح عن أبى بصير أنه سأل الامام الرضا عن تفسير الآية « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » . فأجاب الامام : المراد به : هو من عمل برأيه فى دينه ولم يتبع إماما من أئمة الهدى . . . وروى على بن إبراهيم وابن بابويه وغيرهم بالسند المعتبر عن الامام الباقر : إن الله لايعذر يوم القيامة من يقول : يارب ، لم أعلم أن أبناء فاطمة أولياؤك على الخلق ، وقد نزلت هذه الآية فى حق شيعة أبناء فاطمة « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم » (الزمر ٥٤). ومراد الامام (ع) أن الشيعة هم الذين يستحقون المغفرة لذنوبهم جميعا وحدهم . أما غيرهم فهم مخلدون فى النار .

وروى الحميرى بالسند الصحيح عن الامام الرضا أنه قال : من أحب أن لايكون بينه وبين الله حجاب . وأن يرحمه الله فليس له إلا حب آل محمد، وألا يكون من أعدائهم ، وأن يتبع الامام من جملتهم . فمن فعل ذلك فلينتظر رحمة الله وكرمه ، ولا ينقطع عن نظر رحمة الله . وذكر أحاديث عديدة رأينا عدم إيرادها .

فنرى من ذلك أن معرفة الله تفسيرها معرفة الامام . فيستحيل معرفة الله إلا بمعرفة الامام . والا ظن الناس بالله أنه خلق الخلق ثم تركهم ولم يعين

لهم إماماً ، فلا يكون الله رحيما كريماً . . . وروى الكاينى ، والبرق ، والنعمانى ، بالسند المعتبر عن الامام الباقر أنه قال : من عبد الله عبادة اهتمام وتعب ولم يعتقد بامام عادل، وأنه منصوب من الله ، فلا يقبل الله منه سعياً. ومثله كمثل نعجة فقدت راعيها وقطيعها ، فظلت حائرة نهارها . فلما جاء الليل ظنت أنها وجدت قطيعها وراعيها فلحقت بهم . فلما أصبح الصباح رأت أن الراعى غير راعيها ، فعادت إلى حيرتها تبحث ، ثم رأت قطيعا آخر، فأرادت أن تلحق به ودعاها راعى ذلك القطيع وقد رأى أنها ضالة . ولما وجدت أنه غير راعيها عادت إلى حيرتها حتى لقيها ذئب فافترسها ، ذلك هو حال من أصبح لا إمام له فظل حتى إذا مات مات ميتة جاهلية .

بيعـــة العهد

والامام المقصود بالبيعة : هو صاحب الزمان . الامام الثانى عشر ، محمد ابن الحسن العسكرى ، الذى يعتبر بأنه غاب نحو سنة ٢٦٠ هـ ، ولا يزال فى الغيبة . فهو إمام الزمان الذى يجب أن يعترف به جميع الشيعة المؤمنين . وروى المجلسى (بالسند المعتبر) عن الامام السادس جعفر الصادق فى كتابه تحفة الزائرين هذا العهد ، وقال : ويقال : إن من قرأ هـذا العهد أربعين صباحاً كان من أصحاب الأئمة الأبرار ، وإذا مات قبل ظهور الامام الثانى عشر أقامه الله من قبره ليكون مع الامام عند مجيئه ، وبكل كلمة يقرؤها من هذا العهد يرفع الله له ألف درجة ويغفر له ألف ذنب :

اللهم رب النور العظيم ، ورب الكرسى الرفيع ، ورب البحر المسجور (الطور ٦) ومنزل التوراة والانجيل والزبور ، ورب الظل والحرور ، ومنزل القرآن العظيم ، ورب الملائكة المقربين (أى جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل) والأنبياء والمرسلين . اللهم إنى أسألك بوجهك الكريم ، وبنور وجهك المنير ، وملكك القديم . ياحى يا قيوم ، أسألك

باسمك الذى أشرقت به السموات والأرضون ، وباسمك الذى يصلح به الاولون والاخرون ، ياحى قبل كل حى ، وياحى بعد كل حى ، وياحى حين لاحى ، يامحي الموتى ومميت الأحياء ، ياحى لا اله الا أنت .

اللهم بلغ مولانا الامام الهادى المهدى القائم بامرك صلوات الله عليه وعلى ابائه الطاهرين من جميع المؤمنين والمؤمنات فى مشارق الارض ومغاربها ، سهلها وجبلها وبرها وبحرها عنى وعن والدى من الصلوات زنة عرش الله ومداد كلماته وما احصاه علمه وأحاط به كتابه .

اللهم انى اجدد له فى صبيحة يومى هذا وما عشت من أيامى عهدا وعقدا وبيعة له فى عنقى لا أحول عنها ولا أزول . اللهم اجعلنى من انصاره وأعوانه والذابين عنه والمسارعين اليه فى قضاء حوائجه ، والممثلين لاوامره والمحامين عنه ، والسابقين إلى ارادته والمستشهدين بين يديه .

اللهم ان حال بينى وبينه الموت الذى جعلت على عبادك حتما فاخرجنى من قبرى مؤتزرا كفنى شاهرا سيفى مجردا قناتى ملبيا دعوة الداعى فى الحاضر والبادى .

اللهم ارنى الطلعة الرشيدة والغرة الحميدة ، وأكحل ناظرى بنظرة منى اليه ، وعجل فرجه وسهل مخرجه وأوسع منهجه واسلك بى محجته وانفذ امره وأشدد ازره . واعمر اللهم به بلادك وأحى به عبادك ، فانك قلت وقولك الحق : « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت ايدى الناس » (الروم ٤١) .

فأظهر اللهم لنا وليك وابن بنت نبيك المسمى باسم رسولك حتى لايظفر بشىء من الباطل الا مزقه ، ويحق الحق ويحققه . واجعله اللهم مفزعا لمظلوم عبادك ، وناصرا لمن لا يجد له ناصرا غيرك ، ومجددا لما عطل من احكام كتابك ، ومشيدا لما ورد من اعلام دينك وسنن نبيك . صلى الله عليه وآله . واجعله اللهم من حصنته من باس المعتدين . اللهم وسر نبيك محمدا صلى الله عليه واله برؤيته ومن تبعه على دعوته وارحم استكانتنا بعده .

اللهم اكشف هذه الغمة عن هذه الامة بحضوره ، وعجل لنا ظهوره . وانهم يرونه بعيدا ونراه قريبا (سورة المعارج الاية ٦ ـ ٧) برحمتك يا أرحم الراحمين .

الباب الثالث والثلاثون

قيام الفرق التى لها علاقة بالشيعية فى الازمنة الحديثة

كانت عقيدة « الغيبة » التى قالت بها فى أول الأمر ، فرق متباينة من الشيعة الاول ، قد تطورت أخيرا على يد الاسماعيليين وانتشرت انتشاراً واسعاً: وكان اسماعيل بن الامام جعفر الصادق هو الذى نص على إمامته بعد أبيه ، ثم انتزع منه ذلك الحق ، على قول مناوئيه على الاقل ، لشربه الخمر . وهناك من قال بانه مات قبل أبيه . فاوصى جعفر الصادق بالامامة بعده إلى موسى الكاظم ، وذلك هو الارجح . غير انه كان بين الشيعة عنصر مستاء وهم الذين صاروا يعرفون بعدئذ بالاسماعيلية وهم يقولون بان الامامة أصبحت حقا لاسماعيل ، فيجب ان تبقى فى عقبه ، فتنتقل بعد وفاته إلى ابنه محمد . واختلفت الاراء بينهم فيما إذا كان يجب أن يعتبر اسماعيل نفسه او ابنه محمد الامام السابع أو الامام الغائب . واتفقوا على ان الأئمة سبعة ، فسموا بالسبعية ، تمييزا لهم عن الاثنى عشرية . ثم اتخذوا بعد ذلك سلسلة من سبعة « أئمة غائبين » جعلت طبيعة وجودهم نفسها من المستحيل ايضاح وجودهم فى التاريخ . وتسميهم كتب الاسماعيلية باسماعيل ومحمد واحمد وعبد الله واحمد والحسين وعبدالله ، وهم من اعقاب الامام جعفر الصادق من ولده اسماعيل .

والاسماعيليون أيضا هم الذين طوروا فكرة الظهور الدورى للعقل الكلى . فبدءوا باولى العزم من الرسل وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمدا واضافوا اليهم اسماعيل وابنه محمدا ، وبذلك تم سلسلة السبعة الناطقين اما الأئمة فيبدءون بعلى حسب تسلسلهم إلى السادس وهو الامام جعفر الصادق . وتم السلسلة امابإضافة اسماعيل أو ابنه محمد اماما سابعا . اما الفترات الطويلة بين نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد فقد كان لكل منها سلسلة من

السبعة الناطقين . وقد يكون للعقيدة الافلاطونية الحديثة بعض العلاقة بذلك، مع ان لهذه الفكرة مشابهة غريبة لفكرة « نور محمد » وهى اقرب للشعر وأكثر فائدة من الوجة الدينية من الافلاطونية الحديثة . فنقرأ ان « الفكرة الاساسية للشيعة الاسماعيلية هى التكامل للوحى الالهى بالظهور المتتالى للعقل الكلى (١)

ولما اختفى الامام الثانى عشر للشيعة الامامية نحو سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٤) اتخذ الاثنا عشرية عقيدة (الغيبة) التى تطورت لدى السبعية . ثم تلا ذلك فى تاريخ الشيعة دور فى دراسة هذه الغيبة (لصاحب الزمان) دراسة عميقة. والعقيدة السائدة هى ان هناك غيبتين تعرف الاولى بالغيبة الصغرى والثانية بالغيبة الكبرى . ففى الاولى يعتبر ان الامام كان يتصل بشيعته بواسطة وكلائه الاربعة المتعاقبين (انظر الأبواب ٢١ و ٢٣). وفى القرن التالى لغيبة الامام استلم البويهيون زمام السلطة الزمنية ، فبذلوا جهوداً كبيرة لتوحيد الطائفة الشيعية وتقويتها — كبناء مشاهدها وجمع أحاديثها وتشجيع علمائها ومجتهديها — ومع ذلك فلم يظهر الامام المنتظر فى هذا القرن الذى كانت الطائفة الشيعية تتمتع فيه بحسن الحال ومر قرن آخر دالت فيه دولة حماة الشيعة من البويهيين ، ولكن الامام بقى فى (غيبته الكبرى) . ومر قرن ثالث يمتاز بالظلم والثورات وتحكم المماليك ، ولكن الامام الذى كانوا يرتجون ظهورة لم يظهر . وجاء دور الحروب الصليبية التى اشترك فيها (آل البيت) دون ان يكون لهم امام . فمن الجانب الاسلامى كانت السلطة لاعلان الجهاد تنحصر بيد بنى العباس والفاطميين المارقين فى مقاومة الجيوش الغازية للشعوب المسيحية بالاسم فى أوربا . ولكن الامام اخر ظهوره . وبعد مرور أربعة قرون على وفاة آخر الوكلاء فى القرن الثالث عشر اجتاح الغزاة

---

(١) غولد تسيهر vorlesnngen (الباب ٦ الفصل ١٠) ترجمة Ariu (٢٢٨) .

المغول بلاد إيران يقتلون ويهدمون بقساوة لا مثيل لها . وبالرغم من التخريب والآلام فان « صاحب الزمان » المنتظر بفارغ الصبر لم يظهر . وحتى في ابتداء القرن السادس على زمن شيوخ آذربيجان والدولة الصفوية الجديدة لم يتصل الامام الغائب بشيعته الاباطيف ، فكان يظهر لهؤلاء الملوك كما يدعون .

الا أنه فى نهاية القرن الثامن عشر ظهرت فرقة من المارقين على المذهب الشيعى وهم « الشيخية » وكانوا فى أول الأمر جماعة من المريدين التفوا حول الشيخ احمد الاحسائى الذى عاش بين سنتى ١٧٤١ و ١٨٢٦ . وقد جاء الشيخ احمد من الاحساء فى البحرين واشتهر أمره بالتعليم والفلسفة إثناء زيارته لكربلا والنجف . وقد رأى هناك ان الناس الذين هم من قومه فى حالة من الحزن واليأس ، وهم يدعون ليلا نهاراً لتعجيل الفرج برجعة الامام « راعيهم الذى يقودهم إلى مرعاهم » . ورحل الشيخ احمد إلى إيران فزار كرما نشاه وطهران ثم سكن يزد وقضى فيها اثنتى عشرة سنة . وقد حج خلالها إلى مكة وزار أيضا الحاج الملا محمد تقى القزوينى ، وكان قطبا من أشد أقطاب الشيعة الامامية تعصبا . واعلن بعد هذه الزيارة مروقة عن المذهب (١) وكان عمره إذ ذاك خمسا وسبعين سنة ، فغادر قزوين إلى مكة حتى إذا كان على مرحلتين أو ثلاث من المدينة فى مكان يعرف بجدة مرض وتوفى فى الثامن والعشرين من شهر حزيران سنة ١٨٢٦ (٢) .

وقد أوضح الاستاذ براون فى بحث له عن الشيخية (٣) السبب فى اعتبار الشيخ احمد من المارقين : قال انه كان يؤمن بان جسد الانسان مؤلف من ذرات مأخوذة من الافلاك التسعة والعناصر الاربعة ، وان الاساس العنصرى

---

(١) تصص العلماء (ص ٢٠) .

(٢) أ . ل . م . نيقولاس Essai sur le Cheikhisme (القسم الاول ص ٦٠)

(٣) براون spiasode of the bab (ص ٢٣٤ – ٢٤٤) .

الاكبر يفنى عند الموت ، وان الجزء السماوى الاخفى هـو الذى سيظهر يوم القيامة . وكان يسمى الجزء الخفى بالهوار قلبه (وهـو اسم يدعى انه مأخوذ من اليونانية) وهو يشابه بالشكل الصورة فى عالم المثال . وهو ينكر معراج الرسول بالجسدأو اسراءه . وكان كثير الصيام والقيام بالليل والتقشف، ويعتقد انه يسير بهدى خاص من الأئمة ، وعلى الاخص الإمام جعفر الصادق . وهو يعتبر الأئمة قوة خالقة ويستشهد بقوله تعالى « فتبارك الله أحسن الخالقين » (القرآن سورة المؤمنين الآية ١٤) قال « فاذا كان الله احسن الخالقين فليس هو الخالق الاوحد » وأيد قوله بحديث منسوب إلى على وهو قوله « انا خالق السموات والارض » حتى انه ذهب إلى ان على الانسان عند قراءة سورة الفاتحة ان يحصر فكره فى على فى الآية « إياك نعبد »

وعدد صاحب كتاب قصص العلماء التصانيف التالية للشيخ احمد : شرح الزيارة الجامعة ، شرح العرشية للملا صدرا ، شرح المشعر للملاصدرا ، شرح تبصرة العلامة ، الفوائد والشرح .

والزعيم الثانى البارز للشيخية هو الحاج السيد كاظم الرشتى (توفى سنة ١٨٤٤) . نشأ فى اردبيل قرب القبر المقدس للشيخ صفاء الدين اسحاق المعلم الصوفى الذى يقال انه من نسل الامام موسى الكاظم وهو جد الصفويين المعتبر . ولما كان السيد كاظم فى السن الثانية عشرة من العمر رأى فى المنام أحد الأئمة يأمره بالذهاب إلى الشيخ احمد الاحسائى والدرس عليه، وكان الشيخ إذ ذاك فى يزد . فذهب اليها وبقى يدرس على الشيخ احمد حتى توفى شيخه المحترم ، فاعتبر بالاجماع رئيسا لمدرسة الشيخ . وبقى مدة ١٧ سنة يبث التعاليم الشيخية وأوقف نفسه على الكتابة والتأليف . وقبل ان يبلغ من العمر الخمسين مرض فى بغداد ومات دون ان يختار خلفا له . وقد ذكر d·1.m.Nicolas فى كتابه essai sur leCheikhisma مئة وثلاثة وعشرين

مصنفا له (١) .

وفيما يلى ملخص معتقدات الشيخية استنادا إلى مقال حديث بقلم Cl. Huart فى دائرة المعارف الاسلامية (٢) .

المعتقدات الرئيسة للشيخية

انهم يحتجون على عدم اعتبار عدد من الاحاديث الضعيفة .

انهم يعتبرون الأئمة « الاثنى عشر » السبب الفعال فى الخلقة وانهم مظهر الارادة الالهيـة . وهم مفسرو ارادة الله . فلولاهم ما خلق الله شيئا ، فهم السبب الاول فى الوجود . . . ولا يمكن ان نفهم ذات الله الا بوساطة الأئمة.

انهم يقولون بأن للانسان جسدين : الأول مؤلف من العناصر الدنيوية ، وهى بمثابة الرداء الذى ينحل فى القبر ، والثانى وهـو الجسدُ الخفى من عالم الخفيات وان الجسم الثانى هذا هو الذى يبعث على الارض ثم يؤخذ إلى الجنة أو النار .

وعنـدهم ان العلم نوعين : عـلم ضرورى ولا علاقة له بالامـكانيات ، وعلم مخلوق ، والأئمة هم الابواب لهذا العلم .

ويقولون ان الاشياء المعروفة لا يمـكن أن تـكون خالدة . ويعتبرون ان العلم الامكانى يمكن تطبيقه على الاشياء قبل خلقها ، ويطلقون اسم العلم الاكوانى على الاشياء الموجودة كافة . وان الامر بالـكون يجب ان يسبق الخلق بالضرورة » .

وبعد وفاة الحـاج السيد كاظم كان الشيخية ينتظرون بكل شوق ظهور شخص لزعامة طائفتهم ، فذهب عدد منهم معا إلى مسجد الـكوفة حيث ينتظر

---

(١) ا . ل . م . نيقولاس ، كتابة المار الذكر القسم الثانى (ص ٣٢ - ٣٦) .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة « الشيخية » بقلم هورات (ج ٤ ص ٢٧٩) .

الكثيرون ظهور الامام الثانى عشر . وهناك أخذوا ينشدون الهدى فى اختيار رئيسهم الزمنى . وحبسوا انفسهم على الصلاة والصيام ليظهر لهم من يهديهم إلى رئيسهم الجديد. ويقال أن رجلا من أكثرهم نفوذا أمر حينئذان يذهب إلى شيراز ليلقى رجلا اسمه الميرزا على محمد كان قدعرفه سابقا فى كربلاء، وكان احتمال عدم اختيار الميرزا على محمد للرياسة من القضايا التى كان يفكر فيها . فلما زار شيراز أخذ بلبه التفسير الذى فسره الميرزا لسورة يوسف، وبعد ان قلب الامور على وجوهها بضعة أيام أعلن أن اعتقاده الشخصى بان الميرزا على محمد هو حقا الباب للاتصال بالامام الغائب . وبذلك اتخذت فكرة الشيخية القائلة بلزوم وجود صورة مرتبة لوحى اليوم الحاضر من الامام الغائب ، صورة بارزة معينة .

وترجع فكرة الباب إلى أقدم أحاديث الشيعة وأهمها . فيروى أن النبى قال : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » (١) فترتبت نتائج مهمة دينية وسياسية عندما ظن ان الميرزا على محمد قد نصب بابا . فالذين احتجوا ضد ما اعتبروه امرا غير جائز قطعا استدعوه امام مجلس من مجتهدى الشيعة فى تبريز فسألوه ان يفسر لهم معنى ما يدعيه . وقد قابلهم بشجاعة ، ولما سألوه ان يفسر لهم معنى الباب ، قال: هو كما جاء فى الحديث الشريف «انا مدينة العلم وعلى بابها » ويمكن ان نلمس الجرأة فى العقيدة التى طورها فى نقل بعض النتف من الكتاب الفارسى للبابية المسمى بالبيان والذى الفه الميرزا على محمد اثناء سجنه فى ماكو

سورة الواحد ٢ ف ١ — «قال الله فى كلامه العزيز كتاب من القرآن ؟ ». فقال المؤمنون جميعا « هو كتاب الله » ثم سئل « هل من فرق بين الفرقان والبيان ؟ » فاجاب ذو الفكر الروحانى « لا والله انهما جميعا من ربنا »

---

(١) صحيح الترمذي (٤٦ ، ٢٠) انظر Goldsaek . Seleections From Muhammadan Trabitions (ص ١٥) .

فاوحى رب العالمين تلك الكلمة على لسان محمد رسول الله وهذه كلمتى على لسان صاحب الحروف السبعة باب الله

الواحد ٢ ف ٤ — « جعل الله الالتجاء اليه فى الالتجاء إلى رسوله والالتجاء إلى رسوله فى الالتجاء إلى حججه (أى الأئمة) والالتجاء (إلى حججه فى الالتجاء) إلى أبواب حججه . فان الالتجاء إلى الرسول هو كالالتجاء إلى الله والالتجاء إلى الأئمة كالالتجاء إلى الرسول والالتجاء إلى الابواب كالالتجاء إلى الائمة »

ويمكننا ان نرى بسهولة فيما أدعاه الشيخية فى ميرزا محمد على ، بانهم جماعة من الشيعة ملوا الانتظار فى الغيبة الكبرى . فقد مر على انتهاء الغيبة الصغرى منذ وفاة آخر الوكلاء أكثر من ٩٠٠ سنة . والشيخية فى تأييدهم لميرزا على محمد يعلنون ابتداء دور آخر يمثل فيه الامام المنتظر بشخص مرئى ، وهو الباب هذه المرة بدلا من « الوكيل »

الا أنه كما أشار الاستاذ براون (١) لم يأخذ جميع الشيخية بالعقيدة الجديدة ، فكان هناك الحاج محمد كريم خان الكرمانى وعدد كبير من اتباعه لم يقبلوا ما ادعاه الملقب « بالباب » . وهكذا انقسم الشيخية إلى قسمين: « الشيخية الجدد » و « البابية » . والصفة البارزة فى عقيدة « الشيخية الجدد » هى « الركن الرابع » فاركان الدين عند الشيعة هى (١) التوحيد (٢) العدل (٣) النبوة (٤) الامامة (٥) البعث . اما الشيخية فقد اختصروا هذه الاركان إلى ثلاثة فى اعتبارهم وهى : العدل والبعث والنبوة . ثم أضافوا اليها ركنا رابعا « هو وجوب وجود شخص كامل بين الشيعة دائما ، يتمكن من التوسط بين الامام الغائب وشيعته » وقد اجمعوا على ان الحاج محمد كريم خان يرى نفسه ركنا رابعاً والرجل الكامل الاوحد بين الشيعة: ويظهر ان اتباعه ينظرون اليه كذلك .

---

(١) كتاب براون المار الذكر (ص ٢٤١) .

أما الفرقة الثانية ، وهم البابية فانهم تمسكوا بحقيقة أن الميرزا على محمد قد ظهر بعد أن مضى على غيبة الامام الثانى عشر نحو ألف سنة . وحسب انتظار الشيعة فان الامام الثانى عشر سيظهر باسم المهدى ، وذلك ما كانوا ينتظرونه جميعاً ، ومن بين التنبؤات على مجيئه قول يدل على أنه « سيظهر بعد الألف الأولى » . ولذلك فان الميرزا على محمد أعلن نفسه لبس « بابا » فحسب ، فقد ادعى ذلك غيره قبله (١) بل بنى ادعاءه على تأثير اسماعيلى ظاهر وعقيدة شيخية معينة وأكدا بأنه هو « نقطة ظهور » الروح إلى العالم . وكما جاء موسى وعيسى والأنبياء الآخرين فى الماضى كظهور للروح نفسها كذلك قد جاء هو الآن .

وفى تعاليمه أظهر أيضاً مقاومة جريئة لمجتهدى الشيعة . ففسر القرآن حسب المعنى الباطنى ، ولم يتمسك بقواعد الطهارة تمسكا شديداً . وقد فسر مثلا الحساب والجنة والنار والبعث بمعان أخرى . ففسر البعث كما ذكر ذلك الدكتور غولد تسيهر (٢) بأنه كل ظهور دورى جديد لروح القدس بالنسبة إلى الظهور السابق . فان الروح السابقة تعود مجدداً إلى الحياة خلال سابقتها ، وذلك هو معنى لقاء الله « كما عبر القرآن بذلك فى حياة الآخرة» . وبالمناسبة ذاتها ، على قول الدكتور غولد تسيهر .

دعا الميرزا على محمد إلى اخوة البشر ، وإلى رفع مستوى المرأة إلى التساوى مع الرجل ، وأنه أراد أن يضع فكرة أكثر نبلا للزواج ، مبنية على واجب العائلة ، وأنه كان يبغى إصلاحاً عاماً للمعارف . أما فكرته فى الاهتمام بمجموعات الحروف حسب قيمتها العضدية ، مع وضع أهمية خاصة للعدد ١٩ فليست بالفكرة الأصلية أو الباعثة على الدهشة ، فما هى سوى

---

(١) كذلك (ص ٢٢٩) بالاشارة إلى herrs cheudcu Tbe-en bes Tslaws بقلم فون كرهمر (ص ٢٠٩) .

(٢) غولد تسيهر Vorlesumgen (الباب السادس الفصل ١٠) .

مسايرة للميل العام بين الكتاب الايرانيين : وبصفة كونه « الباب » الجديد بعد ألف سنة على الغيبة التامة للامام فانه لم يقل بان واسطة الاتصال ستنغلق بعد موته ، بل قال بان روح القدس ستستمر على الظهور

ولما كان المذهب الرسمى لايران هو المذهب الشيعى فقد اعتبرت ادعاءات الباب خطرة . فاضطهد اتباع ميرزا على محمد وحرموا حتى جاءت أخيرا سنة ١٨٥٠ م فاعدم الباب نفسه . وتمكن من نجا من اتباعه من الالتجاء إلى حماية السلطان العثمانى فسكنوا ادرنه . وهناك أعلن بهاء الله نفسه « الظهور الاتم » الذى اخبر به الباب وبه يتم عمله .

وحدث عند ذلك انقسام آخر ، فان جماعة من البابية اتبعوا أحد تلاميذ الباب المعروف بصبح ازل ،وقد جعل مكانه فى فاماغوستا فى جزيرة قبرص ، وقرر ان يتم عمل الباب بالصورة التى علمه اياها استاذه .

اما الجماعة الاكثر نفوذا فهم اتباع بهاء الله الذى ولد سنة ١٨١٧ وتوفى بالحمى سنة ١٨٩٢ . وعندما أعلن الميرزا على محمد رسالته سنة ١٨٤٤ كان عمر بهاء الله سبعا وعشرين سنة . ويقال انه قبل العقيده البابية قبل أن يرى الباب ،ثم أصبح من تلامذته البارزين. واعترف اكثرية البابية بانه الخلف للباب. وقد قال ان الباب هو القائم وانه هو القيوم . وفى تعاليمه كان يفضل ان يدعى بمظهر الله أو منظره الذى يرى فيه جمال الله كما يرى فى المرآة . وهو « جمال الله » الذى يشرق وجهه بين السماء والارض كالدرة اللامعة . وبه وحده ، كما قال ، يعرف وجود الله الذى هو انبثاق نوره . وفى سنة ١٨٥٢ جاول احد اتباعه ان يعتدى على حياة ناصر الدين شاه فنفى بهاء الله إلى بغداد ثم ذهب مع جماعة من اتباعه إلى استانبول ثم إلى أدرنه ، وأخيرا استقر فى عكا وبقى فيها من سنة ١٨٦٨ حتى وفاته . وقد انشأ فى عكا عقيدة تختلف اختلافا أصليا عن عقيدة أصحاب القرآن ولا تنحصر كذلك بمعتقدات الذين قبلوا البيان. وأهم الكتب التى كتبها هو « الكتاب الاقدس » وادعى انه جاءه بالوحى

وكان العهد ان . القديم والجديد اللذان أخذ ينتشران حينئذ فى البلاد يعرفان بالكتاب المقدس .

وقد اراد بهاء الله ان يخرج من القرآن والبيان ومن الوحى الذى ادعى نزوله عليه« فكرة دين عالمى يوحد الجنس البشرى فى اخوة دينية »اما تعاليمه السياسية فكان يدعو إلى الفكرة العالمية وكان يرى عدم تفضيل من يحب وطنه على من يحب العالم بل بالعكس. وفى هذا المعنى كان يعتبر نفسه كظهور لروح العالم للجنس البشرى كافة ، وأخذ يراسل فى دعوته حكام أوربا وأسيا وملوك امريكا ورؤساء الجمهورية » وفى الكتاب الذى أرسله إلى نابليون الثالث تنبأ له فيه بسقوط الامبراطورية قبل معركة سدان باربع سنين . ولما كانت رسالته العالمية نصب عينيه فقد أمر اتباعه بتهيئة انفسهم بدرس اللغات الاجنبية لتأدية رسالتهم كمبشرين إلى العالم .

وكما بينا فقد اكد فى تعاليمه على العوامل الاخلاقيــة والاجتماعية . فقد حرم الحرب ومنع استعمال السلاح الا عند « الحاجة » ومنع الرقيق ودعا إلى اخوة البشر كنواة لرسالته الجديدة . اما الزواج فكان يقول بان الاكتفاء بالواحدة هو الاصل غير انه سمح بتزوج ثانية .واعترف بالطلاق وحلل الزواج ثانية بشرط ان لا يكون الطرفان المقترنان قد تزوجا مرة أخرى ، خلافا لما فى الفقه الاسلامى.وهو يعتبران شريعة الاسلام قدنسخت تماما وقد جاء بصلاة وطقوس جديدة . وجعل الطهارة البدنية واجبا دينياوأمر باجتناب الحمامات القذرة . ولم يعترف بوجود طبقة روحانية وقال بان الذين يتخذون واجب تعليم الدين يجب ان يفعلوا ذلك دون تعويض . أما القانون المدنى فهو فى نظره ضرورى على أساس ان الانسان تجب حمايته من وحشيته .

اما ان بهاء الله كان بالحقيقة رجلا ذا حكم دقيق وله مثل عليـا سامية فى الاخلاق الاجتماعية فامر واضح وكما قد أشرنا فيما مران بعض مبادئه لاشك انها صدى للمسيحية . ولـكنه فى مركزه الاساسى يجب ان لاننسى انه يدعى

تزعم نظام دينى وفكرة يرجع فى أصله الى إنتظار رجوع الامام الثانى عشر الشيعى . ومهما كان مقدار ما أضافه باسلوبه فى اختيار الاراء المستحسنة فى توسيع تعاليمه فان نفوذه يستند على ادعاءات الباب الذى وجد فرصته فى اضطراب الشيخية فى انتظار عودة الامام .

ولما كان المذهب الشيعى الرسمى فى إيران لا يسمح بحرية الفكر للفرد حتى ولا بحرية المناقشة الدينية فقد اضطر بهاء الله إلى قضاء عمره فى نشر إصلاحاته من خارج حدود وطنه الاصلى .

وسمى عباس افندى بن بهاء الله بعبد البهاء، وكذلك بالغصن الاعظم وقد نجح فى السير باراء والده إلى تطور أشمل . وقد ولد سنة ١٨٤١ وتوفى سنة ١٩٢١ وبالتعديلات التى أدخلها أيضاجعل تعاليم أبيه تقترب فى بعض الوجهات من العقلية الغربية اقترابا أشد . وقد اقتبس كثيرا من العهدين القديم والجديد واشتهرت الحركة اشتهارا كبيرا عندما قام الدكتور خير الله أحد اتباع عباس افندى والمعجبين به المتحمسين له بجولة فى الولايات المتحدة سنة ١٩١٢ لالقاء المحاضرات عنه.ويذكر الاستاذ براون فى كتابه The dadi religion(١) المكتوب الذى اقنع الدكتور خير الله عددا من الاميركيين بمكاتبة الغصن الاعظم ويحتوى على ترجمة بعض الملحوظات المختزلةالتى دونت عن المحاضرات

وحسب قول البهائيين أن عبد البهاء (أو عباس أفندى)قد عهدفى إرادته انه بعد موته سيكون مركزا للهداية دائم للدعوة ، وأمينا تنتقل وظيفته بالوراثة . . . وعين عبد البهاء حفيده الاكبر شوقى أفندى أن يكون أول الامناء . وينتسب شوقى أفندى من جهة أمه إلى بهاء الله من عبدالبهاء ومن جهه أبيه إلى فرع من عائلة الباب (٢) والكراسة التى كتبها mr. Rewey

---

(١) براون ، The dadi religion (ص ١١٩ - ١٤١) .

(٢) Aseries of twe:ve articles in Txtrobuchntory to the ,rewey

والتى اقتسنا منها الجملة المارة الذكر تحتوى ترجمة من الوصية التى تعزى إلى عباس افندى ، ومما يلفت النظر ملاحظة التشابه فى مناقشة حق الوراثة لرؤساء البهائية المختلفين والقضية القديمة فى تعيين الأئمة المتعاقبين .

ويظهر للمدقق فى دراسة الاسلام فى إيران ان تعاليم الشيخية والبابيـة والازلية والبهائية كلها ترجع بالاصل إلى انتظار الشيعة الطويل لعودة الامام الثانى عشر . وان الجهود التى بذلتها الفرق المذكورة، الواحدة بعد الأخرى، كانت حركات جماعات غير مقنعة بالاستمرار على تولى الأئمة القدماء . وعلى الاخص. وان الافكار المتشوقة المستنيرت فى إيران باتصالها شيئافشيئا بالمدنية الحديثة أخذت تبحث بشوق عن معرفة عصرية حيوية لله ، لها ولقومها ، ورغم ذلك فان السواد الاعظم من السكان لا يزالون ينظرون إلى القباب الذهبية على قبور الأئمة وهم يكررون الشهادة التالية كخلاصة لاملهم وإيمانهم المتخذ :

أشهدك يامولاى أنى أشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله لا حبيب الا هو وأهله. وان أمير المؤمنين حجته . وأن الحسن حجته. وأن الحسين حجته. وان على بن الحسين حجته. وان محمد بن عـلى حجته . وان جعفر بن محمد حجته . وان موسى بن جعفر حجته . وان على بن مومى حجته. وان محمد بن على حجته. وان على بن محمد حجته . وان الحسن بن على حجته. وأنت (الامام الغائب صاحب الزمان) حجته (١)

---

(١) تحفة الزائرين للمجلسى (ص ٢٣٥) Stuby of the babai Teachings



المراجع

١ - العربية وترجمتها

(ا) القرآن والتفسير

Ft Flugel, Coranus Arabica لا يبزيغ سنة ١٨٣٤ وطبعته الثانية بعنوان Concorbeutiac Corani Arabicae لا يبزيغ ١٨٤٢

G.SALE. The Koran مع بحث تمهيدى ، لندن ١٧٣٤ وقد أعيد طبعه مرارا

M. KAISMIRSKI Le Koran باريس ١٨٤٠

J.m.pobwell; The Koran لندن وهرتفورد سنة ١٨٦١

EH. PaLmer The Qur an اكسفورد سنة ١٩٠٠

T. NOeLDeKe geschichledes Qorans لا يبزيغ ١٩٠٩ — ١٩١٩ انظر بحث القرآن فى دائرة المعارف البريطانية الطبعة ١١

المولوى محمد على : THe Holy Qucr-an النص العربي والترجمة الانكليزية وتعليق الطبعة الثانية سنة ١٩٢٠

البيضاوى : (١٢٨٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، طبعة فلا يشر ١٨٤٦-١٨٤٨

أبو جعفر الطبرى (٩٢٢) التفسير ٣٠ جزءا القاهرة ١٩٠١

الزمخشرى (١١٤٣) الكشاف طبعه بولاق سنة ١٨٦٤

فخر الدين الرازى (١٢٠٩) التفسير الكبير ٨ مجلدات القاهرة ١٨٩٠

الفضل بن الحسن الطبرسى (١١٣٨) مجمع علوم القرآن ١٠ مجلدات (من أهم التفاسير الشيعية)

(ب) التاريخ

ابن قتيبة الدينورى (٨٨٩) عيون الاخبار ٤ اجزاء القاهرة ١٩٤٥ ــ ١٩٣٠

البلاذرى (٨٩٢) فتوح البلدان طبعة دى غوبه ليدن ١٧٦٦

أبو حنيفة الدينوري (٨٩٥) الاخبار الطوال طبعة Kratchkovsky anb guirgass ١٩١٢

ابن واضح اليعقوبي (نحو سنة ٩٠٠م) التاريخ طبعة هو تسما ليدن ١٨٨٣

أبو جعفر الطبرى (٩٣٢) تاريخ الرسل والملوك طبعة دى غويه ١٥مجلد١٨٧٩-١٩٠١

على بن الحسين المسعودى (٩٥٦) مروج الذهب طبعة Bardier demeynard ٩ مجلدات ١٨٦١ والتنبيه والاشراف ، طبعة دى غـويه ،ليدن سنة ١٨٩٤

البيروني (١٠٤٨) الاثار الباقية الترجمة الانـكليزية بعنوان : chronolgy of ancient nations ترجمة م . ساخاو لندن ١٨٧٩

ابن الاثير (١٢٣٤) الـكامل فى التاريخ ١٤ مجلد طبعة ليدن ١٨٥١ - ١٨٧٦

ابن الطقطقى الفخرى (صنفه سنة ١٣٠٢) طبعة ahlwardt غوتا ١٨٦٠

ابن خلدون (١٤٠٦) المقدمة النص العربي والترجمة الفرنسية فى notices et extraite ج ١٦ - ٢١

المقـريزى (١٤٤٢) اتعاظ الحنفا فى اخبـار الائمة والخلفاء طبعة هوغوبونتز ؛ لايبزيغ سنة ١٩٠٩

السيوطى (١٥٠٥) تاريخ الخلفاء ترجمة جارت كلـكتا ١٨٨١

(ج) كتب الحديث

مالك بن انس (٧٩٥) الموطا طبع القاهرة مع شرح الزرقاني ٤ مجلدات ١٨٦٢

الطيالسى (٨١٩) المسند جلد واحد حيدر اباد ١٣٢١ (١٩٠٣)

الواقدى (٨٢٣) كتاب المغازى ترجمة فلهاوزن بعنوان « محمد بالمدينة » برلين١٨٨٢ج١

ابن هشام(٨٨٣) السيرة طبعة فايل غوتنفن ١٨٦٠

ابن سعد (٨٤٤) الطبقات طبعة ساخاو ليدن ١٩٠٤ - ١٩٠٨

احمد بن حنبل (٨٥٥) المسند ٦ مجلدات طبع القاهرة ١٨٩٥

الدارمى (٨٦٩) المسند طبع حجر عـلى هامش كتاب المنتى من اخبـار المصطفى لابن تيمية دهلى١٩١٩

البخارى (٨٧٠) الصحيح طبعة جوينبول وكرهل ليدن ١٨٦٢ - ٦٨ و ١٩٠٧-١٩٠٨

مسلم (٨٧٤) الصحيح مجلدان طبع بولاق ١٨٧٣

ابن ماجة (٨٨٦) السنن مجلد واحد طبع لكنو ١٨٩٧ ومجلدان طبع القاهرة ١٨٩٥

أبو داود (٨٨٨) السنن مجلدان طبع القاهرة ١٨٧٥
الترمذى (٨٩٢) الصحيح « « « «
النسائى (٩١٥) السنن « « « ١٨٧٤
الرفاعى عصر المأمون ٣ اجزاء « « ١٩٢٨

(ب) الشيعية

زيد بن على (٧١٢) مجموعة الفقيه طبعة E. Griffini بعنوان
Corpus Juris di Eid ild Ali ج ١ ميلان ١٩١٩
محمد بن يعقوب الكلينى (٩٣٩) الكافى فى علم الدين طبع حجر طهران مجلدان ١٨٨٩
ابن بابويه القمى الصدوق (٩٩١) من لايحضره الفقيه « « ايران ١٩٠٨
كمال الدين « « طهران ١٨٨٣
عيون اخبار الرضا « « ايران ١٨٥٨
محمد بن الحسن الطوسى (١٠٧٦) تهذيب الاحكام « « « ١٨٩٩
الاستبصار « « لكنو
على بن الحسين المسعودى (٩٥٦) اثبات الوصية لعلى بن أبى طالب ج ١ طهران ١٩٠٢
الشريف الرضى (١٠٧٣) نهج البلاغة فى الخطب المنسوبة للامام على طبع حجر فى المشهد ١٨٩٢
محمد باقر المجلسى (١٦٩٩) بحار الانوار طبع حجر ايران ٢٤ مجلد
محمد بن محمد العاملى الاثنى عشرية صنفها فى المشهد سنة ١٦٥٧ وطبعت بالحجر فى طهران غير مؤرخة
نجم الدين جعفر المحقق الاول (١٦٨٠) شرائع الاسلام طبعة عبد الابراهيم
ترجمة Querry . V بعنوان
Droit musulman recueil de lois concernent les musulmans Schyites
مجلدان طبع باريس ١٨٧١
الشيخ محمد جعفر الفرحة الاحمدية ١٩٠٧

(ب) كتب الجغرافيه والسياحه

ابن رسته (القرن التاسع) كتاب الاعلاق النفيسة طبعة دى غويه «المكتبة الجغرافية العربية» ج ٧ الطبعة الثانية ليدن سنة ١٨٩٢

اليعقوبى (القرن التاسع) كتاب البلدان طبعة دى غويه «المكتبة الجغرافية» ج ٧ ليدن ١٨٩٢

ياقوت الحموى (١٢٢٩) معجم البلدان طبعة فستنفلد ٦ مجلدات لايبزيغ ١٨٦٦ ترجمة C garbier de meynarb (باريس ١٨٦١)

ابن جبير: الرحلة نص wright طبعة دى غويه «سلسلة تذكار جب» ج ٥ سنة ١٩٠٧

(ه) التراجم والفهارس

محمد بن اسحق النديم (٩٩٥) الفهرست طبعة ج فلوغل ١٨٧١ — ٢

محمد بن الحسن الطوسى (١٠٦٧) الفهرست (فى علماء الشيعة) المكتبة الهندية كلكتا سنة ١٨٥٣

ياقوت الحموى (١٢٢٩) معجم الادباء طبعة مرغليوث، سلسلة تذكار جب ج ٦ فى ٧ اقسام ١٩١٠ — ١٩٢٥

ابن خلكان (١٢٨٢) وفيات الاعيان ترجمة دى سلان ٤ مجلدات ١٨٤٢—٧١ وطبعة بولاق سنة ١٢٨٤ ه.

الخونساوى ـ روضات الجنات (صنفه سنة ١٨٦٩ — ٧٠) طبع حجر طهران ١٨٨٨

(و) الفرق والاديان

أبو منصور عبد القادر البغدادى (توفى بعد ١٠٣٧ بقليل

كتاب الفرق بين الفرق القاهرة ١٩١٠

ابن حزم (١٠٦٤) الفصل فى الملل والنحل ترجمة فريد لاندر مع تعليقات وافية لبحث «فرق الشيعة» J a O s ج ٢٩

الغزالى (١١١١) احياء علوم الدين طبع وترجمة M.L.Gautisr وكذلك طبعة القاهرة ٤ مجلدات ١٢٨٩

الشهرستانى (١١٥٣) الملل والنحل طبعة Cnreon ١٨٤٦ والطبعة الثانيـة ١٩٢٢ ، الترجمة الالمانية haardrucher له ١٨٥٠

العلامة الحلى (١٣٢٦) الباب الحادى عشر ترجمة Miller Oriental William mce Translation Faund ج ١٩ سنة ١٩٢٨

منهاج الكرامة فى معرفة الامامة طهران ١٨٨٠

كشف اليقين فى فضائل أمير المؤمنين « «

٢ ـ الكتب الفارسيه وترجمتها

(ا) القرآن وترجمته الى الفارسية وتفسيره

بصير الملك : هيا احسن ترجمة فارسية متيسرة للقرآن . وقد طبعت بالحجر فى طهران سنة ١٨٩٦ وجعل النص العربى والترجمة الفارسية فى صفحتين مقابلتين ، وفيه كشف الايات

الحاج محمد حسين الكجرانى : طب القرآن مع معانى الايات بالفارسية بين السطور ومعه كشف الايات . طبع حجر فى طهران ١٩٢٣

الملا فتح الله الكاشانى : (١٥٧١) التفسير الكبير المسمى بمنهاج الصادقين . صنفه سنة ١٥٧٤ . طبع حجر ايران ٣ مجلدات ٨٩٢ .

(ب) حياة الائمة

الملا فتح الله (١٥٧٩) ترجمة نهج البلاغة للشريف الرضى طهران ١٨٥٨

محمد بن خوانشاه ، ميرخوند (١٤٩٨) روضة الصفا ترجمة Rehatesk القسم الاول المجلدان ١ و ٢ Oriental traulslation Furnd ١٨٩١

الشيخ البهائى (١٦٢٢) جامع عباس طبع حجر ايران ١٩١٠ وهو ترجمة بعض الاحاديث الواردة فى الفقه .

الملا محمد باقر المجلسى (١٦٦٩): تذكرة الائمة طبع حجر ايران ١٩١٤

اقاى جعفر شريف : قانون اسلام ترجمة herklots ١٨٣٢
الملا نووز على: التحفة الرضوية طبع حجران ايران ١٨٧١
السيد محمد مهدى : خلاصة الاخبار « « كربلا ١٨٧٩
الحاج ميرزا اقاسي: عقائد الشيعة « « مشهد «
الملا محمد رضا امامى مدرس جنات الخلود صنفه سنة ١٧١٣ وهو فهرس لحياة الانبياء والرسل .

(ج) كتب الادعية والزيارات الشيعية

حسين واعظ كشفى (١٥٠٤) : روضة الشهداء طبع حجرلاهور ١٨٧٠
الملا محمد باقر المجلسى (١٦٩٩) : مشكاة الانوار طبع حجر تبريز ١٨٦٣
زاد المعاد (فى الادعية والصلوات) طبع حجر بومبى
تحفة الزائرين طهران ١٨٥٧
حلية المتقين طبع حجر ايران ١٨٥٩
الحق اليقين الفه سنة ١٦٩٨ طبع طهران ١٨٢٥
حياة القلوب ٣ مجلدات (فى الانبياء والرسل والائمة)
طبع حجر ايران ١٩٠٩ ، ١٩٠٦ ، ١٨٦٧ بالترتيب وترجم James Lmerrick
المجلد الثانى منها الى الانكليزية بعنوان of muhammad the life & regigion
- طبعة بوستن ٨٥٠

على اصغر بروجردى (عاش فى زمن ناصر الدين شاه وتوفى سنة (١٨٩٦)
نور الانوار طبع حجر ايران ١٩١٠
اقاى محمد صالح مازندرانى: مطارح الانظارى « « بومبى ١٨٧٠
رحمة الله (فى زمن مظفر الدين شاه): مفتاح الجنان « « طهران ١٩٢٠

(د) كتب التاريخ والجغرافية والسياحة

نظام الملك (١٠٩٢) سياست نامه طبع Ecole des lauguesorientale c· schafer
vivantes sertie 3 Vol 3111

الراوندي : راحة الصدور صنفه سنة ١٢٠٣ م . المتن الفارسي طبع محمد اقبال ، على نفقة تذكار جب سنة ١٩٢١
حمد الله مستوفي قزويني : نزهة القلوب (١٢٤٠) طبع وترجمة لستر يبج ، تذكار جب ج ٢٣ الاقسام ١ و ٢ (١٩١٥ و ١٩١٩)
D.c. phtllot memoirs of Shah Tahmasp المكتبة الهندية رقم ١٣١٩
ناصر خسرو: سفرنامه باريس ١٨٨١
مرزا حسين كشميري : دبستان مذاهب بومبي ١٨٧٥ ترجمة troyer & Shea idz لندن ١٨٤٣
شريف الدين علي يزدي: ظفر نامه أو تاريخ تيمور مجلدان كلكتا ١٨٨٧ – ٨٨
محمد حسن خان :مطلع الشمس ٣٠ مجلدات طبع طهران ١٨٨٥
محمد تقي خان حكيم : كنج دانش طبع حجر طهران ١٨٨٧
شيرازي : _ اثار العجم « « بومبي ١٨٩٦

(هـ) التراجم والفهارس

فريد الدين عطار (١٢٣٠) : تذكرة الاولياء طبعة نيكلسن لندن ١٩٠٧
دولتشاه (١٤٩٥ : تذكرة الشعراء طبعة براون لندن ١٩٠١
السيد نور الله ششتري (١٦١١): مجالس المؤمنين :الفه سنة ١٥٨٢ طبع حجر ايران ١٨٦٦
محمد بن سليمان التنكابوني :قصص العلماء الفه سنة ١٨٧٣ طبع حجر ايران ١٨٩٠ ومعه تبصرة العوام للسيد المرتضى
عبد العزيز جواهر الكلام: اثار الشيعة الامامية (الفه في ٢٠ جزءا) طبع منه الجزء الرابع في طهران سنة ١٩٢٩
مرزا محمد ولي خان اسعدي ، متولي باشي :
فهرست كتب كتابخانه ، مبارك استان قدس رضوي : طبع مشهد في ٣ اجزاء سنة ١٩٢٧

(و) العقـــائد

السيد المرتضى علم الهدى (١٠٤٤) : تبصرة العوام . طبع حجر مع كتاب قصص العلماء سنة ١٨٩٠ .

محمد تقي مستوفى كاشانى (١٨٧٩) : ناسخ التواريخ فى ١٣ جزءا طبع حجر طهران ١٨٨٨— ١٨٩٢ . يبحث الجزء الاول منه فى معتقدات الشيعه والاديان الاخرى .



ENGLISH, AMERICAN AND EUROPEAN AUTHORITIES

(a) MUHAMMAD AND THE KORAN.

WEIL, W. G., Das Leben Mohammed's translated from Ibn Hisham, 2 vols, Stuttgart, 1864.

WELLHAUSEN, J., Mohammed in Medina, selected and translated from Wakidi, Berlin, 1882.

KOELLE, Muhammad and Muhammadanism, 1889.

MARGOLIOUTH, D. S., Mohammed and the Rise of Islam «Heroes of the Nations» series, London and New York, 1905.

MUIR, Sir W., Life of Mahomet, Edinburgh, 1923.

SYED AMEER ALI, The Spirit of Islam, London, 1922.

STANTON, H. W., The Teaching of the Koran, London, 1920.

BLAIR, Rev. JOHN C., The Sources of Islam, Madras, 1925.

BELL, R., The Origin of Islam in its Christian Environment, London, 1926.

(d) ISLAMIC HISTORY AND CIVILIZATION.

WELLHAUSEN, JULIUS, Die religioes-politischen Oppositions partien in alten Islam, Berlin 1901.

WEIL G., Geschichte der Chalifen, 3 vols, Mannheim, 1846-61.

PELLY, Sir LEWIS, The Miracle Play of Hasan and Husain 2 vols. London, 1879.

MUIR SIR W., The Caliphate, its Rise, Decline, and Fall. 2nd ed., London, 1924.

G. VON VLOTEN, Zur Abbasiden Geschichte, ZDMG. lii.

GOLDZIHER, I. Muhammedanische Studien, 2 vols, Halle 1888-90.

MULER, AUGUST. Dex Islam in Morgenland und Abendland 2 vols., Berlin, 1885—87.

MALCOLM, Sir JOHN. History of Persia, 2 vols., London, 1829.

CAUSSIN DE PERCEVAL, Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, 3 vols., Paris. 1847-48.

NOLDEKE. Th. Geschichte der perser und Araber zur Zeit der Sassaniden trans. from the Annals of Tabari, Leyden, 1879.

SMITH-W.R. Kinship and Marriage in Early Arabia 2nb ed. London. 1903.

ARNOLD T.W. The Caliphate. Oxford, 1924.

GIBB-H-A.R. Arabic Literature : An Introduction. London. 1926.

NICHOLSON. R. A, A Literary History of the Arads. 2nd ed, 1930.

BROWNE. E. G. A Literary History of Persia. 4 vols. Lonbon. 1908-1924.

ARNOLD, T. W. The preaching of Islam. 2nd ed. London 1913.

HUART C., Histoire des Arabes. 2 vols. Parsis 1912.

LANE-POOLE, STANLEY. The Muhammadan Dynasties 2nd ed 1925.

LANE. E, W. Arabian Society in the Middle Ages. London. 1883.

LE STRANGE. C., Baghdad during the Abbasid Caliphate. Cambridge. 1905.

— Palestine under the Moslems, London, 1890.

MARGOLIOUTH D. S. Umayyads & Abbasids, being a trans. of part IV of Zaydan's History of Islamic Civilization, Cibb Memorial Series, vol, IV.

BUKHSH, S. KHUDA. Contributions to the History of Islamic Civilizations, translated from A. von Kremer's Culturgeschichtliche Streifzuge auf dem Gebiete des Islams, Calcutta, 1905 and 1929.

HOWARTH, History of the Mongols, particularly vols, III and IV, London, 1888 and 1927.

SYKES, GENERAL SIR PERVY, History of Persia, 2 vols, London, 1915.

GUYARD, M. STANISLAS. Un Grand Maitre des Assassina au temps de Saladin, in the Journal Asiatique. Paris, 1877.

GILMAN, The Saracens, in the «Story of the Nations» series, New York, 1896.

FINLAY, GEORGE, History of the Byzantine Empire, «Everyman's Library», ed. 1913.

LANE, E. W. Manners and Customs of the Modern Egyptians, ed «Everyman's Library».

LAMMENS, H. Fatima et les fillesde Mahomet, Rome, 1912.

PALMER, E H., Haroun al-Raschid. Caliph of Baghdad London. 1881.

BLOCHET. E., La Conquete des Etats Nestoriens de l'Asie centrale par les Schi'ites et les Influences Chretienne et Bouddhique dans la dogme Islamique. Paris. 1926.

(c) TRADITIONS, BELIEFS AND LEGAL SYSTEMS

BAILLIE. A Digest of Muhammadan Law. 2 vols, London. 1869. particularly the second volume. «Imameea».

GARCIN DE TASSY. L'Islamisme, Paris, 1874.

BROWNE. E. G., A Traveller's Narrative written to illustrate The Episode of the Bab, Camdndge, 1891.

— Materials for the Study of the Babi Religion London·
1918.
CANON SELL, Faith of Islam, 2nd ed., London 1896.
BLOCHET, E., Le Messianisme dans l'Heterodoxie Musulman, Paris, 1903.
DE BOER. T. J., The History of philosophy in Islam, trans by E.R. Jones, London 1903.
GOLDZIHER, I. Des prinzip der Takiya im Islam. ZDMG. lx. 1906.
NICOLAS. A. L. M. Essai sur le Cheikhisme. Paris, 1910.
MACDONALD. D. B. The Religious Attitude and Life in Islam. Chicago. 1909.
— Development of Muslim Theology. Jurisprudence, and Constitutional Theory, New York. edition. 1926.
NICHOLSON. R. A., The Mystics of Islam. London. 1914.
— Studies in Islamic Mysticis. Cambridge. 1921.
HURGRONJE. C. SNOUCK. Muhammedanism. American lectures. 1916.
GOLDZIHER I. Vorlesungen uber den Islam. 2nd ed. 1925. and French trans.. Le dogme et la loi de l'Islam. by F. Arin. 1920.
CANON SELL. Ithna Ashariyya, or the Twelve Shi'ah Imams. Madras. 1923.
GOLDSACK. WILLIAM. Selections from Muhammedan Traditions; translated from the Arabic, Madras, 1923.
GUILLAUME. W., The Traditions of Islam Oxford, 1924.
WENSINCK, A. J., A Handbook of Early Muhammadan Tradition, Leyden, 1927.
LAMMENS, H.. L'Islam. croyances et institutions, 1926; English translation by E. Denison Ross. London. 1929.

(d) GEOGRAPHERS AND TRAVELLERS.

HERZFELD. E., Samarra Aufnahmen und Untersuchungen zur Islamischen Archaeologie. Berlin. 1907.

NOLDEKE. A.. Das Heiligtum al-Husains zu Kerbala. Berlin. 1909.

DOUGHTY.C.M.Travels in Arabia,Deserta 2 vols.Cambridge 1888. new ed.. 1921.

FRASER, JAMES B., Journey into Khorasan, London 1825.

SYKES, GENERAL SIR PERCY, The Glory of the Shi'ah World, London, 1910.

LE STRANGE G., The Lands of the Eastern Caliphate, Cambridge, 1905.

BURTON, SIR R. F., Personal Narrative of a Pilgrimage to al-Medinah and Meccah, 2 vols., London, Memoria ed.. 1893.

RUTTER ELDON, The Holy Cities of Arabia, London, 1928.

LE STRANGE. G., Don Juan of persia. a Shi'ah Catholic. London, 1926.

IBN BATTUTA, Travels in Asia and Africa. 1325-1354 translated and selected by H.A.R. Gibb. London. 1929

CLAVIJO, Embassy to Tamerlane, 1403-1406, translated from the Spanish by Le Strange, London. 1928.

HAKLUYT, The Principal Voyages of the English Nation, edition « Everyman's Library ».

MARCO POLO, Travels, ed. «'Everyman's Library» 1921.

CHARDIN, SIR JOHN, Travels in Persia, Argonaut Press, 1927.

(e) WORKS OF GENERAL REFERENCE.

HUGES, T. B., A Dictionary of Islam. London. 1885.

BROCKELMANN, CARL, Geschichte der Arabischen Littaratur, 2 vols., Weimar, 1898-1902.

HUART. CLEMENT, Litterature Arabe, 4th ed., Paris, 1923; and English trans., A History of Arabic Literature, London, 1903.

PHANMULLER, Handbuch de Islam Literatur. Leipzig, 1923.

LANE. E. W., Arabic-English Lexicon, London, 1863-93.

WORTABET and PORTER Arabic-English Dictionary, 3r ed., Beyrout, 1913.

ZWEMER, SAMUEL M. editor. The Moslem World. New York, 1911.

MASSIGHON, Annuaire du monde Musulman, Paris, 1923.

The Encyclopaedia Britannica, Cambridge. 11th ed., with supplementary. Volumes XXX—XXXII. 1922.

The Encyclopaedia of Religion and Ethics, edited by J. Hastings. Edinburgh. 1908-1921. especially useful with Index volume. 1926.

The Encyclopaedia of Islam, Leyden. 1913.

(f) COMPARATIVE RELIGION.

VON KREMER, A., Geschichte der herrschenden Ideen des Islams, Leipzig, 1868.

GOLDZIHER, I., Beitrage sur literatur geschichte der Shi'a und der sunnitichen Polemik, Academie der Wissenschaften, 1874.

FRIEDLANDER, Abdullah b. Saba, Der Begrunder der Shi'a und sein judischer Ursprung, Leipzig, 1909.

MUIR. SIR WILLIAM, The Apology of Al-Kindy, written at the court of al-Mamun, London, 1882.

NOLDEKE, Zur Ausbreitung der Schiitismus, in «Der, Islam» 1923.

SHAIKH MUHAMMAD IQBAL, The Development of Metaphysics in Persia, London, 1908.

ALI TABARI. The Book of Religion and Empire, trans, by A. Minga nafrom MS.631 in the John Rylands Library, London. 1922. The defence dates from the Caliphate of al-Muttawakil, 847-861A. D.

GUILLAUME, A Debate between Christian and Moslem Doctors, J.R.A.S. Centenary Supplement, 1924.

HARIMANN, RICHARD, Die Wahhabiten, ZDNG., lxxviii, 1924.

ZWEMER. S. M., The Moslem Christ, London, 1912.

BELL, RICHARD, The Origin of Islam in its Christian Environment, London, 1926.

ALTER, S. NEALE, Studies in Bahaism, Beirut, 1923.

MILLER, Wm McE., Bahaism, its Origin History, Teachings, New York, 1931.

MOORE, GEORGE FOOTE, History of Religions, 2 vols. New York, 1926.

ANDRAE. T., Mohammed, Sein Leben u.s, Glaube, 1932.

WENSINCK, A. J., The Muslim Creed, Cambridge; 1932.

فهرس الأعلام

(ج)

(ح)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

١٢

(ه)

(و)

(ى)

فهرس القبائل

فهرس الأماكن

(ف)

(ق)

(ك)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهرس الكتب

فهرس الأيام

فهـــرس الكتاب

تم طبع الكتاب بحمد الله فى ٢٥ ذو القعدة سنة ١٣٦٥
الموافق ١٩ اكتوبر سنة ١٩٤٦

